



# حِمْيَاءُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الندوة العلمية الدولية التاسعة

٤-٦ رجب ١٤٤٠ هـ

١٢-١٤/٣/٢٠١٩ م

بحوث الندوة محكمة

(الجزء الأول)

الكتاب: حِمَايَةُ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَقْصِدٌ شَرْعِيٌّ وَضُرُورَةٌ مُجْتَمَعِيَّةٌ

الرقم الدولي للكتاب: ISBN 978-9948-35-065-1

اللغة: العربية

التصنيف العمري: E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

رقم إذن الطباعة: MF-01-1103844

تمت الطباعة في مطبعة دبي، دبي - أ.ع.م.

جميع الحقوق محفوظة

يُمنع نشر أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي وسيلة من الوسائل الورقية أو الإلكترونية إلا بإذن خطي

## قواعد النشر

- ١- ألا يكون البحث قد نُشر من قبل أو قُدِّم للنشر إلى جهة تحكيمية، أو نال به صاحبه درجة علمية، وعلى الباحث أن يقدم تعهداً خطياً بذلك.
- ٢- أن تكون الأدلة المذكورة موثقةً بالتحريج من المصادر الأصلية، ومبيناً درجة قبولها، إذا كانت من غير الصحيحين.
- ٣- أن يتسم البحث بالجدّة والأصالة والعمق والسلامة اللغوية والالتزام بالشروط الأكاديمية المتبعة في الأبحاث العلمية، مع تجنب الاستطراد والخروج عن الموضوع.
- ٤- عدم استعمال مصطلحات غير عربية إلا في حدود الضرورة مع توضيحها في الحاشية عند أول ذِكْر لها.
- ٥- عدم التكلف في الاستدلال بالنص على ما هو بعيد الصلة به وتوضيح وجه الدلالة منه.
- ٦- أن تُثبَّت قائمة المصادر والمراجع مستوفاةً في آخر البحث مرتبةً على حروف المعجم.
- ٧- أن يُقدِّم اسم الكتاب على اسم مؤلفه عند توثيق النصوص في الحواشي، وكذلك في ثبت المصادر والمراجع.
- ٨- ألا يشار في الحواشي إلى المعلومات المتعلقة بطبعة الكتاب المحال إليه إلا في حال اعتماد الباحث أكثر من طبعة للكتاب الواحد.
- ٩- ذكْر خلاصة نتائج البحث وتوصياته.
- ١٠- أن يكون حجم الخط في كتابة البحث (١٦)، وأما الحواشي فتكون بحجم (١٤). على نظام ويندوز بخط (Traditional Arabic)، مع ترك مسافة ٢,٥ سم في جوانب الصفحة الأربعة، وأن يتراوح البحث ما بين (٣٠) إلى (٤٠) صفحة.
- ١١- أن يرفق الباحث مع بحثه سيرةً ذاتيةً له، وصورةً حديثة، وتُرسل بالبريد الإلكتروني.
- ١٢- أن يلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي تطلبها لجنة التحكيم على بحثه وإرسالها في الموعد المحدد.







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيسر الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف أن تتحف القراء بكتاب أعمال الندوة العلمية الدولية التاسعة، التي انعقدت في قاعة المؤتمرات بفندق جود بلاس في الفترة ما بين ١٢ - ١٤/٠٣/٢٠١٩م، بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية : مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، والكتاب يشتمل على ٣٤ بحثاً علمياً منتخباً من مجموع ٢١٨ بحثاً، بحسب المعايير العلمية الأكاديمية. ومما يزيد الأمانة العامة غبطة وسروراً بأن تكون أعمال هذه الندوة باكورة إصدارات جامعة الوصل، بعد تحولها من كلية الدراسات الإسلامية والعربية إلى جامعة تطاول الصروح الجامعية بدولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك فضل من الله تعالى، يؤتبه من يشاء.

لقد اجتهد الباحثون - على تفاوت تخصصاتهم، وإمكاناتهم البحثية - في استجلاء صورة وضيفة عن عناية السنة النبوية بحماية الوطن، وترسيخ دعائم استقراره، ومن أبرز المحاور الموضوعية لهذه العناية: أسس حماية الوطن، ومقوماتها، ومجالاتها، ومبادئها، ومقاصدها، فضلاً عما عانيت به الجهود البحثية من تأصيل لسبل درء الأخطار المحدقة بالأمن الداخلي والخارجي، ما أسفر - في نهاية المطاف - عن حقيقة لا تخالجها شائبة من الشك، وهي: أن حماية الوطن وحفظ أمنه من المقاصد العظمى في الإسلام.

وإذا أمعنا النظر في قول الله تعالى: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (١٩١) (البقرة: ١٩١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣٣) (المائدة: ٣٣ - ٣٤) من قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣٤) (المائدة: ٣٣ - ٣٤)

وقوله ﷺ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ<sup>(١)</sup>، ألفينا في هذه النصوص حيوطاً دقيقة تَلَحُّمٌ وَتَسْدِيدٌ مَقْصِدِيَّةٌ حماية الوطن، وتعزيز وسائل حفظ أمنه العام وجوداً وهدماً.

وإن كانت الفتنة في الآية قد فسرنا بعضهم بالشرك، لكن سياقها أرحب من ذلك؛ إذ تجرّ ذيلها على معاني إلقاء الخوف واحتلال نظام العيش كما حدث في مكة قبل نزول سورة التوبة، وصار بلاء الفتنة أشد من ألم القتل، وكيف لا وفي افتتاح الناس تصدّع أمنهم وذهاب طمأنينتهم.. ولذلك نجد النبي ﷺ، في موافقه وإدارته للأزمات، يكافح بحزم ورؤية مستقبلية ما يمكن أن يُشكّل تهديداً لأمن الوطن، ويشدد العقاب على أولئك الأعراب الذين عبثوا بثروة الدولة، وأمن مجتمعتها، ولم يكن ذلك في حدود القصاص فقط.

وفي الختام، لا يسعني إلا أن أرفّ آيات الشكر والتقدير والعرفان إلى السيد/ جمعة الماجد رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل ومؤسسها، لعنايته الخاصة بالأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، ومتابعته لها عن كثب، وإلى الأستاذ الدكتور / محمد عبد الرحمن مدير الجامعة الذي شاركنا في كل خطوة؛ توجيهاً وتشجيعاً وهدماً.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى الشركات والمؤسسات والشخصيات التي أسدت إلينا دعماً معنوياً ومادياً برعايتها الذهبية أو الفضية أو البرونزية، وكذا المساهمين جميعاً في إنجاح أغراض هذه الندوة، واللجان الفرعية التي اضطلعت بمهامها على الوجه الأمثل، وأخص بالذكر لجنة التدقيق اللغوي لمحتوى هذا الكتاب .

والأمانة العامة إذ تُقدِّم على إذاعة أعمال الندوة التاسعة، وتذليلها لجمهور الباحثين، فإنها حريصة على أن تكون الندوات اللاحقة وأعمالها العلمية في مستوى علمي أنصح، وجهدها موصول في تبييد شكوك المتطاولين على السنة النبوية، والذود عن حياض أئمتها وتراثهم الثرّ في مجال النقد والتفقه واستشفاف مقاصد الهدى الراشد.

والله ولي التوفيق.

الأمين العام لندوة الحديث الشريف

أ.د./ حمزة عبد الله المليباري

١- رواه البخاري في الجهاد والسير باب لا يعذب بعذاب الله ٦١/٤

## كلمة السيد جمعة الماجد

### رئيس مجلس أمناء جامعة الوصل

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ، وَعَلَى آلِهِ  
وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أصحاب المعالي والفضيلة والسعادة، ضيوف الندوة الأكارم،

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. وبعْدُ:

يَسْرِينِي أَنْ أُرْحَبَ بِكُمْ فِي مُنَاسَبَةِ افْتِتَاحِ أَعْمَالِ النَّدْوَةِ الْعِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ التَّاسِعَةِ حَوْلَ  
حِمَايَةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِكُمْ.

كَمَا يَسْرِينِي أَنْ أُعَبِّرَ لَكُمْ عَنْ سَعَادَتِي بِأَنَّ كُتَيْبَةَ الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ تَبْدُلُ  
جَهْدَهَا لِيَسْتَمِرَّ هَذَا الْحَدُثُ الْعِلْمِيُّ الدَّوْلِيُّ مُنْذُ الْعَامِ ٢٠٠٣، خِدْمَةً لِلدِّينِ وَالْوَطَنِ  
وَالْمُحْتَمَعِ.

أَيُّهَا الْحُضُورُ الْكِرَامُ! إِنَّ بِنَاءَ الْوَطَنِ وَحِمَايَةَ أَمْنِهِ مَسْئُولِيَّةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَأَنَّ  
الْمُؤَسَّسَاتِ التَّعْلِيمِيَّةَ الَّتِي يَتَخَرَّجُ فِيهَا الْأَجْيَالُ تَكُونُ مَسْئُولِيَّتُهَا حَوْلَ الْوَطَنِ أَعْظَمَ.  
لِأَنَّهَا تُزَوِّدُهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ مَا يَتَأَهَّلُونَ بِهِ لِإِنْبَاءِ الْوَطَنِ وَحِمَايَةِ أَمْنِهِ، وَخِدْمَةِ مُجْتَمَعِهِ.

وَأَمَلِي أَنْ تَكُونَ الْجَلْسَاتُ الْعِلْمِيَّةُ، وَالْأَبْحَاثُ الَّتِي تُقَدَّمُ فِيهَا مُثْمِرَةً، وَمُحَقَّقَةً  
لِلْأَهْدَافِ الْمَرْجُوءَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْمُنَاسِبَةِ لَا يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أَشْكُرَ صَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ خَلِيفَةَ بَنِّ زَايِدِ  
آلِ نُهْيَانَ رَئِيسَ الدَّوْلَةِ حَفِظَهُ اللهُ، وَصَاحِبَ السُّمُوِّ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ رَاشِدِ آلِ مَكْتُومِ  
نَائِبِ رَئِيسِ الدَّوْلَةِ رَئِيسَ مَجْلِسِ الوُزَرَآءِ حَاكِمَ دُبَيْيْ، لِمَا يُقَدِّمَانِهِ مِنْ دَعْمٍ كَبِيرٍ لِهَذِهِ  
المُؤَسَّسَةِ العِلْمِيَّةِ الخَيْرِيَّةِ، لِتُسَهِّمَ فِي مَجَالِ البِنَاءِ العَرَبِيِّ وَالثَّقَافِيِّ، وَمَجَالِ التَّأهِيلِ لِسُوقِ  
العَمَلِ.

وَشُكْرِي مَوْصُولٌ إِلَى جَمِيعِ الحُضُورِ، وَأَخْصُ الضُّيُوفَ وَالبَاحِثِينَ، وَإِلَى كُلِّ مَنْ  
أَسَّهَمَ فِي إِنْجَاحِ هَذِهِ التَّدْوَةِ؛ بِتَقْدِيمِ رِعَايَةِ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ.  
وَيُسْرِّبُنِي أَنْ أُعْلِنَ عَن بَدْءِ أَعْمَالِ هَذِهِ التَّدْوَةِ العِلْمِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ التَّاسِعَةِ، وَعَلَى بَرَكَاتِهِ  
اللهِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

## وطنٌ يُفدى

د. عارف الشيخ

وطنُ الشُّموخ من الأديم إلى السَّما  
حُ لمعتدٍ أو غاصبٍ خان الذِّما  
كالتَّوأمين توافقًا وتلازُما

شدَّ الرِّحيلَ لـ"يشربٍ" مُتألِّما  
ذرف الدَّموع، وقال حين تكلمَّا  
إيَّاكَ لولا قد رأيتُ تَجَهَّما  
وأنا الجديرُ بأن أعزَّ وأكرما  
وبعثتُ للخلق الكريم مُتمِّما

آذيتُمُ من عاش فيكم بلسما  
لم أنس دارا قد دعوها "أرقما"  
مات، وكنْتُ بحُبِّ برِّ مُغرما  
إني لقد عشتُ الحياة تيتُّما  
أنا من قريش كم جرعتُ العلقما  
شُعلاً لأنني قد بُعثتُ مُعلِّما

وطنٌ يُفدى بالنفائس والدِّما  
إني أنا الحرُّ الذي لا أستريدُ  
أنا منك جزءٌ لم يُجزأ ساعة

عزَّ الفراق وقد رأيتُ "محمّدا"  
إذ طاف بالبيت العتيق مُودِّعا  
والله مكّة لم أكن بمُفارق  
قومي هُمُ قد أخرجوني مُكرها  
الله أرسلني إليهم رحمة

تبَّ لكم تبَّ لكم تبَّ لكم  
لم أنس غارَ حراءَ لو غادرتكم  
لم أنس صحراءَ رعيتُ بها غُني  
في "بكرة" بكت رقابَ جابر  
ولدى انطلاقةِ دعوتي ورسالتي  
لكن صدعتُ بأمر ربي حاملاً

وطني فديتك في رحابك أنحني  
إنَّ المحبَّ ينال من محبوبه  
أنا قد هويتك منذ فجر طفولة  
ولكم تنشقتُ العبيرَ صيحةً  
واليوم إن أخرج فيني قد حمدتُ

لك ما حييتُ وسوف أحتمل الظما  
كُرْها و يحسب كلُّ كره مرهما  
ولقد هويتك طائعا لا مرغما  
ولدى مساءاتِ حضنتُ الأنجما  
تُ هواك في قلبي أشدَّ وأعظما

وطني جنان الخلد لو شبّهته  
لي ذكريات في رُبّاك وإنني  
وطن الأمان هواك يشفي علتي  
ولذا ببسم الله تُربة أرضنا  
ودعا مسافرنا بتربة أرضه  
هي هذه الأوطان سرُّ خليقة  
فإذا أردتَ بأن تعاقب آمنا

بالأمّ لم أك في الهوى مُتوهما  
منك ارتويتُ وقائمي فيك نما  
و ثراك شافٍ للمفارق للحمي  
ذهب الرسول بأمس عالج أسقما  
يغدو فهذا التُربُ تذكيرٌ بما  
تربُّ يخالط لحمَ جسم والدما  
في أرضه؛ أخرجّه منها مرغما

حبي لأوطاني إذن حبُّ الطيو  
حبي لأوطاني الحبيبة نعمة  
هو موطني سأذود عنه بمذوي  
أحمي كرامته فأعلي راية ال  
وللاقتصاد وللثقافة والبنا

ر لوكرها تغدو وترجع حوما  
هيا إذن نشكرُ عليها المنعما  
وعلى الزناد يدي أرد الغاشما  
إيمان والأخلاق فيه مُقدما  
ء أقيم فيه بكل صوب معلما

أدعو إلى توحيد كلِّ شتاته  
بأخوة أزهو فنحن جميعنا  
وأقول لا للشائعات ولا لعن

وأقيم مُجتمعاً بعدلٍ أحكما  
جسدٌ إذا عضوٌ أصيب تألماً  
ف لا لمن هو يستبيح محرماً

وطنُ المحبّة والسلام مُجنّدٌ  
لا للخيانة لا لكلِّ وشاية  
هي هذه الأخلاقُ سنّةُ أحمد  
هي هذه الأخلاقُ إن لم أرعها

أنا للدفاع عن الكرامة والحِمى  
متفائلٌ أنا لا أحبّ تشاؤماً  
إحيائها فرضٌ على مَنْ أسلما  
فأنا المواطنُ صرتُ خلقاً مُبهما

أنا قد مددتُ يدَ التسامح للورى  
لله أسجدُ، والولاءُ لحاكمي  
وطنيتي هي نخوة وعقيدة  
أنا إلفُ كلِّ تعايش يدعُو به الـ

فمن اغتدى بالعنصرية أجرماً  
ولموطني ما عشتُ كلَّ المنتمى  
سمحاءٌ إن وضعُ هناك تأزماً  
قانون لا إرجافٌ فيّ تحكماً

يا " نَدوة علمية دَولية "  
أحسنّت بل قد أحسنّت "كلية"  
شُكراً لكم شُكراً لِرَاعٍ قد رعى  
دامت " إماراتٌ " ودام "شيوخنا"

بـ"دبيّ" تُعقدُ تستفزّ العالماً  
إذ أحرزتُ فيما استجدّ تقدماً  
شكراً لـ"جمعة" كم بنى كم علماً  
دامت " دبيّ " وعاش "جمعة" سالماً



الوطن في عصر العولمة  
من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية وال عمران  
قراءة في ضوء الحديث النبوي

الأستاذ الدكتور / إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري  
نائب مدير جامعة أم درمان الإسلامية  
الأمين العام لهيئة علماء السودان





## المقدمة

يمثل الوطن في العرف الإنساني والتأسيس العمراني والنشاط الحضاري قاعدة الانطلاق ومرتكز الفعل ومركز السعي، والانتماء إلى الأوطان والتعلق بما أمر فطري تجده عند الإنسان مهما اختلفت ميوله ونزعاته وأفكاره فهو مشدود إلى وطنه ينعم بظلاله ويحن إليه إذا فارقه، بل نجد ذلك عند الحيوان أيضاً، فتراه يرتبط بالمكان الذي يألفه ويكاد لا يفارقه، وهو ما أكدته سنة الرسول ﷺ وتجلى في الأحاديث النبوية الشريفة التي حفلت بالتعريف بقيمة الوطن وحبه والزود عنه.

والانتماء إلى الوطن يعبر عن نفسه في الحب والإجلال الذي يظهر في إرادة الحماية والحفظ والرعاية، ويتداخل في ذلك الذهني بالنفسي والموضوعي بالعاطفي، ويصبح الدفاع عن الأوطان وتقديم الغالي والنفيس من أجلها ومن أجل حمايتها ورعايتها، من دلائل الأخلاق السامية والمشاعر الصادقة والقيم الفاضلة؛ فالوطن الآمن هو الذي يحفظ للإنسان أمنه وسلامته واستقراره، هو البقعة التي تمكن الإنسان من إحسان العبادة لله في أبعادها الخاصة والعامة، والتعبير عن معاني الدين وقيمه في شمولها وإحاطتها؛ فالوطن المستقر هو قاعدة إلى الانطلاق والبناء والعمران الحضاري والنهوض والتقدم الإنساني، ومع ذلك فإن حركة الإنسان ومسيرته والتطور الذي يحيط بها، والمتغيرات التي تؤثر في تلك المسيرة ربما ألقى ببعض الظلال السلبية وأبرزت بعض الأسئلة حول الوطن والوطنية وقيم الحماية والحفظ والرعاية ومهدداتها، وربما أثرت في تصور الوطن وماهيته، والواجب تجاهه لا سيما في عصر الفتن والتباس الحقائق واضطراب القيم، وربما تأكد ذلك في هذا العصر، هو عصر العولمة التي من معانيها تقارب الأمكنة وضعف الحدود الجغرافية أو ذوبانها، وسهولة الانتقال، وربما ألقى ذلك بآثاره على تعريف الوطن وحفظ حقوقه. والبحث لا يغفل ما يرد من دراسات تتحدث الآن عن قضية ما بعد العولمة ويقدم معالجة موضوعية موصولة بالهدى النبوي في السنة المطهرة.

يأتي هذا البحث لتناول حماية الوطن في عصر العولمة قراءة تستصحب جدلية الانتماء

ومقتضيات العمران، فإن ضعف الانتماء والتباس العمل من أجل الوطن يؤثر في قيم العمران ومقتضياته، وتبدو هذه الجدلية واضحةً جلية ما يقتضي النظر فيها ومقارنتها في ضوء السنة النبوية.

**أهداف البحث:** يهدف البحث إلى التعريف بالوطن وقيم حفظه وحمايته في السنة الشريفة. وإبراز مطلوبات الانتماء للوطن ودعائم ذلك ومرتكزاته من خلال الحديث النبوي. والنظر في قضايا العولمة وتأثيرها في قيم الانتماء وواجبات الحفظ والحماية، ووصل ذلك بالسنة المطهرة.

**أهمية البحث:** تبرز أهمية البحث من خلال: توضيح أسس البناء والعمران الوطني في السنة الشريفة. والتحديات التي تواجه الوطن وسلامته في عصر العولمة. وبيان مرتكزات العمران الوطني في عصر العولمة مقارنة في ضوء السنة النبوية.

**مشكلة البحث:** يمكن تحديد مشكلة البحث من خلال الأسئلة الآتية: ما هي قيم التأسيس والحماية للوطن في السنة النبوية؟ وهل تؤثر العولمة في قوة الانتماء الوطني وفعالية ذلك؟ وما هي آثار العولمة بتجلياتها المعاصرة؟ وما هي ملامح جدلية الانتماء ومطلوبات العمران في ضوء السنة الشريفة؟

**المنهج المتبع:** اتبع البحث المنهج التحليلي من خلال التعريف بالوطن، ومرتكزات البناء والحماية، وتتبع التحديات التي أبرزتها العولمة ورصدها، وبيان أثرها في تعزيز مطلوبات الانتماء والعمران.

**الدراسات السابقة:** هناك مجموعة من الدراسات تناولت العولمة معرفة بتجلياتها وآثارها على الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية وسيادة الدول ومن تلك الدراسات على سبيل المثال؛ الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي للدكتور عبد العزيز عثمان التويجري، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وبحث آخر بعنوان نحو فهم للعولمة الثقافية تأليف بول هوبر ترجمة طلعت الشائب المركز القومي للترجمة.

ولقد طرقت هذه البحوث بعض القضايا التي أشارت إليها بصورة عامة غير أن هذا البحث حاول معالجة القضية من خلال جدلية الانتماء ومقتضيات الحماية والعمران بالتصويب المعمق حول هذه القضية وبيان كيف تتحقق قيم الانتماء للوطن، وكيف يعيش الإنسان في عالم دائم

الحركة مأخوذ بجمعية التطور وسننه التي تتجلى في هذا العصر فيما عُرف بالعولمة، كيف يستطيع أن يزاوج بين الانتماء الوطني والمشاركة الحضارية بوعي وفهم وإدراك في ضوء السنة النبوية المطهرة.

## المبحث الأول: تعريف الوطن وعصر العولمة

**مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح:** جاء في القاموس: "الوطن منزل الإقامة (كالمواطن) جمعه أوطان ووطن وأوطن أقام وأوطنه وإيطاناً ووطنه توطيئاً، واستوطنه إذا اتخذ وطناً أي محلاً وسكناً يقيم فيه"<sup>(١)</sup>. وفي المعجم الوسيط، الوطن: "مكان إقامة الإنسان ومقره، ولد به أولم يولد، واطن القوم عاش معهم في وطن واحد، والوطنية مصدر صناعي منسوب إلى الوطن يضاف إليه"<sup>(٢)</sup>. وجاء في أساس البلاغة عن الانتماء للوطن: "وطن كل يحب وطنه وأوطان ومواطن ومواطنة، والإبل تحن إلى أوطانها وفي المجاز استعمالها في مراض الغنم ومشاهد القتال"<sup>(٣)</sup>. وجاء في لسان العرب:

أوطنت أرضاً لم يكن في وطني      لو لم تكن عاملها لم أسكن<sup>(٤)</sup>

ويلاحظ مما سبق أن كلمة الوطن تدل على معانٍ متقاربة هي:

- أ. إقامة الشخص في مكان سواء أكانت الإقامة دائمة أو مؤقتة.
  - ب. الانتماء العاطفي وهو حب المكان الذي يقيم فيه الإنسان وهو ما وجدناه عند الزمخشري.
  - ج. التوافق والتعايش مع أهل المكان أو المقيمين فيه.
- من الألفاظ ذات الصلة وهي ذات دلالة سياسية لا سيما في هذا العصر لفظة (مواطنة).

**تعريف المواطنة:** هي التزامات متبادلة بين الأشخاص والدولة، فالشخص يحصل على

١- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، فصل الواو، ج ١، ص ١٢٣٨.

٢- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، باب الواو، ج ٢، ص ١٠٤٢.

٣- الزمخشري، أساس البلاغة، ج ١، ص ٦٦٤.

٤- ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣، ص ٤٥١.

حقوقه المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نتيجة انتمائه إلى تجمع معين، وعليه في الوقت ذاته واجبات يتحتم عليه أداؤها<sup>(١)</sup>، وهناك من ذهب إلى أن المواطنة ترجمة للكلمة الإنجليزية (Citizenship) وعرّفتها دائرة المعارف البريطانية بأنها علاقات بين فرد ودولة يحددها قانون تلك الدولة بما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق في تلك الدولة، ويقارب مفهوم المواطنة مفهوم الجنسية، والجنسية هي رابطة سياسية وقانونية بين أشخاص ودولة معينة تجعله عضواً فيها وتعيد انتماءه إليها وتجعله في حالة تبعية سياسية لها<sup>(٢)</sup>.

**لفظة الوطن في القرآن الكريم:** وردت مادة وطن في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِبِينَ ﴾ (٣٥)

جاء في التفسير: (المواطن جمع موطن، ومواطن الحرب مقاماتها، والمواطن التي نصر الله المسلمين فيها هي يوم بدر، وما بعده من المواطن التي نصر الله المسلمين على الكفار فيها قبل يوم حنين)<sup>(٤)</sup>، غير أننا نجد الكلمة التي تدل على الوطن كلمة دار وديار، وقد وردت في مواضع كثيرة في القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ (٥)، وقوله تعالى: ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ (٦) وقال عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩) ويعلی القرآن الكريم من قيمة الدار أو الوطن، ويجعله من أهم ما ينتمي إليه الشخص ويحبه ويحافظ عليه،

١- ينظر: مشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، ص ١٠.

٢- ينظر: سعيد عبد الحافظ، المواطنة حقوق وواجبات، ص ١٠.

٣- سورة التوبة الآية ٢٥.

٤- السيواسي، فتح القدير، ج ٣، ص ٢٣٦.

٥- سورة البقرة الآية ٢٤٣.

٦- سورة البقرة الآية ٢٤٦.

٧- سورة الحشر الآية ٩.

وإذا فقد الإنسان وطنه فقد أهم ما يملك وأهم مناسج هويته.

**ورود لفظة الوطن في السنة النبوية:** ورد لفظ الوطن في السنة النبوية في عدد من الأحاديث؛ ومن ذلك: عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْجُو اللَّهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو وَأَمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ" (١). وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا □ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَقِفُ الْمَوْقِفَ أُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ، وَأُرِيدُ أَنْ يُرَى مَوْطِنِي، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، حَتَّى نَزَلَتْ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (١١٠) (٢)، وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَيْبَةَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَنْهَى عَنْ ثَلَاثِ حِصَالٍ فِي الصَّلَاةِ: عَنْ نَقْرَةِ الْعُرَابِ، وَعَنْ افْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوْطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرَ" (٣). أَي يَلْزِمُ الْمَكَانَ، وَيَأْتِي أَيْضًا الْوَطْنَ فِي السَّنَةِ بِمَعْنَى الدِّيَارِ. وَعَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: خَيْرُ دُورِ الْأَنْصَارِ بَنُو النَّجَّارِ، ثُمَّ بَنُو عَبْدِ الْأَشْهَلِ، ثُمَّ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ خَزْرَجٍ، ثُمَّ بَنُو سَاعِدَةَ، وَفِي كُلِّ دُورِ الْأَنْصَارِ خَيْرٌ فَقَالَ سَعْدٌ: مَا أَرَى النَّبِيَّ ﷺ إِلَّا قَدْ فَضَّلَ عَلَيْنَا؟ فَقِيلَ: قَدْ فَضَّلَكُمْ عَلَى كَثِيرٍ" (٤). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَيْسَ مِمَّا عُصِيَ اللَّهُ بِهِ هُوَ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَطِيعَ اللَّهُ فِيهِ أَسْرَعَ ثَوَابًا مِنَ الصَّلَةِ وَالْيَمِينِ الْفَاجِرَةِ

١- الترمذي، السنن، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب (١١)، حديث رقم: ٩٩٩، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ"، وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، بَابُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ بَابُ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، حديث رقم: ٤٢٦١.

٢- الحاكم، المستدرک على الصحيحين، كتاب الجهاد، سبب نزول آية فمن كان يرجو لقاء ربه، حديث رقم: ٢٥٤٢، وقال الحاكم: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ"، والبيهقي، شعب الإيمان، ج ٥، ص ٣٤١.

٣- أحمد، المسند، حديث رقم: ١٥٥٣٢، وحسنه شعيب، ابن حبان، الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره، ذِكْرُ الْإِبَاحَةِ لِلْمُصَلِّي تَبْرِيدَ الْحَصَى بِيَدِهِ لِلسُّجُودِ عَلَيْهِ عِنْدَ شِدَّةِ الْحَرِّ، باب الحدث في الصلاة، حديث رقم: ٢٣١٨.

٤- البخاري، الصحيح، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ فَضْلِ دُورِ الْأَنْصَارِ، حديث رقم: ٢٥٧٨، ومسلم، الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، بَابُ: فِي خَيْرِ دُورِ الْأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حديث رقم: ٢٥١١.

تَدْعُ الدِّيَارَ بِلَاغٍ"<sup>(١)</sup>. و عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: "الرَّحِمُ وَحُسْنُ الْخَلْقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ"<sup>(٢)</sup>. وهكذا نجد التقارب في المعنى بين الوطن والديار وذلك في الدلالة على مستقر الإنسان ومكان وجوده وقد اهتمت السنة النبوية بالوطن وأعلت من قيمته فهو مأوى الإنسان وم منزل الرحمات ودائرة العمران.

### مفهوم العولمة وتعريفها:

أ) المفهوم اللغوي للعولمة: لفظ عولمة من الألفاظ الناشئة حديثاً وقد وَجَدَتْ مكانها في القاموس السياسي والاقتصادي وكثير تداولها بين المفكرين والباحثين في الكثير من ضروب المعرفة ومع هذا الاستعمال الواسع فإن الكلمة مازالت بحاجة إلى مجهودات متواصلة لإحسان ضبطها وهذا إن أثبت أهمية ذلك لا سيما في الدراسات الأكاديمية فإنه يشير من ناحية أخرى إلى أن الكلمة مازالت تؤشر إلى ظاهرة لم يكتمل بناؤها وتشكلها حتى الآن، وهذا يُعد مدخلاً للتعريف بمفهوم العولمة.

كلمة عولمة من حيث اللغة مصدر على وزن (فوعلة)<sup>(٣)</sup> نسبة إلى كلمة العالم، وهي محاولة لترجمة الكلمة الإنجليزية (Globization) لذلك يذهب البعض إلى أن الترجمة السليمة هي الكوكبة، ويقصد بذلك إزالة الحواجز والمسافات والسدود بين القارات والشعوب والأمم بحيث يصبح العالم من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه بلداً واحداً. ويجدر بنا هنا أن نشير إلى استعمال لفظة أخرى ذات دلالة أيضاً تتصل بالعالم وهي عبارة العالمية (Universalism) وكلمة العالمية لا تثير الشكوك والريبة والتحفظات التي تثيرها العولمة وذلك مردود إلى أن لفظة العالمية تأتي دائماً في سياق الرؤية الإنسانية والأفكار العامة والعلاقات البشرية في بعدها العالمي أما العولمة فهي تعبير عن واقع اقتصادي معلوماتي سياسي وتوصيف لظاهرة تنزع نحو إدراج العالم كله في نسق إمبراطوري استعماري جديد يحكمه الإنتاج والسوق المفتوح<sup>(٤)</sup>.

١- البيهقي، شعب الإيمان، حديث رقم: ٤٨٤٢، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، حديث رقم: ٧٥٨٣، وحسنه.

٢- أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ٢٥٨٩٦.

٣- محمد سيد طنطاوي، الأمة الإسلامية، ص ٥، "بتصرف".

٤- حسن الخطيب، العالمية والعولمة في منظور مقارني، ص ٩. "بتصرف".

ب) **المفهوم الاصطلاحي:** يحاول المفهوم الاصطلاحي وضع حد لتعريف المعنى وضم أطرافه بغرض تحديد مجال الدراسة وقصر تمدد المعنى وتشعبه لا سيما في الدراسات الأكاديمية غير أن مفهوم العولمة من الناحية الاصطلاحية يمكن القول بأنه مازال مفتوحًا لتكتسب معان وإضافات جديدة، العولمة ليست محض مفهوم مجرد، فهي عملية مستمرة يمكن ملاحظتها باستخدام مؤشرات كمية وكيفية في مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والاتصال، ومن التعريفات المهمة في هذا المقام: "العولمة تصف وتعرف مجموعة من العمليات التي تغطي أغلب الكوكب أو التي تشيع على مستوى العالم"<sup>(١)</sup>، وهناك تعريف آخر يصف العولمة بأنها السعي إلى تحويل العالم إلى مجال واحد من العلاقات عن طريق تحقيق سيطرات ثلاث: ١. سيطرة التقنية في حقل العلم. ٢. سيطرة الشبكة في حقل الاتصال. ٣. سيطرة الاقتصاد في التنمية، وهذا بدوره يفرز ظاهرة السوق بلا قيود والتنافس بلا شروط والريح بلا حدود في سياق عالمي لا وجود فيه لمجتمع مدني عالمي أو مؤسسات ذات سلطة<sup>(٢)</sup>. يلاحظ على معظم التعريفات التي اهتمت بإعطاء توصيف لمصطلح العولمة أنها حاولت أن تعطي ذلك التعريف نوعًا من القراءة سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم ثقافية؛ لذلك نجد التعريف في كثير من الأحيان محمل بأقدار من هذه القراءات وهي قراءات منطقية إذ لا يمكن فرض تعريف لغوي أو وضع قيد اصطلاحى على ظاهرة تشهد تغيرات متسارعة، وتحوارات متصلة وربما أشار إلى ذلك ظهور ما يعرف بما بعد العولمة، وإن كان المنحى الذي يذهب إليه البحث هو منحى توصيف الحالة في إطارها الكلي وليس المحدد الأيدلوجي.

## المبحث الثاني: الانتماء للوطن ودلالته العمرانية في ضوء السنة الشريفة

عند تناول الانتماء الوطني ودلالته العمرانية يقتضي الأمر بيان مرتكزات الانتماء للوطن وأهميته، ونجد ذلك واضحًا في القرآن الكريم يقول تعالى في كتابه العزيز مبيّنًا واجبات الإنسان الإيمانية وارتباط ذلك بموجبات الاستخلاف قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ

١- طه عبدالرحمن، روح العولمة وأخلاق المستقبل، ص٧. "بتصرف".

٢- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، ص٧ وما بعدها. "بتصرف".

لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾<sup>(١)</sup>. من خلال هذه الآيات الكريمات يتضح لنا الآتي:

- الأرض هي الوطن الأول للإنسان: الأرض هي الوطن الذي اختاره الله للإنسان، وقد زوّد الله الإنسان بالعلوم والمعارف وسخر له الكون ليقوم بإصلاحه وإعمارهِ ويتضح الأمر في بيان أهمية حضور همّ العمران فيما ورد عن أنس بن مالك قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ قَامَتْ عَلَى أَحَدِكُمُ الْقِيَامَةُ وَفِي يَدِهِ فِسِيلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا"<sup>(٢)</sup>. وفي هذا دلالة على العمل والإنتاج وإزالة التوهم أن هناك تناقض بين العبادة والعمران.

- التحذير من الفساد والاضرار بالأوطان: من أهم تحديات البناء والإعمار، الفساد وسفك الدماء، ويشير الفساد هنا إلى سوء التعامل مع البيئة، ويشير سفك الدماء إلى العدوان على الإنسان، وفي ذلك تدمير لبذور الحياة وتهديد لسلامة الأوطان، جاء في الحديث عن ابن عَبَّاسٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَلَبٌ دَمِ امْرِئٍ بَغَيْرِ حَقِّ لِبَهْرِيقِ دَمِهِ"<sup>(٣)</sup>، وهذه الصفات التي أشار إليها الرسول ﷺ من أخطر مداخل الفساد؛ فالذي لا يقدر الحرم ويعتدي فيه، والذي لا يلتزم قيم الإسلام في السلم والأمن ويتخلق بأخلاق الجاهلية، والذي يعتدي على حياة الإنسان كل يؤوب بالبغض من الله وهو جزاء عظيم يتناسب وهذا الجرم.

- العلم مؤهل الاستخلاف في الأرض: العلم المزود بالأخلاق هو العاصم من الفساد، وهو المؤهل للإصلاح والعمران في الأرض، والعلم هنا يشمل العلم بالعلاقات بين عناصر الكون من ناحية وبقدرات الإنسان وهو المهيم على هذه العناصر بحكم التسخير الذي جعله الله قانوناً للتعامل مع خيرات الكون والاستفادة منها من ناحية أخرى، وعن أبي أمامة الباهلي قال: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَضَّلْتُ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ

١- سورة البقرة الآيات: ٣٠- ٣١- ٣٢.

٢- أحمد، المسند، حديث رقم: ١٣١٠٠، البخاري، الأدب المفرد، حديث رقم: ٤٧٩.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الدييات، باب مَنْ طَلَبَ دَمَ امْرِئٍ بَغَيْرِ حَقِّ، حديث رقم: ٦٨٨٣.

وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لِيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرِ<sup>(١)</sup>. وتعليم الخير هو العلم الذي يعرف الإنسان برسالته في الحياة وواجبه في الإصلاح والإعمار، ومن هنا كان فضل العالم على العابد.

- الوحي منهج الهداية والعمران للأوطان: أنزل الله الوحي وأرسل رسله للناس بالقيم الأخلاقية، وهي قيم الإصلاح والعمران يقول تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. ونجد هذه العلاقة قوية في إعمار الكون من خلال إعمار الوطن، ورسالة الإنسان في الحياة تتضمن المزوجة بين العبادة والعمران ليصبح العمران مقصدًا من مقاصد الشريعة الإسلامية. قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾<sup>(٣)</sup>. إن هذا الارتباط القوي بين المنهج الإسلامي والوطن يوجب الدفاع عنه، وإن إقامة الدين لا تأتي إلا في واقع ووطن ومكان وجغرافيا ولذا يصبح الانتماء الوطني بعدًا من أبعاد الانتماء الإسلامي العام؛ فالوطن ضرورة لإقامة دنيا الإسلام وعمرانه وضرورة الدين ليكون الوطن إسلاميًا، تتحقق إسلامية عمرانه.

### المبحث الثالث: الوطن قيم التأسيس ومرتكزات العمران مقارنة في ضوء الحديث الشريف

أولاً: قيم التأسيس الوطني: تتضح قيم التأسيس للوطن التي نقصد بها الأصول التي تنبني عليها دعائمه وتحقق له الاستقرار ليصبح صالحًا للعيش والطمأنينة في قول إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾<sup>(٤)</sup> وهذه الآية الكريمة بينت لنا قيم التأسيس التي تتضح في الآتي:

١- الترمذي، السنن، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، حديث رقم: ٢٦٨٥. قال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".

٢- سورة البقرة الآية ٣٨.

٣- سورة هود ٦١.

٤- سورة إبراهيم الآية ٣٧.

- الالتزام العقدي وهو الذي يمثل العروة الوثقى في الاستقرار والطمأنينة ويتضح ذلك في قوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ وهذا يتضمن التسليم لله والتوكل عليه واستحضار البعد القيمي في ذلك ونجد دلالة حينما تبعت أم إسماعيل فقالت: "يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟" فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت له: "الله الذي أمرك بهذا؟" قال: نعم قالت: إذن لا يضيعنا<sup>(١)</sup>.

- التزام العبادات وهي التي تتجلى فيها معاني القيم العالية طاعة لله وتحقيقاً لمقاصد الإيمان وذلك في قوله: ﴿ لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾، إقامة الصلاة تتضمن الإشارة إلى تحقيق معنى العبودية والطاعة لرب العالمين.

- الوجود البشري المترابط وذلك في قوله ﴿ فَأَجْعَلْ أَعْدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ ويتجلى في تجمع الناس واستيطانهم وتعاونهم على الخير ما يحقق العمران والتنمية.

- الإنتاج وخيرات الأرض وذلك في قوله ﴿ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فالحياة إنما تزدهر وتنمو وتتطور بالعمل والإنتاج، وتوفير وسائل الحياة السعيدة التي أشارت إليها الآية بالثمرات.

وهذا جميعه يتضح في نسق متكامل أبرزته مقاصد الشريعة الإسلامية، ويتمثل في حفظ الدين والنفوس والعقل والمال والنسل، وهذا التأسيس العمراني يقوم على حب أصيل استغرق القلب و ملأ الجوانح وتحول إلى دافع وحافز للعمل والإنتاج، وقد عبر عن ذلك الحب الرسول ﷺ حين أخرج من مكة، عن عبد الله بن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ واقفاً على الحزورة، فقال: والله إنك لحخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أبي أخرجت منك ما خرجت<sup>(٢)</sup>. وظهر هذا الحب أيضاً حين توطن المدينة التي هاجر إليها؛ فعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: "أن إبراهيم حرم

١- البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون النسلان في المشي، حديث رقم: ٣٣٦٤،

النسائي، السنن الكبرى، كتاب المناقب، هاجر ﷺ، حديث رقم: ٨٣٢٠.

٢- الترمذي، السنن، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، حديث رقم: ٣٩٢٥، قال

الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، أحمد، المسند، رقم الحديث: ١٨٧١٥.

مَكَّةَ وَدَعَا لَهَا، وَحَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ لِمَكَّةَ<sup>(١)</sup>. وفي هذا دليل على الصلة بين حب الوطن والعمل على تنميته وحمايته.

### ثانياً: مرتكزات العمران الوطني:

أ. **العمران الاجتماعي:** نقصد به تنمية الوجود البشري في جو من الاستقرار والطمأنينة وفي هذا حفظ للحياة والحيوية بالحفاظ على المواطن؛ فعن قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ عَنِ الصُّنَابِيحِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأَمَمِ، فَلَا تَقْتُلَنَّ بَعْدِي"<sup>(٢)</sup>، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَحُلُقَهُ فَرُجُوهُ، إِلَّا تَفَعَّلُوا تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ"<sup>(٣)</sup>، وهذا يتضمن الدعوة إلى قيم تأسيس الأسرة وهي وحدة البناء الاجتماعي ويقوي الصلة بين أبناء المجتمع بتنمية أواصر الحب والإخاء من حيث الاهتمام بعامة أبناء الوطن؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْلَا أَدْلُكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٤)</sup>. والمواطن الصالح مهموم بمجتمعه؛ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُحْيِيَنَّ هَذَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ"<sup>(٥)</sup>، وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنْ

١- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، بَابُ بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُدَّهِمْ فِيهِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم: ٢١٢٩، مسلم، كتاب الحج، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا، وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، حديث رقم: ١٣٦٠.

٢- ابن حبان، الصحيح، كتاب الجنایات، بَابُ الْجَنَائَاتِ، ذَكَرَ الْعَلَّةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نُهِيَ عَنِ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ، حديث رقم: ٥٩٨٥.

٣- الترمذي، السنن، بَابُ مَا جَاءَ إِذَا جَاءَكُمْ مِنْ تَضَرُّونَ دِينَهُ فَرُجُوهُ حَدِيثِ رَقْمِ ١٠٨٤، قَالَ الْأَبَانِيُّ: "حسن".

٤- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبٌ لِحُصُولِهَا، حديث رقم: ٢٠٣.

٥- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ فَضْلِ إِزَالَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، حديث رقم: ١٩١٤.

المَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرَغَ مِنْ دَلُوكَ فِي إِئَاءِ أَحِيكَ" (١). وهذا يبين طبيعة هذه العلاقة التي تنشأ داخل الوطن تأسيسًا على قيم التكافل والتعاون والمحبة.

ب. **العمران الاقتصادي:** لقد دعت الشريعة الإسلامية إلى التنمية الاقتصادية وعالجت

مشكلاتها التي تنشأ في الغالب عن أمرين القصور في استخدام الموارد الممنوحة من الله، وسوء توزيع الناتج بين المواطنين، وقد شجعت الشريعة الإسلامية على العمل والإنتاج عن طريق

الاهتمام بالقطاعات: التجاري، والزراعي، والصناعي؛ فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "بَيْنَنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابَ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشَّرَاحِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَبَعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُجُولُ الْمَاءَ بِمَسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ.

لِلْاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَمْ تَسْأَلْنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَا إِذْ قُلْتُ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَأَكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ" (٢)، والحديث يدل على التخطيط والإنتاج وحسن التوزيع، عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ

قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: صَانِعَهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ الْحَيْرَ، وَالرَّامِيَ بِهِ، وَمُنْبَلَّهُ، وَارْتُمُوهُ وَارْتَمُوا، وَأَنْ تَرْتُمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْتَكِبُوا لَيْسَ مِنَ اللَّهِوَ إِلَّا ثَلَاثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمِيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَبْلُهُ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَمَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ: كَفَرَهَا" (٣). وفي الحديث

حثٌّ على الاهتمام بالصناعة والتدريب وتنمية القدرات وكله موصول بالعمران وعن سهل بن عبد الله: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْسَلَ إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَكَانَ لَهَا غُلَامٌ بَحَّارٌ، قَالَ لَهَا: مُرِّي عَبْدَكَ فَلْيَعْمَلْ لَنَا أَعْوَادَ الْمِنْبَرِ، فَأَمَرَتْ عَبْدَهَا، فَذَهَبَ فَقَطَعَ مِنَ الطَّرْفَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا

١- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب: كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، حديث رقم: ٦٠٢١، الترمذي، السنن، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في طَلَاقَةِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبِشْرِ، حديث رقم: ١٩٧٠ (واللفظ له).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الزهد والرفائق، باب الصَّدَقَةِ فِي الْمَسَاكِينِ، حديث رقم: ٢٩٨٤.

٣- أبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في الرَّمْيِ، حديث رقم: ٢٥١٥.

قَضَاهُ، أَرْسَلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ إِنَّهُ قَدْ قَضَاهُ، قَالَ ﷺ: أَرْسَلِي بِهِ إِلَيَّ، فَجَاؤُوا بِهِ، فَاحْتَمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَهُ حَيْثُ تَرَوْنَ<sup>(١)</sup>، والدليل قائم على الاهتمام بالصناعة لما لها من أثر إيجابي على النمو العمراني.

ت. **العمران السياسي:** وقد هدفت الشريعة الإسلامية إلى تحقيق العدل وإقامة الشورى وربط التكليف السياسية بالعدل و الأمانة؛ فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - قَالَ: "مَنْ ابْتُلِيَ بِالْقَضَاءِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلْيَعْدِلْ بَيْنَهُمْ فِي لَحْظِهِ وَإِشَارَتِهِ وَمَقْعَدِهِ"<sup>(٢)</sup>، وفي هذا بيان لقيم العدل المطلق في التعامل مع الخصوم، وفي الشورى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: "لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُمَا"<sup>(٣)</sup>. والشورى قمة التميز في النظام الإسلامي، وبيان أن الحكم أمانة لها مقتضياتها؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِزْبِي وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"<sup>(٤)</sup>، ومعلوم المكانة العالية التي نالها أبو ذر غير أن ذلك لن يشفع في أن يتولى الإمارة وفق التقدير النبوي الحكيم، وأوجب السمع والطاعة في المعروف للأمرء؛ فعَنْ ابْنِ عُمَرَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٥)</sup>، ولن ينتظم سلك المجتمع ويتحقق له الاستقرار ما لم يستوعب فقه الطاعة ويلتزمها.

- ١- البخاري، الصحيح، كتاب الهبة وفضلها، بَابُ مَنْ اسْتَوْهَبَ مِنْ أَصْحَابِهِ شَيْئًا وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ اضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا، حديث رقم: ٢٤٣٠.
- ٢- البيهقي، السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، جماع أبواب ما على القاضي في الخصوم والشهود، بَابُ إِنْصَافِ الْخَصْمَيْنِ فِي الْمَدْحِ عَلَيْهِ، وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمَا، وَالْإِنْصَافِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَتَّى تَنْفَدَ حُجَّتُهُ، وَحُسْنِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمَا، حديث رقم: ٢٠٩٦١. حديث حسن.
- ٣- مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٨٠٢٣- ج ٤ / ص ٢٢٧ قال شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف شهر بن حوشب، وحديث عبد الرحمن بن غنم عن النبي ﷺ مرسل.
- ٤- صحيح مسلم، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم ١٨٢٥، ٣ / ١٤٥٧.
- ٥- صحيح مسلم، باب وجوب طاعة الأمرء في غير معصية وتحريمها في المعصية، حديث رقم ٤٨٦٩ - ج ٦ / ص ١٥.

ث. العمران الوطني وفروض الكفايات: تمثل فروض الكفايات منهجاً عظيماً في الشريعة الإسلامية بتنمية المجتمع ورعاية حقوق الإنسان وإصلاح البيئة التي يعيش فيها، وهذا يعزز الانتماء الوطني، ونقصد بفروض الكفايات ما يقوم به الإنسان من واجب يلغي المسؤولية عن الآخرين ويسقط التبعة<sup>(١)</sup>. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: عِلْمًا نَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، تَلَحُّقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ"<sup>(٢)</sup>، وجميعها أعمال تتجلى فيها معاني الوطنية والاهتمام بتنمية الوطن وتطويره. وهذا يتضمن:

١. تعليم العلم ونشره.
٢. إحسان تربية الأبناء.
٣. الاهتمام بكلام الله نشرًا وتعليمًا.
٤. الاهتمام ببناء المساجد وإحيائها.
٥. الاهتمام بالمرافق المخصصة لأبناء السبيل.
٦. الاهتمام بالمياه وتوفير مصادرها.
٧. التصديق بالمال للفقراء والمحتاجين.

ودائرة الصدقة تمتاز بالاتساع؛ فعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ. قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْهَا؟ قَالَ: "يُعْتَمِلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ". قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ". قِيلَ: فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ". قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: "يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ"<sup>(٣)</sup>. وهكذا تمثل فروض الكفايات مدخلاً واسعاً للتنمية والعمران الوطني.

١- ينظر: أصول الفقه الإسلامي، د. أمير عبدالعزيز، ج ١، ص ٥٢ "بتصرف".

٢- ابن ماجه، السنن، أبواب السنة، بَابُ ثَوَابِ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ، حديث رقم: ٢٤٢، قال الألباني: حسن.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب الزكاة، بَابُ بَيَانِ أَنَّ اسْمَ الصَّدَقَةِ يَقَعُ عَلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنَ الْمَعْرُوفِ، حديث رقم:

## المبحث الرابع: مهددات العمران الوطني وقيم الحماية في ضوء الحديث النبوي الشريف

ربما أثر الانفتاح العولمي وشكّل مهددًا في بعض جوانبه على تماسك الأوطان وهذه القراءة تتضمن النظر في تلك المهددات وقيم الحماية ويتضح ذلك في الآتي:

**أولاً: مهددات العمران الوطني:** قد يتعرض الوطن إلى بعض المهددات التي تؤدي إلى الاضطراب والزعزعة وعدم الاستقرار، و الاهتمام بتحقيق الأمن الوطني في أبعاده كلها لا ينفصل عن الأفق الحضاري للمجتمع وهو أفق تشكله الأصول الفكرية والأخلاقية والعملية التي تركز عليها الأمة في أوطانها ومن خلالها تكتسب خصائصها وتميزها إن الأمن الوطني المحقق لعمران الأوطان والحفاظ لها، وإن تأثر بالواقع والضوابط العامة الحاكمة للعلاقات الدولية اليوم إلا أن أمن الوطن يتكامل مع غيره من الأوطان التي تتوافق في العقيدة والمبدأ، وتشارك بفعالية في نسيج الحضارة الإنسانية ومن هنا يصبح التحالف والتآلف والتوحد القائم على قيم الولاء هو الأصل في رد الغوائل والمهددات، ونسوق أمثلة لبعض تلك المهددات:

**١- مهددات الولاء الوطني:** إن الولاء قيمة عليا يلتزم من خلالها المواطن بحفظ أمانة الوطن والاجتهاد في خدمته، وكل ما يهدد هذا الولاء يُعد مدخلاً لإفساد الحياة، وتدمير عرى التماسك الوطني، وللولاء الوطني جوانب يمكن تحديدها في الآتي: الأرض، والقوم، والقانون، والسلطة، فالمسلم إذا ولد أو عاش بأرض أحبها، ذلك أن كل ما علاها من سماء، وما غمرها من ماء، وما أثارها من شمس نعمة يستفيد منها وبالتالي يشعر بالولاء لها والولاء للقوم من مكارم الأخلاق، والمرء إنما يتقوى بإخوانه، والإنسان مدني بطبعه، وتتأسس على ذلك قيم المشاركة والتعامل ويضاف إلى ذلك الولاء للقانون؛ فإن الدساتير والقوانين ينبغي الولاء لها والدفاع عنها وحسن اتباعها، ويأتي الولاء للسلطة فإن الإسلام يربط ذلك بما تقدمه من خدمة لتنمية الوطن وعمرانه لمصلحة المواطنين حماية لهم ورعاية، والولاء للسلطة نابع من الوفاء بالبيعة للحاكم وفق المواثيق المتراضى عليها. ومن مقتضيات ذلك الإخلاص في بذل النصح وإتقان العمل ومراعاة الحقوق؛ فعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: "مَنْ بَايَعَ

إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ وَثَمَرَةً قَلْبِهِ، فَلْيَطِئْهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرَ يُنَارِعُهُ فَاصْرُبُوا رَقَبَةَ الْآخَرِ، قُلْتُ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي. قُلْتُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَفْعَلَ وَنَفْعَلْ، قَالَ: أَطِئْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَأَعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ<sup>(١)</sup>. وفي هذا دعوة صريحة إلى تحقيق الوحدة والوفاء بالعهد حماية للأوطان وتبدو الطاعة هنا باعتبارها التزام وظيفي لتحقيق الصلاح والنهي عن النزاع والاختلاف يترتب عليه من شروء تؤثر في استقرار الأوطان والادعاء بأن الانتماء للوطن يتناقض وأقدار العولمة لا يسلم له عقلاً وشرعاً ذلك أن استقرار الأوطان هو المقدمة الأساسية لاستقرار العالم.

**٢- مهددات السلم الداخلي:** من أهم عوامل الاضطراب والخلل الذي يصيب البناء الوطني ما يؤثر على السلم الداخلي والذي ينبغي أن يحكم العلاقة بين أبناء الوطن الواحد، وهذا ينعكس في البغضاء والكراهية؛ فعن الزبير بن العوام قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعْرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلَا أَنْبَيْتُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث إشارة إلى مهددات السلم الداخلي، ومنها البغضاء والحسد، وترياق ذلك الحب، وإفشاء السلام وربطه بقيم الإيمان، وليس من المنطق أن يرى البعض العولمة وما بعدها مدخلاً للخروج على الالتزام الوطني والقيم الحافظة للعلاقات بين أبنائه والعيش في أوطان متوهمة.

**٣- مهددات نسق القيم:** المجتمع الإسلامي هو مجتمع القيم العالية، وكل ما يهدد هذه القيم يمثل عدواناً على الاستقرار الوطني والطمأنينة، ومن هنا فإن الإسلام ربط الحقوق الشرعية للإنسان بوجوده وما يمارسه من أحكام وتصرفات وفق تلك القيم، بل إن حقوق الإنسان الشرعية حقوق شمولية للجنس البشري كله، والإسلام يقدم منظوراً واقعياً لحقوق الإنسان في تشريعاته وقد أدار المجتمعات بطريقة توازنه رائعة وفق الهدي القرآني يقول تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ

١- أبو داود، السنن، كتاب الفتن والملاحم، بَابُ ذِكْرِ الْفِتَنِ وَدَلَائِلِهَا، حديث رقم: ٤٢٤٨.

٢- أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ١٤٢٩، الترمذي، السنن، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٥١٠.

رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾<sup>(١)</sup>، ومن أهم مهددات نسق القيم الظلم والعدوان و يمثل الظلم مهددًا خطيرًا لل عمران الوطني والاستقرار الاجتماعي يقول الرسول ﷺ في الحديث القدسي في ما يرويه عن ربه: "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا"<sup>(٢)</sup>، والظلم يؤدي إلى ضياع الحقوق وفساد العلاقات، ويبعث على العدوان ما يمثل حاضنة للجرائم الخطيرة التي إذا انتشرت بين أبناء المجتمع أدت إلى ضعف الانتماء الوطني وصارت مهددًا للسلم والاستقرار، ولذلك جاء التحذير واضحًا صريحًا من وقوع الظلم؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمُنُ بِوَأْتِقَهُ". وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ أَوْ قَالَ: لِيَقْبِضَ عَلَى نِصَالِهَا"<sup>(٣)</sup>. وهذا يدل على الحساسية البالغة في رعاية حق المسلم الا يروعه أو يُعتدى عليه. والبلوغ في ذلك أعلى درجة وهذا يقتضي المساهمة بفعالية في تغذية الواقع العالمي لقيم الإسلام وهدايته لا الاستلام والعجز عن المشاركة الحضارية.

٤- انتهاك الحرمات: يمثل انتهاك الحرمات صورة من صور مهددات العمران الوطني؛ فعن جابر عن النبي ﷺ في خطبة الوداع: "وَقَالَ: إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا"<sup>(٤)</sup>، وقد حرّم الرسول ﷺ المدينة وهي الوطن الذي اختاره بعد هجرته؛ فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "مَا كَتَبْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا الْقُرْآنَ وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْمَدِينَةُ حَرَامٌ مَا بَيْنَ عَائِرٍ إِلَى كَذَا فَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"<sup>(٥)</sup>، وإن من أخطر مهددات العمران الوطني العدوان على

١- سورة الرحمن الآية ٧.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، حديث رقم: ٦٧٣٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، حديث رقم: ٦٦٦٤.

٤- مسلم، الصحيح، كتاب الحج، بَابُ حَجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم: ١٢١٨، وابن حبان، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الوعيد على ترك الصلاة، حديث رقم: ١٤٥٧.

٥- البخاري، الصحيح، فضائل المدينة، بَابُ حَرَمِ الْمَدِينَةِ، حديث رقم: ١٧٧١.

الناس والجرأة على سفك الدماء وانتهاك الحرمات يقول تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١٣) (١)، وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ، لَقِيَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ" (٢)، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَتْلُ مُؤْمِنٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ زَوَالِ الدُّنْيَا" (٣)، إن الالتفات إلى هذه المهددات يجعل المجتمع محصناً ضد كل ما من شأنه إضعاف التماسك الوطني وعندها ينعم المواطن بالأمن والاستقرار، وينطلق مزوداً بالدوافع الإيجابية لبناء وطن قادر على المساهمة الفاعلة في بناء الحضارة الإنسانية.

**ثانياً: قيم حماية الوطن:** الشريعة الإسلامية وهي تضع اللبنة القوية لبناء وطن آمن ومستقر، جعلت من أساسيات ذلك وضع منهج واضح لحماية المجتمع ومعالجة مهدداته، ومن ذلك التصدي إلى الجرائم الكبرى المؤثرة على مسيرة المجتمع وأمن الوطن، وينبغي التذكير بذلك تأكيداً على أن سلامة الأوطان هي المقدمة الأساسية لتحقيق السلم العالمي، وإن التقارب الذي تصنعه العولمة لا يعني ازدواجية الولاء أو التحرر من الولاء الوطني. وقد شرع الإسلام بعض العقوبات على تلك الجرائم على سبيل المثال:

- الحماية من جريمة التحسس: تتبع العورات أمر حرّمته الشريعة الإسلامية قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٢) (٤)؛ فعن أبي بزرّة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعْ

١- سورة النساء الآية ٩٣.

٢- ابن ماجه، السنن، أبواب الديات، بابُ التَّغْلِيظِ فِي قَتْلِ مُسْلِمٍ ظُلْمًا، حديث رقم: ٢٦٢٠.

٣- النسائي، السنن الكبرى، كتاب المحاربة، باب: تَعْظِيمُ الدَّمِ، حديث رقم: ٣٤٣٤.

٤- الحجرات الآية ١٢

اللَّهُ عَوْرَتُهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ"<sup>(١)</sup>. وقد ذهب الفقهاء بأن الجاسوس المسلم إذا تجسس لصالح العدو على المسلمين يُقتل، ومنهم من قال بتعزيره، والتجسس يمثل خطراً يهدد كيان الوطن واستقراره، عندما يصبح وسيله من وسائل الدولة المعادية للبحث عن نقاط الضعف داخل الوطن، أو صناعة تلك النقاط واستثمارها في إحداث اضطراب يؤدي إلى زعزعة الاستقرار الوطني.

- **الحماية من جريمة قطع الطريق:** هذه الجريمة عقوبتها حداً من حدود الله سبحانه وتعالى، وهي في حقيقتها تتلاقى فيها جرائم ثلاث مزدوجة بُني بعضها على بعض، فهي من جهة تتضمن معنى من معاني التمرد على الولاية العامة والمجاهرة بالإجرام، وتتضمن من جهة أخرى جريمة ثانية هي الاتفاق الجنائي، فهي عمل مشترك مبني على اتفاق وتعاون على الإثم والعدوان، فذات الاتفاق الآثم جريمة منفردة ما دام اقترن به ما يدل على التنفيذ، وإن فات التنفيذ بأمر لم يكن في حسبتهم، ومنها جرائم القتل وسلب الأموال، وقد يكون فيها هتك الأعراس يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ <sup>(٢)</sup> <sup>(٣)</sup>، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَاجْتَوَوْهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنْ شِئْتُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى إِبِلِ الصَّدَقَةِ فَتَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا. فَفَعَلُوا فَصَحُّوا، ثُمَّ مَالُوا عَلَى الرَّعَاءِ فَقَتَلُوهُمْ وَأَرْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ، وَسَاقُوا ذَوْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَبَعَثَ فِي أَثَرِهِمْ، فَأَتَى بِهِمْ، فَقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَتَرَكَهُمْ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا"<sup>(٤)</sup>.

١- أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في الغيبة، حديث رقم: ٤٨٨٠.

٢- الجريمة، الامام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ط١٩٩٨م، ص ٧٦ بتصرف.

٣- سورة المائدة الآية ٣٣.

٤- مسلم، الصحيح، كتاب القسامة، باب حُكْمِ الْمُحَارِبِينَ وَالْمُرْتَدِّينَ، حديث رقم: ٤٤٤٥.

- الحماية من الجرائم السياسية: الجريمة السياسية هي التي يكون فيها اعتداء على نظام الحكم أو على أشخاص الحكم بوصفهم حكامًا، أو على قادة الفكر السياسي لآرائهم السياسية. وقد عرّف الإسلام الإجرام السياسي بنوعية؛ فوجدت الآراء المنحرفة والبدع الضالة التي لا يقصد بها إلا هدم الإسلام الذي هو قوة الدولة الإسلامية ورباطها وجامع وحدتها، والرابط بين أشتاتها، كما وجد الاعتداء بالقتل على الخلفاء العادلين، فقتل أعدل الحاكمين بعد النبيين عمر بن الخطاب، وقتل الشهيد عثمان بن عفان، وقتل فارس الإسلام علي بن أبي طالب<sup>(١)</sup>. فكان -إذًا- في الإسلام النوعان من الإجرام، إجرام إبداء الرأي المنحرف الذي يراد به فك عرى الإسلام عروة عروة، والإجرام الذي لا يقف به المجرم عند الرأي بيديه؛ بل يتجاوزها إلى أن يحكم على مخالفه بالقتل من غير بينة إلا اعتقاد المنحرف أو هواه المتحكم، وأن ينفذ هو الحكم في غدر وخيانة أو تبجح ومجاهرة بالعصيان إن واثته الأحوال، بل حدث في كثير من الأحوال أن تفاقم الأمر وخرج الخارجون يحملون السيوف على الحاكم ويحاولون أن يزيلوا حكمه ويدلوا من دولته بآخري يقيمونها<sup>(٢)</sup>. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "بعث عليّ رضي الله عنه إلى النبيّ ﷺ بذهنيّة فقسّمها بين الأربعة الأقرع بن حابس الحنظليّ ثمّ المّحاشعيّ وعيينة بن بدر الفزاريّ وزيد الطائيّ ثمّ أحد بني نبهان وعلقمة بن علاثة العامريّ ثمّ أحد بني كلاب فعصبت فريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا قال: "إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين نائئ الجبين كثر اللحية مخلوق فقال: اتق الله يا محمد. فقال: "من يطع الله إذا عصيت أيامني الله على أهل الأرض فلا تأمنوني فسأله رجل قتله أحسبه خالد بن الوليد فمنعه فلما ولي قال: إن من ضئضي هذا أو في عقب هذا قومًا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرميّة يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد"<sup>(٣)</sup>.

١- أبو زهرة، الجريمة، ص ١١٦.

٢- المرجع السابق، ص ١١٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل {وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحَ صَرْصَرٍ شَدِيدَةٍ {عَاتِيَةٍ}، حديث رقم: ٣١٦٦.

## المبحث الخامس: العولمة وتحديات الانتماء الوطني ومنهج المعالجة

سوف نحاول أن نستعرض طرفاً من القراءات التي اهتمت بتحديات ظاهرة العولمة وتوصيفها؛ فتناولت تحديات الانتماء الوطني ومنهج المعالجة في ضوء السنة النبوية المطهرة.

**أولاً: مسيرة العولمة وتطورها:** ظهر هذا المصطلح أول ما ظهر في مجال المال والتجارة والاقتصاد غير أنه لم يعد مصطلحاً اقتصادياً محضاً؛ فالعولمة الآن يجري الحديث عنها بوصفها نظاماً أو نشاطاً ذا أبعاد يتجاوز دائرة الاقتصاد؛ فالعولمة الآن نظام عالمي يراد له أن يشمل دائرة مجال المال، والتسويق، والتبادلات، والاتصالات، مثل شموله مجال السياسة، والفكر، والايديولوجيا<sup>(١)</sup>.

والعولمة تعني جعل الشيء على مستوى عالمي أي نقله من المحدود، والمراقب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كل مراقبة، والمحدود هنا هو أساس الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية صارمة على مستوى الجمارك لنقل البضائع والسلع، إضافة إلى حماية ما بداخلها من أي خطر أو تدخل خارجي سواء تعلق الأمر بالاقتصاد أو السياسة أو الثقافة؛ فالعولمة تتضمن معنى إلغاء حدود القومية في المجالات الاقتصادية والمالية والتجارية، وترك الأمور تتحرك في هذا المجال عبر العالم وداخل فضاء يشمل الكرة الأرضية<sup>(٢)</sup>.

إن الخلاصة التي نصل إليها تبين لنا أن العولمة ظاهرة موضوعية وهي في جانب من جوانبها ثمرة لسياسات الحكومات وإداراتها، وبرلمانات الدول التي وافقت على القوانين والاتفاقيات التي تلغي الحدود وتحرر حركة السلع والخدمات ورؤوس الأموال في الأسواق العالمية ووقعت عليها، ومع أننا قد نتفق مع الرأي الذي يذهب إلى أن مرحلة التطور التي تمر بها العولمة أمر طبيعي، إلا أن العولمة لم تعد تقف خلف الباب تستأذن الدخول، بل هي بدأت تفعل فعلها على هذا الكوكب ولم تعد مجرد مفهوم بل هي ممارسة وسلوك يومي وعملية مستمرة تنمو وتتطور على الدوام، وهذا يدفع إلى القول بأن العولمة هي عملية إنتاج لأنماط ثقافية واجتماعية وإعلامية وسياسية واستهلاكية وتوزيعها وتلاقحها بغرض تنمية نماذج معينة تستخدم أدوات تساعد على بلورة الظاهرة عن طريق

١- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية، مرجع سابق، ص ٨.

٢- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، ص ١٣٦ "بتصرف".

الشركات المتعددة الجنسيات التي تمارس سطوتها بكفاءة عالية<sup>(١)</sup>.

ثانياً: **تحديات العولمة:** وتبرز أهم التحديات في الآتي:

(١) **مفهوم القومية العابرة للحدود:** هناك علاقة معقدة وقلقة بين القومية العابرة للحدود، والدولة والثقافات القومية وهذا يظهر في التحديات التي تواجه بعض الحكومات في المجتمعات والجماعات الاجتماعية العابرة للحدود التي تعمل داخل حدودها الإقليمية ويكون لها أعضاء ولأهم خارج تلك الحدود، وهناك دول عاجلت هذه المشكلة بسن قوانين للمواطنة والجنسية المزدوجة للمهاجرين باعتبارها وسيلة لتوسيع نفوذ بلادهم الأصلية وزيادة تأثيرها وهذه الجماعات العابرة للحدود يمكن أن تسهم في اقتصاد دولها الأصل مثل عملهم وإنتاجهم في الدول التي استقروا فيها، وينبغي ملاحظة هل القومية العابرة للحدود تضعف الدولة الأم والثقافة القومية أم لا؟ وما هو المدى الذي يسهم به الأفراد في الدوائر العابرة للحدود أو في استيعاب ثقافات الدول المضيفة؟ وهل بالإمكان أن يكون للشخص عدة أوطان؟<sup>(٢)</sup> وهذا ما تسعى الدول للإجابة عنه من خلال الإجابة عن هذه الجدلية.

(٢) **تحديات أمام السيادة:** سيادة الدولة هي السلطة العليا للدولة في إدارة شؤونها سواء كان ذلك داخل إقليمها أم كان في إطار علاقاتها الدولية، وهذا يدل على أن للسيادة وجه داخلي يقتصر نطاق تطبيقه على علاقة الدولة بمواطنيها داخل إقليمها بحدوده السياسية المعلومة، ووجه خارجي ينصرف نطاق تطبيقه على علاقة الدولة بغيرها من الدول التي تقوم على احترام الاستقلال الوطني والسلامة الإقليمية لكل دولة وعدم جواز التدخل في شؤونها الداخلية.

من أهم تعبيرات العولمة المعاصرة تهديدها لسيادة الدولة واتساع مؤسسات الهيمنة الدولية مثل البنك الدولي ومنظمة الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية ومحكمة العدل الدولية، وهي تطلع بدور مهم في السياسة الدولية وقد أصبحت تمثل بديلاً للسلطة بالنسبة للحكومات القومية، ويُعد تطور المنظمات الإقليمية دليل على تآكل السيادة القومية فمعظم

١- أسامة المجذوب، العولمة والإقليمية، ص ٣٦ وما بعدها "بتصرف".

٢- المرجع نفسه، ص ٧٩.

الحكومات القومية تقر الآن بضرورة التعاون الإقليمي إن كان لها أن تظل من اللاعبين الرئيسيين على المسرح العالمي<sup>(١)</sup>.

يقول اليحاندرو بورتس (Alejandro portes): "السؤال ما معنى أن يكون هناك مواطنون كثيرون وهم في حقيقة الأمر ليسوا هنا ولا هناك؟ القومية العابرة للحدود قد تهيئ على الأقل أحياناً تحولاً عن فكرة المواطنة التي تعتمد على الدولة بشكل تقليدي نحو مفاهيم أكثر مرونة<sup>(٢)</sup>. ونجد إشارة إلى مفهوم احترام الدولة فيما ورد في صحيفة المدينة التي أعطتها خصوصيتها "... وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه المدينة أنهم أمة واحدة من دون الأمم"<sup>(٣)</sup>.

**٣) التطرف والإرهاب العولمي:** أتاحت وسائط الإعلام الحديثة عددًا لبعض الجماعات الإرهابية تجاوز الحدود الجغرافية لميدان المعركة بنشرها لنشاطها ومعاركها على الانترنت وتجنّد من الشباب حتى من خارج الشرق الأوسط. وقد ضبّطت الشريعة الإسلامية منازع العدوان حمايةً للوطن والمواطنين، جاء في صحيفة المدينة: "وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأنه من نصره أو أواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخر منه صرف ولا عدل"<sup>(٤)</sup>.

**٤) تهديد الهوية الوطنية:** الهوية هي مجموعة الخصائص والمميزات العقديّة والأخلاقية والثقافية التي يتفرد بها شعب من الشعوب وأمة من الأمم، ونسيج الهوية نسيج معقد جدًّا يُستمد من عقيدة الشعب وقيمه الكبرى وذاكرته التاريخية وعبقريّة المكان الذي يعيش فيه، إن التحديات تتمثل في انخفاض مستوى الاهتمام بالخصوصيات والمثاليات والموروثات والروحانيات التي أصاب المؤمنين بها نوع من الانكماش والانحسار بسبب الهجمة الشرسة للعولمة، إن العولمة تحاول ربط الناس بعالم اللا أمة، واللا وطن، واللا دولة لأن ذلك يسهل عمليات الاستلاب التي تقوم بها، إن العولمة لا تستوطن بلدًا ولا تركز إلى شعب أو أمة وإنما تستوطن الفضاء

١- المرجع السابق، ص ١٥٩.

٢- المرجع السابق، ص ١٦٠.

٣- ابن هشام، السيرة، ج ٢، ص ١٥٠.

٤- ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢٣.

المعلوماتي الذي تصنعه شبكات الاتصالات والذي يوجه الثقافة والسياسة والاقتصاد. من أهم القواعد المتبعة في الاختراق الثقافي والاقتصادي السعي الحثيث والمتواصل لتهميش سلطة الدولة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية... والعولمة تتطلب أوطاناً خالية من أي سلطة غير السلطات التي تنشئها العولمة<sup>(١)</sup>. وتظهر أهم مهددات الهوية إضافة لما سبق في تهديد الفضيلة والبناء الأسري وقيم النزاهة والتسامح والتعاون، وتكريس الأرباح وجمع المال بغض النظر عن الأسلوب المتبع في تلويث البيئة وهدم المجتمع<sup>(٢)</sup>. وفي المحافظة على الهوية نجد حديث رسول الله ﷺ في التحذير من التشبه المفضي إلى الذوبان وذلك في قوله عَنِ ابْنِ عُمرَ قَالَ: قَالَ اللهُ ﷻ: "مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ"<sup>(٣)</sup>.

**٥) الجريمة العابرة للحدود:** هي أفعال مؤتمة تمثل سلوكاً إجرامياً معروفاً وممنوعاً بحكم القانون، تقوم على فكرة التنظيمات أو العصابات الدولية ذات النشاط المخطط والمستمر والمعقد الهرمي، المدرب على ممارسة نشاطه الإجرامي وعبور الحدود بين الدول والتي قد تنضم إلى عضويتها أو تقع تحت ولايتها بعض الشخصيات من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة في المجتمع بالتواطؤ مع آخرين. لقد أصبحت الجريمة أكثر قوة وعنفاً وانتشاراً بفضل العولمة، التي وضعت بين يدي المجرمين التقنية الحديثة من الاتصالات والمعلومات، ما سهل لهم الاستفادة من هذه المعطيات بكل ذكاء ومهارة<sup>(٤)</sup>، قد اهتمت صحيفة المدينة بالتصدي للعدوان؛ حيث ورد أن النصره واجبة عليهم على من دهم يشرب<sup>(٥)</sup>.

**ثانياً: الإطار المرجعي للتعامل مع العولمة:** وفي سبيل تحديد رؤية استراتيجية في التعامل مع الآثار السالبة للعولمة وانعكاس ذلك على مقتضيات العمران الوطني تُحدد النقاط الآتية:

١- المرجع السابق، ص ٧٤.

٢- المرجع نفسه، ص ٧٧.

٣- أبو داود، السنن، كتاب اللباس، باب: فِي بُسِّ الشُّهْرَةِ، حديث رقم: ٤٠٣١. قال الألباني: "حسن صحيح".

٤- محمد شلال العاني، عولمة الجريمة، رؤية اسلامية في الوقاية، ص ٣٤، "بتصرف".

٥- ابن كثير، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٢٣.

١- **نشر الوعي بالعولمة:** إن الوعي بأهداف مهددات العولمة ومراميها، يمثل مقدمة لإحسان التعامل مع هذه المهددات، إن مهاجمة العولمة أو الاستسلام لها من أسهل الأمور التي يمكن أن يصرار إليها لكن الشاق هو التحليل العميق لجوهر عمليات العولمة وجذورها وامتداداتها والآثار المترتبة عليها وكيفية معالجتها<sup>(١)</sup>، وهذا يقتضي الاهتمام بالجوانب العلمية والمعرفية وتعزيز المسكات الوطنية وإحسان التعامل مع قدر العولمة بتعزيز الإيجابيات ومعالجة السلبيات وإنشاء المؤسسات المتخصصة للتعامل مع الظاهرة بثقة في القيم الوطنية الموصولة بالشريعة الإسلامية. ونجد ذلك في حث الرسول ﷺ على العلم والإحاطة المعرفية وهو يبين درجة العالم مقارنة بالعابد، "عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لِيُصَلُّوا عَلَيَّ مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ"<sup>(٢)</sup>.

٢- **تحقيق الأمن الفكري:** يقصد بالأمن الفكري ذلك المنتوج العقلي الهادف إلى حفظ الأمة في أصل وجودها، وفي مرتكزات فعلها وفعاليتها الحضارية ضد المهددات الداخلية والخارجية، وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق قيمة الوحدة الفكرية المتصلة بأساس هوية الأمة ويتضح ذلك في مجموعة من النقاط منها:

- إن الوحدة الفكرية في إطارها العام تؤدي إلى وحدة الرؤى العامة وتحقيق الانسجام المجتمعي، إن الوحدة المنهجية هي السياج الفكري الجامع والموحد لسعي الأمة في تصورها وحركتها.

- والأمن الفكري يتحقق عندما يقع صلح بينما يتم الإيمان به والتطلع إليه، والانسجام بين الثوابت ومتغيرات التنمية ما ينفي طوارئ التغيير وبوادر الانحراف، ويعد التقارب والتجانس القيمي والفكري والجامع القومي من أهم مؤنات البناء الفكري، كما أن

١- مصدر سابق ١٠٢.

٢- الترمذي، السنن، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، حديث رقم: ٢٦٨٥، قال الترمذي: "حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ".

الوحدة بين الأمة وقيادتها على كافة الأصعدة تمثل ضمانة قوية لعدم الافتراق والزعزعة الداخلية<sup>(١)</sup>.

- وهنا تبرز أهمية القيم الجامعة التي تشكل الحماية من المهددات كما جاء في الحديث  
أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ،  
وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ"<sup>(٢)</sup>. وتقارب الزمان يشير إلى  
تقارب المكان وهذا واضح في الواقع العملي اليوم.

٣- **البناء المؤسسي:** إن الدولة المعاصرة هي دولة المؤسسات ولا يتصور نجاح في العمل وبلوغ  
المقاصد إلا إذا قام ذلك على بناء مؤسسي قوي راسخ، ومن أهم المؤسسات مؤسسات  
التربية والتنشئة الوطنية، فمن أخطر المهددات لهذه المؤسسات التقليد والاعتراب وتظهر  
مضاعفات ذلك في أمرين وذلك في مؤسسات التربية الحديثة وهذه تقلد المؤسسات التربوية  
في الغرب تعد الفرد ليكون مستهلكاً لكل ما يرد إلى الأسواق من المصانع الخارجية، ولا  
يكون منتجاً إلا بالقدر الذي تطلبه أعمال السكرتارية و(البيروقراطية) التي تدير العمل في  
الوكالات التي تتولى تسويق المنتجات الواردة وهي مؤسسات مغتربة عن قضايا المجتمعات  
الإسلامية المعاصرة.

والأمر الثاني في مؤسسات التربية الإسلامية وهذه انعزلت في كثير من الأحيان عن واقع الحياة  
فهي تحدث عن المثل الأعلى الذي رفعه الآباء ولكن لا توفر لهم فرص المشاركة في خدمة المثل  
الأعلى وتكون النتيجة هي قول لا عمل تتفجر مضاعفاته في أشكال التطرف والتزمت أو التحلل  
والمروق وهذا يقتضي القيام بعمل نهضوي تجديدي ليعطي تلك المؤسسات دورها وفعاليتها في  
التأسيس والرعاية أمام تحديات العولمة استهزاء؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ  
مَسْئُولٌ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ

١- إبراهيم الكاروري، الأمن الفكري إطار مقاصدي، "بتصرف".

٢- مسلم، الصحيح، كتاب العلم، باب رَفَعِ الْعِلْمِ وَقَبْضِهِ، وَظُهُورِ الْجَهْلِ، وَالْفِتَنِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حديث  
رقم: ٦٩٦٤.

زَوْجَهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالٍ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ"<sup>(١)</sup>.

٤- المشاركة بفعالية في صناعة الواقع الحضاري: إن المشاركة بفعالية في صناعة الواقع الحضاري، وهو ما يتطلبه التحدي العولمي القائم اليوم، إن مقاييس التقدم الحضاري في العالم المعاصر تلقي ضوءاً كاشفاً على السلبية النسبية في جهود المجتمع الإسلامي الحضاري في اللحاق بمستويات التقدم المادي بصفة خاصة، وفي مواجهة إشكاليات الانصهار والاقتراب والتفاعل مع حضارة الغرب، لا يزال المسلمون ينظرون إلى ذلك نظرة تساؤل عميقة يشوبها التردد والانفعال وضعف المواجهة أمام هيمنة الغرب على نمط الحضارة المعاصرة وكأن المسلم لا يملك رصيماً من القيم الحضارية يكفل له المواجهة والقيادة بإيمان وحزم، إن البحث عن الواقع الأفضل والمستقبل المشرق للأوطان لن يتحقق إلا بتفحص الماضي الحضاري للأمة الإسلامية، هذا الماضي يمثل تياراً متدفقاً يصب دائماً في الحاضر، ويرفده بكل مكوناته الأساسية ودفعه نحو المستقبل وهو يحمل الكثير من هذه المكونات إن الوعي بالسنن الحضارية يدعو إلى استخلاص القيم والقوانين التي ترشد المسيرة باستجلاء عوامل المد في عصور الازدهار لإدراك عوامل الجزر في أزمنة التحديات، إن المشاركة بفعالية تحقق حماية للوطن من غوائل السلبات وتأهله للاستفادة من الإيجابية والمساهمة في المسيرة الحضارية الكونية<sup>(٢)</sup> من منطلق الرسالة الإسلامية بقيمتها الإنسانية؛ فعن أبي هريرة قال: قِيلَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعْنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"<sup>(٣)</sup>. فهو رحمة لكل العالم.

١- البخاري، الصحيح، كتاب النكاح، باب {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}، حديث رقم: ٥١٨٨، أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: ٤٤٩٥.

٢- ينظر: سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، ص ١١.

٣- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، حديث رقم: ٢٥٩٩.

### الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث الذي تناول جدلية الانتماء ومقتضيات الحماية والعمران للوطن في عصر العولمة، نوقشت مجموعة من القضايا منها التعريف بالوطن وخصائص عصر العولمة، واتضح أن العولمة تمثل التحدي الأكبر ولا يمكن لأي دراسة أن تتجاوز تأثيرها على مسارات الحياة لاسيما ما يتصل بالوطن وقضاياها، مع تناول مطلوبات الانتماء للوطن وانعكاس ذلك على منهج العمران، مع التعريف بقيم التأسيس التي يعتمد عليها البناء الوطني، وقد تناول البحث مهددات العمران مع تناول قيم الحماية وذلك حتى تكتمل الصورة، وختم البحث بتناول العولمة وتحدياتها ومنهج التعامل مع هذه التحديات.

ومن أهم النتائج والتوصيات التي خلص إليها البحث:

## أولاً: النتائج:

- تمثل السنة النبوية المطهرة منهج الهداية في التعامل مع الواقع وقضاياہ ونوازلہ ومن ذلك المحافظة على الأوطان في ظل التحديات القائمة.
- اهتم الإنسان منذ أن استخلفه الله على الأرض بالوطن موضع حياته واستقراره.
- فُطِرَ الإنسان على حب الوطن وهو من مرتكزات الاعتقاد السليم والوعي الحضاري القويم.
- زود القرآن والسنة المسلم بمعارف وافية في كيفية التعبير عن حب الوطن والعمل على استقراره وحمايته
- يمثل التحدي العولمي أهم التحديات في العصر الحديث وهو أمر لا فكاك منه مما يقتضي التعامل العلمي معه.
- لقد بينت السنة النبوية منهج التعامل مع التحديات الوطنية وزودت الدارس بمعارف حول حفظ الوطن وتنمية خيراته وحمايته من الأعداء.
- لا يوجد تناقض بين حب الأوطان والمحافظة عليها والاستفادة من إيجابيات العولمة وفق رؤية واضحة.

## ثانياً التوصيات:

١. الاهتمام بالدراسات التي تتناول قضايا الوطن ومنهج حمايته واستقراره.
٢. تطوير الدراسات الموصولة بالسنة النبوية الشريفة للنظر في النوازل المعاصرة والمستجدات.
٣. التعريف بمرتكزات البناء الوطني وأركانه، ومنهج العمران وأصوله.
٤. التعريف بالعولمة وتحدياتها في هذا العصر وصناعة الوعي اللازم لذلك.
٥. وضع رؤية استراتيجية لكيفية التعامل مع إشكالات العولمة.
٦. تعزيز الدراسات الوطنية ومنهجيتها في مؤسسات التعليم العام والعالي والاهتمام بمعارف السنة النبوية في ذلك.
٧. تخصيص برامج في وسائل الإعلام للتعريف بواجبات حفظ الأوطان والتحديات القائمة اليوم وربط ذلك بأصول الفكر الإسلامي وعلى رأسها الكتاب والسنة المطهرة.

## المراجع والمصادر

- إبراهيم أحمد محمد الصادق الكاروري، الأمن الفكري إطار مقاصدي، الناشر مكتبة الفراديس، الطبعة الثالثة، ٢٠١٧م.
- إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة.
- أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، السنن الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١.
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
- أسامة المخدوب، العولمة والإقليمية، الناشر الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٥م.
- الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة بيروت-لبنان.
- أمير عبدالعزيز، أصول الفقه الإسلامي، مطبعة دار السلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- بول هوبر نحو فهم للعولمة الثقافية، ترجمة: طلعت الشائب، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م، القاهرة.
- حسن الخطيب، العالمية والعولمة في منظور مقارني، مجلة عالم الفكر، مجلد ٣٤، الكويت، يوليو - سبتمبر ٢٠٠٥م.
- سعيد عبدالحافظ، المواطنة حقوق وواجبات، مركز باعث للدراسات الحقوقية والدستورية، القاهرة، ٢٠٠٧م.
- مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، الصحيح، دار إحياء التراث العربي - بيروت تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، السنن، دار الفكر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- سليمان الخطيب، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- طه عبدالرحمن، روح العولمة وأخلاق المستقبل، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، العدد ٢٦.
- عبدالمملك بن هشام بن أيوب، السيرة النبوية، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) الطبعة الثالثة.

## الوطن في عصر العولمة ...

- عبدالعزيز بن عثمان التويجري، العولمة والحياة الثقافية في العالم الإسلامي، أعمال المؤتمر الإسلامي العام الرابع، أبريل ٢٠٠٢م.
- كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، فتح القدير، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- محي الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- الإمام محمد أبو زهرة، الجريمة، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.
- محمد آدم العولمة، أثرها على اقتصاديات الدول الإسلامية، مجلة النبأ العظيم، العدد ٤٢ ذوالقعدة، ١٤٢٠هـ.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- محمد دياب عولمة، الإسلام والغرب، الكتاب العربي، ط ١، ٢٠٠٥م.
- محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني ابن ماجه، السنن، الفكر، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
- محمد سيد طنطاوي، الأمة الإسلامية، المؤتمر الإسلامي العام الرابع، أبريل ٢٠٠٢.
- محمد شلال العاني، عولمة الجريمة، رؤية إسلامية في الوقاية كتاب الأمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
- محمود بن عمر الزمخشري جار الله أبو القاسم، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية.

- مشيل مان، موسوعة العلوم الاجتماعية، تعريب: عادل الهواري، سعد مصلوح، مكتبة الفلاح - الكويت الطبعة الرابعة.
- الإمام أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط ١ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر  
نحو مقارنة تأسيسية لمداخل حماية الوطن  
من خلال السنّة النبوية

الأستاذ الدكتور / محمد علا  
أستاذ التعليم العالي / كلية أصول الدين وحوار الحضارات، تطوان  
جامعة عبد المالك السعدي - المغرب





## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق الناس مختلفين وجعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا، والصلاة والسلام على النبي الكريم، محمد أشرف المخلوقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

يكتسي الحديث عن المواطنة في الوقت الراهن بأهمية بالغة، بالنظر إلى المتغيرات الجيوسياسية والإقليمية التي تعرفها المنطقة العربية والإسلامية والعالمية، وارتفاع حجم الهجرات البشرية ممثلة في اليد العاملة وأتباع الديانات والتيارات المختلفة وغيرها، والنزوح المتبادل بين مختلف سكان بلدان العالم جراء الحروب، والطائفية، والتطرف، وغياب الاستقرار، وتصاعد وتيرة العنف في عدد من بؤر التوتر، أو لأسباب اقتصادية واجتماعية مثل: الدراسة، والعمل، والاستشفاء وغيرها. ويفيد استشراف الواقع الإنساني في المستقبل القريب والبعيد أن التعدد البشري بمختلف حمولاته المرجعية (الدين والدولة واللغة والعرق والمذهب...) سيزداد تداخلا، وتمازجا، وتركيبا، وتعقيدا، ويحتاج إلى مراجعة جملة القواعد والقوانين المنظمة للعلاقات في أفق ترسيخ مواطنة حقيقية، وتأهيل البنى البشرية لتستوعب اختلافاتها وتنوعاتها وتؤسس لتعاقدات إنسانية. وإذا كانت النزوحات البشرية في العصور السابقة تتم بحرية واستقلالية ويحكمها التعايش والتعارف في عامة الأحوال، وكانت بعيدة عن التكلف والتعقيد والتقييد، فإنها في العصر الراهن، بعد تأسيس الدولة الحديثة، أصبحت خاضعة لقوانين محكمة وشروط دقيقة قد تخلّ في أحيان كثيرة بشروط المواطنة الحقّة بأبعادها الإنسانية التي تحفظ الكرامة وتضمن الحرية.

والتأمل في التاريخ البشري سيجد أن جميع الأنبياء والرسل قد أرسلوا في إطار تجمعات بشرية وأوطان مشكّلة (قرى، مدن، ممالك، إمبراطوريات...) التي كانت الفضاء الطبيعي الحاضن لدعوتهم. فلا رسالة بدون مجتمع أو وطن حاضن، ولا بناء للعقائد والأحكام دون بناء يسبقه للمجتمعات والأوطان، وليس من مهمات الأنبياء ووظائفهم تجميع الأفراد المشتتين المنتشرين في رقع جغرافية متفرقة لبناء تشكيل مجتمعي أو وطن بالمفهوم المتداول حاليا، فقد جُبل الناس على

التجمّع والاجتماع، لدواع أمنية واجتماعية وسياسية واقتصادية، تلبية لأغراضهم وتبادل منافعهم ومصالحهم وتحقيق التكامل فيما بينهم، تقوية للضعيف وحماية له، ومساعدة للمحتاج ومؤازرة له، ودعماً للقوي ونصرة له. ومن ثم كانت مهمة الأنبياء والرسل تعزيز تلك البناءات المجتمعية القائمة ومحاربة الظواهر السلبية المنتشرة فيها والمفاسد المقوّضة لوجودها، وربط الناس بخالقهم، وتجويد علاقات التعامل فيما بينهم، وإصلاحها، والرقى بها إلى مستويات أفضل لتحقيق الاستخلاف المطلوب والإعمار المرغوب؛ فبناء الأوطان سنّة اجتماعية وتاريخية، وحاجة مجتمعية قائمة، بغضّ النظر عن الدين أو العرق أو الجنس أو اللون؛ ذلك أن حاجات الناس ومصالحهم قائمة على الاجتماع، والتعايش، والسعي لبناء العلاقات النافعة، وقضاء الحوائج المتبادلة، والأغراض الميسّرة للمعاش، والمعيّنة على نوائب الدهر ومتطلباته. وبعبارة أخرى تأتي مهمة الأنبياء والرسل لتعزيز بناء الأوطان، وتعزيز القيم الإيجابية البانية بمنهج جديد وأسس قويمة قادرة على حماية المكتسبات السابقة وتعزيزها لتحقيق مصالح الناس العاجلة والآجلة، وقائمة من جهة أخرى على التقليل من مسببات الهدم والفساد والنكوص، والتشريع لمقومات العطاء، والبناء، والنهوض.

وكثيرا ما يربط القرآن بين الأنبياء والأوطان المرسلين فيها، حيث تتردد ألفاظ: القرية، والقرى، والمدينة، وأحيانا يكون التعيين بذكر مواطن بعينها مثل: بابل، الأيكة، سبأ، الأرض المقدسة، مصر، بكة، مع الإشارة إلى أن الكثير من المواطن وردت دون تعيين في القرآن فسامها قرية أو مدينة، أي موطن حضاريا اجتمع فيه الناس وأسسوا به تجربة إنسانية وحضارية خلدها القرآن لأخذ الدرس والعبرة. وقد كانت رسالة محمد عليه الصلاة والسلام إلى العالم أجمع، رغم انتمائه الأصلي لقبيلة ووطن معين، يجاوره قبائل شتى، وامبراطوريات وإمارات يحكمها ملوك وقياصرة. وكان كل قوم معتزّين بأوطانهم وانتماءاتهم، يدافعون عنها ويتفاخرون بها، وينظّمون الأشعار حول رجالها وأمجادها وتاريخها، إظهارا للكرم، والشجاعة، وجمال المكان، والاعتزاز بالبطولات والإنجازات، وتخليد الرموز من الأجداد والسلف، إنه الاعتزاز بالانتماء والافتخار به.

وتمكننا مجمل المعطيات التاريخية والحضارية من مراجعة جملة من المسلمات في علم الاجتماع وتفنيد العديد من المزاعم الحديثة التي من بينها: أن مفهوم المواطنة يرتبط ارتباطا كليا بتنامي النزعة الوطنية لدى الفلاسفة والمفكرين الاجتماعيين الذي نشأ مع الدولة الحديثة وحدودها الجغرافية

والسياسية، وإنما هو مفهوم له جذور تاريخية أعمق، أسهمت فيه جميع الأمم والحضارات بنسب معينة، وعلى رأسها الحضارة الإسلامية.

إن مقارنة موضوع المواطنة من داخل المرجعية الإسلامية يفرض الرجوع إلى المصادر التأسيسية الأصلية؛ القرآن الكريم و السنة النبوية، من أجل الوقوف على المقومات البانية للمواطنة والضامنة للاستقرار والعيش الكريم لمختلف الفئات المكونة للوطن. والوطن هنا أرض الله جميعا، والمسلم مطالب بالتحيز للوطن المسلم، بصفته وطنا يلي حاجياته النفسية، والدينية، والوجدانية، كما يضمن له تحقيق الانسجام مع تطلعاته الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن لكل قاعدة استثناءات، وقد تتراكم بعض الاستثناءات وتكبر حتى تقترب من تشكيل قواعد مستقلة، فتأتي ظروف تجعل المسلم يغادر بلده إلى بلاد أخرى، لها خصوصيات مخالفة لوطنه الأم، وهو حال الأعداد الهائلة من المسلمين في بلاد الغرب، الذي أصبح يشكل ظاهرة لها شأنها ومكانتها المعترفة في الاجتهاد الفقهي المعاصر.

والناظر فيما كتب حول الموضوع من الدراسات السابقة يجد بعض الاجتهادات المعترفة التي تحتاج إلى متابعة ومزيد اجتهاد، خاصة مع تعدد المقاربات والمنهجيات، واختلاف المرجعيات الموجّهة للنظر في موضوع المواطنة لدى المهاجرين عامة والمسلمين خاصة، والغالب الأعم حول تلك الكتابات تخصيصها مباحث معينة لمقاربة الظاهرة، ونذكر من تلك الدراسات: "المواطنة في الإسلام" لـ "سعيد إسماعيل علي"، و "المواطنة في الشريعة الإسلامية - دراسة فقهية مقارنة" لـ "ياسر حسن عبد التواب جابر"، و "الهوية والمواطنة - الهوية الملتبسة والحداثة المتعثرة" لـ عبد الحسين شعبان"، و "الهجرة إلى غير بلاد المسلمين - حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية" لـ عبد الله يوسف أبو عليان"، و "المواطنة والوطن في الدولة الحديثة المسلمة" لـ "علي محمد الصلابي"، إضافة إلى جهود الهيئات الدينية الرسمية من خلال نشراتها التوعوية وما تقوم به من إرسال للأئمة والعلماء والمفكرين لتأطير المسلمين في أماكن إقامتهم وتوعيتهم بالأدوار المطلوبة منهم، وتنويرهم بمدخل الإسهام الثقافي والحضاري الممكن تحقيقها في مواطن تواجدهم. من جهة أخرى توجد العديد من الكتابات الغربية تناقش الظاهرة من وجهة نظرها، بصفتها ظاهرة دخيلة فرضت نفسها بقوة على المجتمعات الغربية اقتصاديا، وسياسيا، واجتماعيا، ودينيا، وثقافيا، حين توافد على

بلادهم أعداد هائلة من المهاجرين من شتى البقاع، ومن ثم أصبحت الظاهرة بحاجة إلى قوانين تنظمها، وضوابط تؤطرها للتوفيق بين متطلبات واقعهم وحاجياته مع ضمان حقوق المهاجرين وواجباتهم. فضلا عن أن المقاربة لا تعرف استقرارا وثباتا، إذ تتلون في الغالب بتلون التيارات السياسية المتعاقبة على التدبير، وقد عرفت بالفعل بعض المنعطفات المقلقة مؤخرا مع تنامي اليمين المتطرف وتصاعده وتقلده التسيير في بعض البلدان الغربية، مما انعكس سلبا على بعض التراكمات الإيجابية التي تحققت لدى المسلمين في تلك البلدان.

وهذه الدراسة اجتهاد ومحاولة لتأصيل قيم المواطنة ومقتضياتها من السنّة النبوية بالنسبة للمسلمين المقيمين في غير بلادهم الأصلية، وهو الوضع الذي تحققت مثيلاته بأشكال معينة في زمن النبوة وإن كانت قليلة، نظرا لخصوصيات تلك المرحلة، ونظرا لورود عدد من الآثار التي تنهى عن الإقامة بين ظهرائي المشركين<sup>(١)</sup>. غير أن الخوض في غمار البحث مكنا من الوقوف على العديد من الآثار التي تؤطر وجود المسلمين في غير بلادهم الأصلية، فكانت نماذج حية من قبس النبوة، أعطت أمثلة واضحة عن المسلم المواطن الوفي لبلد إقامته والساعي إلى الخير والنفع للبلاد والعباد أينما حلّ وارتحل.

وقد ارتكزت المقاربة المعتمدة في الموضوع على مناهج أهمها: المنهج الاستقرائي والمنهج الاستنباطي، والمنهج التحليلي، والمنهج النقدي التفاعلي، حيث عمدنا في البداية إلى تأصيل مفهوم المواطنة من خلال السنّة النبوية واستقراء الآثار القولية والفعلية الدالة عليها، مع تحليل تلك الآثار وربطها بالمتغيرات الحاصلة في زمننا المعاصر، وليس هذا من باب الإسقاط التعسفي وإنما هو أعمال حقيقي للمنهج النبوي وبيان قدرته على التأصيل النظري للكثير من المفردات والاصطلاحات وهمولاتها القيمية والحضارية الموجهة للعالم اليوم من جهة، وعلى استنطاق قدراته الحقيقية لاقتراح حلول للظواهر المعرفية والمنهجية الحادثة والمصاحبة لها من جهة أخرى. فالكثير من

١- عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمَ، فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلُ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَايَا نَارَهُمَا، جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ أَبْوَابِ السَّيْرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي كِرَاهِيَةِ الْمَقَامِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ رَقْمُ ١٦٠٤، وَمَعْنَى "لَا تَرَايَا نَارَهُمَا" أَي لَا يَكُونُ بِمَوْضِعٍ يَرَى نَارَهُمْ وَيَرُونَ نَارَهُ إِذَا أَوْقَدَتْ.

الأحاديث النبوية هي تأصيل لقيم المواطنة ومقوماتها ومضامينها من غير ادعاء ولا افتعال، والعديد من أحداث السيرة النبوية هي تجسيد عملي لقيم المواطنة، وكلها تهدف إلى حماية الوطن وتصب في خدمة المجتمعات الإنسانية بصفة عامة والمجتمع المسلم بصفة خاصة، ولا سيما أن رسالة الإسلام هي رسالة عالمية إنسانية ممتدة في الزمان والمكان طولاً وعرضاً، أفقياً وعمودياً.

### مقاصد الدراسة:

تصبو الدراسة إلى تحقيق جملة مقاصد أهمها:

- رصد جانب من التراث النبوي الذي يؤصل للمواطنة ويَجَلِّي مضامينها.
- إبراز دور السنَّة النبوية في تعزيز بناء مجتمع قائم على مواطنة حقيقية بانية، وتجلية الانعطافات المهمة التي ساهمت من خلالها السنَّة النبوية في إرساء ركائز المواطنة.
- تسليط الضوء على مظاهر اهتمام السنَّة النبوية ببناء الإنسان المسلم المواطن في غير بلاده الأصلية.
- تحليل بعض الجوانب التي تحتاج إلى تعميق النظر وبذل المزيد من الجهد لتحليل المعطيات ورصد التغيرات الحاصلة اليوم.
- ردِّ الجميل للوطن الحاضن ببيان حقوقه والمحافظة عليه، والواجب تجاه حماته.
- الوفاء للوطن الأم بخدمته والدفاع عن مصالحه وإعطاء صورة إيجابية عنه.

### المبحث الأول: مفهوم "المواطنة" و"بلاد المهجر"

**أولاً: مفهوم المواطنة:** اشتقت كلمة المُوَاطَنة من كلمة "الوَطَنُ"، وهو مكانُ إقامةِ الإنسان ومقرُّه، وإليه انتماؤه، وُلد به أو لم يولد، ووطنٌ فلانٌ بالبلد: اتَّخذه محلاً وسكناً يقيم فيه، سكنه وألفه، والجمع: أوطانٌ<sup>(١)</sup>. وفي لسان العرب "الوَطَنُ: المنزِلُ تقيم به، وهو مَوْطِنُ الإنسان ومحله. وَطَنَ بلمكان وأَوْطَنَ أقام؛ وأَوْطَنُهُ: اتَّخذه وطناً. يقال: أَوْطَنَ فلانٌ أرضاً كذا وكذا أي اتَّخذاها محلاً ومُسكناً يقيم فيه. وفي صفة  : كان لا يُوطِنُ الأماكنَ أي لا يتخذ لنفسه مجلساً يُعرَفُ

١- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص: ١٠٤٢.

به. وأوطنتُ الأرض ووطنتُها توطينًا واستوطنتُها أي اتخذتها وطنًا، أما المَواطِنُ فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو مَوطِنٌ له، وفي الحديث: أنه نَهَى عن نَقْرَةِ الغُرَابِ وأن يُوطِنَ الرَّجُلُ في المكان بالمسجد كما يُوطِنُ البعير<sup>(١)</sup>؛ قيل: معناه أن يألف الرجل مكانًا معلومًا من المسجد مخصوصًا به يصلي فيه كالبعير لا يأوي من عَطَنِ إلا إلى مَبْرَكٍ دَمِثٍ قد أوطنَه واتخذهُ مُنَاخًا، وقيل: معناه أن يَبْرُكَ على ركبتيه قبل يديه إذا أراد السجودَ مثل بُرُوكِ البعير؛ ومنه الحديث: أنه نَهَى عن إِيطَانِ المساجد أي اتخذها وطنًا<sup>(٢)</sup>.

إن المعاني اللغوية السابقة تمكننا من القول: إن مواطن الإنسان متعددة ومختلفة، فالرحم وطن للحنين، كانت فيه سكينته واستقراره، وكلّ طرف من الزوجين يشكل وطنًا للطرف الآخر يجد فيه سكينته واطمئنانه واستقراره، والأسرة وطن، والقرية والمدينة وطن أوسع، والدولة أو القطر وطن أكبر، والأمة الإسلامية وطن، والعالم وطن للجميع، والجنّة موطن السعادة للمؤمنين يوم القيامة، كما أن النار موطن الكافرين والمكذابين.

ومفهوم المواطنة حاليًا مرتبط بالوطن الدولة، فلا يمكن تصوره بمعزل عن الجماعة السياسية ذات التعاقدات الاجتماعية والقانونية المؤطرة لمصالحهم وحاجياتهم، يقول عبد الإله بلقزيز: "المواطنة هي الهوية السياسية التي يكتسبها الفرد الاجتماعي بعد أن ينشأ نظام سياسي مفتوح يعترف له بحقوقه كاملة أمام الكائن السياسي الجماعي (الدولة) ويفرض عليه التزامات مادية مباشرة هي عينها التي تصنع شروط استمرار الكائن السياسي الفوقي ذلك، وتنظم السياسة كتدبير للشأن العام يختص به كل المواطنين"<sup>(٣)</sup>. وهو التعريف الذي يؤكد معيار الحقوق والواجبات كشرط تعاقدية لبناء مواطنة تجمع الوطن بالمقيمين به.

**ثانيا: المقصود ببلاد المهجر: مفردة مهجر: اسم، وجمعه: مهاجر، وهاجر: ترك وطنه،**

١- الحديث أخرجه ابن ماجة، رقم: ١٤٢٩، كتاب إقامة الصلاة و السنّة فيها، باب ما جاء في توطين المكان في المسجد يصلي فيه. وروايته؛ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَعَنْ فِرْشَةِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ كَمَا يُوطِنُ الْبَعِيرُ".

٢- ابن منظور، "لسان العرب"، مادة (وطن).

٣- عبد الإله بلقزيز، "في الديمقراطية والمجتمع المدني"، ص: ٦٢.

والمُهَجَّرُ: المكان يُهاجَرُ إليه أو منه<sup>(١)</sup>، والهجرة في علم السكان أو علم الديموغرافيا بشكل عام تعني الحركة السكانية التي ينتقل فيها الأفراد أو الجماعات من مكان الإقامة الأصلي أو من المكان الذي يعيشون فيه، ويتجهون للعيش في مكان آخر لفترة زمنية معينة، وقد يجتازون أثناء انتقالهم حدودًا إداريةً ودوليةً بين المنطقتين، ويكون الباعث في هذه الحركة السكانية الانتقالية، إمّا البحث عن الرزق، الذي يتجلى في الأسباب الاقتصادية، وإمّا لأسباب سياسية، أو علمية، أو أمنية<sup>(٢)</sup>.

فالهجرة عموماً هي انتقال من مكان إلى مكان آخر، وهي ظاهرة اجتماعية تاريخية عرفها الإنسان طيلة تاريخه لأسباب متعددة، حيث كان البحث دائماً عن مواطن عيش تتوفر على ظروف أفضل في موارد المياه، والغذاء، والأمن والاستقرار، والبعد عن المخاطر، حيث يترك الإنسان موطنه الأصلي ويغادره إلى مكان آخر، وهي حقل مهم من الحقول المعرفية في علم الاجتماع.

فالمقصود بالمسلمين في بلاد المهجر المسلمون المهاجرون إلى خارج أوطانهم، والمستقرون في بلد الهجرة، مع انتمائهم دينياً وعرقياً إلى وطنهم الأصل، فهم بذلك متعلقون بوطنين: وطن الإقامة ووطن النشأة.

## المبحث الثاني: المواطنة ودورها في التأسيس للدار العالمية بدل التقسيمات الثنائية

من الجوانب الكبرى في الفقه الإسلامي التي تحتاج إلى تجديد النظر والاجتهاد؛ واقع المهاجرين اليوم بخصائصه ومتغيراته، من أجل ملاءمة أسسه الشرعية وبناء قواعد جديدة قادرة على استيعاب أحكامه وتأطيرها لتواكب حاجياته وتلبي متطلباته. ولعل من أهم تلك المهمات مراجعة فهم بعض الآثار الفقهية القائمة على منع الإقامة ببلاد الكفر وتأويلها التي كانت لها سياقاتها الخاصة وظروفها المحيطة، ولا زال الكثير من أبناء المسلمين يرددونها دون مراعاة لتلك السياقات وما حدث من مستجدات ومتغيرات؛ فالملايين من المسلمين المقيمين في الغرب اليوم صاروا يشكلون رقماً وازناً في الدول المستقبلية لهم؛ إذ تشير بعض التوقعات المستشرقة للمستقبل أن المسلمين في بعض الدول

١- مجمع اللغة العربية، قاموس المعجم الوسيط، ص: ٩٧٣.

٢- عبد الله يوسف أبو عليان، الهجرة إلى غير بلاد المسلمين، حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية، ص: ١٦-٢٠. بتصرف.

الأوربية سيشكلون غالبية سكانها، ومن ثم فإن المطلوب بشدة هو الاجتهاد لتأسيس فقه التعايش، والتساكن، وتوسيع مفهوم المواطنة وأساسه ومترقاته لدى المهاجرين المسلمين في بلاد المهجر.

إن اختيار تلك الأعداد الهائلة من المسلمين ترك أوطانهم الأصلية والاستقرار في أوطان أخرى من العالم راجع إلى أسباب مختلفة، مرتبطة في عمومها بتوفر شروط الأمن والصحة وتوفر متطلبات الحياة وأهمها: الأمن البدني، والنفسي، والغذائي، والعلمي، المعرفي وغيرها. وقد أكدت السنة النبوية في بيان واضح تلك الدواعي، حيث يقول النبي الكريم ﷺ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَانِيًا فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup> وهو الحديث الذي يحدد بشكل واضح شروط العيش الكريم دونما ربطه بمكان معين سواء كان في بلاد المسلمين أو في غيرها من بقاع الأرض، فشروط الأمن والسلامة وتوفر متطلبات العيش هي المحددات الكبرى لاختيار موطن الإقامة وظروف العيش الكريم، ولا شك أن الأمن في السرب يشمل الأمن على الدين بإقامة شعائره وأداء أركانه وتعاليمه بكل حرية وسلم وأمان.

إن من الأسس المنهجية الموجهة للمواطنة العالمية تعزيز مفهوم الدار العالمية الواحدة وتجاوز كل التقسيمات التقليدية، (دار الكفر ودار الإيمان، دار دعوة ودار إجابة) فالأصل هو عدم القسمة، والواقع يفرض تجاوز التقسيم الثنائي للمعمورة إلى مفهوم الدار العالمية الواحدة خاصة بعدما غدت مشاكل العالم تم الجميع وتؤثر في الجميع، وانتشر المسلمون في جميع بقاع العالم وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من تلك المجتمعات الحاضنة لهم، ومن ثم أصبح لازماً تضافر جميع الجهود لإيجاد حلول عالمية للمشاكل الكبرى القائمة، ما يمهّد من جديد لبناء تصورات لمداخل الإسهام الإسلامي وإمكاناته في حل مشكلات عالمنا المعاصر وأزماته وتجاوزها.

إن استمرارية اعتماد التقسيم الثنائي للمعمورة من شأنه أن يشكل حاجزا نفسيا لدى الآخر لقبول دعوة الإسلام أو الانفتاح عليها، فإذا كان النبي ﷺ قد راسل ملوك عصره وعظماء زمنه بأوصاف محببة لديهم<sup>(٢)</sup>، فكيف يمكن لخطابنا أن يصل الآخر الموصوف عندنا بأقبح الأوصاف

١- أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٢٣٤٦، قال عنه: هذا حديث حسن غريب.

٢- من ذلك استفتاح الرسول عليه الصلاة والسلام رسائلهم إليهم بقوله: "إلى هرقل عظيم الروم" و "إلى كسرى

لديه. فهذه القسمة "تتخذ اليوم حجة بأن المسلمين لا يمكن أن يكونوا مصدر استقرار في العالم؛ لما في دينهم من تعاليم - بحسب زعم هؤلاء - من أحكام تنفي الآخر، ورغم أن المسلمين في جميع أنحاء العالم - اليوم - هم المعتدى عليهم وهم الذين يتعرضون لسائر أنواع العدوان"<sup>(١)</sup>، فمن شأن الاستمرار في تنزيل تلك المقولات في التداول الإسلامي أن يزيد من قتامة النظرة الغربية إلى الإسلام والمسلمين، ويزيد من اشتعال فتيل التطرف والعنف من قبل الطرف الآخر، خاصة من الحركات اليمينية المتطرفة، وردود أفعال الذات، ما يُقوّض من إمكانات التواصل والتفاعل بين الشعوب والأمم، وعضو القرب والتآلف يزداد البعد والعداء، وبدل الانفتاح والاستيعاب يزداد الانغلاق والانفلات.

ومما يعزز مفهوم الدار العالمية المعطى الإحصائي الذي يتجلى في الأعداد الكبيرة والمتزايدة للمسلمين في بلدان خارج عالم المسلمين الجغرافي، بل إن بعض المناطق قد أصبح فيها عدد المسلمين يشكل قوة ضاغطة في توجيه بعض سياسات تلك البلدان وتوجهاتها. فما قيمة أن يتم تقسيم العالم إلى قسمين لا علاقة تجمع بينهما إلا الحرب والصراع، وكيف يمكن التواصل مع الآخر إذا كانت القاعدة الحاكمة، أن كل ما هو خارج أقاليم الإسلام يشكل كتلة واحدة ينبغي محاربتها، "فالمفروض في فقه التعامل مع الآخر أن يستبعد كل التصنيفات التاريخية التي كانت محكومة بظروف حرب مرافقة لحصار الدعوة نحو: دار الكفر والإيمان، ودار السلم والحرب؛ فالغرب الآن فيه ما يزيد عن ثلاثين مليون مسلم، بما يعادل مجموع دول كثيرة في العالم الإسلامي. كما ينبغي تجاوز ثنائيات فكرية وسياسية كثيرة جعلتها المركزية الغربية المعاصرة عوائق وموانع أمام التواصل والتفاعل الإيجابي بين الشعوب ومنها: (الأنا والآخر، الحداثي والماضوي، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الإسلام والغرب...)"<sup>(٢)</sup>.

فهذا التقسيم ضرب من التكلّف وُبعد عن الواقع وتضييق آفاق الرسالة ذات البعد العالمي، ومعيق معنوي ورمزي ومادي لكل الجهود المبذولة من أجل تعزيز قيم المواطنة المشتركة لكل الفئات

عظيم الفرس"، و"إلى المقوقس عظيم القبط" و"إلى النجاشي عظيم الحبشة".

١ - طه جابر العلواني، "مقاصد الشريعة"، ص: ٥٦.

٢ - سعيد شبار، "الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية"، ص: ١٤٨.

والتشكيلات في الدار العالمية، ومن ثم فإنه من حقنا في زماننا أن نطلق ما نراه مناسباً من توصيف، فلا وجود لتوصيف ثابت مقرر وإنما هي أمور تفاعلية بناءً على الواقع وبناءً على نوعية الآخر وموقفه، وبناءً على قاعدة المعاملة بالمثل وعلى سياق المناخ الدولي.

### المبحث الثالث: قيم المواطنة من خلال السنة النبوية وقدرتها على الاستيعاب والدمج

صحيح أن مفهوم المواطنة مفهوم حادث وطارئ، تدور معانيه حول الانتماء إلى الوطن والإقامة به والارتباط بثوابته وخدمته وحمايته والدفاع عنه، ولكن تكمن أهميته في مضامينه وآثاره وتجلياته على الواقع، ومدار تلك الآثار قائم على نُظم، وقوانين، وتقاليد، وأعراف، ومعاملات، وسلوكيات تنظم حياة الناس سواء كانوا مؤتلفين أو مختلفين، ومن تلك المظاهر العملية ما هو ثابت ومنها ما هو متغير، ومن ثم فإن المفهوم في حقيقته هو تعبير عن تراكم العطاء الإنساني في مجال السلوك والقيم والمعاملات على المستويات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية. وتشكل التجربة الإسلامية بروافدها المختلفة أحد الإسهامات الكبيرة في الرقي بمضامين مفهوم المواطنة على أسس متينة في المسيرة الإنسانية؛ فلقد احتضنت بلاد المسلمين مختلف الطوائف والأديان، وقدمت نماذج راقية في التعامل معهم تجلّى ذلك في ضمان حقوقهم والدفاع عنهم وإقامة العدل بينهم ومعهم، ونصرة المظلوم وإعانة المحتاج منهم، ومساعدة المرضى والضعفاء من جميع الملل، وحماية أماكن عبادتهم وضمنان ممارسة شعائرهم والتعبير عن آرائهم وقناعاتهم، تجسّد ذلك منذ فجر الدعوة المحمدية؛ إذ قدّمت التجربة النبوية بقيادة الرسول الكريم محمد ﷺ نموذجاً فريداً في تعزيز قيم بناء الأوطان والوفاء لها وحماية مكوناتها المعنوية والمادية.

إن المسلمين المهاجرين يجدون عزاءهم بالإحساس بالغربة والبعد عن الأوطان متجسداً في حياة الرسول الكريم ﷺ؛ لقد تعرض عليه السلام للاغتراب عن وطنه الأم مكة المكرمة، فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال في حق مكة عند الهجرة منها: " مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدَةٍ، وَأَحَبَّ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(١)</sup>، وهي "عبارة نبوية بليغة تترجم عن شعور النبي ﷺ نحو

١- صحيح بن حبان، كتاب الحج، باب فضل مكة، ذكر البيان بأن مكة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ، رقم ٣٧٠٩.

بلده ووطنه، وعن حبه له، وشوقه إليه، وحرصه عليه، وتبين لنا أن الرسول ﷺ لم يترك مكة كرها لها، أو رغبة عنها، أو استخفافاً بشأنها، ولكنه خرج منها مكرهاً، ولولا هذا الإكراه ما فضل عليها بلداً آخر<sup>(١)</sup>؛ فاللوطن منزلة خاصة في قلب الإنسان، خاصة الوطن الأول، وطن النشأة والطفولة والترعرع، حيث يكبر الإنسان ويكبر معه حبّ المكان كيفما كان، وعند مغادرته يظل الحنين راسخاً، والشوق مستمرًا. ولا يعني ذلك إهمالاً للوطن المستقبل أو التنكر له، بل يصبح بدوره وطنه الثاني ما دام فيه مستقره وموطنه، يدافع عنه ويحميه من مسببات الهدم ويسعى لرفعته ورقبه، فقد كان ﷺ وفيًا للوطن المستقبل وللوطن الأمّ معاً، فقد كان من دعائه عليه الصلاة والسلام كما روت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ"<sup>(٢)</sup>، ولا أدل على ذلك الحب أن المدينة كانت محط استقراره وموطن قبره عليه السلام. أما حياته فيها فكانت كلها جهداً وعطاءً، فمنذ أن وصل إليها عمل بجد واجتهاد لتقوية التماسك المجتمعي، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف، واستيعاب مختلف الفئات المشكلة للمجتمع، وتوجيه قواها للعطاء، والتعاون، والتربية والتعليم ونشر قيم الخير والصلاح، والتصحيح على قيم الظلم والفساد، وهي القيم التي اهتمت بالأصول والكليات كما اهتمت بأدقّ التفاصيل والجزئيات، اهتمت بأركان الدولة ولم تهمل حقوق النملة، ولم تتغافل عن تنقية العقول وتقويتها، وصفاء القلوب وفعاليتها، فكانت قيماً جامعة مانعة بانية للخير هادمة للشر، مؤسسة للصلاح في كل زمان ومكان، فكانت بحق تجربة رائدة لاستلهام قيم المحافظة على الأوطان وحمائتها وتعزيز بنائها.

ولقد تضافرت بشكل موسع النماذج التي وصلتنا من السنّة النبوية في تعامل النبي ﷺ مع الناس أجمعين، المسلمين المؤيدين منهم أو المخالفين في الدين من اليهود والنصارى والمشركين، لما في ذلك من المقاصد الإيجابية الخفية والظاهرة على وطن المدينة وحوزة المسلمين والناس أجمعين. فقد سمع بالرسالة الجديدة كثير من الأقوام، ومنهم من فارق وطنه والتحق بموطن الدعوة والرسالة. وقد كان منهج تعامله مع الفئات الوافدة من الأمم الأخرى منهجاً فريداً ومميزاً وراقياً، جسّده مكارم أخلاق النبي الكريم وتوجيهاته النيرة، لإعداد الأحضان الدافئة وتعزيزها في مجتمع عربي أصيل من

١- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص: ٣٢.

٢- صحيح البخاري، فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، رقم: ١٨٨٩.

أجل استيعابهم ودمجهم حتى صاروا عنصراً أصلياً من المجتمع وطرفاً محورياً لا هامشياً، وأساسياً لا ثانوياً. وقد تعزز ذلك بتوجيهات الوحي الواضحة، القائمة على ترسيخ مبادئ الأخوة، والتسامح، والتضامن، والتكافل، واحترام الكرامة الآدمية، حيث أسهمت تلك الأسس والتوجيهات بشكل كبير في استيعاب القادمين من الأمم المجاورة ودمجهم بمنهج خلاق وبطريقة انسيابية؛ فجعلتهم جزءاً لا يتجزأ من المجتمع المسلم، لهم ما لبقية أفرادهم وعليهم ما على غيرهم. وقد كانت لهم أدوار حقيقية على واجهات متعددة، نذكر من هؤلاء بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي وغيرهم. فكان ذلك تطبيقاً عملياً ونموذجاً واقعياً لتوفير الأحضان الدافئة لمن ترك وطنه والتحق بوطن آخر يجد فيه راحته وسكينته. وهذا الإحساس بالانتماء الكامل للوطن الجديد أكدته كذلك "نظريات المواطنة المعاصرة المستمدة من علم الاجتماع والتي تستند أصولها من كتابات مارشال الذي عرّف المواطنة بأنها تلك المكانة التي يتمتع بها شخص ما باعتباره عضواً كامل العضوية في مجتمع معين"<sup>(١)</sup>.

ومن الأمثلة البارزة الدالة على تضحية المسلمين وصبرهم، في تلك الفترة، المنهج الفريد الذي استقبل به الأنصارُ بالمدينة المهاجرين القادمين من مكة المكرمة، فإذا كان المهاجرون قد تحملوا آلام فراق الوطن الأصل والتضحية بممتلكاتهم وأموالهم من أجل اللحاق بالموطن الجديد للدعوة، فإن الأنصار قد عبّروا عن قمة التضحية والبذل والكرم، جسده تضامناً غير المشروط مع المهاجرين ووضع أموالهم وممتلكاتهم رهن إشارتهم بل وقسمتها معهم، عَن أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ الْمُهَاجِرُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةَ أَحْسَنَ بَدَلًا مِنْ كَثِيرٍ، وَلَا أَحْسَنَ مُوَاسَاةً مِنْ قَلِيلٍ، قَدْ كَفَوْنَا الْمُؤْنَةَ، وَأَشْرَكُونَا فِي الْمَهْنَةِ، فَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونُوا يَذْهَبُونَ بِالْأَجْرِ كُلِّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: كَلَّا، مَا أَتَيْتُمْ بِهِ عَلَيْهِمْ وَدَعَوْتُمْ اللَّهَ لَهُمْ"<sup>(٢)</sup>؛ فالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كانت تأكيداً للأخوة الإنسانية، وتجسيداً لنوازع الخير الموجودة في الإنسان، التي تنتظر

١- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص ١٧ (نقلاً عن موسوعة علم الاجتماع ٢٠٠١م/١٤١١هـ).

٢- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الهبات - جماع أبواب عطية الرجل ولده - باب شكر المعروف، رقم: ١٢١٥٩.

من يستحثها للبروغ ويستثيرها للظهور<sup>(١)</sup>.

من جانب آخر لم يكن لدى هؤلاء الوافدين أي إحساس بالغبية أو الدونية، بل اعتبروا أنفسهم عناصر فاعلة داخل المجتمع الجديد يهتمهم ما يهمهم ويضرهم ما يضرهم، فانخرطوا فيه بإيجابية وعطاء وكان لهم اسهامات وإنجازات وبطولات مشهودة، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَأَخَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنَى، فَقَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَقْسِمُكَ مَالِي نَصْفَيْنِ وَأُزُوجُكَ، قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، ذُلُّونِي عَلَى السُّوقِ، فَمَا رَجَعَ حَتَّى اسْتَفْضَلَ أَقْطًا وَتَمَنَّا، فَأَتَى بِهِ أَهْلَ مَنْزِلِهِ فَمَكَثْنَا يَسِيرًا، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، فَجَاءَ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهَيْمٌ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَ: مَا سَأَلْتِ إِلَيْهَا، قَالَ نَوَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ وَزَنَ نَوَاءٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: أَوْلِمَ وَلَوْ بِشَاةٍ<sup>(٢)</sup>. فهذا الموقف يؤكد على قيمة العمل في أي بلد يحط به الإنسان رحاله، خاصة وأن قيمة العمل هي قيمة تدافعية تفاعلية بين الناس، تحتاج إلى تفهم الواقع ومعرفة قواعده وقوانينه وحاجياته ومتطلباته.

فمجال الأموال والمعاملات مثل: البيع والشراء المباحين، هو فضاء مفتوح لكل الناس دون اعتبار للدين في مبدئية عقد البيوع وغيرها، ولا شك أن التوجيهات النبوية الموجهة في هذا المجال والمرحلة النبوية عموما تعطي للدارسين نبراسا نيرا ينسحب على كل من غادر وطنه واستقر في بلاد أخرى باعتبارها توجيهات عامة يمكن تبنيها وتكييفها بحسب الظروف والسيئات وملابساتها وخصوصياتها.

أما على مستوى الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية، فالأصل في الإسلام أن يضمن الحرية

١- من الأمثلة التي تؤكد نزعة الخير المركوزة في الإنسان ما حدثني به بعض المهاجرين الأوائل الذين وصلوا إلى الديار الأوربية في الثمانينات من القرن الماضي عن طريق الهجرة غير الشرعية، حيث كانوا في أحيان كثيرة يبيتون تحت القناطر والأماكن المهجورة، فكان بعض السكان المحاورين يتعجبون لحالهم ويستغربون لمناظر لم يألفوها في واقعهم، فيأتون لهم بالمال والطعام تضامنا معهم ومواساة لهم. ومع مرور الوقت وتوافد المزيد من المهاجرين بدأ ذلك الإحساس التضامني يقل، كما رافق واقع المهاجرين مشاكل أخرى معقدة فرضت نهج تدخلات منظمة ومقاربات متعددة.

٢- صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالى فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض، حديث رقم ٢٠٤٩.

لأداء الشعائر الدينية دون تنقيص أو احتقار؛ فقد كان أهل الكتاب مجاورين للنبي ﷺ في المدينة، وجاء مرة وفد نصارى نجران، فأنزلهم في المسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه، فكانوا يصلون في جانب منه، ورسول الله والمسلمون يصلون في جانب آخر<sup>(١)</sup>. نموذج آخر يؤكد ذلك التسامح الديني الفريد في زمن النبوة وهو "لما جاء وفد نصارى الحبشة، أنزلهم رسول الله في المسجد، وقام بنفسه على ضيافتهم وخدمتهم، وكان مما قاله يومئذ: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحب أن أكرمهم بنفسي"<sup>(٢)</sup> وهذا التسامح في الدين بإقامة شعائرهم الدينية في المسجد يدل من باب أولى على ضرورة التسامح في باقي مناحي الحياة الدنيوية ومتطلباتها.

### المبحث الرابع: مداخل حماية الوطن من خلال السنّة النبوية

يدل حال المسلمين اليوم في البلاد الغربية وفي غيرها من بلدان العالم التي اختاروها مواطنين بديلة، إنه لا بد من خلق صيغ موائمة جديدة قائمة على تفعيل قيم التواصل والتعاون، وتغليب منطق المصالح والمفاسد، لتحقيق الخير لهم وللإسلام والبلدان المستقبلية والحاضنة لهم. ولرسالة الإسلام بعد إنساني قائم على أساس الأخوة والمحبة الإنسانية، وهو بعد يُعد البلد المضيف وطنا حقيقيا للسكان فيه، ويُعد قاطن هذا "الوطن البلد" إنسانا أخا ضمن أسرة ممتدة موسعة، كلّ ما يعنيه يعنيه، وكل ما يضره يضره، وكل ما ينفعه ينفعه، وكلها مبادئ موافقة للبعد الاستخلافي بمفهومه العام والشامل.

ومن جهة أخرى، فقد أشار الكثير من الآيات القرآنية والتوجيهات النبوية إلى أسس التعامل بين الأفراد والجماعات، وجاءت العبارات والنصوص الدالة على ذلك بصيغ العموم والاستغراق بغض النظر عن الدين أو العرق أو الجنس (الناس، بني آدم)، خاصة فيما يتعلق بالمعاملات والقيم ومكارم الأخلاق، وفي هذا السياق يندرج قوله ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ"<sup>(٣)</sup>. فالمواطنة

١- ابن كثير "تفسير القرآن العظيم"، ٢ / ٤٢.

٢- ينظر: "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية" لأبي القاسم عبد الرحمن أحمد بن أبي الحسن، ١٧٩/٢

٣- السنن الكبرى للبيهقي - كتاب الشهادات - جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز - باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها، رقم: ٢٠٨٣٩.

من هذا المنظور تعزيز للمشارك الإنساني وتقوية للبناء القيمي والأخلاقي، ومن ثم يمكن عدّها أحد روافد الإعمار والاستخلاف بالمفهوم القرآني، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولعل ما سبق يعزز مفهوم الدار العالمية التي تسع الجميع مهما اختلف الدين وتباينت العقائد، وكلها توجيهات متوافقة ومنسجمة مع المحددات المنهجية القرآنية التي تؤكد عالمية رسالة الإسلام وعالمية دعوة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾<sup>(٥)</sup>، ويقول النبي ﷺ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طَيْبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".<sup>(٦)</sup> فمن ميزات المسلم إنه إنسان منفتح غير منغلق، مستوعب وحاضن لكل خير نافع للناس، كما إنه مصدر للخير والنفعة للناس، وتوجيهات النبي الكريم لا تقتصر على وجود المسلمين في بلد دون آخر، وإنما هي توجيهات عامة ودستور حياة المسلم في كل زمان ومكان، وذلك من متعلقات عالمية رسالته.

إن المواطنة، باعتبارها مفهوما مجردا، لا تتحقق فاعليته وتأثيره وعطاؤه إلا بما يحيط به من قرائن ومتعلقات تعتبر سنده ومنبع قوته، وتدور تلك المتعلقات المرجعية المؤطرة له حول قيمه الروحية ومضامينه المادية، ومكونات الفضاء البشري الأصلية، إضافة إلى الظروف الخارجية المحيطة

١- سورة يونس، الآية ١٤.

٢- سورة الأعراف، الآية ١٢٩.

٣- سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

٤- سورة النساء، الآية ٥٨.

٥- سورة المائدة، الآية ٤٢.

٦- سنن داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجار، رقم:

التي تجسدها التحديات والإكراهات، التي غالبا ما تكون دافعا للتجويد والعطاء. ويمكن استقراء جملة من مداخل حماية الوطن استنادا إلى السنّة النبوية نجملها فيما يلي:

**أولا: المدخل العاطفي النفسي الوجداني:** وهو أساس الارتباط بالوطن، ومنبع القوة الروحية الدافعة إلى حمايته معنويا وماديا؛ إذ إن الوجود المادي للوطن والمواطن لا يجدي نفعا دائما ومستمر ما لم توجد تلك الرابطة الوجدانية العاطفية التي تؤلف بينهما، ولقد ضرب لنا النبي ﷺ أروع الأمثلة في الارتباط النفسي بالوطن والإخلاص له، وقد أشرنا سابقا إلى ارتباطه الكبير بمكة المكرمة وحبها لها وعدم رغبته في الخروج منها، رغم ما تعرض له في دعوته من الصّد والمنع والاستنكاف والإعراض عن العدوان الذي انتهى بالمقاطعة والمطاردة لصاحب الرسالة والأتباع وتعذيبهم واضطهادهم، فضلا عما رمي به عليه السلام من أوصاف السحر والشعوذة، والشعر، والجنون، والكهانة، بل والعزم على القتل. ورغم تلك الظروف القاسية كان عليه السلام وفيًا لوطنه محبا له، راجيا هداية قومه، وراغبا في البقاء به، "فالإنسان هو ابن بيئته، لا يستطيع أن ينفصل عنها ولو بالبعد، ولا يمكنه التخلص من آثارها ولو خرج من إطارها، فإن ما تأثر به المرء في وطنه - وهو بيئته - من أرض وهواء وماء وغذاء، وأصل ونسب، وسلالة ووراثة، وظروف بيئية أخرى، تسيطر عليه في أعماقه، وتحيط بأفاقه، سواء عليه أدق النظر فرآها أم غفل فغاب عنه مرآها؛ ولذلك كان ارتباط الإنسان بوطنه جد عميق، وجدّ وثيق"<sup>(١)</sup> وفي ذلك تأكيد للبعد العاطفي للمواطنة، وتجسيد "الشعور الفرد بالارتباط بالوطن والانتماء للجماعة، أي بارتباط مستقبله بمستقبلها وانعكاس كل ما يصيبها على نفسه، وكل ما يصيبه عليها، وهذا يأتي من شعور الفرد بالمصالح المشتركة بينه وبين أفراد الجماعة والعلاقة بينه وبينهم، وارتباط مصيره بمصيرهم ومصيرهم بمصيره"<sup>(٢)</sup>.

لقد كان حبّ الوطن سببًا في نزول بعض من آيات القرآن الكريم على النبي ﷺ، أخرج ابن أبي حاتم عن الضحّاك قال: لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ

١- أحمد شرباصي، "الدين والمجتمع"، ص: ٣٥

٢- سعيد إسماعيل علي، "المواطنة في الإسلام"، ص ٥٣.

وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ومن تجليات تلك العاطفة الجياشة رغبة النبي ﷺ في تحويل القبلة اتجاه الكعبة بمكة المكرمة، قال تعالى: ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

ومن مقتضيات المدخل العاطفي النفسي الوجداني الولاء للوطن والوفاء له والاعتراف بالخير والجميل له، ومن الأمثلة التي تؤكد ذلك روعة الوفاء عند المهاجرين وهم يفرحون بانتصار النجاشي على عدوه حين نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت أم سلمة: "فوالله ما علمتُنا حزناً حزناً قط كان أشد علينا من حزن حزناه عند ذلك، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه" (٣). وقد جسّد الموقف وفاء المسلمين، وحذرهم من الفوضى، وتعبيراً صادقاً عن انتمائهم للمجتمع الجديد وما يملي عليهم من واجبات المواطنة اتجاه الوطن الجديد.

ومن متعلقات الوفاء بالوطن إتقان الأعمال والمهمات، ومناهضة الفساد وعدم التستر عليه، والسعي إلى توطيد دعائم السلم والاستقرار، ومساعدة الضعفاء والمرضى والمحتاجين، والمبادرة إلى فضائل الأعمال والخيرات، وتحمل المسؤوليات المدنية للدفاع عن حقوق المسلمين لجنّي المكتسبات الميسرة للعيش الكريم.

فلا شك أن ارتباط المسلمين بمجموعيتهم العليا (القرآن الكريم و السنّة النبوية الصحيحة) يعد رافدا مهما لترسيخ الإيمان بالمبادئ الكبرى الموجهة للقول والفعل؛ إذ إن ذلك البعد النفسي الإيماني والعاطفي الوجداني هو الذي جعل قلوب المسلمين جميعاً متعلقة بالتجربة النبوية التي استطاعت تأسيس نموذج كان قائماً على الاحترام والالتزام الطوعي للقانون، والاهتمام بالعمل العام والرغبة في القيام بأعمال تطوعية لخدمة المجتمع الذي يعيش فيه الفرد حتى لو تطلب الأمر تضحية بجانب

١- سورة القصص، الآية: ٨٥.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

٣- ينظر: السيرة النبوي لابن هشام ابتداء من ٢١٨/١.

من جوانب مصالحه الخاصة، وصولاً إلى الاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الدفاع عن الدولة ضد ما تتعرض له من تهديدات<sup>(٤)</sup>.

**ثانياً: المدخل القيمي الأخلاقي:** الذي يعزز المشترك الإنساني، ويبرز جمالية قيم الإسلام وقدرتها على الاستيعاب والدمج، كما يمنح تلك القيم أبعاداً رسالية وحضارية، ولقد تعامل النبي ﷺ طيلة مسيرته الدعوية مع طوائف عدة فئات مختلفة من المجتمع، تأثرت بأخلاقه وشيمه الإسلامية الرفيعة، سواء في تعامله مع أصحابه أو أهل بيته، أو مع الصبيان والنساء، أو مع المخالفين له في الرأي والدين والعقيدة، من اليهود والنصارى والمشركين المسلمين، أو من الأعداء والمخربين، حيث كان في غاية التواضع والسماحة والودّ والاحترام، وكان يعامل جميع الناس بالحسن والعدل، بل إن سعيه لرد الحقوق وإقامة العدل وصد العدوان كان على قدم المساواة بين المسلم وغير المسلم.

ونذكر في هذا السياق موقفاً عظيماً للنبي عليه الصلاة يفصح عن الصبر والاحتساب، وهو خلق كريم تشتد حاجة المسلمين إليه اليوم في جميع بقاع الأرض نظراً لكثرة التشكي والأذى وتعدد متطلبات الحياة وتداخلها، يقول ابن القيم رحمه الله: "تأمل حال النبي ﷺ، إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسلك الدم عنه، ويقول: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" كيف جمع بين هذه الكلمات الأربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟ أحدها؛ عفوه عنهم، والثاني؛ استغفاره لهم، والثالث؛ اعتذاره عنهم، بأنهم لا يعلمون، والرابع؛ استعطافه لهم بإضافتهم إليه، فقال: "اغفر لقومي" كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي فهبه لي"<sup>(٥)</sup>.

ومما يرتبط بهذا المدخل جانب الهداية والخيرية؛ إذ إن وجود المسلمين في غير بلاد المسلمين يشكل فرصة ينبغي أن تُستثمر في الدعوة إلى الهدى والخير والصلاح، بحكمة ورفق ولين، وأفضل الدعوة ما كان بالسلوك والمعاملات والتخلق بقيم الإسلام التي تعطي صورة جميلة عن حقيقته

٤- محمد سعد أبو عامود، "المواطنة المصرية والعروبة، حصاد هجرة العمالة المصرية" ص: ١٢٩٠.

٥- التفسير القيم لابن القيم الجوزية، ص: ٥٨٩.

وحقيقة مضامينه، قالت عائشة رضي الله عنها في وصف خلق النبي ﷺ "كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنَ"<sup>(١)</sup>.... يقول ﷺ: "فَوَ اللَّهُ لَأَنَّ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ التَّعَم"<sup>(٢)</sup>، والمسلمون الأولون إنما نشروا الإسلام في العالم بأخلاقهم، وسلوكياتهم أكثر من أقوالهم أو خطبهم.

وهذا التعامل الراقي مع الآخر يعكس من جهة الصورة الإيجابية عن الهوية والدين والثقافة لدى المسلمين، كما يعكس من جهة أخرى الصورة الإيجابية عن البلد الأصل وعن أهله، فيكون بذلك سفيرا عن وطنه وممثلا عنه من خلال القيم والأخلاق المؤطرة للعمل والسلوك. فرقي الهوية والانتماء الوطني مرتبط أشد الارتباط بأنماط تعامل أهلها مع الآخرين خارج أوطانهم، وما يؤكد ذلك ما يبثه الإعلام وينشره من أحداث عن المهاجرين ووقائعهم، فحين تُذكر بطولاتهم ومواقفهم الإيجابية فإنها تحيلهم إلى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها، وحين تذكر في المقابل مواقفهم السلبية فإنها تربطهم بمواطنهم التي قدموا منها، ومن ثم فإن المهاجرين يعدون سفراء عن بلدانهم وهم مسؤولون بنسب معينة عن التمثلات والصور الذهنية التي تتشكل لدى المجتمع والإعلام في بلدان إقامتهم.

فالأصل عند المسلمين أنهم خير الناس لكل الناس، ومن أهم مضامين تلك الخيرية فعل الخير للناس جميعا، والنصيحة والرحمة بهم، والسعي لهم فيما فيه الصلاح والسعادة لهم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثالثا: المدخل الحواري التواصلي الحضاري: من المحددات القرآنية الكبرى سنة التعارف والتعاون بين الناس، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾<sup>(٤)</sup>، فالتعاون بين الأمم والشعوب فضلا

١- مسند أحمد بن حنبل - مسند عائشة رضي الله عنها، حديث رقم " ٢٥٢٤٠.

٢- صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، حديث رقم: ٣٠٠٩.

٣- سورة آل عمران، الآية: ١١٠

٤- سورة الحجرات، الآية: ١٣

عن المجتمعات الأفراد أصبح أمراً مؤكداً وضرورياً، لأنه يحمي الأوطان جميعاً من الهلاك والضياع، وقد حدد القرآن الكريم موضوع هذا التعاون ضمن مبدأ عام وهو: البر والخير، كيفما كان نوع هذا الخير، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾<sup>(٢)</sup>، ومن سبل الخير بذل الجهد لمحاربة الشر. كيفما كان نوع هذا الشر.

ويشمل التعاون كل المجالات: الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلمية وغيرها من مجالات الخير والصلاح، ويتخذ صوراً شتى؛ تعاون دولي لمواجهة قضايا تمم العالم أجمع: محاربة تلوث البيئة، تسليم المجرمين، التنمية الاقتصادية، عقلنة استغلال ثروات البر والبحر والفضاء، الحفاظ على سلامة الأماكن المقدسة.

ومن تجليات ذلك التعاون علاقات الإخاء والمخالطة الإيجابية بين المهاجرين وغيرهم من أهل الديار المستقبلية، بل إن طرائق تعاملهم قد تكون سبباً يدفع الكثير من أهالي تلك البلدان إلى زيارتهم في مواطنهم الأصلية من أجل التعرف أكثر على التقاليد والعادات والقيم السائدة في بلدانهم، فيكون ذلك أحد جوانب التواصل الحضاري، ومدخلاً للتقريب بين أهل الديانات والملل، وتضييق شقة الخلاف والصراع بينهم، وتوسيع دائرة المشترك الإنساني من خلال التأسيس لمواطنة عالمية تؤلف بين الجميع وتوحدهم.

ومن تجليات ذلك التواصل التعاون على حفظ الأمن والسلام والاستقرار، التي تعدّ من أهم مقاصد الإسلام الكبرى، الأمن على الدين وعلى النفس وعلى العرض وعلى العقل وعلى المال، قال الرسول ﷺ: "الْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ"<sup>(٣)</sup>؛ فالمؤمن يحقق مبادئ السلام الكبرى للإسلام أينما حل وارتحل. ومن ابتلاءات الزمن المعاصر اتهام الإسلام وأهله بالإرهاب والعنف والتطرف، وإن وجود المسلمين في أحضان البلدان

١- سورة المائدة، الآية: ٢

٢- سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

٣- سنن ابن ماجه، أبواب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، رقم: ٣٩٣٤.

الغربية يشكل فرصة عظيمة لتصحيح تلك المغالطات والدعاوى وتفنيد الاتهامات والادعاءات المنتشرة في الإعلام بجميع أصنافه، والإسهام في معالجتها، وطريق ذلك المخالطة الإيجابية معهم، والمشاركة المسؤولة في المنتديات والمطارحات الفكرية والعلمية التي تناقش قضايا العنف والتطرف والإرهاب. وينبغي أن تكون تلك المشاركة مبنية على العلم الصحيح والبحث الرصين والمعرفة الدقيقة بالأدلة القوية حتى تكون رسالتنا واضحة قوية لا غموض فيها ولا لبس. فحماية الحقيقة ورعايتها يمنع من توسيع دائرة الكذب والبهتان المؤدي إلى الصراع والافتتال، ففي ذلك حماية للأرواح والأوطان ودعم للحق والحقيقة. مستنيرين في ذلك بالآثار النبوية المتضافرة التي تدعو إلى الرفق والرحمة والسماحة، يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: " إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"<sup>(١)</sup> وفي صحيح البخاري، قال ﷺ " إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ"<sup>(٢)</sup> وفي حديث آخر يقول النبي الكريم في وصيته لمبعوثيه إلى اليمن معاذًا وأبا موسى: " يَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعًا وَلَا تُخْتَلِفَا"<sup>(٣)</sup>.

**رابعاً: المدخل الحقوقي:** يرتبط وجود المسلمين في بلاد المهجر بسياقات داخلية وخارجية، فضلاً عن تعقد أبعادها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ فالظاهرة مرتبطة بطرفين؛ الذات والآخر، نحن والغرب، وهما طرفان تجمعهما الأخوة الإنسانية، وليس التقابل كما في بعض الأدبيات الغربية، فالتمييز هنا تمييز منهجي يرجى من خلاله البحث للآخر عن موقع في الذات، والبحث للذات عن مواقع مناسبة لدى الآخر. وما دام سياق الحديث مرتبطاً بالذات أولاً فإن أي تأصيل نظري للمدخل الحقوقي سيكون موجّهاً بالأساس إلى الذات، المطالبة بالوعي التام بشروط الواقع الجديد الذي له قوانينه ونظم اشتغاله وطرائق تديره التي تفرض علينا اجتهاداً وتنقيحاً لتجميع المعطيات وتكييفها بحسب الخصوصيات والإكراهات والتحديات، وإيجاد المداخل المناسبة لجلب أكبر قدر ممكن من المنافع والمصالح المتبادلة، وقد يكون لذلك أثره لدى الآخر في تعديل نظرتة

- 
- ١- صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم: ٢٥٩٣.
  - ٢- صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم - باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ولم يصرح، رقم: ٦٩٢٧.
  - ٣- صحيح البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم ٣٠٣٨.

وتكليف قوانينه وتحيين معطياته فيما يرتبط بقضايا المسلمين.

فلا شك أن المسلمين مطالبون بمعرفة دقيقة بكل القوانين المتعلقة بوجودهم في بلدان إقامتهم، لا عذر لهم بجهل القانون، وإلا سيفسد حالهم وتضيع حقوقهم ويخطون خبط عشواء في معاملاتهم، فالخبرة في هذا المجال أمر أكد ومطلوب، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾<sup>(١)</sup> فهذه المعرفة سبيل احترام القانون وجني المكتسبات والتنبيه إلى الثغرات والسعي إلى تكيف العقبات ثم العمل على طرق سبل تعديلها جلباً للمصالح ودرءاً للمفاسد. وينبغي في هذا الصدد الاستفادة من منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التفاوض مع الغير من أجل جني المكتسبات العظيمة والخيرات الحميدة، وذلك عند تفاوضه عليه السلام في صلح الحديبية مع سهيل بن عمرو، حيث تنازل النبي ﷺ عن كتابة اسمه وصفة الرسالة أثناء تدوين معاهدة الصلح مع المشركين؛ إذ كانت عينه عليه السلام متجهة صوب المقاصد المستقبلية الكبرى للدعوة وبركات ذلك على الإسلام والمسلمين بعد تحقيق الهدنة ووضع أوزار الحرب. فأوضاع الأمن والسلام تمكن من صفاء الرؤية، فتسكن القلب للإسلام وتفتح العقول لتأمل توجيهاته وتدبر أحكامه. والمسلمون اليوم في جميع بقاع الأرض محتاجون إلى هذه الحكمة النبوية التي دلت على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مستوعباً للجزئيات والتفاصيل متجاوزاً لها إلى الأصول والكليات، ومستوعباً للأشكال والمظاهر متجاوزاً لها إلى المقاصد والجواهر، ومستوعباً للمرحلة التاريخية الراهنة التي عاشها متجاوزاً لها إلى الآفاق المستقبلية القادمة. ومن أهم ميزات المسلم أنه يستند إلى أرضية صلبة متعالية، لا يضحى بالمبادئ والأصول من أجل متغيرات ظرفية، لأنه يعرف غاياته ومقاصده الكبرى ويسعى لتحقيقها في ليونة مع التحديات والعراقيل، بمنهج تنزيلي قائم على الإخلاص وتحقيق المصلحة الشرعية، والصبر والتأني والحفاظ على المكتسبات والبحث عن أنوار الآمال من برائن الخن والآلام.

كما أن قوله عليه الصلاة والسلام: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"<sup>(٢)</sup> دليل على ضرورة أداء الأمانات والمسؤوليات وإتيان الواجبات والمهمات بإحسان وإتقان في أي زمان أو

١- سورة فاطر، الآية: ١٤.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم: ٨٩٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، حديث رقم: ١٨٢٩.

مكان، مع الإشارة إلى أن الأسرة المسلمة في بلاد الغرب تزداد مسؤوليتها اتجاه رعاية الأبناء والحفاظ على خصوصياتهم وتمكينهم من التوفيق بين هويتهم الأصل ومميزات وطنهم المستقبل.

وترتبط بالمدخل الحقوقي ثنائية الولاء والحماية، فمن بين التعريفات التي أُطلقت على المواطنة أنها "مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين شخص طبيعي، وبين مجتمع سياسي (دولة)، من خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الثاني مهمة الحماية. وتحدد هذه العلاقة بين الشخص والدولة عن طريق القانون، كما يحكمها مبدأ المساواة"<sup>(١)</sup>، وتسعفنا آثار السنّة النبوية بشكل كبير في التأصيل لثنائية الحماية والولاء، والمقصود بها التعاقد المنظم بين تشكيلات مجتمعية متجاوزة، أو بين تشكيلات داخل المجتمع الواحد يقوم على الولاء لجهة التسيير والتدبير مقابل الحماية والنصرة المتبادلة، فهما في الحقيقة شريكان لكنهما طرفان غير متساويين، بحكم طبيعة الوظائف المنوطة بكل طرف، وهنا تطرح إشكالية إمكانية تبادل الأدوار والحفاظ على بنود الشراكة والاتفاق. ومن أبرز الأمثلة على ذلك وثيقة المدينة التي ضمنت حقوق جميع المكونات المشكلة لمجتمع المدينة بمختلف توجهاتها الدينية والعقيدية، التي أكدت على المسؤولية الجماعية، وزرع الإيجابية في المجتمع وبين المواطنين، واعتبرت تحقيق الأمن والاستقرار مسؤولية فردية وجماعية مشتركة.

**خامسا: المدخل العملي البنائي:** وذلك بالمبادرة إلى العمل الإيجابي البناء والحرص على ما فيه صلاح الخلق ونفعهم في مختلف مجالات الحياة، والعمل الإيجابي عموما، منبعه الإيمان ومستنده القرآن، الذي استوعب الكليات والأسس الموجّهة لبناء الإنسان وتشبيد العمران، والقائمة على الحوار ومنطلقات التزكية وأخلاق الرحمة والسماحة والمحبة والأخوة والانفتاح على الآخر وفهم متوجه الحضاري والعلمي والمعرفي والقيمي الأخلاقي، وهي محددات أساسية حاكمة على العلاقات والتصرفات بل إنها قيم التكريم والاستخلاف المستقاة من الوحي ومشكاة النبوة.

إن العمل الإيجابي البناء عنصر محوري في منظومة الاستخلاف، ومن نماذج ذلك ما رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ

١- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، ص: ٥٦.

إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"<sup>(١)</sup>، "وتكمن دلالة هذا الحديث في تحفيز الإنسان على القيام بعمل ينتفع به المجتمع، ويُسهِّم في تحقيق تنميته، وعده عملاً من أعمال البر والخير، تستفيد منه الجماعة، ويصل إلى مستوى الصدقة التي تزرع روح التكافل داخل النسيج الاجتماعي"<sup>(٢)</sup>. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر<sup>(٣)</sup>. أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ وَأَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَآنَ أَمْشِي مَعَ أَخٍ لِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمِضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَلْبَهُ أَمْنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى أَثْبَتَهَا لَهُ أَثَبَّتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ.

ومن العمل الإيجابي الإحسان إلى الخلق عموماً والسعي لربط علاقة الأخوة الإنسانية مع جميع الخلق، اقتداءً بالنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ فقد زار النبي أبا طالب وهو في مرضه (وهو مشرك)، كما عاد الغلام اليهودي لما مرض<sup>(٤)</sup>. وكذلك الإحسان إلى الجيران والأصحاب، قال عليه السلام: "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ"<sup>(٥)</sup>، وواضح أن المقصود بالجار هنا الجار المطلق بغض النظر عن دينه أو عقيدته.

إن حجم العطاء الذي قدمه النبي ﷺ والجهد الذي بذله في خضم ظروف قاسية يعدّ درساً

١- أخرجه البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم: ٢٣٢٠.

٢- إبراهيم القادري بوتشيش، "مقومات السلم المدني وآليات تحصيله: دراسة تأصيلية في ضوء السنّة النبوية، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة "السلم المدني في السنّة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، ٥٩/١.

٣- رواه الطبراني في المعجم الأوسط، باب الميم - من اسمه محمد - محمد بن عبد الرحمن بن الشافعي البصري، رقم: ٦٠٢٦.

وقال فيه: "لَمْ يَرَوْهُ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَمْرٍو بْنِ دِينَارٍ إِلَّا سَكِينُ بْنُ سِرَاجٍ، تَفَرَّدَ بِهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ قَيْسٍ"

٤- أخرجه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، حديث رقم: ١٣٥٦.

٥- جامع الترمذي، البر والصلة، حديث رقم: ١٩٤٤. قال فيه: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

بليغا للسائرين في الطريق إلى الله، كلُّ من موقعه وطبيعة عمله وظروف اشتغاله؛ وهي ظروف لا تخرج عن مسارين اثنين: فإما أن تكون دائرة حول الشدة والضييق والمعاناة، أو تكون محاطة بالرخاء والنعيم والأمن والاستقرار.

**ففي الحالة الأولى** ينبغي النظر إلى تلك الظروف بعين الرّضى والتفاؤل والبحث في منافذ الحياة المختلفة والجدّ في طلب السبل الصحيحة التي تفتح الآمال وتحوّل الحزن إلى منح، فتنقل المعادلة من ردود أفعال غير محسوبة إلى تأثير وعطاء قد تمتدّ بركته حتى إلى من كانوا سببا في المحنة والضييق. وأما بالنسبة إلى من ينعم بظروف الأمن والرخاء والحرية فإن درس المواطنة الموجه إلى هؤلاء أبلغ وأشدّ، لأنهم مطالبون بأعلى مستويات العطاء والمردودية والإيجابية، ولا مبرر لضجرهم أو تشكّكهم، ولا يليق بهم خلق المبررات الواهية والمسوغات الملتوية للتغطية على تكاسلهم وتهاونهم، يصدق هذا على الجانب الفردي كما يصدق على الجانب الاجتماعي الحضاري، خاصة وأن أغلب مبررات الضعف والتخلف تستند إلى أطروحات وهمية من قبيل: المؤامرة الخارجية، وغياب الوسائل وضبابية المنطلقات، وطول أمد التخلف... متغافلة عن إمكانات الأمة المادية والبشرية والروحية والقيمية والمعنوية والتاريخية القادرة على خلق المعجزات في سلّم التقدم الإنساني والعمري والحضاري.

فالنظرة الإيجابية تجعل الحياة زينة وبهجة وسرورا مهما كانت الظروف والأحوال، وهي قادرة على تحويل الحزن إلى منح، والسليبيات إلى إيجابيات، وعلى استقراء العناية الإلهية في خضم الحزن ولحظات الشدة، والدفع إلى الإنتاج والعطاء بنشاط وهمّة، على أساس "أن الدنيا مزرعة للآخرة وسوق ومعمل لها، وتدفع إلى السعي الحثيث في الحياة الدنيا، ثم إنّها تُكسب القوة المعنوية المنهارة في غياب الإيمان قوة، وتسوق اليائسين الساقطين في العطالة واللامبالاة إلى الشوق والهمة وتحثهم إلى السعي والعمل"<sup>(٦)</sup>.

**سادسا: المدخل العمراني التكاملي:** ومن هذه الأبعاد: البعد العمراني في الرسالة، القائم على جلب المصالح والمنافع ودفع المفساد والمضار، وحيث ما كان الخير كان المسلم سبّاقا إليه وحيث ما كان البناء كان المسلم ساعيا إليه وحيث ما كان الضرر أو كانت المفسدة كان المسلم

٦- سعيد النورسي "كليات رسائل النور، سيرة ذاتية"، ص: ٢٩٤.

سباقا إلى درئها وإزالتها. وحين نتحدث عن البعد العمراني فنقصد به المساهمة الفعلية بإخلاص وإتقان في كل الأعمال والتكليفات المنوطة بهم في تلك البلدان والاقتراب منها ونقل تجاربها النافعة إلى بلدان الأصل لما وقفوا عليه من تقدم في الصناعات والنظم وأساليب العيش وطرائق التفكير؛ إذ لا يمنع الدين من النظر فيما عند الأمم الأخرى والأخذ بأحسنه فيما يفيد أوطاننا ويقويها ويعزز مكانتها في مختلف الميادين والمجالات من المصالح الدنيوية عامة، فرسول الله ﷺ يقول: "الكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا"<sup>(١)</sup> وفي تراثنا الكثير من النماذج منها مشورة سلمان الفارسي رضي الله للنبي في غزوة الخندق، ومقولة الإمام علي رضي الله عنه "لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال" وأيضا موقف الغزالي من علم المنطق الذي ليس إسلاميا<sup>(٢)</sup>، فالأدلة الشرعية متفقة على أن الأخذ بالتنظيمات الدنيوية المفيدة، مما يوجد لدى الغير، هو أمر لا حرج فيه، ومن شأن ذلك أن يبدد جملة من المفاهيم الخاطئة التي ترسبت في الفضاء الفكري وسادت في الثقافة الإسلامية لقرون عدة والقائمة على معاداة الآخر بسبب دينه المخالف، وهو ما أنتج ممارسات القطيعة وعدم مسايرة التاريخ والتطورات الحاصلة فيه.

كما أنّ التكامل أمر مطلوب، ليس فقط داخل الأمة الواحدة، وإنما حتى مع باقي الأمم الأخرى، فيما يجلب النفع ويحقق الأمن والاستقرار أي أن التكامل "يتمثل في ضرورتين: داخلية وخارجية؛ ضرورة داخلية تنبع من الحاجة إلى روابط وعلاقات الحب والرحمة والثقة بين أبناء المجتمع الواحد، وعهود ومواثيق السلام والطمأنينة بين المجتمعات، وضرورة خارجية تنبع من الاعتماد المتبادل، والمشاركة في المنابع بين البشر لتوفير متطلبات الحياة"<sup>(٣)</sup>.

وركيزة التكامل هو تقوية الأبعاد العلمية والمعرفية؛ فالمسلم مدعو إلى الانخراط الثقافي والفكري والسياسي في البناء، وعدم الرضا بأمكان الظل والهوامش، خاصة وأن الرسالة التي ينتمي إليها رسالة عالمية ينبغي أن يعكسها توجه عالمي قائم على التفاعل والعطاء الإنساني، وتعميم النفع

١- جامع الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ - باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم:

٢٦٨٧. قال فيه: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

٢- خير الدين التونسي، "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، ص: ٦.

٣- ملكاوي، فتحي حسن "منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية"، ص: ١٥.

والخير لكل الناس حيثما كانوا أو وجدوا.

لقد جسدت إقامة المسلمين في الحبشة<sup>(١)</sup> جوانب مهمة لمقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن التي أشرنا إليها سابقا، وتجلت في معانٍ جليلة، من أهمها: مسؤولية الأمن والاستقرار، ورسالية القيم ومكارم الأخلاق، والمبادرة إلى العمل الإيجابي البناء والمخالطة الإيجابية، والوعي التام بالحقوق والواجبات، وجدلية الحماية والولاء وقيم الوفاء، والدعوة إلى الخير والهدى. ولقد أعطت التجربة نموذجاً لحياة المسلمين في بيئة غير إسلامية، وأبانوا عن سلوك منفتح بمخالطة إيجابية، وكانت تلك المخالطة بمثابة عرض لنموذج إسلامي جديد في الدعوة إلى الخير والهدى بطاعة الخالق والرحمة بالمخلوق.

كان مقدّم وفد قريش إلى النجاشي بالهدايا لتمكينهم من المسلمين فرصة ثمينة وفرت المشاركة في مناظرة دينية عرضت خلالها مضامين الدين الجديد وحياسة تعاطف الملك والفوز بالأمن والاستقرار، وانتصار الحق وإزهاق للباطل، وتأكيد قيم الوفاء والكرم وحسن الجوار، وانتصار المبادئ على المصالح والمنافع الذاتية التي جسدها النجاشي وأساقفته حين ردّوا الهدايا المغرية على وفد قريش.

إن المرافعة العظيمة التي قدّمها جعفر بن أبي طالب<sup>(٢)</sup> أمام النجاشي للدفاع عن عقيدتهم

١- ينظر: السيرة النبوية لابن هشام ابتداءً من ٢١٨/١ .

٢- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَزْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيِّ، آمَنَّا عَلَى دِينِنَا، وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤَدِّي وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ، فَلَمَّا بَعَثَتْ قُرَيْشٌ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ، وَعَمَرُو بَنَ الْعَاصِ بِهَدَايَاهُمْ إِلَى النَّجَاشِيِّ وَإِلَى بَطَارِقَتِهِ، أَرْسَلَ إِلَيَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَدَعَاهُمْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا تَقُولُونَ لِلرَّجُلِ إِذَا جِئْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا، وَمَا أَمَرْنَا بِهِ نَبِينًا كَائِنًا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَدْ دَعَا النَّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ: مَا هَذَا الدِّينَ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟ قَالَ: فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: " أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفِ، وَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِنُؤَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، =

تعد درسا بليغا للمواطنين المسلمين المقيمين في غير بلادهم الأصلية، بأن يحسنوا اختيار ممثليهم من يدافع عن حقوقهم ويتكلم باسمهم، فهم مرآتهم في الإعلام، وممثلوهم لدى الجهات الحكومية المعنية، ويقدمون نموذج المسلم الذي يخالط الناس بقيم مستلهمة من مرجعية دينية يشار إليها بالبنان وحاضرة بقوة في الصحف والإعلام. ومن مظاهر النفحة الدبلوماسية في خطاب جعفر بن أبي طالب قوله: "خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ فَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ". ولا شك أنها عبارة مؤطرة لخروج المسلمين إلى بلاد غيرهم ورجائهم العثور على ظروف أفضل للعيش الكريم تمكنهم من إقامة شعائرهم وتحصيل رزق يوفر حاجياتهم ومتطلباتهم.

هذه بعض من الشذرات المعرفية حول مقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن المتعلقة بالمسلمين المقيمين في بلاد المهجر اعتمادا على مضامين السنّة النبوية، وهي دراسة لا تدعي الإحاطة الشاملة بمتعلقات الموضوع وجوانبه، وإنما هي محاولة أولى ستعقبها دراسات أكثر تحليلا

= وَصَلَةَ الرَّحِمِ، وَحُسْنَ الْجِوَارِ، وَالْكَفَّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفُحْشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمْرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَأَمْرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ، قَالَ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحَلَّلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمَنَا فَعَدَبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَصَيَّبُوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ فَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ "، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ عَلَيَّ، " فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ كَهَيْعِصٍ "، فَبَكَى النَّجَاشِيُّ وَاللَّهُ حَتَّى أَحْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَافِقَتُهُ حَتَّى أَحْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَّى عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ: إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لِيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ، انْطَلِقَا فَوَاللَّهِ لَا أُسَلِّمُهُمَ إِلَيْكُمَا، وَلَا أَكَادُ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي وَالسُّيُومُ: الْأَمْنُونَ مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَنْ مَسَّكُمْ غَرِمَ، مَا أَحْبُّ أَنْ لِي دَبْرٌ ذَهَبٌ وَأَنْتِي آذِيْتُ رَجُلًا مِنْكُمْ وَالِدَّبْرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ الْجَبَلُ رُؤُودُهُمَا هَدَايَاهُمَا، فَلَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا، فَوَاللَّهِ مَا أَحَدَ اللَّهُ مِنِّي الرَّشَوَةَ حِينَ رَدَّ عَلَيَّ مُلْكِي فَأَخَذَ الرَّشَوَةَ فِيهِ، وَمَا أَطَاعَ النَّاسَ فَأُطِيعُهُمْ فِيهِ، فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ مَقْبُوحَيْنِ مُرْدُودًا عَلَيْنَهُمَا مَا جَاءَ بِهِ، وَأَقَمْنَا عِنْدَهُ بِخَيْرِ دَارٍ مَعَ خَيْرِ جَارٍ. (انظر سيرة ابن هشام، ٢١٨/١ وما بعدها).

وعمقا بإذن الله تعالى. وأهم ميزة لتلك المقتضيات والأبعاد أنها أسس متكاملة متداخلة، فقد دل الوحي أن الإقامة في تشكيلات مجتمعية أو أوطان أصلية أو خارجية يعد من حاجات الإنسان الضرورية، وأهم ميزة للمجتمع المسلم هو غنى مرجعيته الدينية وقدرتها على توفير الأسس النظرية والعملية لتحقيق العيش في أي منطقة من العالم ما دامت شروط العيش الكريم متوفرة. ويعدّ ذلك الالتقاء الحضاري فرصة للتلاقح الإنساني والثقافي، من أجل الأخذ والعطاء والإفادة والاستفادة، وفي خضم ذلك البناء تتقادح الجهود الفكرية في إطار تدافع سلمي قائم على أساس التربية وموجه بتعاقد مجتمعي يضمن للمتعاقدين أحقية الوجود والاجتهاد في أفق استيعاب كلي ودمج إنساني يرتكز على الأخوة الإنسانية وتحقيق الكرامة.

**خاتمة:** لقد حاولنا أن نبرز بعضاً من مقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن من السنّة النبوية لتكون نبراساً وضاء لدى المهاجرين المسلمين في البلاد الأخرى لحماية مواطنيهم استقرارهم والوفاء لمواطنهم الأصلية، فوجدنا أن لها معالم واضحة في المنطلقات والأسس النظرية، وكذلك في الممارسات العملية والنماذج التطبيقية التي زينت تجربة النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، فكانت نموذجاً فريداً في العمل الإيجابي البنائي والعمل الميداني والتدافع المجتمعي والحضاري المستوعب للقيم الإنسانية والأصول الإسلامية الكلية التي تضمن العزة، والكرامة، والحرية والعدل، والحقوق، وأداء الواجبات، كما كانت تجربة غنية وفرت للعلماء والباحثين مادة علمية ثرية يستقون منها مناهج في النظر وقواعد في السلوك قابلة للتوظيف في مقارنة الكثير من القضايا المعرفية والثقافية والتربوية والاجتماعية والإنسانية في واقعنا المعاصر.

وفي الختام نشير إلى التوصيات والنتائج المهمة التي خلصت إليها الدراسة.

خلص البحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات أهمها:

- ١- أن ارتباط مفهوم المواطنة يكون أشد وأقوى بمضامينه النفسية وحمولاته القيمية والسلوكية أكثر من دلالاته السياسية والتاريخية كما أنه مرتبط أشد الارتباط بالمرجعيات المؤطرة والمغذية له.
- ٢- يستحيل عقلاً وتاريخاً أن تصادر مرجعية معينة مفهوم المواطنة وتدعي أحقيتها في تأسيسه أو ملء مضامينه والتنظير لمقتضياته، فكل الجماعات البشرية عبر التاريخ عرفت أشكال مواطنة معينة، وأسست أنظمة اجتماعية وثقافية وأسست لتعاقدات تنظم من خلالها شؤونها الداخلية وعلاقتها الخارجية.

- ٣- تعدّ تعاليم القرآن الكريم ومضامين السنّة النبوية خزانا معرفيا غنيا للتأصيل لمقتضيات المواطنة ومداخل حماية الوطن، بما يراعي اختلاف أحوال المسلم سواء أكان مقيما في بلده الأصلي أو مهاجرا إلى بلاد أخرى، حيث إن تلك المقتضيات تظل لصيقة به مهما اختلفت ظروفه وأحواله. فالمسلمون ببلاد المهجر مطالبون بمراعاة خصوصية ظروفهم على مستويات؛ الهوية والدين والحقوق والوجبات ونصرة قضايا الأمة من خلال مواقعهم ومسؤولياتهم.
- ٤- الحاجة ماسة اليوم إلى ضرورة اعتبار المعمورة داراً عالمية واحدة تسع الجميع وتحتضنهم، ولا معنى لأي تقسيمات تاريخية مبنية على الصراع والتقاطب الحاد، من مثل دار الإسلام ودار الحرب، ومن ثم تظهر ضرورة توسيع دوائر الأخوة الإنسانية والمشاركات الدينية وتضييق دوائر الاختلافات والانشطارات المفرقة.
- ٥- لقد كانت اجتهادات النبي ﷺ في ترسيخ أسس المواطنة توازي في حقيقتها اليوم اجتهادات علماء الاجتماع والقانون والسياسة ورجال الثقافة والفكر والدعوة في التنظير القانوني والتنظيمي للمواطنة.

#### ومن توصيات هذه الورقة نذكر:

- ١- تنظيم ملتقيات فكرية وندوات علمية لفائدة المواطنين المسلمين المقيمين في الغرب قصد تعزيز الوعي الفردي والجماعي بمفهوم المواطنة ومقتضياتها ومدخلها انطلاقا من مصادرنا التشريعية، وكذا تبصيرهم بأدوارهم الطلائعية في البلدان المستقبلية لهم، من خلال صيغ بنائية تأصيلية تجمع بين الخصوصية والعالمية.
  - ٢- تكتيف الدورات التكوينية قصد معالجة مختلف العوائق والإشكالات التي تعرقل اندماج المسلمين في الدول المستقبلية لهم دون ذوبان أو فقدان للمبادئ والأصول والهوية المميزة.
  - ٣- استثمار كل الفرص المتاحة التي من شأنها أن تيسر الاندماج الوطني وتحقق التنوع الديني والثقافي والحضاري، مثل: الانخراط في مؤسسات المجتمع المدني، والحرص على التمثيل في المجالس المنتخبة، وبناء المؤسسات الخاصة، مثل: المساجد والمدارس ومعاهد تدريس اللغة العربية.
  - ٤- إصدار أعمال هذه الندوة المباركة والتركيز على نشر نسخها لدى المهاجرين المقيمين في بلاد المهجر بتنظيم أيام دراسية تبسط مضامينها.
- والله ولي التوفيق والهادي إلى سبيل الرشاد.

## لائحة المصادر والمراجع:

- صحيح البخاري، دار الفجر للتراث، القاهرة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م
- صحيح مسلم، اعتنى بجمعه ومراجعته هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م.
- الجامع الكبير للترمذي، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، (د.ت).
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية (د.ت).
- صحيح بن حبان، محمد بن حبان بن أحمد أو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر.
- المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني (ت ٣٢٠هـ)، المحقق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م.
- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ) "تفسير القرآن العظيم"، ط ١. دار الكتب العلمية.
- "السيرة النبوية"، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري (ت ٢١٣هـ)، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، طبعة دار القلم، بيروت.
- أبو القاسم عبد الرحمن أحمد بن أبي الحسن، "الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية" دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، د.ت.
- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ) "لسان العرب"، ط ١، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٩٦٨م.
- أحمد شرباصي، "الدين والمجتمع" المطبعة الحديثة، القاهرة، ١٩٨٠م.
- بديع الزمان سعيد النورسي "كليات رسائل النور، سيرة ذاتية"، إعداد وترجمة إحسان قاسم الصالح، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- خير الدين التونسي، "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، تمهيد وتحقيق المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، تونس.

- سعيد إسماعيل علي "المواطنة في الإسلام"، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ط ١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- سعيد شبار، الثقافة والعولمة وقضايا إصلاح الفكر والتجديد في العلوم الإسلامية، دار الإنماء الثقافي، سلسلة أبحاث ودراسات فكرية: ٢، ط ١، ٢٠١٤م.
- طه جابر العلواني، مقاصد الشريعة، دار الهادي، ط ٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- عبد الإله بلقزيز، في الديمقراطية والمجتمع المدني، إفريقيا الشرق، بيروت، ٢٠٠١م.
- عبد الله يوسف أبو عليان، الهجرة إلى غير بلاد المسلمين، حكمها وآثارها المعاصرة في الشريعة الإسلامية، الجامعة الإسلامية، غزة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- محمد أويس الندوي، التفسير القيم لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر.
- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- محمد سعد أبو عامود، المواطنة المصرية والعروبة، حصاد هجرة العمالة المصرية من أعمال المؤتمر السابع عشر، ٢٠٠٥م.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- ملكاوي، فتحي حسن "منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية" المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طوب بريس الرباط، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.
- أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة "السلم المدني في السنّة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، عقدت في رحاب كلية الدراسات الإسلامية والعربية بديبي، ٢٨-٣٠ رجب ١٤٣٨هـ/ ٢٥-٢٧ أبريل ٢٠١٧م.

مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي،  
وأثرها في حماية الوطن  
قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة

الأستاذ / شيخ أحمد جينغ  
باحث في مرحلة الماجستير تخصص الحديث وعلومه  
جمهورية السنغال





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ثم الصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحابه ذوي الرضوان والتمكين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فتعد قضية سلامة الأوطان وأمنها واستقرارها حجر الزاوية في حياة الإنسان حياةً ملؤها الهدوء والاستقرار والسعادة، حياةً تجلب له أجواءً لائقة وظروفًا مواتية لأداء واجباته نحو عبادة الله تبارك وتعالى وعمارة الأرض، واستجابة لنداءات الفطرة فقد انطلق العقل الإنساني في رحلة بحثٍ عمّا يحمي به الوطن، ويؤمن له أمنه واستقراره فيه، ويأتي تثبيث دعائم المواطنة وما تقرره من حقوقٍ وواجباتٍ من بواكير ما أتحفتنا به الحضارة اليونانية في سياق التراكمات المدنية والعمرائية التي ساهمت فيها الأمم والحضارات، وقد خضعت المواطنة لعملية تطوير في أسسها ومضامينها أحدثت نقلةً نوعيةً في هيكلها وصورتها البدائية، وأضفت عليها طابعًا منحها الحفاوة والقبول بصفتها صيغةً حضاريةً مناسبة في التعايش السلمي، والعمل على تماسك الأنسجة الوطنية ووحدها في ظل تعددية المذاهب والاتجاهات والأعراق داخل البلد والشعب الواحد، والحضارة الغربية وإن كنا لا نتنكر لإسهامها في تطوير قيم المواطنة وإثرائها بما ينسجم مع فلسفتها، إلا أن ما نرفضه هو جعل ذلك حكرًا عليها، أو غض الطرف عمّا قدمته الحضارة الإسلامية من إسهام يفوق ما قدمه الغرب بمراحل، وقد آن الأوان أن نتقدم بدراساتٍ جادة في كل الميادين القيمة والحضارية التي يزعم غياب التشريع الإسلامي عنها، أو تفوق غيرها فيها، لقد آن الأوان أن يدرك العالم ما قدمه الإسلام من سماحة ورفق في المواطنة كان سببًا في حماية المدينة ودولة النبوة من الانهيار.

إن تناول موضوع المواطنة، وأبعادها في الشريعة الإسلامية استلهاً من وثيقة المدينة المنورة مثل هاتما سيطر علي من فترة ليست بالقصيرة، ومن أمارات التوفيق أن تأتي ندوة الحديث الشريف الدولية التي تقيمها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي في نسختها التاسعة بعنوان: " حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي، وضرورة مجتمعية"، لتكون عاملاً محفزاً لاستثمار أطيب

أوقاتي في دراسة مضامين المواطنة كما يَصوِّرها الإسلام، وأثر هذا التَّصوُّر في حماية الوطن، فشرعت في ملاحقة مادَّة البحث والتَّعامل معها. وتناسب هذه الورقة إلى المحور الأوَّل من محاور النَّدوة: "المفاهيم والمصطلحات والمقاصد"، واخترت أن يكون بعنوان: "مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة".

وتنبع أهمية البحث في هذا الموضوع بإخضاع متن وثيقة المدينة للتَّحليل من جهة الآثار وحزمة الأهداف التي أتمنى أن تتحقَّق في هذه الدِّراسة، وأهمَّها:

- أوَّلًا: الإسهام في تأصيل المضمون الصَّحيح للمواطنة بما يتوافق مع ثوابت ديننا، وتقديم قراءة واعية لمفهومها وأبعادها بعيدا عن التَّشدد والتَّمييع.

- ثانيا: دعم السَّلم والاستقرار في أوطاننا، وتقوية المناعَات ضدَّ الآفاتِ المجتمعيَّة التي تنخرُ في كيان الأمم والشُّعوب، وتفكِّك حُمتها؛ تحت تأثير العنصريَّات والانقسامات الداخليَّة الأمر الذي سيؤسِّس حتمًا لبيئاتٍ ومجتمعاتٍ متناحرةٍ، مشحونةٍ بالاحتقان والتَّوتر والاحترابات.

- ثالثا: إبراز سماحة دين الإسلام، ونبل تعاليمه، وتسويق قيمه المعززة للسَّلم والاستقرار، والعودة بالذاكرة الإنسانيَّة إلى ما أنجزته دولة الإسلام الأولى ممثَّلا في بنود صحيفة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم.

- رابعا: محاربة ظاهرة الإرهاب، والحدُّ من تغلغله الفكريِّ عن طريق تطويق المواقف الراديكاليَّة والمفاهيم المغلوطة التي تبرَّر لأصحابها استهداف الأبرياء، وسفك دماء المخالفين من المسلمين أو من أصحاب الدِّيانات الأخرى.

الدِّراسات المنجزة حول الموضوع: لم أقف على مؤلِّف تناول مضامين المواطنة على نحوٍ يتوافق مع المنظور الإسلاميِّ، بالعودة إلى بنود الوثيقة واستثمارها في حماية الوطن، وغاية ما وقفت عليه هي دراساتٌ أُفردت للحديث عمَّا تضمَّنته الوثيقة من أحكامٍ شرعيَّة، ومسائلٍ سياسيَّة، وتوجيهاتٍ أخلاقيَّة، واجتماعيَّة، وهذه الأبحاث هي:

- الوثيقة النبويَّة والأحكام الشرعيَّة المستفادة منها لـ "جاسم محمد راشد العيساوي"، وهو

رسالةٌ علميَّةٌ لنيل درجة الماجستير.

- وكتاب وثيقة المدينة المضمون والدلالة لـ "أحمد قائد الشُّعبي"، من منشورات كتاب الأُمَّة الصادر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، العدد (١١٠).

- وهناك رسالة علميَّة بعنوان: "الوطن، والمواطنة في الكتاب والسُّنة: دراسةٌ تأصيليَّةٌ تحليليَّةٌ" لـ "محمد افيق"، وهو بحثٌ لنيل درجة الماجستير، وهي دراسةٌ بينها وبين الورقة قواسمٌ مشتركةٌ، وتُفارقها الورقة في أنَّها اعتنت ببيان أثر مضامين المواطنة في الوثيقة في حماية الوطن، وهذا ما لم تتعرض له هذه الأطروحة.

أمَّا منهجية الدِّراسة: فقد اعتمدت المنهج الوصفيَّ التحليليَّ في دراسةِ نصوصِ الوثيقة، مع سبر الأقوال حول الموضوع ونقدها، وعزو الاختيارات العلميَّة إلى أصحابها، واجتهدت قدر الطاقة في الاعتماد على الموادِّ العلميَّة الأصيلَّة والعميقة.

أمَّا حدود الدِّراسة: فترتسم في تصميم خريطةٍ ذهنيَّةٍ لحقيقةِ المواطنة باستعراض مفهوميها وفضاءاتها، مع استنطاق فقراتِ دستور المدينة؛ لما لها من أهميَّة بالغةٍ في الإمداد بمحدِّدات العقد الاجتماعيِّ، ولما سجَّلته من انتصارٍ وجدارةٍ في الحِفاظِ على دولة الإسلام الأولى؛ فقد قمت باستدعاء عناصرها النَّاطمة لمبدأ المواطنة والاستفادة منها في مجال حماية الوطن، وعليه، فيتشكَّل كيانُ البحثِ من مقدِّمةٍ، وخاتمةٍ، يتوسَّطهما تمهيدٌ، ومبحثان بمطالبتهمَا.

التَّمهيد: مدخل لتأسيس مصطلح المواطنة في أبعاده اللغويَّة والاصطلاحية.

أولاً: تحرير مفهوم المواطنة في المسار اللغويِّ: المِوَاطَنَةُ مصدرٌ قياسيٌّ من الفعل (وَاطَنَ) <sup>(١)</sup>، وقد أثبتت قوانين اللغة العربية في شقِّها الصَّرفيِّ أنَّ صيغة (فَاعَلَ)، يأتي المصدر منها على زنة (مُفَاعَلَة) يقول العلامة ابن مالك في ألفيته:

لفاعلِ الفِعالِ والمفاعله... وغيرُ ما مرَّ السَّماعِ عادله

١- يمنع بعض الباحثين من هذا الاشتقاق والتوظيف؛ للدلالة على المواطنة؛ لما يثيره من إشكاليات حسب زعمه، والصَّحيح جوازه كما تواردت عليه الغالبية العظمى من الباحثين المعاصرين.

ويقول ابنه في شرحه: "إذا كان الفعل على (فَاعَلَ) فله مصدران: (فِعَال، ومُفَاعَلَة) نحو: قاتل قتالا ومقاتلةً، وخاصم خصامًا ومخاصمةً"<sup>(١)</sup>، هذا من حيث البنية الصرفية للكلمة. أما ما يتعلق بمعناها في اللغة فلم أجد أحدا من المتقدمين يعرف المواطنة بهذه الصيغة، وبالعودة إلى صيغة (فَاعَلَ) من أجل الاقتراب أكثر من المعنى المراد من الكلمة نجد أن جريان معنى المشاركة عليها هو الأغلب؛ يقول سيبويه: "اعلم أنك إذا قلت: فاعلته، فقد كان من غيرك إليك مثل ما كان منك إليه حين قلت فاعلته"<sup>(٢)</sup>، وهذا معناه اشتراك طرفي المفاعلة في الفاعلية والمفعولية، ويتسلط المعنى ذاته على مجرى استخدامنا لكلمة المواطنة؛ ولكل ما سبق فالمعنى الأقرب للكلمة في سياق ما نحن فيه من الحيثية اللغوية المجردة هو: المشاركة في الوطن أيًا كانت صورة هذه المشاركة.

**ثانيا: تحرير مفهوم المواطنة في المسار الاصطلاحيّ:** مصطلح المواطنة من المصطلحات الوافدة، وترجمتها بالفرنسية Citoyenneté، والفكر الغربي أكثر الاتجاهات إثراءً وإسهامًا في تناولها ودراستها، وقد حُدِّدَ مفهومها في دائرة المعارف البريطانية بأنها: "علاقة بين فردٍ ودولةٍ كما يحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجباتٍ وحقوقٍ في تلك الدولة"<sup>(٣)</sup>، وجاء تعريفها في الموسوعة السياسية بأنها "صفة المواطن الذي يتمتع بالحقوق، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءه إلى الوطن..."<sup>(٤)</sup>، فظهر في هذين التعريفين وفي كل التعريفات التي وقفت عليها للمواطنة أن حقيقتها تتأسس على ركنين أساسيين: الركن الأول: أداء مجموعة من الحقوق والواجبات تجاه الوطن والمواطنين الآخرين، الركن الثاني: التمتع بمجموعة من الحقوق يستحقها من الدولة ومن يشاركهم الوطن، وعليه، فإذا حيّدنا أسس المواطنة التي ينصُّ على اعتبارها أصحاب كلِّ توجُّه، وما يمنحونه للمصطلح من أبعادٍ وأفقيٍّ تتراوح بين الرِّحابة والضيق وفق ثوابت كلِّ وقيمه ونظرتة للحياة والكون والإنسان، ثمَّ عمّقنا النظر في هذين التعريفين، نجدهما محايدين إلى درجة كبيرة، وليس هناك أيُّ تسلُّطٍ للقناعات الغربية في رسم حدّها، وذلك لما جاء في تعريفها من

١- بدر الدين ابن الإمام مالك صاحب الألفية، في شرحه لنظم والده، ص: (٣١٢).

٢- سيبويه، الكتاب: (٦٨/٤).

٣- ذكره دكتور علي خليفة الكواري، في مقال في صحيفة البيان الإماراتية، رابطته:

[/https://www.albayan.ae/opinions](https://www.albayan.ae/opinions)

٤- عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، موسوعة السياسة: (٣٧٣/٦).

التَّجريد البعيد عن التمثيل، بالإضافة إلى وجود تنصيب على ركني المواطنة، وهما: التمتع بالحقوق، بعد أداء الواجبات والالتزامات، وهذه الواجبات والحقوق يحددها التَّوجه أيُّ توجهه، سواء كان ديناً سماوياً، أم مدرسةً فكريةً، أم اتجاهًا سياسياً، بما يتوافق مع فلسفته وثوابته، فالتَّعريف إذن صالح إسلامياً؛ شريطة أن يخضع تلك الحقوق والواجبات للتَّحديد الإسلامي على ما سأذكره في هذا البحث، والتَّعريف الذي أقرحه في ضوء ما سبق للمواطنة من المنظور الإسلامي البحثُ أنَّها: انتماء فردٍ إلى دولة إسلامية، تترتب بموجبه التزاماتٌ وواجباتٌ، كما يمنحه حقوقاً وامتيازاتٍ بما لا يتعارض مع ثوابت الشريعة الإسلامية.

### المبحث الأول: لمحة تاريخية عن المواطنة، وأبعادها في الفكر الإنساني، وتقييمها في ضوء الشريعة الإسلامية.

تقدّم معنا عند التعريف بالمواطنة أنَّ التعريفات التي وقفت عليها لا يُشكّل تبيينها؛ لأنها تعريفاتٌ مجملّة، وغاية ما تفيدُهُ أنَّ المواطن عليه واجبات، وله حقوق، دون تفصيل لتلك الواجبات والحقوق، ولن أحوض في ذكر التفاصيل الدقيقة لهذه الحقوق والواجبات؛ لاستحالته بسبب شدة الاختلاف في القوانين التي يتحاكم الناس إليها، وسأستغني في هذا المبحث بالعرض التاريخي، ثمَّ الاقتراب قليلاً من مجمل أسس المواطنة وأبعادها في الفكر الإنساني، مع تقويمها وفق هدي الشريعة الإسلامية الغراء.

### المطلب الأول: لمحة تاريخية عن المواطنة، وأبعادها في الفكر الإنساني.

ارتبطت نشأة مفهوم المواطنة بالحضارة اليونانية الإغريقية؛ فقد نادى الفلاسفة اليونان إلى تحقيق العدالة والمساواة في إطار الدولة، ومن هؤلاء أفلاطون platon في كتابه (الجمهورية)، فقد قسّم أفلاطون المجتمع إلى ثلاث طبقات: الحكام "الفلاسفة"، و"العسكر"، وطبقة "التجار" و"الحرفيين"، كما قام بتحديد وظيفة كل طبقة، والالفت للظن هنا أنه استبعد العبيد من حق المواطنة وجعلها حكراً على أثينا وفي ذلك يقول: "لا أرى في نظام العبيد شيئاً غير طبيعي، وكل الغريب الذي أراه فيه هو أن يُستبعد اليوناني فينبغي قصرُ ووضُع العبودية على الأجانب من غير

اليونان"<sup>(١)</sup>.

ولما جاء أرسطو استبعد هو الآخر الحرفيين والعبيد من المواطنة؛ لأنَّ العبد في خدمة شخص واحد، والصُّنَاع أيضا مهمتهم الانشغال بشيء واحد، وعليه فالمواطن الحقيقي هو من يَسْهُرُ لخدمة المجتمع ككل<sup>(٢)</sup>، نستفيد من ذلك أنَّ سقف المواطنة وفضاءها عند اليونان كان منخفضاً جداً للغاية لا يتجاوز الطبقة الأرستقراطية<sup>(٣)</sup> وقد أسهم ذلك في اندلاع ثورات متكررة كانت عامل انفراجات في فضاءاتها شيئاً فشيئاً<sup>(٤)</sup>.

أمَّا في الحضارة الرومانية فقد كان الوضع مختلفاً نوعاً ما حيث شهدت المواطنة فيها تطوراً حين أصبحت حقا لجميع سكان الإمبراطورية الرُّمانيَّة وقتئذٍ<sup>(٥)</sup>.

وفي أوروبا، وبعد انحسار نفوذ الكنيسة على الحياة الاجتماعية، واندلاع الثورة الفرنسيَّة في القرن الثامن عشر، سنة: ١٧٨٩م، طفق صرح المواطنة يقترُب من الاكتمال، وتوسع دائرتها ويعلو سقفها.

ولما جاء الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صاغه ممثلون من جميع أنحاء العالم، ومن مختلف الخلفيات القانونية والثقافية، واعتمده الجمعية العامة في العاصمة الفرنسية باريس في: ١٠/١٢، سنة: ١٩٤٨م، بموجب القرار (٢١٧)، حدَّدت لأول مرة حقوق الإنسان الأساسية التي يتعين حمايتها عالمياً، وجاء في البند الأول منه أنَّه: " يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء"<sup>(٦)</sup>.

١- عزت قرني، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، ص: (١٨٩).

٢- ينظر: الفريد إدوارد تايلو، أرسطو، ص: (١٢).

٣- الأرستقراطية، هي: " نظام سياسيُّ طبقيُّ استبداديُّ، يتولى فيه الحكم طبقة من النبلاء أو الأشراف دون عامة الشعب"، دكتور/أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة المعاصرة: (١/٨٤).

٤- ينظر: حسين أحمد الحجوري، الفكر الديمقراطي وإشكالية الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة، ص: (٣٩).

٥- ينظر: دليل المواطنة، إعداد الرابطة السورية للمواطنة، ص: (١٤).

٦- موقع الأمم المتحدة، على الرابط:

أما مجمل عناصر المواطنة وأسسها في الفكر الغربي فيحشد الشيخ عبد الخالق الشَّريف نصوصاً من كتاب ومفكرين استخلص منها أسس المواطنة عند الغرب<sup>(١)</sup>، وهي:

- الأساس الأول: إنَّها علاقة قانونية بين فرد (مواطن) ودولة، أساسها الاشتراك في وطن واحد.
  - الأساس الثاني: وجود حقوق وواجبات متبادلة بين الفرد والدولة.
  - الأساس الثالث: إنَّ الوطن مصدر الحقوق والواجبات ولا شيء غيره.
  - الأساس الرابع: إنَّ المساواة بين الأفراد (المواطنين) جميعهم على قاعدة الاشتراك في الوطن.
  - الأساس الخامس: ضرورة خضوع الفرد (المواطن) لأنظمة المجتمع والتقيدها بها.
  - الأساس السادس: استبعاد الدين من هذه العلاقة القانونية استبعاداً مقصوداً.
- المطلب الثاني: محاكمة أسس المواطنة على ضوء معطيات الشريعة الإسلامية.**

من يرصد الحراك الثقافي في صالونات السياسة والفكر يلمس استمرار موجات من السَّجالات المحتدمة بين الطبقة المثقفة حول المواطنة، وأفقهها، وتعتبر الأطروحة الأكثر حضوراً تلك التي تعنى بموقف التيار الإسلامي من مسألة المواطنة، ومدى تساوقهم مع متطلباتها، وقبولهم بحمولتها في صبغتها الحديثة في ظل هيمنة الحضارة الغربية، وما تتطلبه من استحقاقات قد تتناهى في بعض تجلياتها مع مبادئ الشريعة الإسلامية، وقد انقسم الباحثون الشرعيون طائفتين حيال مبدأ المواطنة: الطائفة الأولى: تبنت موقف الرفض والتحفُّظ من المواطنة جملةً وتفصيلاً؛ كونها مصطلحاً مشحوناً بفكرة غربية غريبة، يعكس القبول بها وبمشتقاتها من المصطلحات الغازية لبيئتنا الثقافية حالة سقوط وانحزامية<sup>(٢)</sup>.

والطائفة الثانية: تماهت مع المواطنة، وقبل بها وبمحتوياتها الدلالية والقيمية، كما رفضت وجود

---

١- ينظر: مقال الشيخ عبد الخالق الشَّريف، بعنوان: (المواطنة أم الأمة)، مقال للشيخ في موقع صيد الفوائد،

على الرابط: <http://www.saaaid.net/Doat/alsharef/56.htm>، مع شيء من التصرف اليسير.

٢- وممن يمثل هذا الاتجاه بكل قوة فضيلة الشيخ محمد شاكر الشَّريف، وله مقال في نقدها في موقع صيد الفوائد تحت عنوان: "المواطنة أم الأمة؟"، رابط المقال:

<http://www.saaaid.net/Doat/alsharef/56.htm>

أية قطيعة بين مدلولاتها وقطيعات الشريعة، ولم يتوقف أصحاب هذا الرأي عند هذا الحد بل طفقوا ينتقون من النصوص ما يرونها متلائمة معها فيسقطون دلالتها عليها تأصيلاً وإضفاءً للمشروعية عليها، وفي خضم المطالعة فيما قُدِّمَ من أفكار وأبحاث حول هذا التجاذب خرجت منها بقناعة صلبة تتمثل في الانطلاق من ثوابت الدين واتخاذها أداة معيارية لوزن كل جديدٍ ووافدٍ، وهي خطوة كفيلة لدفع كلِّ ما هو مخالف للشريعة من المواطنة، مع توازن في ذلك، يمنحنا فرصة الاستمتاع بمنجزات العصر الحضارية، والانفتاح على ما يرضخه من أنظمة وأسس وأليات مبتكرة في حقوق المعرفة كافة في حدود ما تسمح به قيم الدين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: يجد المتأمل في المصطلحات المستجدة أنَّها لا تخلو من ثلاث حالات عند النظر في فحواها: إما أن تكون حقاً مطلقاً، أو باطلاً مطلقاً، أو تنطوي على حق وباطل، ومن خلال تلك الإطلالة السريعة على أسس المواطنة وأبعادها في فكر غيرنا نحن المسلمين يظهر اندماجها في عداد المقولات الوافدة والمستجدة التي فيها حق وباطل؛ فعندما نستعرض هذه الأسس التي ذكرها شيخ محمد شاعر الشريف قبل قليل نجد أنَّ وجودَ حقوق وواجبات متبادلة بين الفرد والدولة حقٌّ لا غبار عليه، وكون العلاقة بين الفرد والدولة علاقة قانونية أساسها الاشتراك في وطن واحد كلام مقبول وصحيح أيضاً، أمَّا أنَّ الوطن مصدر الحقوق والواجبات ولا شيء غيره فهذا الكلام لن يكون مقبولاً إلا إذا كان القانون الذي يسري فيهما مستمداً من الشريعة الإسلامية، أو أنه لا يخالفها، وإلا فلا، وأمَّا أنَّ على الفرد الخضوع لأنظمة المجتمع والتقيُّد بها فكلام صحيح أيضاً شريطة أن لا يحمل على مخالفة الشرع، أو مقارفة محارم الله، أو التهاون على أوامره، وهذا لا يتصور في الدول الإسلامية التي ينصُّ أغلب دساتيرها على أنَّ دين الدولة الإسلام، أمَّا المساواة بين المواطنين جميعهم على قاعدة الاشتراك في الوطن فغير صحيح إسلامياً بهذا الإطلاق؛ فعلى سبيل المثال ليس هناك مساواة بين المسلم وغير المسلم في استحقاق تولي الولاية العامة مثل: رئاسة الدولة، وهذا الأمر من الثوابت في الشريعة الإسلامية لأدلة كثيرة متضاربة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup>، ولما أخرجته الشيخان من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: دَعَانَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم

١- سور النساء، الآية: (١٤١).

فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ<sup>(١)</sup>، يقول القاضي عياض: "فإذا طرأ مثل هذا على والٍ من كفرٍ، أو تغيرٍ شرعٍ، أو تأويلٍ بدعةٍ، خرج عن حكم الولاية، وسقطت طاعته، ووجب على الناس القيام عليه وخلعه، ونصبُ إمام عدل، أو والٍ مكانه إن أمكنهم ذلك..."<sup>(٢)</sup>. هذا، وقد انعقد الإجماع على عدم جواز ولاية الكافر على المسلمين كما حكاه جمعٌ من أهل العلم، منهم ابن حزم<sup>(٣)</sup>، وتمادى ابن المنذر فنقل الإجماع عن فقدان الكافر لأهلية الولاية على تزويج ابنته المسلمة ناهيك عن الولاية العامة، والإمامة العظمى على المسلمين؛ يقول رحمه الله: "وأجمعوا أن الكافر لا يكون ولياً لابنته المسلمة"<sup>(٤)</sup>.

وأما قضية استبعاد الدين من هذه العلاقة القانونية استبعاداً مقصوداً فلا يقول به مسلم، وحكايته تغني عن بيان بطلانه، ولا يوجد اليوم - في حدود علمي - دولة إسلامية واحدة يعتدُّ بها تنصُّ على ذلك صراحةً في دستورها، والله أعلم.

## المبحث الثاني: مضامين المواطنة في وثيقة المدينة، وآثارها في حماية الوطن.

تعد وثيقة المدينة المنورة من الوثائق التاريخية العتيقة والهامة؛ نظراً لما تحتويها من مبادئ وقوانين ضابطة لحياة الفرد داخل الدولة والمجتمع، وعلاقة الدولة برعاياها، وليس من المبالغة في شيء إن عددناها أول دستور عرفته البشرية، وفي هذا المبحث سوف تتوجه العناية صوب تحليل موادّ الوثيقة وبنودها لتجلية مضامين المواطنة فيها، وما تطيحها من مقومات حضارية في حماية الوطن، وإرساء دعائم الأمن والأمان في ربوعه، وسيتم الحديث عن ذلك في ثلاثة محاور رئيسة:

- ١- أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: "سترون بعدي أمورا تنكرونها": (٤٦/٩)، رقم الحديث (٧٠٥٦). ومسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب (وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية): (١٤٧٠/٣) رقم الحديث (١٧٠٩).
- ٢- القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم: (٢٤٦/٦).
- ٣- ابن حزم، مراتب الإجماع، ص: (١٢٦).
- ٤- ابن المنذر، الإجماع، ص: (٧٨).

- المحور الأول: حماية الوطن من الأخطار الداخليَّة.

- المحور الثاني: حماية الوطن من الأخطار الخارجيَّة.

- المحور الثالث: حماية الوطن من خطر العمالة والتَّخاير.

وقد قدَّمتُ المحورَ الأولَ المتعلِّقَ بحماية الوطن من الخطر الداخلي؛ لأنَّه من العسير جدًّا حماية الوطن من الخطر الخارجي، أو أي خطر أو تهديد آخر إذا كان الوضع الداخلي يعاني من التَّهالك والتآكل والاهتزاز، وقبل ذلك فهذا استعراض لنصِّ الميثاق كاملاً، والإحالة على أرقام بنودها عند التَّحليل.

#### - نص وثيقة المدينة:

أثناء البحث والتَّقليب في المصادر التي رصدت لنا نصوص وثيقة المدينة المنورة، والمقارنة بينها من مصدر لآخر وجدت نصَّها على التَّمام والكمال عند فضيلة الدكتور محمد حميد الله رحمه الله، مع جهد مشكور بذله في تقسيم نصوصها إلى بنود وفقرات مرَّقة، وسأورد نصَّها كما أورده في كتابه مجموعة الوثائق السِّياسيَّة للعهد النَّبويِّ والخلافة الرَّاشدة<sup>(١)</sup>، والإحالة عليه أثناء الدِّراسة.

#### بسم الله الرحمن الرحيم

(١) هذا كتاب من محمد النبي رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. (٢) أنهم أمة واحدة من دون الناس. (٣) المهاجرون من قريش على ريعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٤) وبنو عوف على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٥) وبنو الحارث بن الخزرج على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٦) وبنو ساعدة على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٧) وبنو جُشمٍ على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٨) وبنو النَّجَار على

١- محمد حميد الله الحيدر آبادي، الهندي، المصدر المذكور، ص: (٥٩ - ٦٢).

ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١٠) وبنو التّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى؛ وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. (١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل. (١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. (١٣) وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة ظلم، أو إثمًا، أو عدوانًا، أو فسادًا بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم. (١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمنًا في كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن. (١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجبر عليهم أدانهم، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس. (١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. (١٧) وأنّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم. (١٨) وأنّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا. (١٩) وأن المؤمنين يبيء بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله. (٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه. (٢٠ ب) وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن. (٢١) وأنه من اعتبط مؤمنًا قتلا عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل، وأنّ المؤمنين عليه كافة، ولا يحلّ لهم إلا قيام عليه. (٢٢) وأنه لا يحلّ للمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه؛ وأنّ من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. (٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ. (٢٤) وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. (٢٥) وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. (٢٦) وأنّ لليهود بني النّجار مثل ما لليهود بني عوف. (٢٧) وأنّ لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف. (٢٨) وأنّ لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف. (٢٩) وأنّ لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف. (٣٠) وأنّ لليهود بني الأوس مثل ما

ليهود بني عوف. (٣١) وأنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثمَّ فإنَّه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. (٣٢) وأنَّ حفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. (٣٣) وأنَّ لبني الشَّطبية مثل ما ليهود بني عوف، وأنَّ البرَّ دون الإثمِّ. (٣٤) وأنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم. (٣٥) وأنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (٣٦ ب) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ. (٣٦) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنَّه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأنَّ الله على أبرِّ هذا. (٣٧) وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرِّ دون الإثمِّ. (٣٧ ب) وأنه لا يأثمَّ امرأً بحليفه، وأنَّ النصر للمظلوم. (٣٨) وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. (٣٩) وأنَّ يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. (٤٠) وأنَّ الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثمِّ. (٤١) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. (٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مردَّه إلى الله وإلى محمَّد رسول الله ﷺ، وأنَّ الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه. (٤٣) وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها. (٤٤) وأنَّ بينهم النصر على من دهم يشرب. (٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصلحونهم ويلبسونه فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنَّه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين. (٤٥ ب) على كل أناس حصَّتهم من جانبهم الذي قبلهم. (٤٦) وأنَّ يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرِّ المحض من أهل هذه الصحيفة، وأنَّ البرَّ دون الإثمِّ لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأنَّ الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه. (٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثمِّ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثمَّ، وأنَّ الله جار لمن برَّ وأتقى ومحمد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

١- أقدم من نقل متن الصَّحيفة هو ابن إسحاق بدون سند - ينظر: ابن هشام السَّيرة النبوية (١٠٦/٢)، - ومن طريقه ابن سيد الناس في عيون الأثر: (٢٢٧/١ - ٢٢٩)، وابن كثير في السيرة النبوية: (٢/٣٢٠ - ٣٢٣) من دون إسناد أيضا.

وأسنده البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الديات، باب العاقلة: (١٨٤/٨)، رقم الحديث (١٦٣٦٩)، أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، ثنا أحمد بن عبد الجبار، ثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأحنس بن شريق، قال: أخذت من آل عمر بن الخطاب ﷺ هذا الكتاب...".

= وأخرجه أبو عبيد في الأموال، كتاب افتتاح الأرضين صلحا، وأحكامها، وسننها، وهي من الفيء، ولا تكون غنيمة، باب كتب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح، ص(٢٦٠)، رقم الحديث(٥١٨): حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صلح، قالا: حدثنا الليث بن سعد، قال: حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب، أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ.

وابن زنجويه في الأموال، كتاب العهود التي كتبها رسول الله ﷺ وأصحابه لأهل الصلح، ص:(٤٦٦) - (٤٧٠)، رقم الحديث(٧٥٠)، عن عبد الله بن صلح، عن الليث بن سعد، به.

وأخرجه ابن أبي خيثمة - كما قاله ابن سيد الناس في عيون الأثر(١/٢٢٩) -: حدثنا أحمد بن جناب أبو الوليد، ثنا عيسى بن يونس، ثنا كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار...".

وهذه الأسانيد لا تسلم طريق واحدة منها بمفردها، ومخرجات دراستها كانت كالتالي:

فأما طريق ابن إسحاق التي نقلها ابن هشام، وتابعه عليها كل من ابن سيد الناس، وابن كثير فليست لها أزمّة ولا خطام، وبالتالي لا تعول عليها في الصناعة الحديثية النقدية.

وأما طريق البيهقي فلا يخلو أحدٌ من رجاله من وجود ما يُعْمَرُ به سوى محمد بن يعقوب، أمّا يونس بن بكير وابن إسحاق وعثمان بن محمد ففيهم تليين خفيف؛ وبعد البحث والنظر فيما قاله النقاد في أحوالهم وجدت أنهم لا ينزلون عن رتبة الصدوق، وأمّا أحمد بن عبد الجبار العطاردي الكوفي فقال فيه ابن عدي في الكامل(١/٣١٤) -: "رأيت أهل العراق مجمعين على ضعفه"، وقد فسّر الحافظ ابن عدي في الكتاب المذكور(١/٣١٥) سبب تضعيفهم إياه قائلا: " وإنما ضعفوه لأنه لم يلق من يحدث عنهم"، وقال الحافظ عنه في التقريب، ص:(٨١): " ضعيف وسماعه للسيرة صحيح"، وما قاله الحافظ لا يمكن التعويل عليه لتمرير روايته هنا؛ لأنّ الوثيقة تضمنت أحكاما لا يمكن التساهل فيها، فنخلص من حاله أنّه في رتبة الضعيف ضعفا غير شديد؛ وعثمان بن محمد تحمّل الحديث وجادة، وهي طريقة في التحمل مختلف فيها، فنخلص من ذلك كله أنّ هذا الإسناد ضعفه يسير.

وأما إسناد أبي عبيد وابن زنجويه فرجاله كلهم ثقات غير يحيى بن عبد الله بن بكير؛ فقد وثقه جمع من الحفاظ، وضعفه آخرون وبالأخصّ في روايته للموطأ بعرض حبيب كاتب الليث، أما روايته عن الليث بن سعد فصحيحة؛ قال الحافظ بن حجر في تقريبه، ص:(٥٩٢): "ثقة في الليث، وتكلموا في سماعه من مالك"، وتبقى في هذا السند علتان:

العلة الأولى: حال عبد الله بن صلح كاتب الليث، قال عنه الذهبي في الميزان (٢/٤٤٠): "هو صاحب حديث، وعلم، مكثّر، وله مناكير"، وهو ضعف يسير يرتفع بزوال شبهة التّكارة، ومتابعة يحيى بن بكير له كفيلة برفع هذه الشبهة عن هذه الرواية.

العلة الثانية: إرسال الزهريّ، ومراسيله شر من مراسله غيره؛ قال يحيى بن سعيد: "مرسل الزهري شر من =

## المطلب الأول:

### حماية الوطن من الأخطار الداخليّة في وثيقة المدينة.

اتَّسم الوضع الداخليّ في المدينة المنورة إبان هجرة المصطفى ﷺ بقدر كبيرٍ من التّعقيد في جانب حياتها الاجتماعية؛ فقد استحكمت في المكوّنين الرئيسيين للعرب في المدينة قبيلتي الأوس والخزرج، وقد هجر النبي ﷺ إلى المدينة واستلم هذا الإرث الثقيل، لكنّه عليه الصّلاة والسّلام اتّخذ سلسلة من السّياسات الحكيمة للحجم هذا العداء ومحاصرة إفرزاته؛ فكان بناء المسجد

=مرسل غيره؛ لأنه حافظ وكلّ ما يقدر أن يسمي سمي، وإنما يترك من لا يستحيز أن يسميه"، وقد ضعف مراسيل الزهري جمع من الحفاظ، منهم الشافعي، وابن معين، ورؤي عن أحمد بن صالح المصري، كما ذكره ابن رجب في شرح علل الترمذي الصغير (١/٥٣٥)، وهذه العلل خفيفة تنزاح بوجود متابع أو شاهد.

أما طريق ابن أبي خيثمة فلا توجد في القطعة الموجودة من تاريخه، وإنما ذكره ابن سيد الناس، وهو إسناده ضعيف جداً؛ لحال كثير بن عبد الله المزني؛ قال الشافعي وأبو داود: ركن من أركان الكذب، وضرب أحمد على حديثه، وقال ابن حبان: له عن أبيه، عن جده نسخة موضوعة، كما في ميزان الاعتدال (٣/٤٠٧)، فمثل هذا السند يتقاعد عن الجابر.

ولما سبق بيانه؛ فقد اختلف الباحثون المعاصرون في صحة الوثيقة: فذهب الأستاذ يوسف العث إلى أنّ الوثيقة موضوعة، يقول الدكتور أكرم ضياء العمري في دفع مقولة أستاذ العث في السيرة النبوية الصحيحة (١/٢٧٥): "وبذلك يتبين أن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة، فابن إسحق في سيرته رواها دون إسناده مما يجعل روايته ضعيفة، وأوردها البيهقي من طريق ابن إسحق أيضاً بإسناده فيه سعد بن المنذر - لم أقف عليه بعد بحث-، وهو مقبول فقط، وابن أبي خيثمة أوردها من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو المزني، وهو يروي الموضوعات، وأبو عبيد القاسم بن سلام رواها بإسناده منقطع يقف عند الزهري، وهو من صغار التابعين فلا يحتج بمراسيله..."، وقد مال بعض الباحثين إلى أنّ الوثيقة بتمامها وردت من طرق لا ينزل بمجموعها عن درجة الحسن لغيره، من هؤلاء صاحب كتاب الوثيقة النبوية، ص: (٦٨)، وهذا ما توصلت إليه فأسانيد الوثيقة بمجموع هذه الطرق في مرتبة الحسن لغيره إن شاء الله تبارك تعالى.

النَّبِيُّ الشَّرِيفُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْ مَقَدَمِهِ مُؤَذِّنًا بِفَاتِحَةِ عَصْرِ جَدِيدٍ مَفْعَمٍ بِتَوْحِيدِ الْكَلِمَةِ وَوَحْدَةِ الصَّفِّ، تَلَّتْهَا خَطْوَةُ الْمُؤَاخَاةِ الَّتِي أَقَامَهَا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؛ فَمَلَأَتْ الْمُجْتَمَعَ الْجَدِيدَ بِرُوعَةِ الْإِيثَارِ وَأَشْرَقَ صُورِ الْمُوَاسَاةِ تَعَاهَدَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِخُطَابٍ دَعَوِيٍّ مَبَارِكٍ حَافِلٍ بِالتَّأَكِيدِ عَلَى أَصَالَةِ الْأَخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يَنْصَهَرُ أَمَامَهَا فَوَارِقُ الْجَنَسِ وَاللَّوْنِ وَحَوَاجِزُ اللَّغَةِ وَالْقَبِيلَةِ؛ فَقَدْ جَاءَ فِي الْبَنْدِ (١)، وَالْبَنْدِ (٢) مِنَ الْوَثِيقَةِ التَّنْصِيفِ عَلَى أَنَّ " الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قَرِيشٍ وَيَثْرَبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلِحَقِّ بَهْمٍ وَجَاهِدٍ مَعَهُمْ، إِنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النَّاسِ "، وَقَدْ أَتَتْ تِلْكَ السِّيَاسَاتُ أَكْلَهَا فِي رَتْقٍ مَا انْفَتَقَ مِنْ عِلَاقَةِ الْأَوْسِ بِالخَزْرَجِ بِاسْتِثْنَاءِ فِتْرَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَتْ تَعْلُو فِيهَا نَبْرَاتٌ تَحَاوَلَ جَاهِدَةً خَطَفَ الذَّاكِرَةَ نَحْوَ الْمَاضِي الْأَلِيمِ الْمَوْعُودِ بِنَارَاتِهِ لَكِنْ مَا يَلْبَثُ أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى يَقُومَ بِمَا يَلِزِمُ لِاحْتِوَاءِ الْمَوْقِفِ بِأَبِي هُوَ وَأُمِّي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (١).

وَمِنَ التَّحْدِيَّاتِ الَّتِي وَاجَهَتْ دَوْلَةَ النَّبُوَّةِ كَذَلِكَ طَبِيعَةَ التَّوْزِيعِ السُّكَّانِيِّ فِيهَا؛ فَقَدْ تَأَلَّفَ بِمُجْتَمَعِ الْمَدِينَةِ الْجَدِيدِ مِنْ صَنْفَيْنِ آخَرِينَ بَعْدَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ ﷺ، وَهَم:

- الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ تَتَخَلَّجُهُ الشُّكُوكُ وَيَتَرَدَّدُ فِي تَرْكِ دِينِ الْأَبَاءِ، وَلَمْ يَكُنْ يَبِطِنُ الْعِدَاوَةَ وَالْكَيْدَ ضِدَّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ.

- الْيَهُودُ (٢)، وَكَانَتْ فِي الْمَدِينَةِ (يَثْرَبَ) مِنْهُمْ ثَلَاثُ قَبَائِلَ مَشْهُورَةٍ، وَهَم: بَنُو قَيْنِقَاعَ وَكَانُوا

١- وَمِنْ شَوَاهِدِهِ مَا قَامَ بِهِ الْيَهُودِيُّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ مَحَاوِلَةٍ لِلتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ، يَرِاجِعُ ابْنَ هِشَامٍ، السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ: (٢/١٤٦).

٢- هَجَرَ الْيَهُودَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ مِنَ الشَّامِ عَلَى الرَّاجِحِ فِي الْقَرْنَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَالْيَهُودَ فِي الْمَدِينَةِ يَتَشَكَّلُونَ مِنَ الْقَبَائِلِ الثَّلَاثَةِ: بَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قَرِيظَةَ، وَبَنُو قَيْنِقَاعَ الَّذِينَ اخْتَلَفَ فِي كَوْنِهِمْ عَرَبًا تَهَوَّدُوا، أَمْ أَنَّهُمْ نَزَحُوا مَعَ النَّازِحِينَ إِلَى الْحِجَازِ، وَهَنَّاكَ يَهُودٌ مِنْ بَطُونٍ أُخْرَى ذَكَرَهُمُ السَّمْهُودِيُّ فِي وِفَاءِ الْوَفَا: (١/١٣٠-١٣٢)، وَيَسْرِي فِيهِمْ أَيْضًا الْخِلَافُ السَّابِقُ مِنْ كَوْنِهِمْ عَرَبًا تَهَوَّدُوا أَمْ نَازِحِينَ، وَقَدْ سَبَقَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ قَبِيلَةَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِالِاتِّفَاقِ، وَهَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ وَجُودَهُمْ فِيهَا سَبَقَ وَجُودَ الْعَرَبِ؛ فَقَدْ هَجَرُوا إِلَيْهَا وَفِيهَا الْعَمَالِيقُ وَهُوَ عَرَبٌ بِلَا خِلَافٍ.

وَأَمَّا قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ فَتَنَحَدِرَانِ مِنْ قَبِيلَةِ الْأَزْدِ الْبِمْنِيَّةِ الْكَبِيرَةِ، وَهُمَا أَخْوَانٌ، وَمَعَ ذَلِكَ دَارَتْ بَيْنَهُمَا أَيَّامٌ دَامِيَةٌ كَانَتْ آخِرَهَا يَوْمُ بَعَاثِ الَّذِي فَقَدُوا فِيهِ كَثِيرًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَرِجَالِهِمْ، وَلِلْقَبِيلَتَيْنِ بَطُونٌ، يَتَكُونُ كُلُّ بَطْنٍ مِنْهَا إِلَى بَيْوتٍ.

حلفاء الخزرج وكانت ديارهم داخل المدينة، وبنو النَّضِير، وبنو قريظة وهم حلفاء الأوس وكانت ديارهما بضواحي المدينة<sup>(١)</sup>.

وقد أخضع اليهود مجتمع المدينة لنفوذهم الاقتصاديِّ بفضل صدارتهم في مجال الزراعة والصِّناعة والتِّجارة الدَّاخِلِيَّةِ والخارجِيَّةِ، وجشعهم الذي حطَّم كلَّ القيود التي وضعت لترشيد الاكتساب؛ يزبح فضيلة الشَّيخ عفيف طِبَّارة السَّنارة عما عرف به اليهود من حبِّ المال قائلاً: " ليس في تاريخ البشريَّة أُمَّة اشتهرت بحبِّ المال والسَّعي إلى جمعه كما اشتهر به اليهود؛ فقد سلكوا في ذلك كلَّ الطُّرق المشروعة وغير المشروعة حتى ما كان بعيداً عن المروءة، وأسرفوا في الحرص على جمع المال إلى حدِّ العبادة"<sup>(٢)</sup>.

فهذه - إذا - إطلالة تمهيدِيَّة خاطفة على مجمل الحالة الدينية والاجتماعيَّة والاقتصادية والديموغرافيَّة في المدينة المنورة، والتي على أساسها سنَّ النَّبي ﷺ قانوناً يتمتَّع بالأقدار الكافيَّة من السَّماحة والرِّفق والانفتاح في هذا المجتمع الجديد المتعدِّد، ومضامين المواطنة التي لعبت دوراً محوريّاً في استقرار الجهة الدَّاخِلِيَّة لهذه الدَّولة الوليدة تجسَّدت في:

#### - الإذعان لسلطة الدَّولة، وسيادة القانون.

لقد عَلِمَ النَّبي ﷺ ثقل الموروث الجاهليِّ عند قبائل العرب، وما كانوا عليه من فرط التَّسيب والانفلات، وغلبة منطق الأثرة وقانون الغاب، وهي عادات جاهليَّة تركت بصماتها وسماتها في واقع ما خلفوه من تراث أشعاراً ونصوصاً أدبيَّة؛ فهذا عمرو بن كلثوم أحد الشعراء في العصر الجاهليِّ يتباهى بما كانت عليه قبيلته من الأثرة والأنانية في أبياتٍ شهيرة معروفة يقول فيها<sup>(٣)</sup>:

وَأَنَا الشَّارِبُونَ الْمَاءَ صَفْوَاً  
وَيَشْرَبُ غَيْرَنَا كَدْرًا وَطِينًا

يراجع: محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص: (١١٩)، ود. أكرم ضياء العمري، المجتمع المدني، ص: (٥٧-٦٢)، والوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، ص: (١٩-٢٤).

١- ينظر: صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، ص: (١٩١-١٩٣)، بتصرف يسير.

٢- عفيف عبد الفتاح طِبَّارة، اليهود في القرآن، ص: (٣٢).

٣- أبو بكر الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: (٤١٩).

وأما سيطرة قانون الغاب عليهم فحدث ولا حرج، فهذا الشاعر القاطميّ التغلبيّ أحد شعراء الدولة الأموية يعكس جانباً مما أثار عن العرب في حبّ الحرب في هذا البيت فيقول<sup>(١)</sup>:

وأحياناً على بكرٍ أخينا إذا ما لم نجد إلا أخاناً

وهذه العادات لا تتفق مع دولة السّلام والوئام والقانون الذي كان النبي ﷺ ينشدها، لكنّه تمكن من تجاوز هذه العقبة بتشبيده دولة الشريعة والقانون عبر عدد من الإجراءات الدستوريّة في هذه الصّحيفة:

- أولاً: تحديد النبي ﷺ القائد الأعلى للدولة، وصاحب القرار الأول والأخير، وله القضاء وإليه التنفيذ، وقد جاء ذلك في عدد من البنود صراحة وتلميحا؛ فقد ورد في البند(٢٣): "وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمد ﷺ".
- ثانياً: جعل الشريعة الإسلاميّة قانوناً ومرجعياً، فقد نصّ في البند(٤٢): "وأنّه ما كان بين أهل هذه الصّحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يخاف فساده فإنّ مردّه إلى الله وإلى محمّد رسول الله ﷺ...".
- ثالثاً: المنع من الظلم والاعتداء، وأنّ يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصّحيفة<sup>(٢)</sup>، وأعلن ﷺ أنّه سيطلق يد العدالة لتأخذ مجراها في حقّ من تسوّل لهم أنفسهم التّعدي على الحرمات، كما في فقرة من البند(٤٧): "وأنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنّه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم..."، وإمعاناً في رفض الظلم فقد رفض معه كلّ صور التّعطية على المجرمين، وأبلغ الجميع بعدم جواز ذلك، وأنّه سلوك يجلب لعنة الله وغضبه، فقال: "وأنّه لا يحلّ لمؤمنٍ أقرّ بما في هذه الصّحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه؛ وأنّ من نصره أو آواه فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدلٌ"<sup>(٣)</sup>، ولما كان مجتمع المدينة مكوّناً من مسلمين ويهود ومشرّكين فقد يبدو مع القراءة السّطحيّة أنّ الخطاب للمسلمين واليهود دون الباقيين ممن لا يدينون بدين، لكن

١- أبو علي الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، ص: (٢٥٣).

٢- كما ورد في البند (٣٩).

٣- كما ورد في البند (٢٢).

الحاصل أن قوله: " أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة " لا يترك أحدا في المدينة ممن وقع على هذه الصَّحيفة دون أن يشمله.

هذه هي الرُّكيزة الأولى -إذًا- من ركائز المواطنة لحماية الأمن الداخليّ نقطفها من بستان هذه الوثيقة التأسيسية اليانعة إنّها "الإذعانُ لسلطة الدَّولة، وسيادة القانون"، سيادة قانونٍ عادلٍ يقف الجميع أمامه متساوين؛ فتنبسط العدالة، وينعم الجميع بالأمان على أنفسهم وأموالهم وذويهم، ثمَّ تكون هناك سلطة ساهرة بكامل أجهزتها لحماية هذا القانون، وإنزاله على الوقائع حدودًا وتعزيراتٍ، فالحقُّ لا بدَّ له من قوَّةٍ تحميه، يُروى في الأثر: " إِنَّ اللَّهَ لَيَزِعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزِعُ بِالْقُرْآنِ "(١).

إنَّ حمل الناس على الخضوع لسلطة الدولة وسيادة القانون ليس أمرًا ثانويًا وليس من فضول الفعل فقد كان سببا في عدد من الإجراءات العسكرية التي قام بها النبي ﷺ ضدَّ من عبث وخرج عن القانون، نذكر منها للمثال:

حصارَ يهود بني قينقاع المنتهي بإجلائهم بعدما أظهروا العداءَ السَّافر للدَّولة، والإخلالَ بالأمن داخل المدينة، والاعتداء على حرمة امرأة مسلمة متحجبة، وكشَفَ سواها على الملاء(٢)؛ في تحدٍّ ونقضٍ سافرٍ للقانون.

كان السَّبب في مقتل كعب الأشراف الذي تعدَّى على رأس الدَّولة عليه الصَّلَاة والسَّلَام

---

١- هذا الأثر أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد: (٥ / ١٧٢) من طريق الهيثم بن عدي، قال: حدثنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لَمَّا يَزِعُ اللَّهُ بِالسُّلْطَانِ أَعْظَمُ مِمَّا يَزِعُ بِالْقُرْآنِ"، وهو إسناد مظلم فالهيثم بن عدي متروك، وأتهمه بعض النقاد بالكذب؛ فقد سئل يحيى بن معين عنه فقال: "كوفي ليس بثقة، كذاب"، وقال عنه أبو حاتم الرَّايزي: "متروك الحديث، محله محل الواقدي، كما نقله ابن أبي حاتم في الجرح والتَّعديل: (٨٥/٩).

وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة: (٣/٩٨٨): حدثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدثنا حماد- هو ابن زيد-، قال: حدثنا يحيى بن سعيد- الأنصاري-: أن عثمان فذكره، وهذا الإسناد رجاله كلهم ثقات، لكنَّه معلٌ بالانقطاع؛ لأنَّ يحيى بن سعيد لم يدرك عثمان، والله أعلم.

٢- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٣٨). والرَّحيق المختوم، ص: (٢٥٧ - ٢٥٨).

بالهجاء والنيل منه، والتواصل ثم التعاطف مع الكيان المعادي (قريش)<sup>(١)</sup>.

كان السبب في إجلاء بني النضير بعد أن حاولوا اغتيال رأس الدولة عليه الصلاة والسلام بأمر من قريش، وقد منع ذلك أن امرأة من اليهود أفشت سرهم كما تقول إحدى الروايات في سبب إجلائهم<sup>(٢)</sup>.

كان سببا في الإغارة على بني قريظة وغزوهم بعد أن نقضوا العهد الذي كان بينهم وبين دولة المدينة<sup>(٣)</sup>، وقد عمَّ أرجاء المدينة السلام والوثام بإجلاء الطابور الخامس من هؤلاء الخونة من اليهود، والله الحمد والمنة.

#### - احترام حقوق الإنسان.

لن تقوم للمواطنة قائمة، ولن يكون للأوطان مستقبل ولا تنمية، ولن تعرف الهدوء والاستقرار إذا كانت حقوق الإنسان فيها مهضومة، وقديما قيل: العدل أساس الملك، وإنَّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة<sup>(٤)</sup>، لقد عمل النبي ﷺ على منح الناس حقوقهم كاملة غير منقوصة منذ طلوع فجر الرسالة، وأكدها في دستور المدينة، وقانون دولته الوليدة، فقد نصَّ على جملة من الحقوق نذكر منها:

- **أولا حق الحياة:** وأكبر مؤشر على هذا الحق في الدستور، تلك العقوبة التي تلحق من أزهق نفسا بريئة؛ ففي المادة (٢١): "أنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بيته فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي المقتول بالعقل..."، وقوله: (مؤمنا) لا يفيد أن المؤمن إذا قتل ذميا أو معاهدا لا يقتل به، والذي

١- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٤١-١٤٣).

٢- عبد الرزاق، المصنف، كتاب المغازي، باب وقعة بني النضير: (٣٥٨/٥)، رقم الحديث (٩٧٣٣)، وهذه الرواية كما يقول الدكتور أكرم ضياء العمر في المجتمع المدني، ص: (١٤٦): "رجاله ثقات، وفيه جهالة اسم الصحابي ولا تضر".

٣- ينظر: د. أكرم العمري، المجتمع المدني، ص: (١٥٢).

٤- هذه العبارة يحكيها شيخ الإسلام في بعض كتبه بصيغ تفيد أنه ينقلها عن غيره من مثل (ولهذا يروى)، أو (ولهذا قيل)، ينظر: ابن تيمية، الحسبة في الإسلام، ص: (٧).

أميل إلى ترجيحه في هذه المسألة الخلافية هو رأي الحنفية ومن وافقهم<sup>(١)</sup>، وليس رأي الجمهور القائل بعدم جواز قتل المؤمن بالكافر مطلقاً<sup>(٢)</sup>؛ لأنَّ كلَّ الأدلة التي استند إليها الجمهور جاء الكافر فيه مطلقاً فيحمل على الكافر المحارب، ومن الأدلة القوية على ما أقول ما ثبت عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"<sup>(٣)</sup>، وهذه العقوبة الأخروية لمن قتل معاهداً متعمداً يتناسب مع عقوبة من يقتل مؤمناً متعمداً كذلك فناسب أن تكون العقوبتان واحدة في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيماً﴾<sup>(٤)</sup>.

- ثانياً: حقُّ حرية الاعتقاد: فقد أسست الوثيقة لهذا الحق، وكفلتها لجميع المواطنين في المدينة؛ فأوجب "احترام حق الغير في اعتقاده ما يشاء، وفي تركه يعمل طبقاً لعقيدته، وعدم إكراهه على اعتناق ما يخالف هذه العقيدة، ولم يتجاوز حدود تجويز مجادلته بالحسنى، فإن أمكن إقناعه بالعدول عن عقيدته عن طواعية واختيار دون ضغط ولا إكراه فلا حرج في ذلك، وإن ظل على عقيدته فلا يجوز التأثير عليه بما يحمله على تغييرها وهو غير راض"<sup>(٥)</sup>؛ ففي المادة (٢٥): "وأنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ<sup>(٦)</sup> إلا نفسه وأهل بيته"، وأنبه أن هناك باحثين ينكرون القول بحرية الاعتقاد في الشريعة، ويفهمون منها ما ليس مجالاً للبحث أصلاً، وإنما المقصود منها هو ترك الناس يختارون الإسلام أو ما عاداه دون إكراه؛ لأنَّ الإكراه لا يؤسس عقيدة مقبولة في الإسلام، وإنما يأتي بمنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، والعياذ بالله !!.

١- ينظر: الكاساني، بدائع الصنائع: (٣٢٧/٧).

٢- ينظر: ابن قدامة، المغني: (٢٧٣/٨).

٣- البخاري، في صحيحه، كتاب الجزية، باب: (إثم من قتل معاهداً بغير جرم): (٩٩/٤)، رقم الحديث (٣١٦٦).

٤- سورة النساء، الآية: (٩٣).

٥- الشعبي، وثيقة المدينة الدلالة والمضمون، ص: (١٩٦ - ١٩٧) مع تصريف يسير.

٦- أي يهلكه. يقال: وتغَّ، وتغَّأ، ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (١٤٩/٥).

- ثالثاً: حق المساواة أو العدالة<sup>(١)</sup> أمام القانون، وفي كثير من الحقوق إلا ما ندر مما جرى استثناءه كحق تولي الولاية العامة.
  - رابعاً: الحق في حرية الفكر والتعبير عن الرأي بضوابطه، وخير دليل على ذلك أن هذه الوثيقة في أصلها تمخضت عن مباحثات وتراض بين الأطراف كافة دون فرض أو إملاء، وهذه قمة حرية التعبير والفكر والاختيار.
  - خامساً: الحق في التكافل الاجتماعي، والدعم المالي للمعوزين، وفداء الأسرى، والمساعدة في دية القتيل، وقد شغل هذا الحق أغلب بنود الوثيقة.
- إذن فمراعاة حقوق الإنسان بأنواعها المقررة في الشرع من مضامين المواطنة التي تحمي الوطن واستقراره، وتبجده عن شبح التوتر والاضطراب، وهو حق واجب على الدولة توفيره لكافة أبناء الشعب.

#### - طاعة ولاية الأمور، والابتعاد عن صور العصيان المدني.

من أكبر مهددات الأمن الداخلي لجلبها الشرور والفتن إلى أوطاننا فتنة الخروج على ولاية الأمور والنظام الحاكم بقوة السيف كما هو منهج الخوارج، ويأتي في حكم الخروج بالسلاح ما انتشر من الثورات والمظاهرات؛ لأنها من أسباب الخروج بالسيف، والوسائل لها أحكام المقاصد كما تقول القاعدة الفقهية<sup>(٢)</sup>.

إن واجب السمع والطاعة لولاية الأمور فيما أحب المرء وكره، وفي المنشط والمكروه يعد من

١- يفضل العلامة العثيمين التعبير بالعدل دون المساواة فيقول في كتابه لقاء الباب المفتوح (١٣/١٧): "وينبغي أن نعرف الفرق بين العدل والمساواة، الآن يقول كثير من الناس: الإسلام دين المساواة، وهذا غلط، ليس في القرآن كلمة مساواة، أو أن الناس سواء، بل لو تأملت أكثر ما في القرآن تجد نفي المساواة"، إلى أن قال: "وفرق بين العدل والمساواة، لو أخذنا بظاهر كلمة المساواة لقلنا: الذكر والأنثى سواء كما ينادي به الآن المتفرجون، لكن إذا قلنا العدل أعطينا الذكر ما يستحق، والأنثى ما تستحق، ولهذا نرجو من إخواننا الكتاب وغير الكتاب أن ينتبهوا إلى هذه النقطة؛ لأن كلمة المساواة أدخلها بعض المعاصرين، والله أعلم كيف أدخلوها، قد يكون عن سوء فهم، وقد يكون لسبب آخر، إنما الدين دين العدل، والعدل إعطاء كل أحد ما يستحق".

٢- ينظر: ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنعام: (١/٥٣).

مضامين المواطنة التي حافظت عليها وثيقة المدينة وهو نقيض التمرد والعصيان المدني، ويؤخذ ذلك من ثلاثة أمور:

- الأمر الأول: إنَّ القيادة في دولة المدينة أكَّدت في عدد من بنود الوثيقة على حرص القيادة على تنفيذ ما تضمَّنته، وعدم الخروج عليها بمخالفتها.
- الأمر الثاني: إنَّه خيَّر في البند(٤٧) بين البقاء في المدينة مع الالتزام بها، أو الخروج منها، وأنَّ من فعل واحداً من الخيارين فهو آمن، فقال: "وأَنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأَنَّه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم"، إذن فمن يبقى في المدينة تجري عليه أحكامها إذا ظلم واعتدى ولا مفرَّ.
- الأمر الثالث: إنَّ كلَّ الأسباب التي أدَّت إلى توجيه ضرباتٍ عسكريةٍ لقبائل اليهود الموقَّعين على الميثاق، وحصارهم، وإجلائهم كانت في نقض ما منعت منه بنودُ الوثيقة، والخروج عن مقتضياتها كما مرَّ معنا آنفاً.

فالمقصود هو أنَّ الطَّاعة وعدم العصيان من لوازم المواطنة الصَّادقة، ومن مضامينها المركزية، وقد تضافرت الأدلَّة من الكتاب والسُّنة على حرمة الخروج على الحكَّام، وتواترت حكاياتُ العلماء لإجماع السَّلف حياله، يقول شيخ الإسلام ابن تيميَّة: "ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة أنَّهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسَّيف وإن كان فيهم ظلمٌ كما دلَّت على ذلك الأحاديثُ الصَّحيحة المستفيضة عن النَّبي ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتن، فلا يدفع أعظم الفسادين بالترام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته"<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني: حماية الوطن من الأخطار الخارجيّة في وثيقة المدينة.

كثيرة هي تلك المخاطر التي تكون الأوطان عرضةً لها من العدو الخارجي، وخصوصاً عندما تزخر بالخيرات والموارد الطبيعية؛ وقد قيل: "إنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ"<sup>(٢)</sup>، فيتوجَّب على الدَّولة

١- ينظر: ابن تيميَّة، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: (٥٣/١).  
٢- جزء من قول منسوب إلى النَّبي ﷺ، وتمامه: "اسْتَعِينُوا عَلَيَّ قَضَاءِ الْخَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ =

بكل مكوّناتها، ومنسوبيها أن يقفوا سدا منيعا أمام تلك الأخطار الخارجية، وهي وإن تعدّدت صورها وألوانها إلاّ أنّي سوف أتحدّث عن خطرين منها، وهما: خطر الاجتياحات العسكريّة، وخطر الحملات الإعلاميّة، والانتماء الصادق للوطن يفرض حيالهما ما يلي:

### - الوقوف في وجه الاجتياح العسكريّ:

أدرك النبي ﷺ من يومه الأوّل في المدينة أن دولته الوليدة مهدّدة، ولها أعداء متربصون، الأمر الذي يحتمّ عليه أن يترك في عين الاعتبار وهو يصوغ بنود الوثيقة عقد ميثاق وطنيّ يلزم جميع المواطنين مسلمين ومشركين ويهودًا الدفاع عن بيضة المدينة من أيّ تهديد أو غزو خارجيّ، وقد جاء ذلك صريحًا في أكثر من بند من بنود الوثيقة؛ ففي فقرة من البند (٣٧)، يقول ﷺ: "وأَنَّ

=مَحْسُودٌ"، وفي لفظ: "اسْتَعِينُوا عَلَيَّ إِنَّجِ الْحَوَائِجِ بِالْكَتْمَانِ، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ".

يرويه معاذ بن جبل ؓ، ومدار طرقة على ثور بن يزيد، يرويه عن خالد بن معدان، عن معاذ بن جبل، أخرجه الطبراني في الأوسط، باب (من اسمه إبراهيم): (٥٥/٣)، رقم الحديث: (٢٤٥٥)، وقد رواه عن ثور أربعة كلهم ضعفاء، كما يقول الشيخ ناصر الدين الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: (٤٣٦/٣). ويرويه ابن عباس ؓ، وله عنه طريقان مدارهما على الحسن بن عبيد الله الأبراري، وهو كذاب، ينظر: ابن الجوزي، الموضوعات: (١٦٦/٢).

وقد ذكر الشيخ الألباني في السلسلة (٤٣٨/٣ - ٤٣٩) للحديث طريقا أخرى من حديث علي بن أبي طالب ؓ، ثم قال: "هذا إسناد مظلم"، لكنّه رحمه الله ذكر طريقا أخرى عن أبي هريرة ؓ، ثم قال عقبه: "فالحديث بهذا الإسناد جيد عندي..."، وفيما قاله نظر؛ ذلك أنّ الحديث حكم عليه الإمام أحمد ويحيى بن معين بأنّه "موضوع ليس له أصل" كما نقله ابن الجوزي عنهما في كتابه الموضوعات، كتاب الصدقة: (١٦٦/٢)، ونفي هذين الإمامين أن يكون للحديث أصل يصعب معه بعد ذلك تجويد أسانيده كما فعل الشيخ هنا؛ لأنّ الأئمة المتقدمين عندما يطلقون مثل هذه الأحكام فإنما سيتندون في ذلك على مخزون ضخم من المحفوظات في الأسانيد والمتون مما تجعل مباراتهم أو معاكسة أحكامهم أمرا في غاية الصعوبة !.

وللحديث طريق أخرى عن أبي بردة أخرجه أبو عبد الرحمان السلمي في أداب الصحبة، ص: (٧٠)، وفيه علتان:

الأولى: أنه مرسل؛ لأنّ أبا بردة، لم يلق النبي ﷺ، ينظر: المزي، تحفة الأشراف: (٤٦٦/٦).

الثانية: أنّ أبا عبد الرحمان السلمي متهم، ينظر: الألباني، سلسلة الأحاديث الصّحيحة: (٤٣٩/٣)، ولا يصلح للتقوية؛ لأنّ الحديث موضوع وليس له أصل كما تقدم، والله أعلم.

بينهم النَّصر على من حارب أهل هذه الصَّحيفة..."، وفي البند(٤٤)، يقول: " وأنَّ بينهم النَّصر على من دَهَمَ يثرب".

ولما كانت كلفة الحروب باهظةً تحتاج إلى ميزانية كبيرة، سواء في ذلك الحروب الدفاعية أو الهجومية، فقد نصَّ الدستور على وجوب التزام اليهود والمسلمين بتغطية نفقات الحروب الدفاعية عن المدينة<sup>(١)</sup>، فقال: "وأنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين" كما جاء في البندين(٢٤) و(٣٨)، وجاء في فقرة من البند(٣٧): "وأنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم...".

أتاحت لنا هذه البنود مقوِّمات مهمةً لحماية الوطن من أكبر خطر قد يتهدده، وهو الغزو العسكري، ويتمثل في وجوب الخروج للدِّفاع عن الوطن من جميع أطراف الشعب، بغض النَّظر عن الدين والمعتقد، فطالما أنَّه مواطن يحمل ولاءً لوطنه، فعليه الوقوف مع دولته بالمال والسِّلاح، والنفس والنفيس، وفي الثُّراث الإسلامي الفقهي نجد ساداتنا الفقهاء من كل المذاهب الإسلاميَّة ينصُّون على أن الدِّفاع عن البلد حال الهجوم عليه فرضٌ عين على أهل البلدة، فمن يليهم؛

١- هذا في جهاد الدفع، أما جهاد الطلب فلا يجوز الاستعانة فيه بالكفار على الرَّاجح من قولِي العلماء؛ وقد استدلل المانعون بما أخرجهم مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسِّير، باب (كراهية الاستعانة في الغزو بكافر): (١٤٤٩/٣)، برقم: (١٨١٧)، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَذْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذَكِّرُ مِنْهُ جُرْأَةً وَنَجْدَةً، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَذْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟" قَالَ: لَا، قَالَ: "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجْرَةِ أَذْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَذْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: "تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟" قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "فَانْطَلِقْ".

أمَّا المجيزون فمن أدلتهم ما رواه البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السِّير، باب(الرِّضخ لمن يستعان به من أهل الذمة): (٩٢/٩)، رقم الحديث(١٧٩٧٠): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأ الربيع بن سليمان، قال: قال الشافعي: قال أبو يوسف: أنبأ الحسن بن عمارة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس ﷺ، أنه قال: " استعان رسول الله ﷺ بيَّهود بني قَيْنُقَاعَ فَرَضَخَ لَهُمْ، وَلَمْ يُسْهِمَ لَهُمْ"، وهذا الحديث لا يصح، وقد قال البيهقي عقبه: " تفرد بهذا الحسن بن عمارة وهو متروك، ولم يبلغنا في هذا حديث صحيح، وقد روينا قبل هذا في كراهية الاستعانة بالمشركين..."، قلت: إذن لا يصحُّ في هذا حديث كما قال هذا الإمام العلم.

نصّ على وجوبه ابن عابدين الحنفِي في الرد المحتار<sup>(١)</sup>، والدُسوقي المالكي في حاشيته على الشرح الكبير<sup>(٢)</sup>، والنووي الشافعي في روضة الطالبين<sup>(٣)</sup>، وابن قدامة الحنبلي في المغني<sup>(٤)</sup>، وأمّا شيخ الإسلام ابن تيمية فذهب إلى ما هو أبعد فنقل الإجماع على ذلك قائلاً: "وأما قتال الدّفع فهو أشد أنواع دفع الصّائل عن الحرمّة والدّين فواجب إجماعاً؛ فالعدو الصّائل الذي يفسد الدّين والدّنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه فلا يشترط له شرط بل يدفع بحسب الإمكان، وقد نصّ على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم، فيجب التّفريق بين دفع الصّائل الظّالم الكافر وبين طلبه في بلاده"<sup>(٥)</sup>.

ولخطورة الهجوم المسلح على الأوطان، وضرورة حماية الوطن منه، فقد أوجب بعض الدول ما بات يعرف بالتّجنيد الإجمالي، وهو "طريقة لاختيار الرجال وفي بعض الأحيان النساء للخدمة العسكرية الإلزامية، وعادةً يتمّ التجنيد الإجمالي بمجرد انتهاء الدّراسة، فيخدم المجنّدون لمدة تتراوح بين عام واحد وثلاثة أعوام، وقد استخدمت كثير من الدول التجنيد الإجمالي في وقت الحرب، ولكنّ عدداً قليلاً من الدول استخدمته أثناء فترات السلم..."<sup>(٦)</sup>.

والخدمة العسكرية من موجبات المواطنة إلى جانب المشاركة الماليّة في ميزانيّة الدّولة؛ وقد حدّدت موسوعة السّياسة صفة المواطن بأنّه: "الذي يتمنّع بالحقوق، ويلتزم بالواجبات التي يفرضها عليه انتماءؤه إلى الوطن، وأهمّها واجب الخدمة العسكرية، وواجب المشاركة الماليّة في موازنة الدّولة"<sup>(٧)</sup>، وفي سياق التّعريف بالمواطنة وما يتربّب عليها من حقوقٍ وواجباتٍ ذكرت موسوعة الكتاب الدولي<sup>(٨)</sup> أنّ "المواطنين لديهم بعض الحقوق، مثل حقّ التصويت وحقّ تولي المناصب

١- ينظر: ابن عابدين، رد المحتار على الدر المختار: (١٢٤/٤).

٢- ينظر: الدسوقي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير: (١٧٤/٢).

٣- ينظر: النووي، روضة الطالبين: (٢١٤/١٠).

٤- ينظر: ابن قدامة، المغني: (٢١٣/٩).

٥- ينظر: ابن تيمية، الفتاوى الكبرى: (٥٣٢/٥).

٦- ينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبيديا)، على الرّابط: <https://ar.m.wikipedia.org/wiki/>، بتصرف يسير.

٧- عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، موسوعة السّياسة: (٣٧٣/٦).

٨- نقلاً عن مقال الدكتور/علي خليفة الكواري حول "مفهوم المواطنة في الدول الديمقراطية"، المقال منشور

العامّة، وكذلك عليهم بعض الواجبات، مثل واجب دفع الصّرائب، والدّفاع عن بلدهم".  
وقد صدق من قال: "وطن لا نحميه لا نستحق العيش فيه"؛ إنّها عبارة بليغة، وكلمة صادقة  
في التعبير عمّا يستحقه أغلى ما يملكه الإنسان بعد الدين - وهو الوطن - من ضروب الوفاء  
والتّضحية، قال بعض الحكماء: "حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك"<sup>(١)</sup>.

### - الوقوف في وجه الحملات الإعلامية:

لن يتوقّف الأعداء عن فعل كل ما يمكن لإسقاط الدول المعادية، وإخفافهم في الاجتياح  
العسكريّ لن يثنيهم، ولن يكون نهاية الطّريق، فهناك أسلوب آخر لا يقلُّ ضراوة عن أسلوب  
الضربة العسكريّة؛ لقوة فاعليته في الضرب بأمن الأوطان الداخلي، إنّهُ حملات التشويه والحرب  
الإعلاميّة التي غالباً ما تستند في مجملها على التمويه والكذب والخداع، وهي كفيّلة بإلقاء الرعب  
على الخصم، مع تشكيكه في القدرات التي بحوزته، بالإضافة إلى تأثيرها القوي في تشتيت وحدة  
الصف والكلمة داخل الوطن وأبناء الشّعب.

لقد علم النبي ﷺ خطورة الحروب عموماً والحروب الإعلامية خصوصاً، فضمّن بنود الميثاق  
موادّ تعمل على إعاقة قریش من ممارستها ضد الدولة الناشئة عن طريق تجفيف ينبوع هذا الإعلام  
المفترض، وتحطيم أركانه، فقد منع عليه الصّلاة والسّلام اليهود في الوثيقة من الخروج عن المدينة أو  
الاتصال بقریش أو غيرهم بأيّ شكل من الأشكال إلا بمعرفته ﷺ وإذنه<sup>(٢)</sup>، ومعلوم أنّه لا إعلام  
بلا تواصل واتّصال بين طرفين مرسل(قرشي)، ومستقبل(مدني) وخصوصاً في تلك الحقبة التي  
كانت الأجهزة فيها بدائيّة وغير متطورة كما هي اليوم، فقد جاء في البند(٣٦ب): "وأنه لا يخرج  
منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ"، ومنع من مناصرة المجرمين أو التستر عليهم كما في المادة(٢٢):  
"وأنه لا يحلّ لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه،  
وأن من نصره، أو آواه، فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل"،

بصحيفة البيان الإماراتية، بعنوان: "على الرّابط: <https://www.albayan.ae/opinions>

١- ابن الفقيه، البلدان، ص: (٤٨٨).

٢- ينظر: مجموعة من الباحثين بإشراف معالي الدكتور/صالح بن عبد الله بن حميد، نضرة النعيم،  
ص: (٢٦٩/١).

والمحدث هنا وإن كان يطلق على كل من اقترف ما يوجب حدًّا<sup>(١)</sup> إلا أن ذلك لا يمنع من دخول أصناف المجرمين في دلالته فيحرم إيواء الأفراد المنتمين إلى الكيانات المعادية للحيلولة دون تسريبهم ما يضر بالدولة وأمنها.

فاستنادا على التحليل السابق لما في المادتين توصلنا إلى قيم هامة ستساعد على الإمداد بالمقومات الكفيلة للذود عن الوطن من الإعلام الموجّه ضد سمعة أوطاننا ومصالحها وتلاحم أبناء الشعوب، وفيما يلي اقتراح لاستراتيجية أمل أن تمنحنا القدرة على صدّ الحملات المغرضة:

على حكوماتنا ودولنا تبني سياسات تحمل فلسفة إعلامية واضحة، تحرص على تسويق ما عندنا من قيم أخلاقية وحضارية مقابل تحسين سمعتنا عبر العالم، ومواجهة الحملات المعادية التي تعمل ليلاً ونهاراً على النيل منا؛ بتعريتها، وبيان زيفها، وكيف أنّها مغرضة ولا تستند إلى أي أساس متين، كل ذلك بالحق والحجة والبرهان، بعيداً عن نصرّة الباطل بباطل مثله؛ فالغايات عندنا لا تبرر الوسيلة.

رصد ميزانية لائقة توظّف في مجال الإعلام بكافّة أجهزتها وأدواتها العصرية بدءاً بالإذاعة والصحف الورقيّة والإلكترونيّة، والقنوات الفضائيّة، مع العناية في اختيار الموظّف الذي يعرف مهنته، والرسالة التي يراد منه أن يوصلها.

يجب على المواطنين في دولنا أن يقفوا مع حكوماتهم في تأدية هذا الواجب، وهو أمر متاح وميسور؛ وذلك بالتّسجيل في وسائل التّواصل الاجتماعي؛ مثل: الفيسبوك Facebook، وموقع التدوين المصغّر Twitter، وسناب شات Snapchat، وفتح قنوات على اليوتيوب youtube، وسواها من وسائط التواصل الاجتماعي التي يأتيها منها كل يوم جديد، على أن يستحضر دوماً أنّه يرتادها لهدف نبيل، يتلخّص في خدمة الدين بنشر تعاليمه والدعوة إليه، ونصرة الوطن بالإشادة به وبمجزاته، مع إدامة الثناء على ولاة الأمور، وتشمين ما يبذلونه من خدمات، أو يتخذونه من قرارات فيها الخير والنفع للنّاس، إلى جانب الدفاع عن الوطن، والصدّ عن الحملات المغرضة وصور التّشويه والشّائعات، كل ذلك عن طريق سلطة الكلمة الحسنة، والجيد من المنشورات والتّغريدات،

١- ينظر: أبو عُبيد القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (١٦٨/٣)، مادة (صرف).

مع العناية البالغة في انتقاء كل حرف من حروفها، وتقديمها على نحوٍ جميلٍ ومشرقٍ، ولا ينسى القيام بمبادرات في تدشين الهاشتاغات، وكذلك المشاركة فيها خدمةً للأهداف المشار إليها.

### المطلب الثالث: حماية الوطن من خطر العمالة والتخاير في وثيقة المدينة.

هناك خطر لا يمكن عدُّه داخليًا ولا خارجيًا صرفًا، وإنما هو خطر مركَّب يتشكَّل من مجموع ذلك، بوجود مؤامرة خارجيَّة ضدَّ الدولة توظفُ فيها عنصر أو مجموعة عناصر داخليَّة، ويتمثل في خطر العمالة للقوى الخارجيّة، وهو غدر بالوطن وخيانة عظمى وفق الأعراف الدولية المعاصرة.

من يقرب هذه الوثيقة لا يستريب في أنّها أحرزت براءة اختراع، وحازت سبقًا حضاريًا بالرؤية الأمنية التي قدّمتها من أجل الالتفاف على هذا الخطر الداهم؛ فقد كان التّحذير من هذه الجريمة واضحًا في عدد من بنودها وفقراتها، ومن عمق فقهه عليه الصّلاة والسّلام لأعقد المسائل الأمنيّة حرصه على أن يُلَفَّ أمن المدينة أمام سيول الخيانة والغدر بسياج منيع من مَوادِّ هذا الدستور ونصوصه؛ لعلمه بخاطر اليهود أحدِ أطراف الميثاق، وأصالة سجيّة الغدر وحياسة المؤامرات فيهم، فقام بخطوتين وقائيتين:

**الخطوة الأولى:** المنع من التّواصل مع الكيان المعادي (قريش) إلا بمعرفته ﷺ وإذنه، كما جاء صريحًا في البند (٣٦ب)، ووُرد ضمير عائدٍ إلى اليهود في البند لا يستفاد منه أنّ التّواصل مع قريش كلاًّ حلال للمسلمين، وكلما في الأمر أنّه في حقّ اليهود أكد.

**الخطوة الثانية:** تضييق دائرة مشروعية إعطاء الإجارة<sup>(١)</sup> للأجانب، وجعلهُ وقفًا وحصرًا على المسلمين، كما في البند (٢٠ب) "وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن"، وفي البند (٤٣): "وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها"، وحول هذا المعنى يقول الباحث

١- الإجارة هي والأمان بمعنى واحد، والأمان في الاصطلاح، هو: " دخول دار الغير (أي إقليمه) بأمان، مسلما كان الدّاخل أو حربيا"، ينظر: الموسوعة الفقهية الكويتية: (١٦١/٣).

أحمد عجاج كرمي: " منعت الصحيفة أهلها- ولا سيما المشركين واليهود- أن يجيروا أحدا من أهل مكة، وبذلك استطاع النبي ﷺ أن يضبط أمور غير المسلمين في المدينة...<sup>(١)</sup>."

لقد كان النبي ﷺ يحمل هذا الدستورَ محمّلَ الحدِّ، وهو بذلك على التقيض تماما من اليهود الخونة، علماً بأن بنوده جاءت بعد توافق من جميع المجموعات داخل المدينة، ولم يفرض عليهم، إنَّ العبث بأمن المدينة الداخلي كان مسألة حياة أو موت بالنسبة له عليه الصلوة والسلام.

ومَّا سبق بيأنه ندرِك القيمة الأُمِّيَّة التي زودتنا بها الوثيقة في هذه البنود، بتأمين حلِّ فَعَالٍ لإشكاليَّة العمالة للكيانات المعادية؛ فالتخاير مع أَيْة قوَّة معادية للدَّولة، أو التَّواصل معها؛ لتأدية دور ما فيه إضرار بالوطن بوجه من الوجوه خيانة وجريمة، وطعن للوطن في مَقْتَلٍ، ويجب أن يكون واضحا أنَّه من غير المقبول تقدُّمُ أيِّ مبرر أو عذر بإزاء هذا التَّواصل في حالة حرب، أو خصومة سياسيَّة، أو توتر بين الدَّولتين ما لم يكن هناك تفويض رسميٍّ من الدَّولة، ثمَّ إنَّ الصداقة بين الدول وما يشبهها ليست استثناء من قاعدة المنع هذه؛ والسبب ببساطة أنَّ مظنة الإضرار بالدَّولة والتعريض بمصالحها للخطر ما زالت قائمة؛ لما عَلِمَ من أنَّ ظاهرة التَّجسُّس بين الدَّول أضحَت خيارًا متحكِّمًا في أجندة السِّياسات الخارجِيَّة، ولن تتوقَّف دولةٌ عن ممارستها حتى مع الدَّول الحليفة والصَّديقة، وفي الواقع الدوليِّ مئات الأمثلة من حالات التَّجسُّس من هذا النَّوع. ثمَّ إنَّه يجب على الجهات المختصَّة سنُّ قوانين رادعة عن هذه الفعلة الشنيعة؛ ويساعد على ذلك رحابة هذا المجال لأيِّ تحرُّك أو مبادرة قانونيَّة؛ لأنَّ باب التَّداويات الفقهيَّة حول أنسب عقوبة لردع هؤلاء الخونة ما زال مُشرعًا، والفقهاء في المدوَّونات الفقهيَّة وإن لم يجمِعوا على عقوبةٍ بعينها إلا أنَّهم لم يتهاونوا مع هذه المشكلة؛ لذا نجد منهم من يميل إلى قتل الجاسوس، ومنهم من ترك الأمر لسياسة الإمام، وفي كلمة يعكس فيها مجمل آراء أهل العلم داخل المذهب المالكي تحديدا حول المسألة يقول العلامة القرطبي رحمه: " من كُثِرَ تطلُّعه على عورات المسلمين، وبيَّنه عليهم، ويعرَّف

١- ينظر: أحمد عجاج كرمي، الإدارة في عصر الرسول ﷺ، ص: (٨٧) بتصرف يسير.

عدّوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرا إذا كان فعّله لغرض دينوي، واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد ولم ينو الردّة عن الدّين"، إلى أن قال: "إذا قلنا لا يكون بذلك كافرا فهل يقتل بذلك حدّا أم لا؟، اختلف الناس فيه، فقال مالك، وابن القاسم، وأشهب: يجتهد في ذلك الإمام. وقال عبد الملك: إذا كانت عادته تلك قُتِل؛ لأنّه جاسوس؛ وقد قال مالك بقتل الجاسوس، وهو صحيح؛ لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض..."<sup>(١)</sup>.

وأعود لأؤكد على قبح هذه الفعلة، وكلّي ثقة أنّه لن يُقدّم عليها إلا من يعانون من أمراض نفسية، أو تشوّهاتٍ في فِطْرهم، لقد أدرك أولئك الذين ساهموا في قهر الشعوب، وتلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء قيمة الأوطان، وقُبِحَ بيعها، كأنّهم يوجّهون سهام النّقد وعتبًا مباشرًا إلى من تعاونوا معهم في بيع أوطانهم في سوق النّخاسة؛ فهذا نابليون بوناپرت Napoléon...Bonaparte، أحد الطغاة ممن دَمَّر أوطاننا يحملُ على خونة الوطن ضاربًا مثلا، في مقولة سارت بما الرّكبان، عندما قال: "مثّلُ الذي خان وطنه وباع بلاده، مثل الذي يسرق من مال أبيه ليُطعم اللّصوص؛ فلا أبوه يسامحه، ولا اللّص يكافئه"<sup>(٢)</sup>.

#### الخاتمة:

إلى هنا تكون سفينة هذا البحث قد رست بعد التّطواف في أجواء هذا الموضوع الشّيق، ولا أملك في خاتمته إلا أن أقوم بتسجيل أهمّ النتائج والتّوصيات التي توصلتُ إليها، فأما النتائج فهي:

- إنّ مصطلح المواطنة يعني المشاركة في الوطن، وتترتّب بموجبها حقوق وواجبات.
- يعود أصل المواطنة إلى حقبة اليونان، وشهدت تطوُّرا وتطورا في فضاءاتها، وأسستها في حقب حضاريّة مختلفة حتى هيمن عليها الطّابع الغربي، وفيها مخالافات شرعيّة، فيجب الحذر منها، والالتفات إلى ما يوافق ثوابت الدين عند التّعامل مع مفرداتها.

١- ينظر: أبو عبد الله، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: (٥٣/١٨).

٢- أخذنا من موقع موضوع، ضمن منشور بعنوان: "أقوال نابليون"، على الرّابط:

<https://mawdoo3.com>

- مضامين المواطنة في وثيقة المدينة حافلة بمقومات حماية الوطن من المخاطر الداخلية والخارجية، وخطر العمالة والتخاير للكيانات المعادية.
- وأما التوصيات التي أحبت تسجيلها في هذا المقام فهي:
- ضرورة التكتاف وتوحيد الجهود لحماية الأوطان بمشاركة الشعوب ومؤسسات المجتمع المدني والحكومات ليحمل هذه الأمانة كلٌّ في موقعه وفي حدود ما يملك ويستطيع.
- يجب أن يكون معروفاً أن محاربة ظاهرة الإرهاب والتطرف التي كانت سبباً مباشراً في كثير من حالات انعدام الأمن والأمان في البلدان، والتي أكلت الحرث والنسل وباتت هماً مشتركاً لن تتم مواجهتها بالشكل الصحيح عن طريق الاعتماد على الحلول الأمنية، بل الواجب التنويع في أدوات محاربتها بإدخال القوة الناعمة؛ كتعزيز مفاهيم الوسطية والاعتدال، وفتح باب الحوار والنقاش مع من ينجح نحو العنف والتطرف.
- على أجهزة التشريع وسنّ القوانين في العالم الإسلامي من برلماناتٍ ومجالسٍ شورى العودة إلى هدي الكتاب، وما ثبت من سنته عليه الصلاة والسلام، وما تحفل به سيرته من تجارب في القيادة وفنون السياسة والإصلاح وتوظيفها في مواجهة الأزمات، وحماية الأوطان بها، فما هذه الوثيقة النبوية المباركة إلا حلقةٌ من سلسلة ممتدة من الحلول النبوية المعصومة، والتي أثبتت جدواها في مسيرة الإصلاح الدعوي والسياسي والاجتماعي.
- على النخب المثقفة وأصحاب الفكر والرأي أن يضطلعوا بدورهم في توفير الأبحاث والدراسات التي تلامس احتياجات الناس، وتقديم الحلول لمعضلات الساعة من هديه عليه الصلاة والسلام، والتخفف من كثير من الحلول المستوردة.

## لائحة المصادر والمراجع:

- ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحسبة في الإسلام، دار الكتب العلمية، الأولى، بدون تاريخ.
- ابن تيمية: تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحرائي، الفتاوى الكبرى، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.
- ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام، الحرائي، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن الجوزي: جمال الدين، عبد الرحمن بن علي بن محمد، الجوزي، الموضوعات، المدينة المنورة، المكتبة السلفية، الأولى، تواريخ مختلفة.
- ابن حجر: أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر، العسقلاني، تقريب التهذيب، سوريا، دار الرشيد، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن حزم: أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن رجب: زين الدين، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلمي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، شرح علل الترمذي، الأردن، مكتبة المنار.
- ابن زنجويه: أبو أحمد، حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله، الخرساني، الأموال، السعودية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الأولى: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن سيد الناس: أبو الفتح، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، اليعمري، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، بيروت، دار القلم، الأولى: ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.
- ابن شبة: أبو زيد، عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبدة، النميري، البصري، تاريخ المدينة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن الصلاح: أبو عمرو، عثمان بن عبد الرحمن، تقي الدين، ت: (٦٤٣) هـ، معرفة أنواع علوم الحديث، سوريا، وبيروت، دار الفكر، ودار الفكر المعاصر، بدون رقم طبعة، سنة النشر: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ابن عابدين: أمين بن عمر بن عبد العزيز، الدمشقي، الحنفي، رد المختار على الدر المختار، بيروت، دار الفكر، الثانية: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

- ابن عبد السلام: أبو محمد، عز الدين، سلطان العلماء، عبد العزيز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، بدون رقم طبعة، عام: ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م.
- ابن عدي: أبو أحمد، بن عدي، الجرجاني، الكامل في ضعفاء الرجال، لبنان بيروت، الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ابن عبد الوهاب: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، التميمي، النجدي، مختصر سيرة الرسول ﷺ، السعودية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الأولى: ١٤١٨ هـ.
- ابن قدامة: أبو محمد، موفق الدين، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، الجماعيلي، المقدسي، المغني، القاهرة، مكتبة القاهرة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- ابن كثير: أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، الدمشقي، السيرة النبوية من البداية والنهاية، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بدون رقم طبعة، سنة النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م.
- ابن المنذر: أبو بكر، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، الإجماع، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- ابن هشام: أبو محمد، جمال الدين، عبد الملك بن هشام بن أيوب، الحميري، المعافري، السيرة النبوية، شركة الطباعة الفنية المتحدة، بلا رقم طبعة، ولا تاريخ.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام بن عبد الله، الهروي، البغدادي، الأموال، بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ، ولا رقم طبعة.
- أبو عبيد: القاسم بن سلام بن عبد الله، الهروي، البغدادي، غريب الحديث، حيدر آبادكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الأولى: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- الألباني: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الأولى، تواريخ مختلفة.
- أحمد عجاج كرمي: الإدارة في عصر الرسول ﷺ، القاهرة، دار السلام، الأولى: ١٤٢٧ هـ.
- أحمد قائد الشعيبي: وثيقة المدينة المضمون والدلالة، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلسلة كتاب الأمة، العدد (١١٠)، الأولى، ذو القعدة: ١٤٢٦ هـ، كانون الأول: ٢٠٠٥ م.
- د. أحمد مختار عبد الحميد عمر وفريقه، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الأولى: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

- الأصفهاني: أبو علي، أحمد بن محمد بن الحسن، المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- الأنباري: أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، دار المعارف، الخامسة، بلا تاريخ.
- د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، السادسة: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- د. أكرم: ضياء العمري، المجتمع المدني في عهد النبوة: خصائصه، وتنظيماته الأولى، المدينة المنورة، المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، الأولى: ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- البخاري: أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل، الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، الأولى: ١٤٢٢ هـ.
- بدر الدين: محمد ابن الإمام جمال الدين محمد بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- البيهقي: أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، الخراساني، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، الثالثة: ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- جاسم: محمد راشد العيساوي، الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، الشارقة، مكتبة الصحابة، الأولى: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- حسين أحمد: الحجوري، الفكر الديمقراطي وإشكالية الديمقراطية في المجتمعات المعاصرة، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، بدون رقم طبعة، التاريخ: ١٩٩٦ م.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر، أحمد بن علي بن ثابت، تاريخ بغداد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الأولى: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- الدسوقي: محمد بن أحمد بن عرفة، المالكي، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، دار الفكر، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
- الذهبي: أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار الغرب الإسلامي، الأولى: ٢٠٠٣ م.
- الذهبي: شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، الأولى: ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م.

- السمهودي: أبو الحسن، نور الدين، علي بن عبد الله بن أحمد، الحسيني، الشافعي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، بيروت، دار الكتب العلمية، الأولى: ١٤١٩ هـ.
- سبويه: أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الحارثي بالولاء، الكتاب، القاهرة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الثالثة: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- صفي: الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، القاهرة، دار الحديث، الأولى: ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- الطبراني: أبو القاسم، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، القاهرة، دار الحرمين، بدون تاريخ، ولا رقم طبعة.
- عبد الرزاق: بن همام بن نافع، أبو بكر، الحميري اليماني الصنعاني، المصنف، الهند، المجلس العلمي بالهند، الثانية: ١٤٠٣ هـ.
- العثيمين: محمد بن صالح بن محمد، لقاء الباب المفتوح، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية، أخذته من المكتبة الشاملة، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- عبد الوهاب: الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بلا رقم الطبعة، ولا تاريخ طباعة.
- عزت قرني، الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، الكويت، دار ذات السلاسل، الأولى: ١٩٩٣ م.
- عفيف: عبد الفتاح طبارة، اليهود في القرآن تحليل علمي لنصوص في اليهود على ضوء الأحداث الحاضرة، مع قصص أنبياء الله إبراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام، بيروت، دار العلم للملايين، العاشرة: تموز يوليو: ١٩٨٤ هـ.
- الفريد: إدوارد تايلو، أرسطو، ترجمة: عزت قرني، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، الأولى: ١٩٩٢ م.
- القاضي: أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، السبتي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة ودار التراث، بدون رقم طبعة، ولا تاريخ.
- القاضي: أبو الفضل، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي، السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الأولى: ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- القرطبي: أبو عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن أبي بكر، الأنصاري، الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكتب المصرية، الثانية: ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- الكاساني، أبو بكر، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود بن أحمد، الحنفي، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، الثانية: ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

- مجموعة: من الباحثين بإشراف الشيخ/صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، جدة، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، الرابعة، بدون تاريخ.
- مجموعة: من الباحثين بالرابطة السورية للمواطنة بدعم من مؤسسة hivos الهولندية، دليل المواطنة، دمشق، بدون دار نشر، الأولى: ٢٠١٦م.
- محمد حميد الله: الحيدر آبادي، الهندي، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، بيروت، دار النفائس، السادسة: ١٤٠٧هـ.
- المزني: أبو الحجاج، جمال الدين، يوسف بن عبد الرحمن، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، المكتب الإسلامي، والدار القيّمة، الثانية: ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
- مسلم: بن الحجاج، أبو الحسن، القشيري، النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بلا رقم طبعة، ولا تاريخ طباعة.
- النووي: أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف، روضة الطالبين وعمدة المفتين، بيروت، المكتب الإسلامي، الثالثة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- النووي: أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الثانية: ١٣٩٢هـ.

### المواقع الإلكترونية:

- موقع الأمم المتحدة.
- موقع صحيفة البيان الإماراتية.
- موقع صيد الفوائد.
- موقع قصة الإسلام.
- موقع الموسوعة الحرة.

الوطن والوطنيةُ في السنّة النبوية:  
حتمية الانتساب ومقصدية الحماية  
دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها

الدكتور / عبد الله عبد المومن  
أستاذ الفقه وأصوله بجامعة ابن زهر  
كلية العلوم الشرعية - السمارة / المغرب





## تقديم

الحمد لله المستفتح بحمده كل أمر ذي بال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه خير الصحب والآل، والضراعة إليه جل اسمه في توفيقني وتسديدي لما أدبره وأحبره من مقال. أما بعد،

فلا خلاف في أن مستند التشريع السياسي الإسلامي، في مجمل قضاياها، حراسة الدين وسياسة الدنيا، وهو قائم على تحقيق المصالح ودفع المضار بما يتناسب ومقاصد الشريعة وقواعدها الكلية. ولا خلاف أيضا أن هذا الباب يخلو إلى حد ما من النصوص التشريعية التي يسهل الورود عليها لاستنباط الأحكام الكفيلة بمقتضاه، ليس شأنها في ذلك شأن أبواب التشريع من العبادات والمعاملات، بل يندر استقراء النصوص الحافّة بالمعاني التأصيلية لفقهاء السياسة أو الأحكام السلطانية، كما درج المتقدمون على تسميته. ولربما يرجع الأمر في نظري إلى طبيعة هذه الأحكام الاجتهادية القابلة للتغير والتطور بتحديد زخارفها وسياساتها، كلما استدعى الحال ذلك، والمدار فيها على ضرورات الاجتماع البشري والعمراني لميل الطبع إلى التنظيم، وقوام التدبير، وهو مطلب شرعي ضروري؛ إذ انبثاقه عن داعي الفطرة، والجلبة، وسُننها في الوحدة والاجتماع مما لا يحتاج إلى بيان، وقد يجري سنن التكليف في مثله على مقتضى الجلبة والطبع، ولعله المقتضي لعدم التفصيل التشريعي في هذا الباب.

ولكن هذا لا يغني أبدا عن الاستمداد من كليات وأصول التشريع السياسي الضابطة لسنن المجتمع الإنساني المنظم، وحتى من جزئياته الكفيلة بتوجيه هذا الباب، وهو عمري كائن في فقه السنة النبوية ونصوصها مما يحتاج فقط إلى الغور في معانيه لبناء قضاياها الكبرى، والإحاطة بمراميه العليا. وهو ما قصدته من خلال هذه المباحثة المنقّرة عن أصول الوطنية وجُذورها في السنة النبوية تعريفًا وتوظيفًا، والمساهمة بالكشف عن حقيقة الانتساب ومقاصد الانتماء الوطني ومنها، حماية الأوطان، بمنهج استقرائي تحليلي، امتزج فيه الدرس المصطلحي بالبعد التأصيلي، مدليا بعدهما بثمرة فقه السنة النبوية ومقاصدها، من أجل التأسيس لمبادئ الحماية ومجالات الرعاية، دونما الاعتماد

على سند أسبق في الباب؛ إذ يندر اقتحام مثل هذه المدارس إلا إجمالاً.

إن حقيقة الحماية ثابوية في المقاصد الكبرى للانتماء، وهي من أولويات الانتساب، وكلاهما يُسندهما البعد الجبلي قبل الشرعي والسلطاني، وما التأسيس في الدراسة للأبعاد الانتسابية إلا حافز على استخلاص ما تصبو إليه من أركان الحماية من جهة الوجود والعدم، في البعدين المادي والمعنوي؛ ويشمل الأول: الدفاع وتحقيق الأمن، وبسط الحقوق ومقابلتها بالخدمة. ويشمل الثاني: المحافظة على الوحدة، وبث قيم الخير والجمال، وحفظ الهوية، والسيادة الوطنية.

ولن أدعي السبق والتفرد لتعذر الاستقصاء، لكن أحسبني قد عانيت في استثمار فكرة البحث وتسميرها من خلال سبر أغوار النصوص وتقرّي معانيها، وهو بيّن في المباحث التي قام عليها بيان الدراسة، بدءاً بالتأصيل للمفهومية بضابطة موضوعية قائمة على التعريف، والتوظيف المصطلحي، ثم بضابطة شرعية قاربت الجانب التأصيلي والحكومي لقضية البحث، وهو ما أثمر أبعاداً تعددت مراميها وأوجه بنائيتها، لتؤول إلى دلالات مقاصدية كشفت ما استبطنته نصوص الهدى النبوي الشريف من إسعاف طلبة الخلق في الدلالة على الحق، في مصالح المعاش والمعاد.

وإني إذ أتقدم للمشاركة بهذه المباحثة المتواضعة إلى ندوة الحديث الشريف الدولية، والتي تُنبئ في كل إطلالة علمية بمدى إلمامها الباهر بقضايا الشرع والواقع، وهو ديدن المنهج التشريعي النبوي الذي ما فتئت نصوصه تنير درب الإنسانية بسراج الهدى والنور. فالله أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم، وأن يُسهم في ترسيخ قيم الوحدة والاجتماع، وأن يكون فاتحة بحث واستكشاف في عوالم الفقه السياسي، بما يناسب نهضة الأمة، وسلامة أوطانها، ورفي مجتمعاتها.

## المبحث الأول: التأصيل العام لمفهومية الوطن والوطنية

### في السنة النبوية تعريفاً وتوظيفاً

#### المطلب الأول: الضابطة الموضوعية

الفرع الأول: في اللغة: الوطن في أصله مصدر وطن، و(وطن) بِالْمَكَانِ (يَطْنُ) وَطْنَا أَقَامَ بِهِ، وَأَوْطِنَ وَأَتَّطِنَ وَاسْتَوَطِنَ الْمَكَانَ، وَتَوَطَّنَ بِهِ؛ أَي اتَّخَذَهُ وَطْنَا.

والموطن منه، وهو كل مكان أقام به الإنسان لأمر، والجلس، والمشهد من مشاهد الحرب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ (٢٥) التوبة: ٢٥، وينسب إلى الأول: الوطني، قال ابن مالك:

يَاءُ كِيَا الْكِرْسِيِّ زَادُوا لِلنَّسَبِ وَكُلُّ مَا تَلِيهِ كَسْرُهُ وَجَحَبٌ<sup>(١)</sup>

والوطن والوطنية مصدران، والمراد بالأول، مولد الرجل والأصل الذي هو فيه، أو مقامه الأصلي. وقيل: مكان إقامة الإنسان ومقره، وإليه انتمائه: وُلِدَ بِهِ أَوْ لَمْ يُوَلَدْ. والمراد بالثاني، الارتباط بالوطن وبمصالحه.

(وواطنه) على الأمر أضمر فعله معه وَوَأَفَقَهُ عَلَيْهِ، وَالْقَوْمَ عَاشَ مَعَهُمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ، والمواطنة منه، ومعناها: الصلة أو الرابطة بين الفرد المواطن، والوطن.

ووطن بالتشديد معناه، قال ابن سيده: { وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَى الشَّيْءِ وَلَهُ } فَتَوَطَّنَتْ: حَمَلَهَا عَلَيْهِ فَتَحَمَّلَتْ وَذَلَّتْ لَهُ؛ والتوطين منه. وستأتي معاني المصطلحات في السنة النبوية<sup>(٢)</sup>.

وتكاد تجتمع المعاني على الإقامة والتوافق عليها؛ قال الحافظ: "وَالْعَرَبُ تُفَرِّقُ فِي الْأَوْطَانِ فَيَقُولُونَ لِمَسْكَنِ الْإِنْسَانِ وَطَنٌ، وَلِمَسْكَنِ الْإِبِلِ عَطْنٌ، وَلِلْأَسَدِ عَرِينٌ وَعَابَةٌ، وَلِلظُّبِيِّ كِنَاسٌ، وَلِلضَّبِّ وَجَارٌ، وَلِلطَّائِرِ عَشٌّ، وَلِلزَّبُورِ كَوْرٌ، وَلِلْيَرْبُوعِ نَافِقٌ، وَلِلتَّمَلِّ قَرِيَةٌ"<sup>(٣)</sup>.

## الفرع الثاني: في الاصطلاح

يتأكد التقارب بين المعنيين في اللغة والاصطلاح، لاستمداده منه؛ إذ الجامع الاستقرار والتحقق من الكيان، وفي السياق نفسه، كل ما يحقق المعنى فهو دال عليه؛ قال الخليل: الوطن،

١- ابن مالك، الألفية، ٧١.

٢- ابن فارس، مقاييس اللغة، ١٢٠/٦، ابن منظور، لسان العرب، ١٣/٤٥١، الفيومي، المصباح المنير، ٢/٦٦٤، الزبيدي، تاج العروس، ٣٦/٢٦٠، مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ٢/١٠٤٢.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٦/٣٥٨.

مَوْطِنُ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّهُ<sup>(١)</sup>. وفي الصحاح: محل الإنسان الذي يوطنه نفسه ويسكن فيه<sup>(٢)</sup>. وعرفه الجرجاني: الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه<sup>(٣)</sup>.

وإمعانا في البعد الاصطلاحي لهذا المفهوم وجمعا بين مفرداته ومعانيه، يبينه الأستاذ علال الفاسي بيانا وافيا: "الوطن ليس هو الأرض وحدها، ولكنه الأرض وما فوقها، وما يعيش فيها من شعب، ومن عقيدة، ومن شرائع، ومناهج للحياة، المجموع الذي يكون النموذج الذاتي للوطن والذي يخلق المواطن على صورته، هذا المواطن الذي يسهل أن يتأخى مع النماذج المماثلة له ويمتزج معها، ولكن من الصعب عليه أن يعيش في جو خارج عنها، أو يندمج فيما هو يكون من نماذج مناقضة لها"<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الثاني: التوظيف المصطلحي لمعاني الوطن والوطنية في السنة النبوية

والبحت في هذا الباب من جهة الدراسة المصطلحية هو لتحقيق القول في ماهية المصطلح، وتأصيل معناه، ومن ثم دلالاته الشرعية، بناء على الاستقراء التام لمعانيه من خلال استعماله، وعلاقاته، ومشتقاته، قصد التوصل إلى ضابط جامع لمفهوميته. والقصد من العلاقات: كل علاقة للمصطلح بغيره من المصطلحات ائتلافا، أو اختلافا، أو تداخلا<sup>(٥)</sup>.

### الفرع الأول: العلاقات

١- علاقة ائتلاف:

أ- الأرض: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ وَأَقْفًا بِالْحَزْرَةِ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٦)</sup>.

١- الفراهيدي، العين، ٧ / ٤٥٤.

٢- الجوهري، الصحاح، ٦ / ٢٢١٤.

٣- الجرجاني، التعريفات، ٢٥٣.

٤- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة، ٣٨.

٥- الشاهد البوشيخي، مشروع المعجم التاريخي للمصطلحات العلمية، ٢٢، ٣٥.

٦- أخرجه أحمد (١٨٧١٥) والترمذي (٣٩٢٥)، وقال: «حديث حسن صحيح».

ب - الدار، أو دار المُقامة: والتعبير بالوطن والدار في الحديث عن قبيلة بنت مخزومة: "فَلَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ أَمَرَ لَهُ بِهَا شُحْصَ بِي، وَهِيَ وَطَنِي وَدَارِي"<sup>(١)</sup>، ويقال دار المقام ودار الإقامة، وهو مستقر الإنسان من الأوطان، وعبر عنها القرآن الكريم بقوله سبحانه: "قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ الحشر: ٩، والدار تطلق على البلاد"<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ فِي دَارِ الْمُقَامَةِ"<sup>(٣)</sup>؛ أي من شره (في دار المقامة) بضم الميم أي الوطن"<sup>(٤)</sup>. ومعنى الإقامة الاستقرار والثبات، وضدها التنقل والحركة والسفر، ومن آثارها الحكمية تشريع العزيمة للمقيم والرخصة للمتقل؛ قال الباجي: "من أقام بموضعٍ مُدَّةَ الإِتِمَامِ فَهَلْ يَثْبُتُ فِي حَقِّهِ حُكْمُ الْوَطَنِ"<sup>(٥)</sup>.

ج - دار الأوبة والرجوع: قوله عليه الصلاة والسلام: "أَيُّونَ تَائِبُونَ"<sup>(٦)</sup>؛ أي راجعون إلى الله، وفيه إيهام معنى الرجوع إلى الوطن؛ يقال آب إلى الشيء أوبًا وإيابًا أي رجع"<sup>(٧)</sup>. ومنه أيضا التعبير بالمنقلب بصيغة المفعول مصدر ميمي؛ أي مكان الانقلاب والعود، وهو الذي تعوذ النبي ﷺ من سوئه بعد السفر. وقد قيل لأعرابي: "ما السرور؟ قال: أوبة بغير خيبة، وألفة بعد غيبة"<sup>(٨)</sup>.

- 
- ١- أخرجه: أبو داود، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب ما جاء في إقطاع الأرضين، حديث رقم: ٣٠٧٠، والبيهقي، كتاب إحياء الموات، باب ما لا يجوز إقطاعه من المعادن الظاهرة، حديث رقم: ١١٧٧٠، وحسنه الحافظ في الفتح، ٣ / ١٥٥.
  - ٢- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ٢٨ / ٨٩.
  - ٣- أخرجه ابن حبان، كتاب الرقائق، ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوذ بالله جل وعلا، حديث رقم: ١٠٣٣، والحاكم وصححه، كتاب الدعاء، حديث رقم ١٩٥١.
  - ٤- المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، ١ / ٢٠٨.
  - ٥- الباجي، المنتقى، ١ / ٢٦٤.
  - ٦- أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا أراد سفرا أو رجع، حديث رقم: ٦٣٨٥، مسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا قفل من سفر الحج وغيره، حديث رقم: ٤٢٨.
  - ٧- اللكنوي، التعليق الممجّد على موطأ محمد، ٢ / ٤٣٥.
  - ٨- الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ٣٧.

د - محلّ القرب: حديث: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَأْسَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا، مِنْ حُبِّهَا"<sup>(١)</sup>، قال ابن الملقن: "فتضعيف الدعاء وتعجيل السير من أجل أن قرب الدار يجدد الشوق إلى الأحبة والأهل، ويولد الحنين إلى الوطن"<sup>(٢)</sup>. وفي الحديث دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَعَلَى مَشْرُوعِيَّةِ حُبِّ الْوَطَنِ وَالْحَنِينِ إِلَيْهِ"<sup>(٣)</sup>.

٢- علاقة اختلاف:

أ- المهجر والمهاجر، والأصل من الهجرة، لغة: الترك والمفارقة والانتقال، والهجرة: تَرْكُ الْوَطَنِ وَالنُّهُوضُ إِلَى اللَّهِ وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمُهَاجِرُونَ"<sup>(٤)</sup>، قال السندي، قوله: "جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الْهَجْرَةِ"<sup>(٥)</sup>، والهجرة: ترك الوطن، قال الحافظ: "وَأَصْلُ الْهَجْرَةِ هَجْرُ الْوَطَنِ"<sup>(٦)</sup>. وأن الهجرة تخدم ما كان قبلها لأنها مفارقة الوطن والأحباب"<sup>(٧)</sup>.

ب - المنفى أو الجلاء، قال عياض: "والجلاء بالفتح والمد: الانتقال عن الوطن، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾ الحشر ٣، والإجلاء على وزن إفعال، مصدر: أجلوا، ومن هذا سميت: الجالية، وجمعها الجوالي: لأنهم جلوا عن أوطانهم"<sup>(٨)</sup>، وفي الحديث: "وَقَدْ رَأَيْتُ إِجْلَاءَهُمْ"<sup>(٩)</sup> يقال: جلا القوم عن مواضعهم جلاءً، وأجليتهم أنا إجلاءً وجلوتهم. وقال الهروي: يقال جلا عن وطنه، وأجلى وجلا

١- أخرجه البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب المدينة تنفي الخبث، حديث رقم: ١٨٨٦.

٢- ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ١٢ / ٥٦٧.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٣ / ٦٢١.

٤- ابن عبد البر، الاستذكار، ٢ / ٩.

٥- أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم: ٣٩٢٣.

٦- ابن حجر، فتح الباري، ٧ / ٢٢٩.

٧- المناوي، فيض القدير، ٢ / ١٦٧.

٨- ابن المرزبان، تصحيح الفصيح وشرحه، ١٩٦.

٩- جزء من حديث مطول أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئتة أخرجتك، حديث رقم: ٢٧٣٠.

بمعنى واحد، والإجلاء: الإخراج من الوطن والمال على وجه الإزعاج والكراهة.

ج - الغربية والمغترب بالفتح؛ أي مكان الاغتراب، والغريب: "الوحيد الذي لا أهل له، والبعيد عن الوطن، والأقارب، والأنصار"<sup>(١)</sup>. وعن بعض الأدباء: الغربية ذلة؛ فإن أردفتها قلة، وأعقبتها علّة، فهي نفس مضمحلّة<sup>(٢)</sup>. وقد عبر عنه النبي عليه الصلاة والسلام في كثرة الاغتراب والسفر والظعن عن الوطن بالذي: "لَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ"<sup>(٣)</sup>.

د - الرباط: المقام بالثغر وهو غير الوطن؛ فإن كان وطنه فليس برباط، قاله مالك فيما نقله ابن حبيب<sup>(٤)</sup>.

٣. علاقة تداخل:

أ- البلاد، والتعبير بالبلد والبلاد وارد في السنة في غير ما موضع، ومنه ما رواه الشيخان من حديث ثمامة بن أثال وقوله للنبي - ﷺ: "وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ إِلَيَّ... الْحَدِيث"<sup>(٥)</sup>، وفي الحديث أيضا: "الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالذُّوَابُ"<sup>(٦)</sup>.

ب - محل وموطن الرعاية، ومنه الراعي والرعية، ففي الحديث: "كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"<sup>(٧)</sup>، وهذا التعبير عن المواطنة هو من تعبيرات السنة النبوية، وهو

١- المناوي، الإتحافات السنوية، ١٥٧.

٢- ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ١٥١.

٣- أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها، حديث رقم: ٣٦.

٤- الباجي، المنتقى، ١٦١ / ٣.

٥- أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب وفد بني حنيفة، حديث رقم: ٤٣٧٢، ومسلم، كتاب

الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه وجواز المن عليه، حديث رقم: ٥٩.

٦- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، حديث رقم: ٦٥١٢، ومسلم، كتاب الجنائز،

باب ما جاء في مستريح ومستراح منه، حديث رقم: ٦١.

٧- أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، حديث رقم: ٨٩٣، ومسلم، كتاب

الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم: ١٨٢٩.

المصطلح الشائع في مؤلفات العلماء المسلمين، وفي النصوص الإسلامية القديمة في هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

### الفرع الثاني: المشتقات

١- التوطن، ومعناه التمكين والتثبيت؛ ففي الحديث: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَافْتِرَاشِ السَّبْعِ، وَأَنْ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ أَوْ الْمَقَامَ كَمَا يُوطَّنُهُ الْبَعِيرُ"<sup>(٢)</sup>. "يُوطَّنُ" أَي: يُقَرَّرُ وَيُثَبَّتُ الْأَمْرَ، وَأَصْلُ التَّوْطِينِ جَعْلُ الْوَطَنِ لِأَحَدٍ"<sup>(٣)</sup>.

٢- الموطن: ومعناه المقام والمكان؛ وفي الحديث: "دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَابٍّ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَ: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ الَّذِي يَرْجُو وَأَمَّنَّهُ مِمَّا يَخَافُ"<sup>(٤)</sup>.

٣- التوطن واسم الفاعل منه الموطن، وقد تقدم معناه في اللغة، وفي الحديث: " لَا يُوطَّنُ الرَّجُلُ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ إِلَّا تَبَشَّشَ اللَّهُ بِهِ مِنْ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِعَائِبِهِمْ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ"<sup>(٥)</sup>. قال ابن حبان مُفصِّحاً في ترجمته عن سر الاشتقاق: "ذَكَرَ نَظْرَ اللَّهِ حَلَّ وَعَمَلًا بِالرَّفْقَةِ وَالرَّحْمَةِ إِلَى الْمَوْطِنِ الْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ لِلْخَيْرِ وَالصَّلَاةِ" اهـ. فلاتخاذ المكان سُمِّيَ مَوْطِنًا، والفضل كله في اتخاذ المسجد موطنا.

١- محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، ١٠٧.

٢- أخرجه ابن ماجه، كتاب الإقامة، باب ما جاء في توطن المكان في المسجد يصلى فيه، حديث رقم: ١٤٢٩، وابن خزيمة في صحيحه، باب النهي عن إيطان الرجل المكان في المسجد، حديث رقم: ١٣١٩، والحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي، كتاب الصلاة، باب نهى النبي ﷺ عن نقرة الغراب، حديث رقم: ٨٣٣.

٣- القاري، المرقاة، ٨ / ٣٤٤٥.

٤- أخرجه الترمذي، كتاب الجنائز، حديث رقم: ٩٨٣، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت، حديث رقم: ٤٢٦١، وإسناده حسن.

٥- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٨٠٥١، وابن حبان، كتاب الصلاة، باب المساجد، حديث رقم: ١٦٠٧ وإسناده صحيح.

### المطلب الثالث: الضابطة الشرعية

مما تقصّده من البحث المصطلحي عن مصطلح الوطن في السنة النبوية تبين دليل المشروعية القاضي كذلك بطبيعة أحكام الإقامة بالأوطان، وهجرها، وهو مما لا يسع المجال لتفصيله لكن يتحصل التنبيه إليه بإزاء ما نحن ذاكروه. وأول النصوص في الباب ما ورد في حديث بدء نزول الوحي، وقوله عليه الصلاة والسلام لخديجة لما ذهب عنه الروح: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي"<sup>(١)</sup>، قال الحافظ: "وفي معناه اثني عشر قولاً ومنها، خوف مفارقة الوطن"<sup>(٢)</sup>. وحديث: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٣)</sup>؛ يعدّ الأصل الأول واللباب في حب الأوطان والتعلق بها.

وأما حديث النبي ﷺ أنه: "كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَأْسَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا مِنْ حُبِّهَا"<sup>(٤)</sup>، ففيه دلالة كما سبق على مشروعية حب الوطن والحنين إليه.

ويمكن تبين طبيعة الأحكام الشرعية بخصوص اعتبار المواطنة والإقامة في الأوطان مما عده الشرع وسيلة إلى حفظ بيضة الدين والتزام وحدة الأمة، فتدرجت الأحكام بين الجواز والمنع اعتباراً أن للوسائل حكم المقاصد، ويمكن إجمال ذلك فيما يأتي:

١- ومثله ما ورد في حديث مجاشع بن مسعود أنه "أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِابْنِ أَخٍ لَهُ يُبَايِعُهُ عَلَى الْهَجْرَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَا، بَلْ يُبَايِعُ عَلَى الْإِسْلَامِ؛ فَإِنَّهُ لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ"<sup>(٥)</sup>، وفي الحديث ونحوه وهو كثير دليل على استحباب الإقامة، وكرهة الخروج من المواطن إلا لعذر.

٢- أن المَفَارَقَةَ للأوطان تكون بسبب نيّة خالصة لله تعالى كطلب العلم والفرار بالدين، أو للحج والعمرة، أو بسبب الجهاد في سبيل الله. قال التّوّي: "مَعْنَاهُ أَنَّ تَحْصِيلَ الْخَيْرِ بِسَبَبِ الْهَجْرَةِ

١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣.

٢- ابن حجر، الفتح، ١/٢٤.

٣- سبق تخريجه.

٤- سبق تخريجه.

٥- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٥٨٤٧، بإسناد صحيح.

قَدْ انْقَطَعَ بِفَتْحِ مَكَّةَ، لَكِنْ حَصَّلُوهُ بِالْجِهَادِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، وَفِيهِ حَثٌ عَلَى نِيَّةِ الْخَيْرِ، وَأَنَّهُ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ مَعَنَاهُ إِذَا طَلَبَكُمْ الْإِمَامُ لِلْخُرُوجِ إِلَى الْجِهَادِ فَاخْرُجُوا، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ، بَلْ هُوَ فَرْضٌ كِفَايَةٌ إِذَا فَعَلَهُ مَنْ يَحْصُلُ بِهِمُ الْكِفَايَةُ سَقَطَ الْخُرُجُ عَنِ الْبَاقِينَ، وَإِنْ تَرَكُوهُ كُلُّهُمْ أَتَمُّوا أَجْمَعِينَ<sup>(١)</sup>.

٣- عن عبد الله بن عمرو عن النبي -ﷺ- قال: " قَفَلَةٌ كَعَزْوَةٌ"<sup>(٢)</sup>؛ يستفاد من الحديث إرشاد النبي ﷺ إلى عدم مفارقة الأوطان إلا لعارض، وفي الإقامة خير؛ قال الخطابي: " هذا يجتمل وجهين: أحدهما: أن يكون أراد به الففول عن الغزو والرجوع إلى الوطن؛ يقول: إن أجزر المجاهد في انصرافه إلى أهله كأجزه في إقباله إلى الجهاد، وذلك لأن تجهيز الغازي يضُرُّ بأهله، وفي قفوله إليهم إزالة الضرر عنهم واستحماماً للنفس، واستعداداً بالقوة للعود"<sup>(٣)</sup>.

٤- وعن أبي سعيد رضي الله عنه: "جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الهجرة، فقال: وَيْحَكَ إِنَّ الْهَجْرَةَ شَأْنُهَا شَدِيدٌ"<sup>(٤)</sup>؛ أي فأمره النبي -ﷺ- أمر إرشاد وتوجيه أن يصرف نظره عن الهجرة رفقاً به، وشفقة عليه، لأن الهجرة أمر شاق عليه، لما فيها من مفارقة الوطن والأهل والأحباب.

٥- مقام المنع، وتحريم الوسائل أخف رتبة من تحريم المقاصد، ولذا منعت الإقامة إن كان في الأمر إضرار بالمقاصد، فكان المنع سدا للذريعة، واعتباراً لما هو أولى بتحقيقه من مقاصد حفظ بيضة الدين.

وفي الباب دعاء النبي ﷺ: "اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ"<sup>(٥)</sup> بِتَرْكِ هِجْرَتِهِمْ وَرُجُوعِهِمْ عَنْ مُسْتَقِيمِ حَالِهِمْ، وَنَبِيٌّ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ إِلَى أَنْ فِيهِ سَدُّ الذَّرِيعَةِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَتَدَرَّعَ بِالْمَرَضِ أَحَدٌ لِأَجْلِ حُبِّ الْوَطَنِ<sup>(٦)</sup>. وكل ذلك من أجل إظهار شعائر الدين إذا لم

١- النووي، شرح صحيح مسلم، ١٣ / ٨.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٦٦٢٥، وأبو داود، كتاب الجهاد، باب في فضل القفل في الغزو، حديث رقم: ٢٤٨٧.

٣- الخطابي، معالم السنن، ٢ / ٢٣٧.

٤- أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب زكاة الإبل، رقم الحديث: ١٤٥٢.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: ١٢٩٥، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم الحديث: ١٦٢٨.

٦- ابن عبد البر، التمهيد، ٨ / ٣٩١.

يأمن المسلم الفتنة على دينه، وخاف تضييع واجباته.

## المبحث الثاني: الأبعاد الاستقرائية لحتمية الانتساب الوطني في السنة النبوية

### المطلب الأول: المُسوِّغات

والقصد منها كل ما يحمل على ضرورة الانتساب، واحتملته معاني النصوص من أبعاد نفسية، أو عقدية أو اجتماعية وغيرها، ومنها:

١. **التعلق الوجداني:** استبطنت نصوص السنة النبوية معاني سامية في أحقية الانتساب الوطني وضرورته بوصفه من الفطر المركوزة والروابط اللصيقة بالمنشأ والمقام، وللدلالة على عمق الصلة وغورها انتسابا وانتماء، وهو ما انبنى عليه الفقه السياسي في استنباط ما يناسب وحدة المجتمعات وحفظ كيائها، ولعل أسمى تنبيهه إلى أهمية هذا البعد الوجداني في قضية الانتساب هو ما اقتضاه فقه المفارقة وهجرة الأوطان في السنة النبوية ومدى ضبطه وإحكامه، بل لربما كانت التنبهات الأولى في حديث نزول الوحي حين قوله عليه الصلاة والسلام: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي" والذي تأوله العلماء باثني عشر قولاً، قال الحافظ - ويقصد معنى الخشية المذكورة - ومنها: مفارقة الوطن<sup>(١)</sup>. ثم يتأكد هذا المعنى بما نقله الحافظ عن السهيلي في انزعاجه عليه الصلاة والسلام لما علم من ورقة بن نوفل إخراج قومه له من بلده، قال: يُؤَخِّدُ مِنْهُ شِدَّةَ مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ عَلَى النَّفْسِ فَإِنَّهُ سَمِعَ قَوْلَ وَرَقَةَ أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ فَلَمْ يَظْهَرَ مِنْهُ انْزِعَاجٌ لِذَلِكَ، فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُ الْإِخْرَاجَ تَحَرَّكَتْ نَفْسُهُ لِذَلِكَ لِحُبِّ الْوَطَنِ وَإِلْفِهِ فَقَالَ: "أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟"<sup>(٢)</sup>.

ثم استعانة النبي ﷺ لشدة الخطب وهول المفارقة على النفوس بالدعاء عند قوله: (اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هَجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ)<sup>(٣)</sup> وقوله عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مَدَّنَا، وَصَحَّحْهَا لَنَا، وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَيَّ".

١- ابن حجر، الفتح، ٢٤/١.

٢- ابن حجر، الفتح، ٣٥٩/١٢.

٣- سبق تخريجه.

الجُحْفَةَ<sup>(١)</sup> إِبَانِ الهجرة له أكثر من اعتبار في الباب، بل فيه من الأصول: حماية الحماية ومنع كل وسيلة تفضي إلى البقاء لاعتباره الأصل الأول واللباب، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى قَطْعِ الدَّرَائِعِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ فُرْجًا حَمَلَ الْبَعْضَ حُبَّ الْوَطَنِ عَلَى دَعْوَةِ الْمَرَضِ<sup>(٢)</sup>.

وما روي عن بلال في الباب أبلغ في الدلالة على معنى الوجد ولوعته في التعلق بالديار والآثار، بل هو سبب دعاء النبي ﷺ السابق، وقد روي قوله:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة  
بوادٍ وحولي إذ خمر وجليل  
وهل أردنّ يوماً مياه مجنّنة  
وهل يبدون لي شامة وطفيل

فكان أن فاض على الصحب الكرام الصبر والثبات فحُبَّ إليهم الوطن الجديد، وما زالت تعطف أهواؤهم على مواطنهم الأولى بانعطافها على الذكريات العزيرة، والمعاني السامية، التي اتصلت عندهم بتلك المجالي المحببة<sup>(٣)</sup>.

وأما ما ثبت من ترتيب الثواب على المفارقة والهجر للأوطان بدءاً بالهجرة، والجهاد، والفرار بالدين من الفتن، والمتابعة بين الحج والعمرة، وكذا الجد في طلب العلم لما فيه من النزوح والخروج عن البلد، وكلّ مفارقة بسبب نيّة صالحة، فأغلبه لعظم تلك الأعمال، ثم ترغيباً في الأجر لما عز على النفس مفارقة الأهل والديار، فعن أبي هريرة أنّ رسول الله - ﷺ - : "قَالَ: تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِهِ وَتَصْدِيقُ كَلِمَتِهِ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يُرْجِعَهُ

١- أخرج البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب كراهية النبي ﷺ أن تعرى المدينة، حديث رقم: ١٨٨٩،

ومسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة، حديث رقم: ١٣٧٦.

٢- ابن عبد البر، التمهيد، ٨ / ٣٩١.

٣- ابن عاشور، محمد الفاضل، ومضات فكر، ٣٩٩. ولينظر مقاله البديع هناك حول سر الوطن العربي الأصلي في الآداب العربية المولدة، وكيف ارتبطت معاني المواطنة وقِيمِهَا بشعر الفتوح وطابعه الإقليمي باستحضار المواقع بتفاصيلها من الرمال والصخور والنبات والحيوان، إلى ما بعده عند شعراء القرن الثالث إلى حدود العصور المتأخرة، إذ لم يغب جمال المواطن عن مباني القصيد ولوازم الانسجام الفني والوجداني. وانظر، الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ١١ فما بعدها.

إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ مَعَ مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ"<sup>(١)</sup>، وأحاديث كثيرة في الباب.

٢. **الانتماء العقدي:** استنادُ الوطنية بوصفها فرعاً إلى أصل العقيدة هو الضامن الوحيد لوحدها وبقائها ونفوذها، واستصلاح الخلق بتدبير أمرهم وجمع كلمتهم وصلاح حالهم ومعاشهم هو مقصد التشريع السياسي الجامع بين حراسة الدين والدنيا، ومن ثم فبناء الوطن ومبادئ الوطنية على هذا الأساس ضامن لصالح المواطن وكمال حاله، ومنشئ لنموذج نفسي ينبثق من روح الجماعة تبرز فيه العقيدة بالوطن والكيان. وتجسد هذا الأمر في الوظيفة النبوية قبل نشوء الدولة وبعدها، في بناء قيم المواطنة وإصلاح حال الرعية بتعليم العقيدة الصحيحة والتعاليم السمحة ونبذ كل أشكال الانحراف عقيدة وسلوكاً، و الأمر نفسه هذا حذوه الخلفاء من بعد النبي ﷺ، فعن عمر بن الخطاب قال: "إنما بعثت عمالي إليكم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ويقوموا بينكم دينكم"<sup>(٢)</sup>.

وقد ربط القرآن الكريم بين الدار والإيمان بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ ﴾، ووجه المزج بينهما كما ذهب إليه الرازي: أنهم جعلوا الإيمان مُستقراً ووطنًا لهم لِمَتَمَكَّنِهِمْ مِنْهُ وَاسْتَقَامَتِهِمْ عَلَيْهِ"<sup>(٣)</sup>، فلم يراعوا وطنهم الترابي بقدر ما راعوا وطنهم الاعتقادي"<sup>(٤)</sup>، فيكون الإيمان مدعاة إلى التآلف والاتحاد حتى ليصح تسمية الدار به، والعكس صحيح. ولا ييناكُد أن الانتماء العقدي قاض على الانتماء الوطني، لذا عُدَّ خادماً ومكملاً له، ما لم يتعارضوا كالإخلال بالدين أو رفضه، أو الطعن في أصوله بأي وجه كان، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا المعنى في التحفيز على الشخ بالدين، بل جعله من الإيمان، حين قال: " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ فِي النَّارِ"<sup>(٥)</sup>، وقد عرض البيهقي في تفسير هذا المراد لقصة شعيب عليه السلام،

١- أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ "أحلَّتْ لَكُمْ الْغَنَائِمُ"، حديث رقم: ٣١٢٣، ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم: ١٨٧٦.

٢- ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ٢١.

٣- الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٩ / ٥٠٨.

٤- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢٣.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: ٤٣.

ولها وجه تعلق بمرادنا، قال تعالى على لسان قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَرِهِينَ﴾<sup>(١)</sup>، فإنه أشار بقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ إلى أنه قد فوّض أمره إلى الله تعالى، فإن عصمه من الجلاء عن الوطن فذلك فضله، وإن خلاهم وما يهْمُونَ بِهِ مِنْ إِخْرَاجِهِمْ فَالْجَلَاءُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مُفَارَقَةِ الدِّينِ، وَهَذَا مِنَ الشُّحِّ بِالدِّينِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ قَرِينَةَ الْقَتْلِ<sup>(٢)</sup>.

قال الغزالي: "إذا كان النزوع عن الوطن أسلم للدين وأعون على العبادة فهو الأولى، وإلا فيأثر الوطن أولى، ومثله قاله جاز الله في تفسير الآية"<sup>(٣)</sup>.

فالمؤمن أبداً يحنُّ إلى وطنه الأول<sup>(٤)</sup>، وهنا تلاقح العقيدة والسياسة، وارتباط الوطن بالإيمان، فلا يفترقان. وهذا يؤكد أن العقيدة الإسلامية ليست مجرد معنى "ميتافيزيقي" - كما يقال - يصرف المرء عن دنياه، وتدبير شؤون أمته، بل هي عنصر حيوي إيجابي فعال في صميم السياسة، توجيهها، وهيمنة، ورشداً، بل ومن أقوى عناصر "القوة" في الإسلام<sup>(٥)</sup>. ولذا لا محيد عن ربط الشخصية الإنسانية بمحيطها بل - إن صح القول - هو أنجع طريق إلى إثبات هويتها، هذا المحيط يمثل العقيدة الإسلامية بأبعادها الفكرية والسلوكية، ولا يمكن تجاهل عمق هذا الشوق الفطري

١- الأعراف: ٨٨.

٢- البيهقي، شعب الإيمان، ٣/ ١٦٧.

٣- الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، ٤/ ٥٩٣.

٤- جامع العلوم والحكم: ٣/ ١١٢٧، وفي النسخة التي حققها محمد الأحمد أبو النور تعليقا على إضافة "وحب الوطن من الإيمان": وقد حذفته لعدم ورودها في النسخة الخطية؛ ولأن هذا الكلام غير مستقيم. ه قلت: بينما أثبتتها المحقق شعيب الأرنؤوط وغيره وتوجد في باقي النسخ، وليس في الأمر كبير اعتراض مالم يسند في نظري. انظر نسخة الأرنؤوط: ٢/ ٣٧٩.

ولو فرض وضعه فلا يخفى جواز روايته وقد جزم به غير واحد من الحفاظ، سيما إن كان له معنى حسن من أعلام النبوة، والأصول في مثله لا تدفعه، بل تصححه وتشهد له، وذكر هذا الشرط من جملة البيان كما قرر الحفاظ. انظر، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣/ ١٣٤٣، ابن حجر، الإصابة، ٩/ ٣٩٩.

٥- الدريني، محمد فتحي، بحوث ودراسات في الفكر الإسلامي المعاصر، ١/ ٤٤١.

التلقائي إلى تلك العقيدة<sup>(١)</sup>.

- بل يؤكد ذلك عدم التنافي؛ إذ الانتماء العقدي مستوعب لكل الانتماءات الأخرى داخل الوطن الواحد، ما يضمن التعايش الحقيقي كما سيأتي بيانه.

**٣. الكيان المادي والمعنوي:** أما من جهة المعنى فالقصد الوحدة والاجتماع، وله مرجع إلى أعرق الأصول النفسية في الوحدة الدينية والوطنية وفي تمثل معاني الأمة الموحدة، في دعوة إبراهيم في بنيه: قال تعالى: ﴿فَجَعَلْ أَعْدَاءَ مَنِ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ إبراهيم ٣٧؛ إذ إن من ضروريات تحقيق الكيان تحقق الاجتماع، والانتساب إلى مواطنة أحق، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ الصَّلَاحِ فِي مُقَدِّمَتِهِ: "قَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ إِذَا تَنَسَّبَتْ إِلَى قَبَائِلِهَا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَعَلَبَ عَلَيْهِمْ مَسْكُنَ الْقُرَى وَالْمَدَائِنِ حَدَثَ فِيهَا بَيْنَهُمُ الْإِنْتِسَابُ إِلَى الْأَوْطَانِ وَأَضَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنْسَابَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ غَيْرُ الْإِنْتِسَابِ إِلَى الْأَوْطَانِ"<sup>(٢)</sup>.

ويشمل الجانب المادي في كيان المواطنة كل ما يصلح به حال الرعية من هذا الباب، وقد وضعت السنة النبوية دستوراً ونظاماً مالياً يحقق جودة الكفاية للفرد والمجتمع، وفي دعاء النبي ﷺ للمدينة إبان الهجرة ما يفيد التنبيه إلى مقصد الاستقرار المجتمعي بقوله عليه الصلاة والسلام: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحَّحْهَا لَنَا"<sup>(٣)</sup>، وهو الذي توخاه الماوردي من جملة القواعد التي تصلح بها الدنيا (الوطن والدولة): "وَأَمَّا الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: فَهِيَ خِصْبُ دَارٍ تَتَسَّعُ النَّفُوسُ بِهِ فِي الْأَحْوَالِ وَتَشْتَرِكُ فِيهِ ذُو الْإِكْثَارِ وَالْإِفْلَالِ. فَيَقِلُّ فِي النَّاسِ الْحَسَدُ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ تَبَاغُضُ الْعَدَمِ، وَتَتَسَّعُ النَّفُوسُ فِي التَّوَشُّعِ، وَتُكَثِّرُ الْمُوَأَسَاةَ وَالتَّوَأَصْلَ. وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى الدَّوَاعِي لِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَأَنْتِظَامِ أَحْوَالِهَا، وَلِأَنَّ الْخِصْبَ يُثْوِلُ إِلَى الْغِنَى وَالْغِنَى يُورِثُ الْأَمَانَةَ وَالسَّخَاءَ"<sup>(٤)</sup>، ومن بديع ما يروى في الباب عن الأصمعي قَالَ: "سَمِعْتُ بَعْضَ الْأَعْرَابِ يَقُولُ: "الْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ، وَالْغِنَى

١- النهان محمد فاروق، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٨.

٢- عياض، ترتيب المدارك، ٢٣/١.

٣- سبق تخريجه

٤- الماوردي، أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، ١٤٣.

في العُرْبَةِ وَطَنٌ<sup>(١)</sup>. وأنشد بعضهم خلافه<sup>(٢)</sup>:

لقرب الدار في الإقتار خير  
من العيش الموسّع في اغتراب  
وهذا النظام تحقق في إجماله في التشريع النبوي بتحديد الأجور والتوافق والرّضى في التأجير،  
وتحديد الأسعار ومنع الغش والاحتكار والاستغلال، وإيجاب العدل، والبذل، والصدق، والرشد  
في التصرف المالي<sup>(٣)</sup>.

### المطلب الثاني: المُحدّدات

الحديث عن محددات أحقية الانتساب الوطني وضرورته من خلال استقراء النصوص النبوية  
تأسيس لمبادئ المواطنة الصادقة من الوجهة العملية التنزيلية، وهي - أي المحددات - أهم حافز  
على تحقيق مقصد الحماية، وتفصيلها فيما يأتي:

١- **العدل والمساواة:** وكلاهما ينبثق من أصل الاعتقاد، والعدل عملياً تحقيق للمساواة بين  
الرعية في المعاملة، وتحقيقه في مبدأ المواطنة إقرار لمقصد إنسانية الإنسان.

ويروى عن عبد الله بن طاهر أنه قال يوماً لأبيه: كم تبقى هذه الدولة فينا وتبقى في بيتنا؟،  
قال: مادام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً في هذه الإيوان<sup>(٤)</sup>. قال الماوردي: "فَأَدَبُ الشَّرِيعَةِ مَا  
أَدَى الْفُرْضَ، وَأَدَبُ السِّيَاسَةِ مَا عَمَّرَ الْأَرْضَ، وَكِلَاهُمَا يَرْجِعُ إِلَى الْعَدْلِ الَّذِي بِهِ سَلَامَةُ السُّلْطَانِ،  
وَعِمَارَةُ الْبُلْدَانِ؛ لِأَنَّ مَنْ تَرَكَ الْفُرْضَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، وَمَنْ حَرَبَ الْأَرْضَ فَقَدْ ظَلَمَ غَيْرَهُ"<sup>(٥)</sup>. وقد  
حفظت لنا السنة النبوية نماذج خالدة تقرر مبدأ العدل والمساواة قولاً وعملاً وتقريراً، فحين شفع  
أسامة بن زيد في المرأة المخزومية التي سرقت، وبنو مخزوم لهم وزهم الكبير في المجتمع، كان رد النبي  
ﷺ زاجراً صادداً عن تسرب نعمة الطائفية إلى المسلمين، وقد شهد قوله النبوي الشريف "وَأَمُّمُ اللَّهِ لَوْ

١- رواه الدينوري في المجالسة: ٣ / ٥٨، وابن الأعرابي في معجمه: ٢ / ٧٨٨

٢- ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ١٥١.

٣- انظر، قواعد التدبير المالي في السنة النبوية، بحث شارك به د عبد الله عبد المومن في ندوة الحديث  
الدولية السابعة: إدارة المال والأعمال في السنة النبوية.

٤- الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ٧٧.

٥- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ١٣٤.

أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"<sup>(١)</sup>، سد هذا الباب وحسم ذرائعه، نفسه الذي تقرر في بناء المواطنة في دستور المدينة على المساواة في الحقوق المدنية بين المواطنين جميعهم، مسلمهم وغير مسلمهم، بل شدد النبي ﷺ في التحذير من إيذاء غير المسلمين، منها، قوله ﷺ: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِيحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>، واتفقت كلمة الفقهاء على هذه القاعدة في معاملتهم: "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"<sup>(٣)</sup>.

وعلى أساس العدل يسود الأمن ويزدهر المجتمع وتسود المصالح<sup>(٤)</sup>، ويتحقق مبدأ التعايش السلمي على "التوافق على أسس عامة تصبح عرفاً ثم تتحول إلى قانون، ويأتي الدين فيؤكد بعضها ويصلح الباقي"<sup>(٥)</sup>. وقد يعلم قبح الجور عقلاً وشرعاً فيجب اجتنابه، "والورع عنه لما فيه من اختلال الرعية، واضطراب الدولة، وخراب البلاد، وعذاب الآخرة"<sup>(٦)</sup>.

**٢ - الولاء السياسي:** ومنطلق هذا الباب من حديث النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"<sup>(٧)</sup>، وإن كان اللفظ فيه عاماً لكنه ينصرف بالأولى إلى سياسة الدنيا والدين، وهذا لا يتأتى دون اعتماد نظام سياسي قائم بذاته يتفرع عنه جوهر المصالح الفردية والجماعية الخاصة والعامّة، عزاه التشريع السياسي إلى مهمة الإمامة القائمة على الاستخلاف الحقيقي في شؤون الرعية.

- ١- أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٧٥، ومسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، حديث رقم: ١٦٨٨.
- ٢- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب تعشير أهل الذمة إذا احتلفوا بالتجار، حديث رقم: ٣٠٤٥، وإسناده حسن.
- ٣- عتر، نور الدين، فكر المسلم وتحديات الألف الثالثة، ٢١٤.
- ٤- وقد جعل الماوردي من نتائج العدل تحقيق الأمن والخصب، ويكون من وجهين: خصب في المكاسب، وخصب في المواد، والأول متفرع عن الثاني. انظر أدب الدنيا والدين: ١٤٤.
- ٥- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة، ٤٣.
- ٦- ابن نصر، المنهج السلوك في سياسة الملوك، ٣٦٧.
- ٧- سبق تخريجه.

فالتلازم بهذا الموجب بين الراعي والرعية قائم على رعي المصالح، ولذا التأم من جزئيات التشريع في الباب القاعدة الفقهية المشتهرة: "تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة"، ونقل الزركشي بعد إيراد القاعدة كلام الشافعي رحمه الله: "منزلة الوالي من الرعية منزلة الوالي من اليتيم"<sup>(١)</sup>. وتحقق هذا الولاء في مبادئ الوطنية قائم على رعاية مصالح الداخل والخارج، وتحقيق ما به حفظ الدين وتدبير شؤون الخلق، وهو كفيل في مقابل ذلك بضمان حق الحياة، والتدين، والتملك، والكرامة، والحرية، ودرء كل المفسد المحدقة. ولذا، فمرتبة الوازع السلطاني في مقامات التشريع، وإن تبوأ الدرجة الثالثة بعد الجبلي والديني، فإن نفعه فيما يتعلق بالسيادة وإصلاح الرعية مما لا يخفى، وأصل هذا الاعتبار حسن السياسة والتدبير، ومن ثم نشأ وصف الرعاية وما تفرع عنه من التلازم بين الراعي والرعية، "فمتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهي المفسد عن فساده، ويتركه على مراده، أفسد في سائر بلاده"<sup>(٢)</sup>.

**٣. التعايش والتساكن:** ينبنى جوهر التعايش والتساكن في ظاهر الوجود على عنصرين مهمين: أولهما، إعمار الأكوان، والثاني، إسعاد الإنسان، وهو قائم في كل واقع على مراعاة الانتماء العقدي، وتقدير السمات والخصوصيات الدينية والثقافية، ونبد التعصب على سبيل القطع والإجمال. وكل هذا من جراء المحافظة على القيم وخلال الخير داخل المجتمعات وهو ما رسخه النبي ﷺ في أول خطاب نبوي مدني بعد الهجرة: "أَفْشُوا السَّلَامَ وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ."<sup>(٣)</sup>

أصول المواطنة في دستور المدينة الذي مهّد لبنيان الدولة الإسلامية أقرت بمبدأ التعايش بين الناس جميعاً على أساس الوحدة الوطنية، مع احترام حرية الاعتقاد ونبد العصبية والكراهية، ففي الحديث: "مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مَيْتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِّيَّةٍ، يَغْضَبُ لِعَصْبَةٍ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبَةً فَقُتِلَ فَقَتِلَ جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى

١- الزركشي، المنشور في القواعد الفقهية، ١ / ٣٠٩.

٢- الغزالي، التبر المسبوك، ٥٠.

٣- أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، حديث رقم: ٢٤٨٥، وقال: «هذا حديث صحيح».

أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلَا يَنْحَاشِي مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلَا يَنْفِي لِدِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ"<sup>(١)</sup>، وكان التفريق في ضمان حق التساكن بين أبناء الوطن الواحد على أساس مبدأ المواطنة فليس الذمي مثل المستأمن، لأن الأول من رعايا الدولة ومواطنيها بينما الثاني فوافد لظروف استثنائية، وليس هذا كذاك، لأن الأول والمواطن سواء.

وتحقق ذلك بجلاء في حرية التدين؛ فمَنع النبي ﷺ التضييق على غير المسلمين من المواطنين، فلا يضارون فيما يعتقدون، "والقاعدة الفقهية التي حرص المسلمون على تنفيذها هي: "أنا أمرنا بتركهم وما يدينون"<sup>(٢)</sup>.

ومرد ذلك إلى أسس التشريع السياسي في الإسلام، وركائزه الإصلاحية التي قامت على أساس من "وحدة النوع الإنساني" لوحدة مصدره، ومن هنا اعتبر "الإنسان العام" في حد ذاته، وحيثما كان "قيمة كبرى"، بل ومن أجل القيم، فاستبعد - نتيجة ذلك - كل سياسة ترمي إلى القضاء على هذا الإنسان، وحقه في الحياة الحرة الكريمة، أو تحطيم بنيته المعنوية، جريا وراء تحقيق حلم عنصري، أو نزوعا إلى الاستعلاء والهيمنة الدولية، أو غير ذلك من البواعث غير الإنسانية"<sup>(٣)</sup>.

وقد أذخر تاريخنا ما لا يخفى تعداده من مظاهر التعايش والتساكن في وقت كانت المجتمعات الإسلامية أقدر على الاحتواء، والاستيعاب لعصبية متنافرة، وقوميات متباعدة، وأصول متضاربة.

### المطلب الثالث: الموجهات

إن السبيل إلى تحقيق مقصد الحماية مستند إلى موجهات كشفت عنها اللثام عن طريق تتبع ظواهر النصوص ومعانيها، وتدارستها من خلال أبعاد تأسيسية لمبدأ الوطنية وقيمها استوحياتها من دعاء النبي ﷺ في التأسيس للمجتمع الجديد بالمدينة، فاستبطن جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام وزخر بمعان سامية تمثلت في قوله: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ

١- أخرجهم مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، حديث رقم: ١٨٤٨.

٢- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ١٨٤، وانظر عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، ٣٦.

٣- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١/ ١٣٨.

لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدُنَا، وَصَحَّحَهَا لَنَا، وَأَنْقَلُ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>، واحتوش البعد النفسي، ثم المعنى الاجتماعي والاقتصادي ويليه غيره من الأبعاد ذات التميز في البناء الوطني؛ إذ الدعاء بالقوة والصحة ودفع الأمراض والعلل عن المجتمع يستدعي كل مقومات التألق والترقي الحضاري المختزلة في جلب المصالح، ودرء المفاسد، وبتفسير أبين دفع كل الآفات الاجتماعية وغيرها، التي تعرض مصلحة الوطن للضرر، والضررُ يزال.

**١- البعد النفسي:** وأردت هنا تأكيد قيمة البعد النفسي في الانتساب الوطني، بعد الامتزاج بالأرض والكيان، ووكدت عن طريق الاستقراء حقائق عالية في الركون إلى التشبث بالموطن لما يخزنه من ارتياح وسكون نفسي باعث على التجذر والاستقرار، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ "بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا"<sup>(٢)</sup>؛ فعلى معنى عدم تخصيص التربة بالمدينة لبركتها والريق بشرف ريقه المبارك ﷺ، فإن معاني الانتساب حاصلة ومغاني الاستقرار متحصلة، ونفى جمع من العلماء تخصيص الحديث بالمدينة وهو رأي النووي وعباس وغيرهما، ونقل الحافظ عن القرطبي قوله: "وَأَمَّا وَضْعُ الإِصْبَعِ بِالأَرْضِ، فَلَعَلَّهُ لِحَاصِيَةِ فِي ذَلِكَ أَوْ لِحِكْمَةِ إِخْفَاءِ آثَارِ القُدْرَةِ بِمُبَاشَرَةِ الأَسْبَابِ المُعْتَادَةِ"<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر البيضاوي: "أن المباحث الطبية شهدت على أن تراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج، ودفع نكايه المغيرات، ولهذا ذكر في تدبير المسافرين أن المسافر ينبغي أن يستصحب تراب أرضه، إن عجز عن استصحاب مائها..."<sup>(٤)</sup>، وتلك عادة العرب منذ القديم، وفيه أنشد بعضهم:  
ولا بد في أسفارنا من قبيصة  
من التراب نُسقاها لحب الموالد<sup>(٥)</sup>

١- سبق تخريجه.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الطب، باب رقية النبي ﷺ، حديث رقم: ٥٧٤٥، ومسلم، كتاب السلام، باب

استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظر، حديث رقم: ٢١٩٤.

٣- ابن حجر، فتح الباري: ١٠ / ٢٠٨، عياض، إكمال المعلم، ٧ / ٩٥.

٤- البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ١ / ٤٢٠.

٥- الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، ١٦. والقبيصة التراب المجموع وما تناولته أطراف الأصابع. الفيومي،

المصباح المنير، ٢ / ٤٨٧.

وقد استنبط بعض العلماء من جهة اللغة والمعنى بُعد الألم النفسي في فراق المواطن من خلال قوله عليه الصلاة والسلام لورقة مستنكرا: "أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟"<sup>(١)</sup>، والموضع الدال على تحريك النَّفْس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو ترد إلى الكلام المتقدم، وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار أو التفجع لكلامه والتألم منه<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن المفارقة في الحديث أشد على النفس من الإيذاء والتكذيب، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنها المقصودة من المؤازرة لأهل الكهف، قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الكهف: ١٤ - أي (ألمناهم صبرا) على هجر الوطن والأهل والمال، وغير ذلك.<sup>(٣)</sup>

- وقد أنشد القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي إثر خروجه من بغداد، وقد قاسى بين لوعة الفراق، وألم البقاء<sup>(٤)</sup>:

وقائلة: لو كان ودك صادقا  
لبغداد لم ترحل فكان جوايبا  
يقيم الرجال الموسرون بأرضهم  
وترمي النوى بالمغترين المراسيا  
وما هجروا أوطانهم عن ملالة  
ولكن حذاراً من شمات الأعدايا

قال ابن بطلال: "وقد جبل الله النفوس على حب الأوطان والحنين إليها، وفعل ذلك عليه السلام، وفيه أكرم الأسوة، وأمر أمته سرعة الرجوع إلى أهلهم عند انقضاء أسفارهم"<sup>(٥)</sup>.

**٢- البعد الاجتماعي:** أرست السنة النبوية دعائم المواطنة بالوحدة الاجتماعية المستندة إلى رعي الحقوق التي أقرها الشرع بناء على التكامل بين الراعي والرعية، وبين الرعية بعضهم بعضا، والذي لا يتحقق في جوهره إلا بالوظيفة الاجتماعية أو ما يوسم بالتكافل أو الإحسان الإلزامي، وتحقيق معنى المواطنة قائم على مدى الترابط بين الحقوق الفردية والمصالح الكبرى للمجتمع،

١- سبق تخريجه.

٢- أبو شامة، شرح الحديث المقتفى في بعثة النبي المصطفى، ١٦٣.

٣- الزحيلي، التفسير المنير، ١٥ / ٢١١.

٤- عياض، ترتيب المدارك، ٧ / ٢٢١.

٥- ابن بطلال، شرح البخاري، ٤ / ٤٥٣.

فاستيعاب التكامل بين العنصرين هو السبيل إلى رعاية "حق الغير من الفرد والمجتمع مما يتعين بالتالي على ذي الحق - بمقتضى هذا التشريع - أن يقيم التوازن بينهما في العمل والممارسة ما أمكن، أداء لهذه الوظيفة التي تتركز في المحافظة على الحقين معا، دون افتئات أحدهما على الآخر، عدلا ومصلحة"<sup>(١)</sup>. وهو الحافز على لزوم تلك الوظيفة التي تعدّ من أسس المواطنة وثوابتها، وقد ربطت السنة النبوية ضبط المصالح الآنية والعاجلة بالحوافز الأخروية الآجلة حتى يكون الإنسان المواطن على بصيرة من أمره في نشدان الصلاح والإصلاح، والأحاديث في الباب أكثر من أن تحصى، وأوسع من أن تستقصى، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام: "إِنَّمَا أَهْلُ عَرَضَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمْ أَمْرٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرَّتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى"<sup>(٢)</sup>، وقوله أيضا: "مَنْ كَانَ فِي حَاجَةٍ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ"<sup>(٣)</sup>

كما أوكلت إلى الراعي جزءا من تلك الرعاية، ومن ثم وجب على الرعية أن يلتمسوا الحق من ولائهم وأن يعدلوا إليهم كما يرى الماوردي: "فَإِنَّ الْحَوَائِجَ عِنْدَهُمْ أَنْجَحُ وَهِيَ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ، وَهُمْ لِذَلِكَ مَنْدُوبُونَ، فَهُمْ لَا يَجِدُونَ لَهُمْ مُسَاوِيًا، وَلِيَصْبِرَنَّ عَلَى إِنْطَائِهِمْ فَإِنَّ تَرَكَمُ الْأُمُورِ عَلَيْهِمْ يَشْغَلُهُمْ إِلَّا عَنِ الْمُلْحِ الصَّبُورِ"<sup>(٤)</sup>. ويرى الغزالي أن "احتقار أرباب الحوائج، وغلغلة الأبواب دونهم، من أعظم الخطر، وقضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات"<sup>(٥)</sup>. بل مراعاة هذا الجانب أبلغ الأثر في حماية المجتمع من آفات التطرف والانحراف "بل تخفف حجمه إن وجد، وتعيد الثقة بين السلطة والمواطن، وتشجع نمو قيم اجتماعية سليمة"<sup>(٦)</sup>.

**٣- البعد الاقتصادي:** وطلب الصحة في الحديث باعث على القوة المجتمعية وآيل إلى القوة الاقتصادية، ولا يتحقق ذلك إلا بالعدل في الكسب والتوزيع، والخصب من أسباب الصلاح

١- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١ / ١٢٠.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٤٨٨٠، وإسناده صحيح.

٣- أخرجه البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: ٢٤٤٢، ومسلم،

كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٨٠.

٤- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ٣٣١.

٥- الغزالي، التبر المسبوك، ٢٧، وانظر، ٥٤.

٦- النبهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ٧١.

وضده الجذب من أسباب الفساد، وقد يعمّان. وتحقيق التآلف بين القوتين هو في "تسخير الموارد المالية لتوفير ما تتطلبه المصالح العامة، والتوصل إلى ما تقضي به الوحدة الاجتماعية من التضامن والتعاون، وهي تتقبل رعاية كل المصالح التي تتفق وقواعد العدل"<sup>(١)</sup>.

وشأن قوة الاقتصاد في الدولة إنتاج قيم الاستقرار، وهو طريق الرقي والتمدّن، وقد استقر في مبادئ التشريع أن "الغاية من كل اجتماع تحقيق المصلحة والمنفعة للمجموع، وهي منفعة تعود على أكبر عدد في البناء الاجتماعي، بأكبر قدر ممكن"<sup>(٢)</sup>.

وتلك القوة تقوم على أساس حرية العمل والكسب، والتآزر والتعاون، وقد عدّ الإسلام الكسب والإنتاج قربة وصدقة، ففي الحديث: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَزْرَعُ زَرْعًا، أَوْ يَغْرِسُ غَرْسًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ"<sup>(٣)</sup>، وقد فسح الشرع المجال لحرية اختيار العمل دون تضيق وزرع نتائجه كذلك دون حجر، إلا إن تعارض مع المصلحة العامة. وعلى هذا الأساس منع الاحتكار والتسعير مطلقا، وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: "لَا يَحْتَكِرُ إِلَّا خَاطِئٌ"<sup>(٤)</sup>. يقول أبو زهرة: "وفي ذلك الحديث الشريف تنبيه إلى أمور تعالج بها الأزمات الاقتصادية ومنها، منع الاحتكار ووضع عقاب رادع للمحتكرين"<sup>(٥)</sup>.

**٤. البعد التربوي:** إقامة بنیان المواطنة الصادقة لا ينفك عن دور المواطن ذاته في تبني قيم المعرفة والتربية والتوعية والتعليم، وتجدر الإشارة إلى الأسس التربوية الأولى التي أرستها السنة النبوية لتعليم أبناء المسلمين وتوعيتهم في بدر، واقتضت ضرورته بأمر من النبي ﷺ أن يلزم الأسرى تعليم أبناء المسلمين مقابل فكاهم، ومن ثم تكون جيل المدينة الراشد على مبدأ المواطنة الواعية، وكان النبي ﷺ يأمر الولاة على الأمصار بتعليم الأبناء، وجميع الطبقات الأحرار والعبيد، ففي كتابه إلى عمرو بن حزم (ت ٥١ هـ) حين ولاه على نجران قال: "أمره أن يفقههم في الدين ويعلمهم

١- خلاف، السياسة الشرعية، ١٠٩.

٢- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ٥٦.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٢٤٩٥، وإسناده صحيح.

٤- أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات، حديث رقم: ١٦٠٥.

٥- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ١٩٣.

القرآن" (١)، ويكاد يستقر عن طريق الاستقراء أن التعليم في المرحلة الأولى للبناء، كان:

- تعليماً إجبارياً، وتعليم الصبيان القرآن أصل من أصول الإسلام، فينشأون على الفطرة، ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة، وترسيخ هذا المبدأ كان عن طريق حافز القرب والفوز الأخرى.

- وتعليماً متنوعاً؛ أي متعدد التخصصات، وروي عن معاوية أنه كان في السمر يحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، والحروب والمكائد، فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون، وقد وكلوا بقراءتها (٢).

- وتعليماً عاماً؛ استوى فيه الأحرار والعبيد، والمسلم والذمي، وقد نقل عن ابن بطال: أجاز أبو حنيفة والشافعي في أحد قوليه تعليم الحربي والذمي القرآن والعلم والفقهاء رجاء إسلامهما اهـ (٣).

فهذا التعليم، وإن أحدث بوسائل وأدوات ابتدائية لكنها حققت في ظرف وجيز رقياً حضارياً، لم يكن بالحسبان؛ فالمدنية وأسباب الرقي الحقيقي، التي وصل إليها العصر النبوي الإسلامي في عشر سنوات، من حيث العلم، والكتابة، والتربية، وقوة الجامعة، وعظيم الاتحاد، وتنشيط الناشئة، وما قدر عليه رجال ذلك العهد الطاهر، وما أتوه من الأعمال واستولوا عليه من الممالك، وما بثوا من حسن الدعوة وبلغ الحكمة ومتمكن الموعظة، لم تبلغها أمة من الأمم ولا دولة من الدول في مئات من السنين، بل جميع ما وجد من ذلك إلى هذا الحين عند سائر الأمم، كلها على مباني تلك الأسس الضخمة الإسلامية انتشأ (٤).

فأساس المواطنة الصالحة التعليم والتثقيف والتربية، حتى يتم بناء الإنسان الكامل القادر على العمل، والتعاون داخلياً، والحماية والذود خارجياً.

١- ابن عبد البر، الدرر في اختصار المغازي والسير، ٢٥٨.

٢- الكتاني، التراتيب الإدارية: ٢ / ٢٩٦ ويقرر أن الواصل إلينا العلم به أدون مما كان موجوداً بمراحل كثيرة، وانظر عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، ٣٩.

٣- المصدر نفسه، ١٩٩/٢.

٤- الكتاني، التراتيب الإدارية، ١ / ١٣.

**٥. البعد الحضاري:** وهو أساس التواصل؛ وقد عبّر عنه الماوردي "بسعة النفوس في التوسّع، وتكثير المواصلات والتواصل"<sup>(١)</sup>، وهذا لعمرى من أسرار المواطنة الصالحة في اختراق الحدود وتوسيع مجالات النفع واعتبار الصالح العام، وهو أحد مسالك الرقي الحقيقي التي تُحقّق الوطنية في ظله مفهوم وحدة الأمة وسيادة حضارتها. وهذا بطبيعة الحال لا ينفك عن جوهر أخلاق الإسلام وقيمه العالية الباعثة على امتزاج قيم المواطنة بخلال الخير مما يؤسس لصدق الانتساب وجوهر الإيثار، وفي الحديث: "أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ كَانَ اسْمُهُ زَاهِرًا، وَكَانَ يُهْدِي لِلنَّبِيِّ ﷺ الْهَدِيَّةَ مِنَ الْبَادِيَةِ، فَبَجَّهَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُخْرَجَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ زَاهِرًا بَادِيَتَنَا، وَنَحْنُ حَاضِرُوهُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحِبُّهُ.. الحديث"<sup>(٢)</sup>.

قال الطيبي: "(فَبَجَّهَهُ)؛ أي يعدّ ما يحتاج إليه في البادية من أمتعة البلدان. وقوله: ((إن زاهرا باديتنا ونحن حاضروه)) معناه: إنا نستفيد منه ما يستفيد الرجل من باديته من أنواع النباتات، ونحن نعدّ له ما يحتاج إليه من البلد"<sup>(٣)</sup>.

إن الحديث الشريف يستبطن في دلالاته معاني الانتساب الهادف وحقيقة الوحدة والالتئام وسمو التواصل الحضاري، يقول القاري: فصار المعنى كأنه باديته<sup>(٤)</sup>، وتعدّى النفع حدود المكان، فحصل امتزاج الوطنين.

فمناسبة أصل الخير وخالله كما قرر ابن خلدون لأصول العمل السياسي وما يتفرع عنه من الانتساب الوطني، باعثنان على تحقيق مقصد إنسانية الإنسان أو على حد قوله: أن خلال الخير في الإنسان هي التي تناسب السياسة<sup>(٥)</sup>، بل هي على حد - رأي ابن الأزرق - سبب وجود خلق السياسة فيه ودلالاتها عليه<sup>(٦)</sup>، والأمر سيان بالنسبة إلى الراعي والراعية.

١- الماوردي، أدب الدنيا والدين، ١٤٣.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٢٦٤٨ وإسناده صحيح.

٣- الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، ١٠ / ٣١٤١.

٤- القاري، المرقاة، ٧ / ٣٠٦٤.

٥- ابن خلدون، المقدمة، ١٧٨.

٦- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ١٢٦.

### المبحث الثالث: مدارك مقصدية الحماية، وأقسامها

ابتغيتُ من خلال المباحثة عن دلالات مقصدية حماية الأوطان المزج بين المعاني المستقرأة والمفاهيم الحديثة المعاصرة في معالجة قضية الحماية للأوطان في بُعديها المادي والمعنوي، ولا أستقصي المثل من الحديث الشريف لتعذره، وإنما أستحضر مدركها وملاكها التام، وللباحث القياس عليه، مع إدراك الوجه الجامع.

#### المطلب الأول: المدارك المقصدية

١. الحماية من جهة الوجود: يُمكن اعتبار المواطنة والارتباط الذاتي الوجودي من مكونات الفطرة ومقتضيات التكليف الذي أرشد إلى مراعاة هذا الحق تحقيقاً لمقاصد الوجود الإنساني على وجه الأرض، إذ لا يمكن الانفكاك عنه والغاية من وجود الإنسان: العبادة والعمارة، وليس من سبيل إلى تحقيق تلك المقاصد دون توفر وسائلها، ومن ثم اقتضى الأمر استمدادا من مقتضيات الفطرة والتكليف ترسيخ هذا الحق الشرعي بالحفظ والصيانة والرعاية.

ومعنى الرعاية من جهة الوجود حفظ ضروريات المواطنة: الدين والنفس والعقل والنسل والمال، بغض النظر عن هوية المواطن ودينه، وهو بالنسبة للمسلم على المسلم أخرى وأولى، والأصل فيه حديث النبي ﷺ: "كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعَرَضُهُ وَدَمُهُ"<sup>(١)</sup>.

وصون هذا الحق ثابت بالانتماء العقدي الذي قدمنا له ضمن ثوابت المواطنة، وكفالاته بتحقيق الاستقرار الروحي، والأمن النفسي والمعرفي، والقرار المادي والمعنوي، ويجمع فيه الكل بصدق الانتماء دون منازع، يقول الدكتور الدريني: "وكل أولئك حق مقرر مصون للمواطن في الدولة، مسلما كان أم غير مسلم، على السواء، أما بالنسبة إلى المسلم، فبإسلامه؛ إذ الإسلام هو مناط عصمته...، وأما المواطن غير المسلم، فإن عصمته ثابتة بالولاء السياسي الذي تستقر على مقتضاه مواظنته، وجنسيته الدائمة في الدولة"<sup>(٢)</sup>.

٢. الحماية من جهة العدم: وأساس هذا الأمر ما شرعته السنة النبوية من وجوب دفع

١- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

٢- الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، ١/ ١٠٩.

الصائل وحماية الثغور وتشريع الجهاد إن دعت إليه ضرورة الاستغلال والاستيطان، وما توجب المقاومة والكفاح إلا بسبب بغية المستعمر والمستوطن "التحويل عن النموذج الوطني الذي لا يوافق على اقتباس إلا إذا كان متفقا مع مقياس العقيدة، لينتصر في النهاية الوطني على غيره"<sup>(١)</sup>.

وهو السر كذلك في باب العقوبات في تشريع التغريب، والنفي عن الأوطان، حتى تظهر توبة الجاني وكل من يخشى فساد، وتشريعه من أجل حماية البلاد من المفاصد الواقعة والمتوقعة، قال الحافظ: "وَحَقِيقَةُ النَّفْيِ الْإِخْرَاجُ مِنَ الْبَلَدِ"، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: - "يَكْفِيهِ مُفَارَقَةُ الْوَطَنِ وَالْعَشِيرَةِ حَذْلَانَا وَذَلَا"<sup>(٢)</sup>.

كل ما من هذا القبيل فالقصد منه الحماية ليس إلا، قال الحافظ العراقي تعليقا على قصة المخنث الذي كان يدخل على النساء ويصفهن وصفا دقيقا والذي قال عنه النَّبِيُّ - ﷺ - "أَلَا أَرَى هَذَا يَعْرِفُ مَا هَاهُنَا، لَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكُنَّ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحَجَبُوهُ"<sup>(٣)</sup>: "فِيهِ جَوَازُ الْعُقُوبَةِ بِالنَّفْيِ عَنِ الْوَطَنِ لِمَنْ يُخَافُ مِنْهُ الْفَسَادُ وَالْفِسْقُ"<sup>(٤)</sup>.

### المطلب الثاني: مقاصد أصلية

١- ترسيخ الوحدة الوطنية: والأصل وحدة الأمة؛ قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ في شق العصا ومخالفة الكلمة<sup>(٥)</sup>. قال البقاعي: "أمة واحدة لا شتات فيها أصلا فما دامت موحدّة فهي مرضية"<sup>(٦)</sup>.

"فالوحدة لا تقبل التجزؤ، ولأنها أمة واحدة كما لا يقبل الحق التعدد، وهذا لا يُناكده ما يمليه اصطلاح الدولة كيانا يحفظ الوحدة ويلمّ الشعث، دون المبالغة في الاعتداد بمفهوم الشخصية

١- الفاسي، علال، دفاع عن الشريعة: ٣٥، وانظر ص ٤٧.

٢- ابن حجر، فتح الباري، ١٢ / ١١٠.

٣- أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب منع المخنث من الدخول على النساء، حديث رقم: ٢١٨١.

٤- العراقي، زين الدين، طرح الشريب في شرح التقريب، ٨ / ١١٧.

٥- البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ١ / ١٥٨.

٦- البقاعي، نظم الدرر، ٥ / ٢٠٧.

المعنوية بشكل مطلق؛ لأنها لا تعدو محض افتراض قانوني، ومن ثم فالمسلم أن "لفظ الأمة أعم من الدولة، ولأنه لا يتصور دولة بدون أمة"<sup>(١)</sup>.

تبقى السيادة للشريعة -إذًا- مع قبول التعدد؛ فوحدة الأمة لا تنفي التعددية في إطار الوحدة، مع مراعاة مبدأ الإمامة الخاصة، والتنظيم الجماعي، والشورى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"<sup>(٢)</sup>.

والحق في ديننا العظيم أنه قد التحم المعنى الديني والاجتماعي وتمازجا تمازجا تاما مما جعل المجتمعات على تعددها لا تخرج عن الصبغة الدينية، ويكاد يجمع علماء الاجتماع على أن أقوى المجتمعات المجتمع الديني. فالعامل الاعتقادي هو الذي تنبعث منه الوحدات الاجتماعية. فإن سلمنا بذلك ضاق مسار الخلاف، وأقف عند حديث عظيم أخرجه الترمذي تتألف فيه معاني الوحدة في الإسلام ويستحق التوقف: عَنْ سَلْمَانَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " يَا سَلْمَانُ، لَا تَبْغِضِي فُتْفَارِقَ دِينِكَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ أَبْغُضُكَ وَبِكَ هَدَانِي اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -؟ قَالَ: " تَبْغِضُ الْعَرَبَ فَتَبْغِضِي"<sup>(٣)</sup>. فهذه وحدة نسبية اعتبرها الشرع لأنها تخدم الجامعة الكبرى، وقد ذهب بعض المعاصرين إلى تعريف الوحدة الوطنية "بذلك النسيج الاجتماعي الصحيح القوي الذي يجمع أبناء وطن واحد على اختلاف انتماءاتهم بلا فتن طائفية أو نعرات قبلية، مقدمين المصلحة العليا للوطن على مصالحهم الخاصة"<sup>(٤)</sup>، وهذا الذي نتغياه.

إن حقيقة الوحدة مع صدق المواطنة معنى متجذر في نصوص الشريعة ومقاصدها، ولا يتوصل إلى تحقيق معاني الأخوة الإيمانية والتي جعلها الشارع من المقاصد الكبرى إلا بهما، وقد

---

١- الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢٢، الكتاني، محمد، من تساؤلات عصرنا، ١٤٢، ١٤٤. ويقرر في نفس السياق أن مفهوم الشعب يعني مجتمعا متجانسا يمارس وجوده السياسي والاجتماعي في تفاعل مع محيطه، ومفهوم الأمة يعني الهوية الجامعة للشعب عندما يتجانس تجانسا تاما.

٢- عبد المومن، عبد الله، رؤى معرفية في الأصول والمقاصد، ٢٠٧.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٢٣٧٣١، والترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل العرب، حديث رقم: ٣٩٢٧ وإسناده ضعيف

٤- وصفي عاشور أبو زيد، الوحدة الوطنية في الإسلام، ٤١.

أسند الفقه هذا المعنى، قال التجموعتي المالكي: "كلما كانت الجماعة أوفر وأكثر، كان الخير أشمل وأظهر"<sup>(١)</sup>، وهذا من تأسيس المالكية لكرهية تعدد الجماعة في مسجد الإمام الراتب حرصا على الوحدة في الصلاة، ويقاس عليه لجامع الوحدة.

وقصة أبي ذر مع عثمان، حين أمره بالخروج من المدينة من هذا الباب في حماية الوحدة ولمّ الشعث، وقوله ﷺ مؤذن بذلك: "فإن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيا مجذع الأطراف"<sup>(٢)</sup>، وفي القصة كما قرر الحافظ: "جواز الاختلاف في الاجتهاد. والأخذ بالشدّة في الأمر بالمعروف، وإن أدى ذلك إلى فراق الوطن وتقدّم دفع المفسدة على جلب المصلحة لأنّ في بقاء أبي ذر بالمدينة مصلحة كبيرة من بث علمه في طالب العلم ومع ذلك فرجع عند عثمان دفع ما يتوقع من المفسدة من الأخذ بمذهبه الشديد"<sup>(٣)</sup>.

**٢- تثبيت القيم الوطنية:** إن التمكين الأخلاقي في النفوس والمجتمعات هو المقصد الأسمى من الاجتماع، وكل ما ثبت استقراره بالفطر السليمة إلا وانعكس على الطبع والغير والزمان والمكان، وكل مصر يشرف بأهله وبقيمهم.

وقد نهت السنة النبوية إلى هذا المعنى بما يناسب التوطين القيمي، وإن ناسب الاستعمال اللفظي فلبعده الأخلاقي، ففي حديث حذيفة مرفوعا: " لا تكونوا إمعة؛ تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم؛ إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا"<sup>(٤)</sup>.

إن المقصود الأصلي من ترك الوطن هو ترك المعاصي، وترك المعاصي خير من ترك

١- التجموعتي المالكي، إرشاد المرید السالك إلى من يقتدى به من إمامي الجماعتين في المسجد المحمدي على مذهب الإمام مالك، ورقة ١ مخطوط خاص.

٢- أخرجه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية تأخير الصلاة عن وقتها، حديث رقم: ٦٤٨.

٣- ابن حجر، فتح الباري، ٣/ ٢٧٥.

٤- أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الإحسان والعفو، حديث رقم: ٢٠٠٧، وقال حديث حسن.

الوطن<sup>(١)</sup>. مصداقا للحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْهَجْرَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: أَنْ تَهْجَرَ مَا كَرِهَ رَبُّكَ"<sup>(٢)</sup>، وعكسه الإقامة والمكث فيه على مبدأ الكرامة وتحقيق مبادئ الحق والعدل، فالكرامة الإنسانية أساس المواطنة، وإلا فقد منع الإسلام حق العيش القائم على الهوان، قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ محمد: ٣٥.

وللمواطنة ارتباط وثيق بقيم المجتمعات ودستورها الأخلاقي، ولذا كانت قيمها مقصدا لذاته يتوسل إليه لرعاية وجودها وسيادتها، وقد نبهت السنة إلى هذه الحقيقة في الوصل والفصل بين المواطن ومواطنيها ومدى التفاعل القيمي بينهما، فقد أخرج أحمد عن النبي ﷺ، قال: "مَا مِنْ أَمْرٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرِضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ أَمْرٍ يَنْصُرُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عَرِضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ"<sup>(٣)</sup>.

ولذا وجب التناصح ما أمكن، ونشر قيم الخير والبر والصلة، ونبذ الفساد والإفساد، "وما تفرقت الجماعات إلا بسيادة الرذيلة في مجموعها، وعموم الظلم لربوعها، والأخلاق الفاضلة الأساس الأول لبناء المجتمع، ومن ثم فلا بد من تعاون المجتمع في محاربة الآفات الخلقية والاجتماعية، فعلى الرشيد أن يهدي الضال، وعلى العالم أن يبين للجاهل"<sup>(٤)</sup>.

**٣- إقرار السيادة الوطنية:** لا تتحقق الوحدة الوطنية دون سيادة مستمدة من التشريع نظراً وعملاً، وهي سيادة يرى الغزالي أنها مستمدة من الإيمان، وأنها لا تتحقق إلا بكماله، وصدق الاستخلاف والأمن إنما يكون مع سياسة السلطان. "فيجب على السلطان أن يعمل بالسياسة وأن يكون مع السياسة عادلاً لأن السلطان خليفة الله ويجب أن تكون هيئته بحيث إذا رأته الرعية خافوا ولو كانوا بعيداً"<sup>(٥)</sup>.

١- السندي، حاشية على النسائي، ٧ / ١٤٤.

٢- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٦٨١٣، وإسناده صحيح.

٣- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٦٣٦٨، وإسناده ضعيف.

٤- أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، ٢٤.

٥- الغزالي، التبر المسبوك، ٦٢، الفاسي، علال، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ٢٢١.

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَشَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمَكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلًا لِذُنُوبِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ." (١).

ولا تنفك سيادة الأمم أيضا عن تاريخها وعراقتها، ولذا تسود بالحضارة المنبثقة عن عقيدتها وأصالتها، ولما كانت الجذور امتدادا حيويا ولازما لإبراز السمات الحضارية، كان من غير الطبيعي إغفال الجذور والامتدادات في صناعة السيادة الممتدة عبر التاريخ، وليست السيادة مجرد شعار وإنما هي ممارسة، وقدرة تفاوضية للدفاع عن الحقوق والمصالح (٢)، وتشمل سيادة الدولة في الداخل والخارج، ما يأتي: "ففي الداخل بسُلْطَانٍ قَاهِرٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ رَهْبَتِهِ الْأَهْوَاءُ الْمُخْتَلِفَةُ، وَتَجْتَمِعُ لِهَيْبَتِهِ الْقُلُوبُ الْمُتَفَرِّقَةُ، وَتَكْفُفُ بِسَطْوَتِهِ الْأَيْدِي الْمُتَعَالِبَةُ، وَتَمْتَنِعُ مِنْ خَوْفِهِ الثُّفُوسُ الْعَادِيَةُ؛ لِأَنَّ فِي طِبَاعِ النَّاسِ مِنْ حُبِّ الْمُعَالَبَةِ عَلَى مَا آثَرُوهُ وَالْقَهْرِ لِمَنْ عَانَدُوهُ، مَا لَا يَنْكُفُونَ عَنْهُ إِلَّا بِمَنْعٍ قَوِيٍّ، وَرَادِعٍ مَلِيٍّ" (٣). وفي الخارج في حماية البيضة بالذب عن الحوزة لِيَتَّصِرَفَ النَّاسُ فِي الْمَعَايِشِ وَيَتَنَشَّرُوا فِي الْأَسْفَارِ آمِنِينَ" (٤).

**٤- تعميم الدفاع الوطني:** إن مقصد الدفاع نابع من أصل الوطن نفسه؛ إذ الاصطلاح يصدق كما سبقت الإشارة إلى التوطين والتحكيم وفيه ما لا يخفى من المدافعة، واستعمال السنة لهذا المعنى مؤكد له، ولنا الشاهد من حديث يأجوج ومأجوج وفيه وصف المسلمين بعد خروجهم وأخذهم بالعذاب كالجراد: "فَيَنْزِلُ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى، فَيُنَادِيهِمْ: أَلَا أَبْشَرُوا، فَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّكُمْ!" (٥).

وقد أقرت السنة مبدأ الدفاع عن الحوزة والثغور تفعيلا لحماية الدين وحراسة الأوطان، وهذا الباب وإن كان متفرعا عن تشريع الجهاد، لكن يختص إلى حد ما بما تمليه روح المواطنة من البناء

- ١- أخرجه أحمد، حديث رقم: ٢١٢٢٢، وابن حبان، كتاب البر والإحسان، باب ذكر وصف إشراك المرء بالله جل وعلا في عمله، حديث رقم: ٤٠٥، وإسناده حسن.
- ٢- النهان، محمد فاروق، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٠٧، ١٠٨.
- ٣- الماوردي، أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، ١٣٤.
- ٤- الماوردي، أبو الحسن، الأحكام السلطانية، ٤٠.
- ٥- أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج، حديث رقم: ٤٠٧٩، وإسناده حسن.

المادي والإعداد الروحي للتعليق بالكيان ودار المقام والانتساب، وقد ورد من الأحاديث الدالة على هذا المعنى ما يثمن قضية الإعداد الوطني للدفاع والحماية، وهذا النفس في المواطنة يقتضي التشاور ووحدة الكلمة، ومعرفة حقيقة الضرر المحدث بوحدة الأمة وكان النبي ﷺ يخاطب الصحابة على التكرار دون المرة: "أشيروا علي أيها الناس"<sup>(١)</sup>، وكان هذا التوصيف البارع في كلام رسل المقوقس سجلا خالدا في تاريخ الإسلام: "أميرهم كواحد منهم"<sup>(٢)</sup>.

أما أنه يقتضي أيضا استصحاب الخبرة العلمية والمعرفية في الإعداد والصناعة والتجهيز، حتى تكون العدة وطنية حقيقة، ففي معجم الطبراني عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثَيْمِ بْنِ سَاعِدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: "أَنْهَرَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - رَجُلًا مَعَهُ قَوْسٌ فَارِسِيَّةٌ فَقَالَ: أَطْرَحُهَا ثُمَّ أَشَارَ إِلَى الْقَوْسِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَالَ بِهَذِهِ وَبِرْمِحِ الْقَنَا يُمَكِّنُ لَكُمْ فِي الْبِلَادِ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ"<sup>(٣)</sup>.

قال السندي: قوله: "قوس عربية" ما يرمى بها النبل، وهو السهام العربية، والفارسي ما يرمى به نحو البندق. "القنا" جمع قناة، وهي الرمح<sup>(٤)</sup>.

وعلى حد تعبير شوقي أبو خليل بنعته بالسلح الوطني، فلما تحترزه الدلالة من مقصدية الانتماء القائمة على المحاماة والمدافعة ما أمكن، ولذا عدّه من مقومات النصر الكبرى<sup>(٥)</sup>.

أما أنه ليس بغريب، والعبرة بالمآل أنه وكلما كان الدفاع من أجل القضية وتحقق بإزائه القصد إلى إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بمحض الانتماء العقدي فلا ضير أن يتحصل النصر من الله لمن جاهد من أجل ذلك، والاستشهاد كذلك لمن قتل في سبيله، فالدفاع أداة حماية الحياة، وملاكها الدين، ولا ريب. ويعد نفي ذلك لأن العبرة في مثل هذه المواطن بالمعاني لا بالألفاظ، والوقوف عند الظواهر حائل دون درك الأسرار وخبر السرائر، "فلقد قاومت البلاد الإسلامية الاستعمار

١- البيهقي، دلائل النبوة، ٣ / ٣٤.

٢- الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ٢ / ٣٣٠.

٣- أخرجه الطبراني في الكبير، حديث رقم: ٣٥١، والبيهقي، كتاب السبق والرمي، باب التحريض على الرمي، حديث رقم: ١٩٧٣٤، قال الهيثمي في «المجموع» ٥ / ٢٦٧: في إسناد مساتير لم يضعفوا ولم يوثقوا. فالحديث روي بأسانيد ضعيفة، أوقفها هذا على توجيه الهيثمي.

٤- السندي، حاشية على ابن ماجه، ٢ / ١٨٨.

٥- شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، ٢٢.

والاحتلال بعبارات الجهاد والاستشهاد، ورفعت شعارات الإسلام لإيقاظ المشاعر الوطنية والشعور بالذات المتميزة<sup>(١)</sup>. فلا خلاف اعتبارا للمقاصد أن يسمى من يقتل من أجل ذلك شهيدا، لأن الإيمان مقترن بالوطنية تلازما، وإذا تحصل الانتماء العقدي كما أسلفنا فلا عبرة بالعبرة إن صدق القصد، وهذا على خلاف من قال من العلماء المعاصرين: الذي يقتل من أجل الدفاع عن الوطن - فقط - ليس بشهيد. والواجب علينا ونحن مسلمون وفي بلد إسلامي - والله الحمد - ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا، وإذا قتل وهو يدافع بهذه النية فليس بشهيد<sup>(٢)</sup>. وقال في موضع: نرجو منكم أن تنبهوا على هذه المسألة؛ لأننا نرى في الجرائد والصحف: الوطن! الوطن! الوطن! وليس فيها ذكر للإسلام، هذا نقص عظيم، يجب أن توجه الأمة إلى النهج والمسلك الصحيح<sup>(٣)</sup>.

والصحيح أن دفاع المواطنين عن الأرض دفاع عن الانتماء والدين، "بل على الأفراد منهم حماية الأرض والدفاع عنها وهو فرض ديني عليهم، لوجوب سكنى دار الإسلام على المسلم"<sup>(٤)</sup> إلا لعراض خوف الفتنة على الدين، ونفس الأمر في الإقامة بغيرها.

### المطلب الثالث: مقاصد تبعية

١. حماية الذاكرة الوطنية: لا يستثني تكامل المشروع الحضاري الإسلامي من خلال نظرتة الشمولية وخصائصه الواقعية استلهاهم العناية بالذاكرة والموروث الحضاري المستمد من "العقيدة منطلقا، والتشريع نظاما، والأخلاق سلوكية، والتاريخ تجربة حية مؤثرة"<sup>(٥)</sup>، وليكتمل بوصفه حلقة في البناء الحضاري فيوسم بالتراث أو الذاكرة الوطنية ولا مشاحة في الاصطلاح، وهو مما وجبت حمايته ورعايته، لكونه جزءا من الشخصية، ثم لارتباطه الوثيق بالعقيدة، والثقافة، والأرض.

١- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ٤٣.

٢- العثيمين، شرح رياض الصالحين، ١/٦٦.

٣- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١/٦٩.

٤- محمد المبارك، نظام الإسلام، ١٣٦، وانظر، عبد العزيز بن الصديق، حكم الإقامة ببلاد الكفار وبيان وجوبها في بعض الأحوال، ٢٦، ٢٧.

٥- النهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، ١٣.

تلك الذاكرة بمفهومها الشمولي "تجسد كل أنواع الموروث الفكري والثقافي والمواقف والتاريخ والأحداث والمواقع وما تحتضنه من كلمات وعبارات وأمثال وقصص وأساطير"<sup>(١)</sup>، وما تعتر به الشخصية من أجماد وتاريخ وحركات وآثار بوصفها امتدادا إنسانيا، كل ذلك من مقومات الهوية الذاتية التي اعتدّ بها التشريع الإسلامي أسسا ثابتا في صرح بناء الشخصية المسلمة، وهي كالعقيدة واللغة لتكاملهما في تعزيز الانتماء الحقيقي. ولذا اقتضى الأمر حماية الذاكرة والموروث أصولا وفروعا، وقد نبهت السنة إلى حفظ أصول ومصادر المعرفة الإسلامية والذود عنها، "بل لا يستبعد جواز الحجر في مواطن الشُّبه؛ إذ كلما خيف على عقول الناس من زعزعة معارفهم أو حتى التطبيع ولو بالمناقشة والجدل مع أهل الشبهات، أو التعرّيج على مصادرهم وأصولهم إلا وكفي الأمر بالحجر والمقاطعة، وذكر الأمر بما فيه حتى يعرفه الناس، وهو منهج الصحابة رضي الله عنهم في التحصين المعرفي وقطع الشُّبه، بل الأصل فيه نعت النبي صلى الله عليه وسلم الوارد عليها بالتهوُّك - أي التحير والالتباس - عند الاطلاع، أو حتى الدنوّ من كل ما يُشوّش مع وجود المشرب الصحيح والمجّعة البيضاء، ومثله ضربُ عمر صبيغا لمجرد السؤال، واستفسار عائشة السائلة عن انتسابها للحرورية، وموقف عثمان مع أبي ذر، واستقصاؤه يطول"<sup>(٢)</sup>.

ولا يُنأكد في الباب التسليم بالتعددية الثقافية في المجتمع الواحد ما لم يقع التشويش على أصول المعارف، فلا تزال الهوية تمانع وتدافع حتى تقوى بنفسها، ومن ثم قد يتحصل الحوار والتلاقح الهادف، بل قد يعد ذلك من سمات الثراء الحضاري.

**٢. استتباب الأمن الوطني:** إن استلهاهم منزع الوطنية من البعد النفسي والتعلق الوجداني كما أسلفت باعث ابتداء على استيحاء معاني الاستقرار والتساكن، فلا خلاف أنه كلما سكنت النفوس واطمأنت إلا وتحقق الاستقرار والأمن، والفرق بين استتباب الأمن وتعميم الدفاع - وهو

١- المصدر نفسه: ١٢.

٢- عبد المومن، عبد الله، نبذ التعصب والعنف من خلال علوم السنة ومناهجها، ٨. وحديث جابر أن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَغَضِبَ، وَقَالَ: «أَمْتَهُوْكَونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَفِيَّةٍ لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكْذِبُوا بِهِ أَوْ بِيَاظِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي» (رواه أحمد حديث رقم: ١٥١٥٦ بإسناد ضعيف).

الذي أسلفت - من أجل التنبيه فقط إلى الحماية الداخلية والخارجية.

ولا يقصُر الحديثُ هنا على الأمن الحسي دون المعنوي، بل لربما الثاني أؤكد من الأول، وسبيل تحقيقهما في الوطن الآمن بما يُجمله تكاثف المقاصد الأكيدة التي سبق التنبيه إليها بدءاً بالوحدة الوطنية ثم السيادة ثم القيم ثم تحقق الدفاع عن تلك المعاني، لكن طرق تنزيله قائمة على مراعاة جانب من الأهمية بمكان، وهو الأمن المعرفي أو الأمن الثقافي، وتقديمه من باب أولويته في درء تشويش الفكر قبل السلوك، والفكرة أول العمل، وقد نهت إلى تأصيله في السنة النبوية بنهي النبي ﷺ عن كل ما يحمل على اضطراب الفكر وقد تقدم التنبيه على بعضه، وقد ارتضى علماء السلف هذا المنهج وتابعهم من بعدهم في الصدّ عن متابعة دواوين مشتهرة، لما تستبطنه من التشويش على عقائد الناس وزعزعة معارفهم<sup>(١)</sup>.

وهذا ما يؤكد الإبقاء على الخصوصية الثقافية التي تؤمن المحافظة على الموروث والالتزام بالقيم الوطنية والإنسانية معاً، "فإن تحقق ذلك من الناس تداول المعارف ما لم يعتزها التعصب والهوى، وهما حائلان دون تحصيل ذلك، ولذا استصحبهما فساد الغاية وفتح الفكر وترويع الرأي ولو على حساب المعارف. وقد ذكر ابن العربي في تفسير آية الحراية: أن الحراية تكون بالاعتقاد الفاسد وقد تكون بالمعصية فيجازى بمثلها، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (٢٧٦) البقرة: ٢٧٩

أما الأمن الفردي والجماعي فشرط تحقيقه العدل، قال ابن عاشور: "فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي: العدل، والعزة، والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة، فلا يختل الأمن إلا إذا احتلت الثلاثة الأول، وإذا احتل احتلت الثلاثة الأخيرة"<sup>(٢)</sup>.

١- وتواردت إثر ذلك فتاوى فقهية، انظر بعضها في المعيار المعرب: ٤٥٦/٢. وانظر، في الموقف من شبهات الكلام والجدل بين القبول والردّ دراسة حول «تجديد مباحث أصول الدين بين المدارس والممارسة» د عبد الله عبد المومن: ٥٦٠. مجلة الجامعة عدد خاص بمؤتمر التجديد والاستجابة لروح العصر. دائرة الوقف السني، كلية الإمام الأعظم بغداد ٢٠١٥م.

٢- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٧١٥/١.

٣. توسيع مجال الخدمة الوطنية: إن إقرار التشريع الإسلامي لمبدأ التعاون داخل نظام الوحدة والاجتماع، من أبين سمات الخدمة الواجبة بالكل لا بالجزء على الرعاية تجاه المجتمع، لاستكمال دورهم العضوي في استكمال بنيانه وتحقيق سيادته ووجوده، والقصد هنا بالخدمة ما كان ماديا واجتماعيا أما ما يتعلق بالحماية والدفاع، فذاك في نظري محله الحقوق والواجبات، وسيأتي. وقد راعت السنة النبوية محيط الاجتماع وفضاءه وأثره في تحقيق الخدمة بين أبنائه، ففي الحديث: "المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، يَسْعُهُمَا المَاءُ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الفِتَانِ" (١). قال الخطابي: "وقوله يسعهما الماء والشجر يأمرهما بحسن المجاورة وبينهما عن سوء المشاركة، وقوله: ويتعاونان على الفتان، يقال معناه الشيطان الذي يفتن الناس عن دينهم ويضلهم، ويروى الفتان بضم الفاء وهو: جماعة الفاتن كما قالوا كاهن وكهان" (٢).

واستكمال هذا الدور على وجه التحقيق لا يتأتى إلا بالإيثار والتنازل عن الحقوق خدمة للمجموع، وقد بينته السنة بجلاء في قول النبي ﷺ في غير ما حديث، ومنه: "مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ. قَالَ الراوي: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ" (٣).

ومن القواعد التربوية وتنزيلها على حرمة الأوطان أكد: حفظ الحرمة يُقَابَلُ بكرم الخدمة (٤)، وهي ناشئة - أي تلك الخدمة - عن الالتزام بالتعاون المادي والتعاطف الأخوي والمحبة الواصلة، "وكل مجتمع منظم يسوده التعاطف والتضامن، ويعمه الرضا والأمن والطمأنينة، وتتقدم فيه الحضارة والبناء وتشمله العدالة الاجتماعية، إلا ويحظى بتحييد الإنسان واحترامه" (٥).

٤- ترسيخ مبدأ الحقوق الوطنية: ارتباط الحقوق بالموطن والمقام هو من باب رعايته وحفظ حرمة، وتوطين النفوس والمجتمعات لا يتأتى إلا بأداء الحقوق وقد ورد استعمال اللفظ في السنة

١- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في إقطاع الأرضين، حديث رقم: ٣٠٧٠،

قال الهيثمي في المجمع: ١١ / ٦ رواه الطبراني ورجاله ثقات.

٢- الخطابي، معالم السنن، ٣ / ٤٥.

٣- أخرجه مسلم، كتاب، باب استحباب المواساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨.

٤- زروق، عدة المرید الصادق، ٤٤٣.

٥- الفاسي، علل، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، ١٩٥.

النبوية بما يناسب إبراء الذمة، ففي حديث جابر وقد وُقي بما كان عليه من دين لغرماء والده، بين يدي النبي ﷺ: "وَقَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي أَنْ أَشْتَرِيَهُمْ مِنَ الْعَجْوَةِ أَوْ فِيهِمْ الْعَجْوَةَ الَّذِي عَلَى أَبِي فَأَوْفَيْتُهُمْ" (١)...

لقد نشأت فكرة الحقوق مع نشأة الدولة الإسلامية، ويعد تصرف النبي ﷺ والخلفاء الراشدين مع قضية التعليم وقد سبق بيانها، وقضية الاستحقاقات كمسألة الغنائم وتميز العطاء اقترانا بامتيازات المواطنة من هذا القبيل، حيث اعتمد مبدأ المساواة في تداول الحقوق دون اعتبارات كثيرة، نحو السبق في الإسلام أو البلاء في الحرب أو غير ذلك، الأمر نفسه في المهمات الكبرى، مثل: شؤون المالية، والخراج، وتنظيمات الدولة المتعددة. و الأمر نفسه في حق الاعتقاد والرأي وحق التعبير وحق التنظيم سيما إذا اقترنت الحقوق بالعدل؛ فمبادئ المواطنة الحققة أثبتت هذه الحقوق، وما قول عمر في قضية المغالاة في المهور: "أصابت امرأة وأخطأ عمر" (٢) إلا من هذا الباب، وغير ذلك من المواقف كثير. فحقوق المواطنة لصيقة بتطبيق العدل، ومن ثم فلا مجال لحقوقها مع الظلم والاستغلال والفقر وما إليه، والتشريع الإسلامي حاصر تلك المظاهر الهدامة بما لا يُحصَر من الأحكام والقوانين. ومن ثم، خلص الأمر في "جميع الحقوق على تعددها إلى انبائها على أمرين: الأول، الحرية الشخصية، والثاني، المساواة بين الأفراد" (٣).

هذا الذي للمواطن، أما الذي عليه فأولاه صدق المواطنة وتحقيق معنى العهد والاستخلاف، وهو باعث على حفظ حمى الوطن من جهة الوجود والعدم وقد تقدم، ثم المحافظة على الوحدة وقد سلفت معانيها، وتجليه عمليا في التخلق بالتربية الوطنية وقيم الخير وخلاله، فإن الإثم مفرق، والخير جامع موحد.

١- أخرجه أحمد، حديث رقم: ١٥٠٠٥، وإسناده صحيح.

٢- ابن كثير، مسند الفاروق، ٢ / ٥٧٣.

٣- خلاف عبد الوهاب، السياسة الشرعية، ٣٠.

## الخاتمة والتوصيات:

- إن الذي ينتهي إليه مسار المباحثة في هذا الموضوع هو توكيد مدى استيعاب مدارك التشريع النبوي لقضايا الحياة والإحياء، والبناء والإنماء، التي لربما في هذا المنحى بالذات لم تستقصها قرائح الألباب ولم تحط بها مدارك الباحثين والكتاب، وأقصد على وجه التفصيل دون الإجمال، وكان - والحق يقال - لندوة الحديث الشريف السبق المبارك في استثارة همم البحث واستنهاضها للتعلم أكثر في مقارنة مثل هذه القضايا الرئيسية، التي إن ارتبطت بفقهاء التشريع السياسي في حفظ الوحدة والكيان، فهي تمت بصلات إلى كل مجالات التشريع؛ إذ لا تستقيم الحياة دون بساط الاجتماع، وضرورات الانتفاع؛ فلا يمكن الحديث عن أمة أو وحدة دون أرض أو وطن، ولذا كان الامتزاج بينهما أمرا طبيعيا، والاندفاع إلى التشبث بهما مطلبا عاطفيا حيويا.

ويجمل ختاماً سرد توصيات البحث بناء على عمق معاناة مع فكرته، وطريقة تدبير منهجه، ومنها:

١. محاولة استثمار أفكار البحث الرئيسية والفرعية في إعادة صياغة منظومة تربوية متكاملة تؤسس لجيل وطني، يتسلح بالمعرفة قبل العاطفة، معرفة بقضايا الملحة وهويته الثابتة، فالوحدة الوطنية والسيادة والقيم والذاكرة... وما إلى ذلك، كلها تحتاج إلى تفصيل بحثي يُبنى على ما قدمناه، ويضاف إليه.
٢. ينبغي تجاوز مراعاة الظواهر والألفاظ في القضايا المصيرية ذات البعد الوجودي والكوني، التي لداعي الفطرة الأثر البارز في نسج فصولها، والتشريع مؤيد لكليها وجزئها؛ فمصطلح الوطنية، ومشتقاته، والدفاع ومرادفاته، كلها ترتبط بقضية العقيدة والانتماء، فلا ينبغي الحجر عليها ولا التقليل من قيمتها؛ إذ الأجيال الناشئة تربّت على الالتزام بها، واستعمال الناس حجة، وفي الممانعة تشكيك في قيمتها، والعبرة بالمقاصد لا بالألفاظ.
٣. الحرص على توجيه مثل هذه الأفكار إلى الجهات المشرفة على تربية الناشئة، وتلقين معاني الانتماء وحتمية الانتساب ربطاً بالأصول التشريعية في مجالس الدرس والتحصيل، حتى ننشئ جيلاً وطنياً ملتزماً وملتحمًا.

٤. التربية النبوية على المواطنة أبلغ عنوان لحوار وطني ومشروع حضاري يهتم شرائح مجتمعية مختلفة في مجالات معرفية متباينة، من أجل التوعية بقيمة سنة نبينا عليه الصلاة والسلام في حل آفات الواقع، ومعالجة جل النوازل والوقائع، وهو من البلاغ المبين الذي تفتقر الأمم في واقعنا إليه.

والحمد لله رب العالمين.

## لائحة المصادر والمراجع

- أحمد زروق، عدة المرید الصادق من أسباب المقت في بيان الطريق القصد وذكر حوادث الوقت، إعداد: إدريس عزوزي، طبعة وزارة الأوقاف المغربية: ١٤١٩، ١٩٨٩.
- أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت.
- إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩.
- إبراهيم محمد بن إسماعيل الصنعاني، التنوير شرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة دار السلام، ١٤٣٢هـ.
- أبو بكر أحمد الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ.
- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤هـ.
- أبو بكر محمد بن إسحاق، ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، المكتب الإسلامي، بيروت.
- أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، شعب الإيمان، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ.
- تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم، ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٨هـ.
- التجموعتي المالكي، إرشاد المرید السالك إلى من يقتدى به من إمامي الجماعتين في المسجد المحمدي على مذهب الإمام مالك، ورقة ١ مخطوط خاص.
- جمال الدين بن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ١٤١٤هـ.
- أبو الحسن نور الدين السندي، حاشية على سنن النسائي، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ.
- أبو الحسن نور الدين السندي، حاشية على سنن ابن ماجه، بيروت، دار الجليل.
- أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب الماوردي، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م.
- أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، التبر المسوك في نصيحة الملوك، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٩هـ.
- أبو الحسن علي بن خلف، ابن بطال، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٢٣هـ.
- أبو الحسن علي بن سلطان القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٢هـ.
- أبو حفص عمر بن علي، ابن الملتن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، دمشق، دار النوادر، ١٤٢٩هـ.

## الوطن والوطنية في السنة النبوية: حتمية الانتساب ومقصدية الحماية...

- أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، التعليق الممجد على موطأ محمد، دمشق، دار القلم، ١٤٢٦هـ.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- أبو حاتم محمد بن حبان البستي، صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٨هـ.
- أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.
- أبو الحسن نور الدين الميثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، القاهرة، مكتبة القدسي، ١٤١٤هـ.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، بيروت، المكتبة العصرية.
- أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠هـ.
- زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، جامع العلوم والحكم، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ.
- أبو زكرياء محي الدين يحيى بن شرف النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ.
- زين الدين محمد المناوي، الإتحافات السنوية بالأحاديث القدسية، دمشق، دار ابن كثير.
- زين الدين محمد المناوي، فيض القدير القدير شرح الجامع الصغير، مصر، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٥٦هـ.
- زين الدين محمد المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، الرياض، مكتبة الإمام الشافعي، ١٤٠٨هـ.
- أبو سليمان الخطابي، معالم السنن، حلب، المطبعة العلمية، ١٣٥١هـ.
- شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي، دار الفكر دمشق، دار الفكر المعاصر بيروت، ط: ٢٠٠٢م.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- علال الفاسي، دفاع عن الشريعة، مطبعة الرسالة، الرباط، ط ٤، ١٩٩٩م.
- عبد الله عبد المومن، نبذ التعصب والعنف من خلال علوم السنة ومناهجها، جامعة محمد الخامس أبو ظبي، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م.
- عبد الله عبد المومن، رؤى معرفية في الأصول والمقاصد، الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، مطبعة المعارف، ١٤٣٦هـ.

- أبو عبد الله محمد بن علي بن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، العراق، وزارة الإعلام.
- أبو عبد الله بدر الدين الزركشي، المنشور في القواعد الفقهية، وزارة الأوقاف الكويتية، ١٤٠٥هـ.
- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن الرازي، مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، المغرب، وزارة الأوقاف، ١٣٨٧هـ.
- شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، الكاشف عن حقائق السنن، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصر، دار الوفاء، ١٤١٩هـ.
- أبو عبد الله الحاكم، المستدرک على الصحيحين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، الاستذكار، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٦هـ.
- أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجه، السنن، دار الرسالة العلمية، ١٤٣٠هـ.
- علي بن محمد بن علي الجرجاني، التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- أبو عبد الله محمد ابن مالك، الألفية، دار التعاون.
- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري، الدرر في اختصار المغازي والسير، القاهرة، دار المعارف، ١٤٠٣هـ.
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض السبتي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، المحمدية، مطبعة فضالة.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، القاهرة، دار الحديث، ١٤١٦هـ.
- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، السنن، مصر، مكتبة مصطفى الحلبي، ١٣٩٥هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ١٤٢٢هـ.
- أبو عثمان الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
- علال الفاسي، مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، مسند مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على

- أبواب العلم، المنصورة، دار الوفاء، ١٤١١هـ.
- أبو الفضل زين الدين العراقي، زين الدين، طرح التثريب في شرح التقریب، دار إحياء التراث العربي.
- أبو الفضل محمد بن محمد الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الهداية، د.ت.
- أبو القاسم شهاب عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي أبو شامة، شرح الحديث المفتى في مبعث النبي المصطفى، الشارقة، مكتبة العمرين العلمية، ١٤٢٠هـ.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الكبير، القاهرة، مكتبة ابن تيمية، د.ت.
- محمد المبارك، نظام الإسلام، الحكم والدولة، دار الفكر، الطبعة الرابعة: ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، د.ت.
- محمد فاروق النبهان، الثقافة الإسلامية والنظام العالمي الجديد، دار القلم العربي، دار الرفاعي للنشر، ط١، ١٤٢٥، ٢٠٠٤.
- محمد فتحي الدريني، دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- محمد الفاضل بن عاشور، ومضات فكر، تونس، الدار العربية للكتاب، ١٩٨١م.
- محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح رياض الصالحين، الرياض، دار الوطن، ١٤٢٦هـ.
- أبو محمد عبد الله بن جعفر ابن المرزبان، تصحيح الفصيح وشرحه، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٤١٩هـ.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- نور الدين عتر، فكر المسلم وتحديات الألف الثالثة، دار الرؤية، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.
- ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨هـ.
- القاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي، تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، الكويت، وزارة الأوقاف، ١٤٣٣هـ.
- أبو النجيب عبد الرحمن بن نصر جلال الدين العدوي، المنهج المسلوک في سياسة الملوك، الزرقاء، مكتبة المنار.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.

- وصفي عاشور أبو زيد، الوحدة الوطنية في الإسلام: مفهوما، ضوابطها، مقاصدها، القاهرة، دار المقاصد، ١٤٣٧هـ.

- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دمشق، دار الفكر المعاصر، ١٤١٨هـ.

- أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي، المنتقى شرح الموطأ، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٣٢هـ.

#### المجلات والدوريات:

- مجلة الجامعة عدد خاص بمؤتمر التجديد والاستجابة لروح العصر. دائرة الوقف السني، كلية الإمام الأعظم بغداد ٢٠١٥م.

- مجلة المورد العراق، مج ع ١، ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: جليل العطية.

أُسُسُ حِمَايَةِ الْوَطَنِ، وَمُقَوِّمَاتُهَا  
فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

الدكتور / أيمن جبرين جويلس  
وزارة التربية والتعليم العالي الفلسطينية  
كلية الشريعة - جامعة الخليل





## مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالوطن مهبط الحنان الفطري للإنسان، ورمز الانتماء الغريزي للمكان، وآية الانتماء العاطفي للهوية، في الوطن يأمن الإنسان على دينه ونفسه وفكره وعقله وعرضه ونسله وماله، في أحضانها ينمو ويشبّ ويشيب الإنسان عزيزاً كريماً مطمئناً في مسكنه، شامخاً في عرينه، مستقراً في منبته، متقلباً في نعيم ربوعه.

الوطن للإنسان كالأم لأبنائها، تحنُّ عليهم وإن جاروا، تضمّمهم وإن جهلوا، تشتاق إليهم وإن غابوا، تحتضنهم وإن سفهوا، الوطن للمواطنين ديوان يجمعهم، وكيان يوحدهم، ومنارة تهديهم، وملاذ يحميهم، وعنوان يقويهم، وبوصلة ترشدتهم.

ولهذا حظي الاهتمام بالوطن بمكانة مميزة في الفكر الإسلامي؛ في القرآن الكريم والسنة المشرفة. وبما أن السنة النبوية تمثل الممارسة الفعلية لهدي القرآن، فقد وجدنا دعوة نبوية صريحة للاهتمام بالأوطان ووجوب الدفاع عنها، وتأمين كل السبل الداخلية والخارجية لحماية الوطن.

وهذه الكنوز النبوية تحتاج إلى جهودٍ علمية لاستخراجها وفهمها وتنزيلها على الواقع، بما يحقق مقاصد الشريعة في نظرتها إلى الوطن، ويسقط عنها التأويلات الجاهلة أو الجائرة التي تقلل من شأن الأوطان.

وعلى الرغم من أهمية الموضوع إلا أن الدراسات الشرعية حوله قليلة، ما يجعل الكتابة فيه أمراً في غاية الأهمية.

## أهمية الموضوع:

١- إظهار دور السنة النبوية في الاهتمام بالوطن: حفظاً وتمكيناً ورفعاً، حماية وتنمية وتقوية.

٣- التعرف على مقاصد الشريعة في حفظ الأوطان.

٤- تنفيذ دعاوى أعداء الدين وجهلة المسلمين في عدم الاهتمام بالأوطان.

**مشكلة البحث:** تكمن مشكلة البحث في الوصول إلى منظومة متكاملة من مقومات حماية الوطن في السنة النبوية، ومحاولة تنزيل نصوصها على الواقع المعاصر، واستنباط المقومات الداخلية والخارجية لحماية الوطن من هاتيك النصوص، وبيان مدى انطباق التشريعات الإسلامية المتعلقة بحماية كيان الأمة الإسلامية على كيان الوطن.

### الدراسات السابقة:

١- بحث بعنوان: "المواطنة من منظور الشريعة الإسلامية"<sup>(١)</sup>، ماهر ذيب أبو شاويش، ركّز فيه على مفهوم المواطنة والحقوق والواجبات ولم يستعرض فيه مقومات حماية الوطن داخلياً وخارجياً من خلال السنة النبوية.

٢- بحث بعنوان: "حقوق المواطنة وواجباتها في ضوء القرآن والسنة"، إعداد: أ. د. حسن السيد خطاب، جامعة المنوفية، مصر، ركّز فيه على مفهوم المواطنة وحقوقها وواجباتها دون الدخول في تفاصيل أسس حماية الوطن من خلال السنة النبوية.

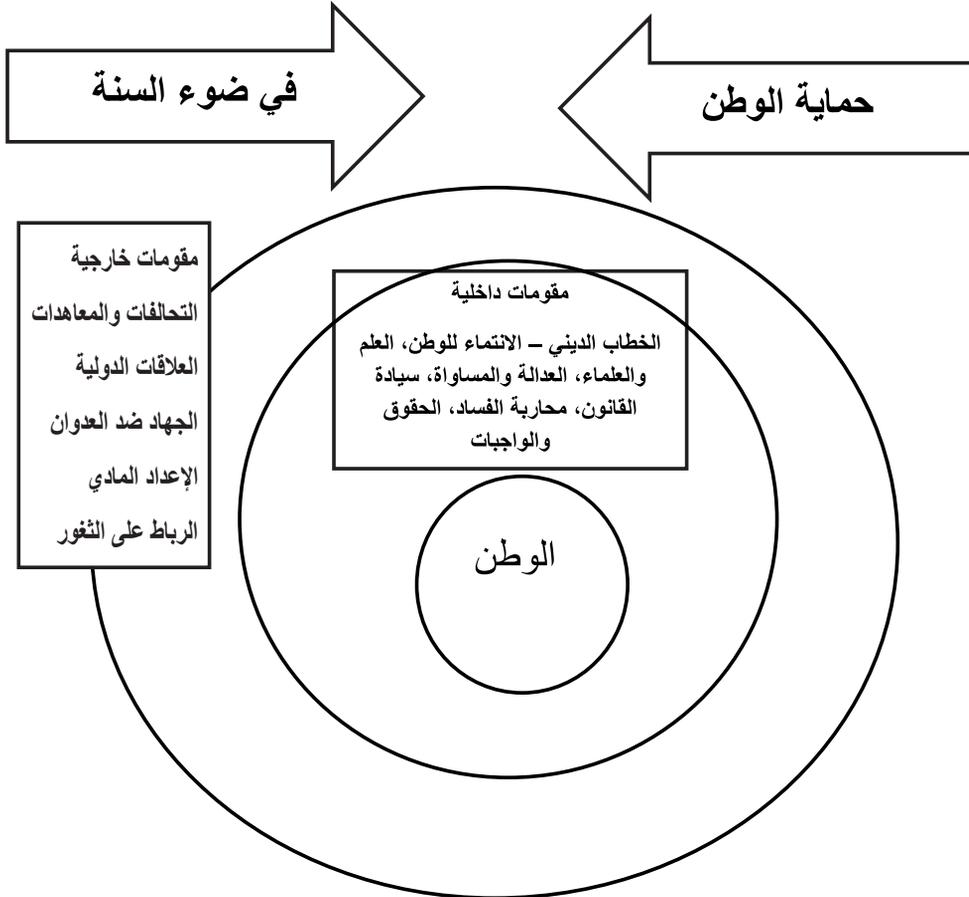
ولهذا كانت الإضافة البحثية في هذا البحث عرض أسس حماية الوطن داخلياً وخارجياً بما يحقق مقصود الشارع في حماية الوطن من أي خطر داخلي أو خارجي وكل ذلك من خلال السنة النبوية.

### منهجية البحث:

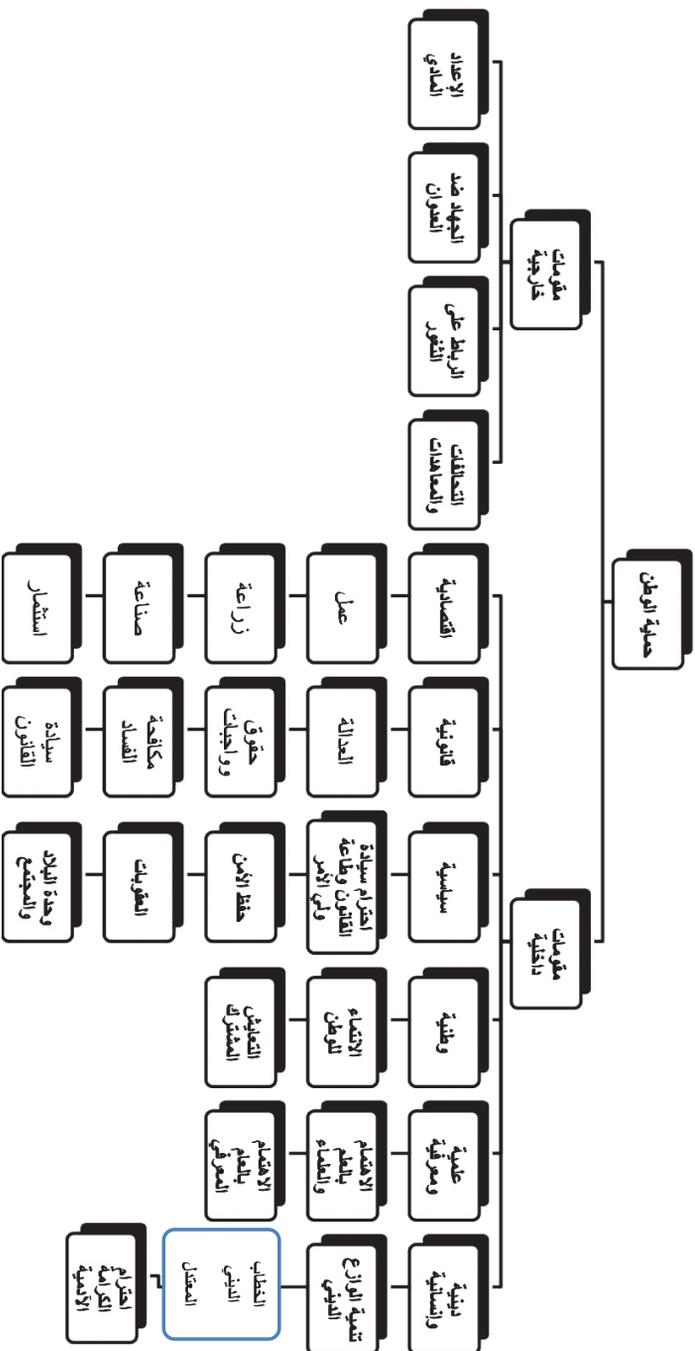
اتبعت في كتابة البحث المنهجين الوصفي والاستقرائي مستفيداً من المنهج الاستنباطي التحليلي، ركزت فيه على نصوص السنة النبوية اقتباساً واستدلالاً وتنزيلاً على الواقع بما يفيد الغاية من البحث، أما الآيات فنسبتها إلى موضعها في السور والآيات، خرّجت الأحاديث وحكمت على أغلبها من خلال مصادر الحديث المعروفة، أما ما كان في البخاري ومسلم فأكتفي بالعزو إليهما، علماً أنني أكثر من الاعتماد عليهما.

١- منشور في مجلة جامعة طيبة، العدد: (٩)، ١٤٣٧ هـ.

شكل (١) يلخص مقومات حماية الوطن في السنة النبوية



شكل (٢) مخطط هيكل لحماية الوطن في ضوء السنة النبوية



## الأول: مكانة الوطن في الشريعة الإسلامية

فيه مطلبان: المطلب الأول: مفهوم الوطن والمواطن.

المطلب الثاني: مكانة الوطن في السنة النبوية.

تمهيد:

حُبُّ الْوَطَنِ غَرِيزَةٌ فَطَرِيَّةٌ فِي النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْإِسْلَامُ يَتَوَافَقُ مَعَهَا، بَلْ يَجَسِّدُهَا وَيَعْبِرُ عَنْهَا، وَمِنْ هُنَا نَجِدُ اقْتِرَانَ حُبِّ الْوَطَنِ عِنْدَ الْإِنْسَانِ بِحُبِّ النَّفْسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ۝٦٦﴾ النساء: ٦٦؛ فالمساواة بين قتل النفس والإخراج من الأرض دليل على قيمته في النفس البشرية، وأنها قيمة مشروعة.

وقد اقترن الوطن في موضع آخر بالدين، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ المتحنة: ٨، وهذا يدل على مدى ارتباطه بالدين والنفس.

ولولا هذه الغريزة الفطرية لما كان الاضطرار لترك الوطن تضحية يُثَابَ عليها المهاجرون، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۝٨﴾ الحشر: ٨، ولأهمية الوطن في حياة الإنسان جعل الله حبه مبرراً للجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝٢٤٦﴾ البقرة: ٢٤٦.

وقد مَنَّ اللهُ عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنْ أَسْكَنَهُ الْأَرْضَ وَأَمَرَهُ بِعِمَارَتِهَا بِمَا يَفِيدُ الْكُونَ وَيُخَدِّمُ الْإِنْسَانِيَّةَ: قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ۝٦١﴾ هود: ٦١؛ وفي المعنى ذاته امتن الله على قريش بتحقيق مقومات الاستقرار والعيش من الرزق الكريم والشعور بالأمن في وطنهم مكة، كما في سورة قريش، وهذا ما دعا لتحقيقه سيدنا إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمَ الْأَخِيرُ ﴿١١٦﴾ البقرة: ١٢٦، وفي هذا المبحث أوجز الحديث عن مفهوم الوطن ومكانته في السنة النبوية.

### المطلب الأول: مفهوم الوطن والمواطن

الوطن في اللغة: هو المنزل الذي يمثل موطن الإنسان ومحلّه، وَطَنَ بِالْمَكَانِ وَأُوطِنَ؛ أي أقام فيه واتخذة محلاً وسكناً يقيم فيه، والوطن الأصلي هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه<sup>(١)</sup>. واصطلاحاً هو: منزل الإقامة، والوطن الأصلي هو: مولد الإنسان، والبلد الذي تأهل فيه، ووطن الإقامة: البلدة التي ليس للإنسان فيها أهل ونوى الإقامة فيها أكثر من ١٥ يوماً ولم يتخذها سكناً<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: مكانة الوطن في السنة النبوية:

تَزَخَّرُ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ بِالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُوَكِّدُ مَكَانَةَ الْوَطَنِ فِي الْوَجْدَانِ الْإِنْسَانِيِّ وَالشُّعُورِ الْفِطْرِيِّ، وَتَدْعُو إِلَى ضَرُورَةِ اتِّخَاذِ الْإِجْرَاءَاتِ الْوَقَائِيَّةِ وَالْعِلَاجِيَّةِ الْإِلَازِمَةِ لِحِفْظِهِ وَتَنْمِيَّتِهِ وَازْدِهَارِهِ وَحِمَايَتِهِ وَالِدِفَاعِ عَنْهُ، وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ:

١- استنكار النبي ﷺ واستغرابه من إخراج قومه له من أرضه، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال حين أخبره ورقة بن نوفل أنه سيُخْرِجُهُ قَوْمُهُ مِنْ وَطَنِهِ: (أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!)(٣)، فالنبي ﷺ لا يستغرب ردهم لدعوته، ولكنه يعجب أن يتمادوا إلى درجة إخراجهم من وطنه.

٢- التصريح بحب الوطن والثناء عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِمَكَّةَ: (مَا أَطْيَبَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ)(٤)، ولما

١- انظر: الرازي، مختار الصحاح، (ص ٣٤١)، مادة: وطن. ابن منظور، لسان العرب، (١٣ / ٤٥١)، باب النون فصل العين، مادة: وطن.

٢- انظر: نقاز إسماعيل، مفهوم الوطنية والمواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر، العدد: (٦)، (ص ٢٤٠).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٣)، (٧/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (١٦٠)، (٩٧/١).

٤- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل مكة، رقم الحديث: (٣٩٢٦)، (٦/٢٠٨)، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ".

هاجر ﷺ إلى المدينة أَلْفَهَا وَأَحَبَّهَا وَلَمَّا فَتَحَتْ مَكَّةَ خَافَ الْأَنْصَارُ أَنْ يَتْرَكَ الْمَدِينَةَ فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: (كَلَّا، إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ، وَالْمَحْيَا مُحْيَاكُمْ وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ)<sup>(١)</sup>.

٣- **التعبير السلوكي الفطري عن حب المدينة، فعن أنس رضي الله عنه، (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رِاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا، مِنْ حُبِّهَا)<sup>(٢)</sup>**، وقد علق الإمام ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "وفي الحديث دلالة على فضل المدينة وعلى مشروعية حب الوطن والحنين إليه"<sup>(٣)</sup>.

٤- **الدعاء بحب المدينة وصرف الأوبئة عنها، فعن عائشة رضي الله عنها، قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، وَعُكَّ أَبُو بَكْرٍ، وَبِلَالٌ، قَالَ ﷺ: اللَّهُمَّ الْعَنْ شَيْبَةَ بَنِ رَيْبَعَةَ، وَعُتْبَةَ بَنِ رَيْبَعَةَ، وَأُمَيَّةَ بِنَ خَلْفٍ، كَمَا أَخْرَجُونَا مِنْ أَرْضِنَا إِلَى أَرْضِ الْوَبَاءِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اللَّهُمَّ حَبِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مَدَّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجَحْفَةِ)<sup>(٤)</sup>**، وجه الدلالة:

- مشروعية الدعاء على الكفار الذين أخرجوا المسلمين من أرضهم.
  - عدم الإنكار على أبي بكر وبلال رضي الله عنهما الحنين للعلاج عند الأهل.
  - استحباب الدعاء للوطن أن يحفظه من الأمراض والشدائد، قال النووي: "وَفِيهِ الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ بِالصَّحَّةِ وَطِيبِ بِلَادِهِمْ وَالْبَرَكَةِ فِيهَا وَكَشْفِ الضَّرِّ وَالشَّدَائِدِ عَنْهُمْ"<sup>(٥)</sup>.
- ٥- **مشروعية الانتفاع من تراب أرض الوطن في العلاج، فعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ**

١- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، رقم الحديث: (١٧٨٠)، (١٧٠/٥).

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حدثنا عبد الله بن محمد، رقم الحديث: (١٨٨٦)، (٢٣/٣).

٣- ابن حجر، فتح الباري، (٣/٦٢١).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب حدثنا مسدد، رقم الحديث: (١٨٨٩)، (٢٣/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة والصبر على لأوائها،

رقم الحديث: (١٣٧٤)، (١١٧/٤). واللفظ للبخاري.

٥- النووي، شرح النووي على مسلم، (١٥٠/٩).

النَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَقُولُ لِلْمَرِيضِ: (بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بَرِيْقَةٌ بَعْضِنَا، يُشْفَى سَقِيمُنَا، بِإِذْنِ رَبِّنَا)<sup>(١)</sup>، جاء في فتح الباري نقلاً عن بعض العلماء: "وتراب الوطن له تأثير في حفظ المزاج ودفع الضرر"<sup>(٢)</sup>، ذكر الجاحظ أن العرب: "كانت إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلةٍ أو زكام أو صداع"<sup>(٣)</sup>.

هذه جملة من الأحاديث النبوية في بيان حب الوطن ومكانته ومشروعيتها التعلق به والحنين إليه والدفاع عنه ما يتفق مع الفطرة الإنسانية.

## المبحث الثاني: أسس حماية الوطن ومقوماتها الداخلية

### المطلب الأول: مقومات دينية وإنسانية لحماية الوطن

أولاً: تنمية الوازع الديني: يمثل الدين عاملاً محرِّكاً للمشاعر، وخطاباً موقظاً للضمائر، وموجهاً للتصرفات الإنسانية نحو ممارسة فكرية وسلوكية واجتماعية متوازنة تقوم على منظومة الحقوق والواجبات، وكلما زاد التمسك بالدين فهماً ووعياً وتطبيقاً كلما زادت المناعة لدى المواطن ضد الفساد أو الظلم أو العدوان أو أي جنائية تمس الوطن أو المواطنين، وما من وازع يحافظ على مقدرات الوطن من الهدر والتضييع ويحقق للمواطن الكرامة والمساواة والعدالة من تنمية الوازع الديني لدى المواطنين.

ومن هنا دعا النبي ﷺ إلى تنمية الوازع الديني في جميع الممارسات والعلاقات اليومية الجهرية والعلنية الفردية والجماعية والمؤسسية، وذلك من خلال مراقبة الله تعالى في كل شأن؛ ففي حديث جبريل المشهور عن أبي هريرة أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)<sup>(٤)</sup>، وربط الممارسات الحياتية بالله يدفع المواطن

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب رُقِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم الحديث: (٥٧٤٥)، (١٣٣/٧).

٢- ابن حجر، فتح الباري، (٢٠٨/١٠).

٣- الجاحظ، رسائل الجاحظ، (٣٩٢/٢).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيِّ ﷺ I عن الإيمان والإسلام، رقم الحديث: (٥٠)، (١٩/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الْإِيمَانُ مَا هُوَ وَبَيَانُ خِصَالِهِ، رقم الحديث: (٩)، (٣٠/١).

للاستقامة والعزة والشجاعة والكرامة والمسؤولية ومنها: الحفاظ على الوطن وحمايته من أي خطر دون خوف أو قلق على الأجل أو الرزق، فعن ابن عباس (رضي الله عنه) قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: (..) وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ<sup>(١)</sup>، والوصية بالتقوى هي الوصية النبوية الجامعة لتنمية الوازع الديني في توجيه السلوك والمشاعر، ومنها ما يتعلق بحماية الوطن، ومن هذه الوصايا، عن أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ)<sup>(٢)</sup>.

**ثانيًا: الخطاب الديني الوسطي:** من بديهيات الكون أن التدين فطرة، وأنه يحكم مسارات الإنسان وتوجهاته، فمن الضروري إذاً تربية الجيل من أبناء الوطن على حب الله ورسوله والمؤمنين ومراقبة الله في أفعالهم وممارساتهم، فهذه التربية المبنية على الخطاب الديني ترتقي بالجيل في الفكر والسلوك، فلا يخرج منهم ما يضر بالوطن وأهله ومؤسساته وممتلكاته، وتبدأ مستويات الخطاب الديني المعتدل من الأسرة، فالمدرسة، فالمسجد، فالاجتماع، فمؤسساته الإعلامية والدينية والثقافية العامة والخاصة. والخطاب الديني العملي أقوى أثرًا من الخطاب النظري.

والتربية الأسرية تربية شاملة على جميع الجوانب ومنها التربية الوطنية، وذلك من خلال القدوة والممارسة الإيجابية، حين يرى الأبناء آباءهم يجنون بلدهم، ويتفانون في خدمته، والدفاع عنه، والحفاظ على مقدراته، وثرواته من النهب، أو السلب، أو التعدي، أو الإساءة، ويبدلون أموالهم وأرواحهم في سبيل الدفاع عنه؛ فهذا يعزز روح الانتماء في نفوس الجيل، وفي هذا الصدد فإن

١- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبوابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عن رسول الله ﷺ، رقم الحديث: (٢٥١٦)، (٢٨٤/٤)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". أحمد، مسند أحمد، مسند بني هاشم ﷺ، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)، رقم الحديث: (٢٧١٣)، (٤٨٧/٤) - (٤٨٨)، والحديث صحيح كما قال الشيخ شعيب الأرنؤوط. واللفظ للترمذي.

٢- أخرجه الترمذي، جامع الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرته الناس، رقم الحديث: (١٩٨٧)، (٥٢٦/٣)، وقال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". أحمد، مسند أحمد، مسند الأنصار ﷺ، حديثُ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ (رضي الله عنه)، رقم الحديث: (٢١٧٥٠)، (٤٩٨٣/٩)، والحديث حسن لغيره كما قال الشيخ أرنؤوط.

الرعاية الأسرية رعاية شاملة لمختلف جوانب الرعاية المادية والمعنوية، ومنها التربية الوطنية في الحفاظ على البلاد وممتلكاتها، ومقدراتها، وحقوق أبنائها، عن ابن عمر عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (أَلَا كُلكُمْ رَاعٌ<sup>(١)</sup>) وَكُلكُمْ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٌ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ،... أَلَا فَكُلكُمْ رَاعٌ وَكُلكُمْ مَسْئُولٌ عَن رَعِيَّتِهِ<sup>(٢)</sup>). أما المساجد والمؤسسات الدينية فإنها تمثل منارة هداية، وبوصلة تأثير وتحريك في المجتمع، ولهذا يجب أن يكون خطاها بائياً لا هادماً، إيجابياً لا سلبياً، وحدوياً لا عنصرياً، وهذا توجيه النبي ﷺ، فعن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ جَدِّهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ لهُمَا: (يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنْفِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا)<sup>(٣)</sup>. وفي السياق ذاته حذر النبي ﷺ من التنطع في الدين، فقال ﷺ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ) قَالَهَا ثَلَاثًا<sup>(٤)</sup>. والخلاصة أن تقديم الخطاب الإسلامي بصورته الحقيقية المشرقة مسؤولية الجميع، وبخاصة الدولة والعلماء في اختيار الدعاة والعلماء الذين يعتلون المنابر ويوجهون الشعب؛ فتكون لديهم المؤهلات العلمية والسلوكية اللائقة بهذه المهمة الكبيرة (وراثة الأنبياء عليهم السلام). وتظهر أهمية هذا الخطاب في: أنه يمثل كلمة مسموعة لدى الجمهور؛ فيؤدي دوره المميز في حماية الوطن بمناهضة كل فكر مغشوش، أو شائعة مغرضة، وتظهر قيمة هذا الخطاب أيضاً في التفاف الشباب حول هذا الخطاب المنقح القائم على الحجة والبرهان من ذوي الخبرة والاختصاص؛ وبذلك لا يبقى لكل ناعق أو مستهتر أو طائش أو منتنع أي بيئة ينمو فيها، لوجود حصانة دينية وفكرية كافية.

- ١- "الراعي هو الحافظ المؤمن الملتزم صلاح ما قام عليه وهو ما تحت نظره؛ ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودينه ومتعلقاته". من تعليق محمد فؤاد عبد الباقي، صحيح مسلم، (١٤٥٩/٣).
- ٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، رقم الحديث: (١٧٣٨)، (٦٢/٩). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، رقم الحديث: (١٨٢٩)، (٧/٦). واللفظ للبخاري.
- ٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، رقم الحديث: (٣٠٣٨)، (٦٥/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير، وترك التفتير، رقم الحديث: (١٧٣٣)، (١٤١/٥).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب العلم، باب هلك المتنتعون، رقم الحديث: (٢٦٧٠)، (٥٨/٨).

**ثالثاً: احترام الكرامة الإنسانية:** يعزز شعور المواطن في وطنه بكرامته وإنسانيته روح الانتماء لوطنه انتماءً يدفعه لحبه والتفاني في خدمته والدفاع عنه ضد أي مؤامرة أو اعتداء. ولهذا يجب على ولاة الأمر وقادة الأوطان أن يُعلِّموا من شأن الكرامة الإنسانية دون تمييز بين حاكم أو محكوم؛ لتحقيق مبدأ الكرامة التي تمثل الدرع الحامي للوطن.

ومستند الاحترام المتبادل بين جميع المواطنين هو الآدمية، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ۖ﴾ (الإسراء: ٧٠). ومن هنا كان وقف النبي ﷺ لجنازة يهودي معللاً ذلك بأثما نفس، قَالَ ﷺ: (أَلَيْسَتْ نَفْسًا)<sup>(١)</sup>، ومن كلمات المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين في ذلك كلمة رينان (Ernest Renan) (ت ١٨٩٢م): "الإسلام هو دين الإنسان"<sup>(٢)</sup>.

### المطلب الثاني: مقومات علمية معرفية

**أولاً: الاهتمام بالعلم والعلماء:** إن الاهتمام بالعلم والعلماء يرفع من شأن المجتمع، وينهض بالوعي الديني والمجتمعي، ويحمي الوطن من هجرة العقول، ومن الأمية والتخلف، ولهذا كان أول ما نزل من خطاب القرآن الكريم الأمر بالقراءة المستندة حقيقة الوجود الإنساني وأصله ونشأته ومصيره، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۝٦﴾ (العلق: ١ - ٥، وقد أضفى النبي ﷺ وصف الخيرية على التفقه في الدين؛ فعن معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)<sup>(٣)</sup>، ولهذا حرص النبي ﷺ حتى في وقت حاجته إلى المال في مسألة فداء الأسرى على التعليم مقابل الفداء؛ فعن ابن عباس، قَالَ: (كَانَ نَاسٌ مِنَ الْأَسْرَى يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِدَاءٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فِدَاءَهُمْ أَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَ الْأَنْصَارِ الْكِتَابَةَ)<sup>(٤)</sup>.

١ - أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من قام لجنازة يهودي، رقم الحديث: (١٣١٢)، (٨٥/٢). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، رقم الحديث: (٩٥٨)، (٥٦/٣). واللفظ للبخاري.

٢ - انظر: السرجاني، شهد شاهد من أهلها!! ص ١٧٤، نقلاً عن: القانون والمجتمع تراث الإسلام، بإشراف ارنولد، (ص ٤١٣).

٣ - أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم الحديث: (٧١)، (٢٥/١).

٤ - أخرجه أحمد، مسند أحمد، مسند بني هاشم رضي الله عنهم، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وتظهر قيمة الاهتمام بالتعليم في النهوض بالوطن علمياً واقتصادياً، ولهذا فالعلاقة مطردة بين الاهتمام بالتعليم وحركة العمران في البلد، والعكس صحيح؛ فحيث يضعف الاهتمام بالتعليم يقل العمران، ويفشو التخلف والجهل والظلم والفساد والشعوذة والاستبداد<sup>(١)</sup>. ومن صور الاهتمام بالتعليم تشجيع البحث العلمي، وإنتاج مناهج تعليمية تحافظ على هوية المجتمع وقيمه ولغته وثوابته من جهة، وتواكب المستجدات من جهة أخرى.

**ثانياً: الاهتمام بالإعلام الهادف الحكومي والخاص:** من أشهر تعريفات الإعلام تعريف العالم "الألماني أوتوجروت"؛ حيث عرّفه بأنه: "التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في الوقت نفسه"<sup>(٢)</sup>، ويظهر الجانب الإعلامي في الأحاديث والخطب النبوية، نحو خطب الجمعة والغزوات والمناسبات وخطبة الوداع. وفيها نتلمس أهم أهداف الإعلام في الإسلام، وهي: تعبيد الناس لربهم سبحانه، وتوثيق الروابط الاجتماعية، ونشر مبادئ الوحدة، والعدالة، والمساواة، والإسهام في تنمية المجتمعات في جميع المجالات، ونشر الوعي العام بين المسلمين، بالدعوة للعلم والتعليم، ومواجهة الغزو الفكري، والمخططات الماكرة الهادفة لطمس هوية الأمة، الإسلامية وتذويبها<sup>(٣)</sup>، ويُدرج تحقيق هذه الأهداف في جوهر متطلبات حماية الوطن.

ولقد كانت الوصية بالتقوى هي السمة البارزة المتكررة في خطبه ﷺ؛ لأن من التقوى اجتناب الأذى أو التعدي على ممتلكات الوطن وثرواته، أو التماهي مع أعدائه، ومن التقوى أيضاً اتخاذ التدابير القانونية الكفيلة بالحفاظ على أمن الوطن وسلامة المواطنين، ومن التقوى العمل الجاد على محاربة البطالة والجهل، وتوفير المناخ الملائم للتعلم والازدهار، ومستند هذه الواجبات الدينية الوطنية الوصية بالتقوى المتكررة في جميع خطبه ﷺ ومنها: (أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ... فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ)<sup>(٤)</sup>.

عن النبي ﷺ، رقم الحديث: (٢٢٥١)، (٥٤٩/٢). وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

١- انظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (٥٤٨/١).

٢- انظر: رفاعي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، (ص ٢١-٢٢)، وهو ما ذهب إليه د سيد الشنقيطي.

٣- رفاعي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، (ص ٤٤-٤٥).

٤- أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنّة، رقم الحديث: (٤٦٠٧)،

### المطلب الثالث: مقومات وطنية

**أولاً: الولاء والانتماء للوطن:** يدور الولاء للوطن حول شعور المواطن أنه مسؤول عن وطنه، والعمل على تنميته، وحماية مقوماته الدينية واللغوية والثقافية والحضارية، والشعور بالمسؤولية عن المشاركة في تحقيق النفع العام، واحترام القوانين التي تنظم علاقات المواطنين فيما بينهم، والتضامن مع باقي المواطنين في مواجهة الطوارئ والأخطار، والاستعداد للتضحية لحماية الوطن، وتغليب المصلحة العامة على كل المصالح الذاتية الخاصة<sup>(١)</sup>. ولهذا جعل النبي ﷺ تحمل المسؤولية آية الانتماء للوطن، ومن أرقى مظاهرها التكافل الاجتماعي؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ<sup>(٢)</sup>)، أَوْ قَلَّ طَعَامٌ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ أَقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ<sup>(٣)</sup>). ومن أهم صور الانتماء للوطن ترك العصبية الجاهلية للقبيلة أو الحزب أو العرق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (... دَعَوْهَا، فَإِنَّهَا مُتَنَتَّةٌ)<sup>(٤)</sup>.

**ثانياً: التسامح والتعايش المشترك بين مكونات المجتمع:** التسامح أساس الاستقرار، ومفتاح التماسك، ومن أهم مظاهر التعايش المشترك التحلي بخلق الرحمة، فعن أبي هريرة، قَالَ:

(٣٢٩/٤)، واللفظ له. الترمذي، جامع الترمذي، أبواب العلم عن رسول الله ﷺ، بابُ مَا جَاءَ فِي الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدْعِ، رقم الحديث: (٢٦٧٦)، (٤٠٨/٤)، وقال الترمذي: "هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ". ابن ماجه، سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، بابُ اتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، رقم الحديث: (٤٤)، (٢٨/١). وصححه الألباني أيضاً، انظر: الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، رقم الحديث: (٣٧)، (١٢٣/١).

١- انظر: العلمي، المواطنة مفهومها ومقوماتها، <https://machahid24.com/etudes/74521.html> بتصرف.

٢- أي نفذ زادهم، انظر: ابن حجر، فتح الباري، (١٢٥/١).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشركة، بابُ الشَّرِكَةِ فِي الطَّعَامِ وَالتَّهْدِ وَالْعُرُوضِ، رقم الحديث: (٢٤٨٦)، (١٣٨/٣).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، بابُ مَا يُنْهَى مِنْ دَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ، رقم الحديث: (٣٥١٨)، (١٨٣/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، بابُ نَصْرِ الْأَخِ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، رقم الحديث: (٢٥٨٤)، (١٩/٨). واللفظ لمسلم.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (.. وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ)<sup>(١)</sup> فالنبي ﷺ: "يعلن أن الله تعالى يمد بالقوة كل من يعاون أخاه الإنسان في أي إقليم، وفي أي موطن، ولم يعين ذلك الأخ، بل عممه، فيعم الأخوة الإنسانية، ولا يقتصر على الأخوة الدينية أو الإقليمية"<sup>(٢)</sup>، بل طبق النبي ﷺ ما يدعو إليه من تعاون إنساني "فعمد النبي ﷺ مع اليهود حلفاً أساسه التعاون على الخير، وحماية الفضيلة ودفع الأذى وحماية المدينة من كل اعتداء، وهو يشبه ما يسمى في عصرنا بالتعايش السلمي، ولكن كان أبلغ؛ لأنه لا يكتفى فيه بدفع الشر، بل الاتجاه فيه إلى دفع الخير"<sup>(٣)</sup>.

لقد مثلت كتابة صحيفة المدينة نموذجاً حضارياً في التعامل والتعايش بين مكونات متعددة الديانات قائم على أساس العدل والأمن واحترام سيادة القانون، واحترام منظومة الحقوق والواجبات؛ ومن البنود الواردة في الصحيفة: "وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم"<sup>(٤)</sup>، ومنها: "وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَهُودَ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثَمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتَعُ"<sup>(٥)</sup> إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ"<sup>(٦)</sup>، ومنها: "وَإِنَّ بَيْنَهُمْ التَّصَرَّعَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ"<sup>(٧)</sup>.

#### المطلب الرابع: مقومات سياسية داخلية

أولاً: طاعة ولي الأمر وسيادة القانون: تستقر العلاقات السياسية والاجتماعية والحقوقية باحترام المواطنين للقانون المنظم لشؤونهم، وأصل المبدأ في القرآن الكريم؛ حيث قال تعالى:

١- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم الحديث: (٢٦٩٩)، (٧١/٨).

٢- أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، (ص ٢٦).

٣- أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، (٦٦/١). وانظر: أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، (ص ٢٥-٢٦).

٤- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢٨٣/١). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

٥- أي لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته. انظر: ابن سلام، غريب الحديث، (١٧٠/٣)، مادة طلق. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، (١٤٩/٥)، مادة وتغ.

٦- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٦/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

٧- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٧/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (٢٥) الحديد: ٢٥. وقد أمر ﷺ المواطنين بطاعة الحاكم في المعروف لتحقيق الاستقرار الداخلي من جهة، والإعانة على تدبير شؤون البلاد، واحترام سيادة القانون من جهة ثانية، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)<sup>(١)</sup>، وممارسة الحاكم لسلطاته محكومةً بسلطان القانون، ومما يدل على هذا الأصل التشريعي الدستوري ما يرويه ابنُ عُمَرَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ)<sup>(٢)</sup>. ولهذا كان أهم عمل قام به النبي ﷺ في المدينة المنورة هو كتابة الصحيفة التي تعد دستوراً للمسلمين وغيرهم؛ حيث كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم، وقد تمثلت سيادة القانون في عهده ﷺ بالوثيقة، وقد سبق الإشارة إلى بعض بنودها<sup>(٣)</sup>، ومحاولتنا الربط بين مبدأ سيادة القانون وفق المفهوم المعاصر وبين كتابة الصحيفة هو محاولة اجتهادية لتقريب فكرة الاحتكام إلى لنظام العام للدولة.

**ثانياً: حفظ الأمن العام:** إن حفظ أمن الوطن والمواطن مقصد شرعي؛ لأنه يدخل في المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية الشاملة لحفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، وإذا كان تحقيق هذا المقصد متوقف على اتخاذ إجراءات وتدابير رادعة فلا بد منها رعاية لمصلحة المجتمع كله، وأكد النبي ﷺ هذا المنهج القويم في التعامل مع الجرائم فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ أَسَامَةَ كَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ فِي امْرَأَةٍ، فَقَالَ: (إِنَّمَا هَلَاكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ وَيَتْرَكُونَ

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يقاتل من وراء الإمام ويُتقى به، رقم الحديث: (٢٩٥٧)، (٥٠/٤). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، رقم الحديث: (١٨٣٥)، (١٣/٦)، واللفظ لمسلم.

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن بمعصية، رقم الحديث: (٧١٤٤)، (٦٣/٩)، مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، رقم الحديث: (١٨٣٩)، (١٥/٦). واللفظ لمسلم.

٣- انظر: أبو شهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، (٥٩/٢). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٤/١).

الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا<sup>(١)</sup>، ومن أهم مقاصد هذه العقوبات تحقيق الأمن وردع الجناة والمجرمين، والمبدأ العام لمشروعية سن القوانين هو حفظ مقاصد الشريعة الشاملة للدين والنفس والعقل والنسل والمال، ومن هذه الأصول قوله ﷺ في خطبة الوداع: (فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا)<sup>(٢)</sup>، ومن أهم طرق حفظ الأمن احترام سيادة القانون، وقد تمثل ذلك في عهده ﷺ بالوثيقة (وثيقة المدينة المنورة).

**ثالثاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** إن الوطن كالسفينة، والحفاظ عليه مسؤولية الجميع، وهذا من أوضح الأمثلة النبوية على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حماية الوطن ودرء الأخطار عنه؛ عن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَالِقِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ بَحْجًا، وَبَحْجًا جَمِيعًا)<sup>(٣)</sup>، بل جعل النبي ﷺ مواجهة الفساد أو الظلم مسؤولية الجميع بحسب الإمكان؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال ﷺ: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ)<sup>(٤)</sup>، وحتى يؤدي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دوره في حماية الوطن لا بد من أن تكون هذه المهمة راشدة ومضبوطة بضوابط الشرع، نحو أن يكون القائم بهذه المهمة عالماً بطرق الإنكار ودرجاته ومآلاته<sup>(٥)</sup>.

- ١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إقامة الحدود على الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، رقم الحديث: (٦٧٨٧)، (١٦٠/٨).
- ٢- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربن والقصاص، باب تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ، رقم الحديث: (١٦٧٩)، (١٠٨/٥).
- ٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هَلْ يُقْرَعُ فِي الْقِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، رقم الحديث: (٢٤٩٣)، (١٣٩/٣).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بَيَانِ كَوْنِ التَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْإِيمَانِ وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، رقم الحديث: (٤٩)، (٥٠/١).
- ٥- الأزدي القرطبي، الإنجاد في أبواب الجهاد، (ص١٣). ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، (١٢٠٣-١٣).

رابعاً: وحدة المجتمع وتماسكه: يجب أن تكون وحدة النسيج الوطني أولوية لكل المواطنين، وللقادة والمسؤولين؛ لما فيها من حماية للوطن، وتحقيق للتماسك والتعاون وتخلص من كل عوامل الهدم أو التآكل الداخلية، جاء في متن الصحيفة: "هؤلاء المسلمون جميعاً على اختلاف قبائلهم يتعاقلون بينهم، ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"<sup>(١)</sup>، كذلك: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا"<sup>(٢)</sup> بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلِ"<sup>(٣)</sup>، وهذا يدل على أن عامة أحكام الشريعة الإسلامية إنما تقوم على أساس المسؤولية التكافلية.

### المطلب الخامس: مقومات قانونية

أولاً: العدالة الاجتماعية والمساواة الحقوقية: من أهم المبادئ الاجتماعية في الإسلام تحقيق العدالة من خلال نصره المظلوم وردع الظالم، بغض النظر عن لونه أو عرقه أو جنسه أو لغته، ففي الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا)<sup>(٤)</sup>. ويستغرق خطاب النهي عن الظلم في الحديث جميع آحاد وأشكال وصور الظلم سواء كان بين المؤمنين أنفسهم، أو بين الكافرين أنفسهم، أو بين المؤمنين وأهل الأديان والملل الأخرى، بل إن النهي يشمل ظلم الإنسان لنفسه وللكون والبيئة والحيوان والنبات، ومما يشهد لهذا التناصر والتضافر الجماعي في رفض الظلم ومحاربه رغبة النبي صلى الله عليه وسلم في إجابة دعوة حلف الفضول فيما لو دعي إليه في الإسلام<sup>(٥)</sup>. ومن أصول المساواة ما جاء في متن الصحيفة التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، والتي

- ١- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٣/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠١/١).
- ٢- المفرح هو الذي أنقله الدين والغرم. وَقَدْ أَفْرَحَهُ إِذَا أَنْقَلَهُ، وَأَفْرَحَهُ إِذَا غَمَّهُ. انظر: ابن الأثير. النهاية في غريب الحديث والأثر، (٤٢٤/٣).
- ٣- السهيلي، الروض الأنف، (١٧٤/٤). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠١/١).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث: (٢٥٧٧)، (١٦/٨).
- ٥- سبب هذا الحلف أن قريشاً كانت تتظالم في الحرم، فدعا بعضهم إلى التحالف على التناصر من الأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابتهم قريش وتحالفوا في دار ابن جدعان، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفًا فِي دَارِ ابْنِ جُدْعَانَ، مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ التَّعَمِّ. وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَحْبَبْتُ" انظر: ابن الجوزي، الوفا بتعريف فضائل المصطفى، (٨٧/١)

تنظم علاقة مكونات المجتمع بعضها ببعض، ومن ذلك: "ذمة الله واحدة، يجير عليهم أديانهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس"<sup>(١)</sup>، ومن الشواهد النبوية التاريخية على العدالة والتسامح وثيقة النبي ﷺ لأهل نجران تقضي بتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، ودفعهم للجزية والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(٢)</sup>.

**ثانياً: معرفة الحقوق والواجبات:** تُسهّم معرفة المواطن بحقوقه وواجباته في تحقيق الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الوطن؛ فحين يؤدي المواطن ما عليه من واجب، ويتمتع بما له من حقوق، لا يتصادم مع غيره من أبناء الوطن ولا تتنافر العلاقات، وإنما تتكامل بما يحقق التوازن والتلاحم الذي يحمي الوطن من أي تفكك، ونجد في التشريعات الإسلامية منظومة متكاملة من الحقوق والواجبات شاملة لمختلف مناحي الحياة، ومثال ذلك حق الحاكم في الطاعة وحق المحكوم في الشعور بالعدل والأمان والرعاية والعناية؛ ففي التحذير من الظلم والجور بحق الرعية عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرَّقَ بِهِمْ، فَارْفُقْ بِهِ)<sup>(٣)</sup>، وفي المقابل أمر المواطن بطاعة الحاكم في المعروف لتحقيق الاستقرار، والإعانة على تدبير شؤون البلاد، واحترام سيادة القانون؛ فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعَصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي)<sup>(٤)</sup>، ومن واجبات كل من الحاكم والمحكوم أن يقدم كل منهما النصح للآخر، وفي الحديث: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ)<sup>(٥)</sup>. والخلاصة أن معرفة الحقوق والواجبات تسهم في حماية البلاد من أي عداوات تترسب نتيجة الظلم أو غياب المساواة.

١- انظر: ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٥٠٢/١).

٢- ابن حديدة، المصباح المضي، (١٩٧/٢). وانظر: أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٥٤٨/٢).

٣- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بابُ فُضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَعُقُوبَةِ الْجَائِرِ، رقم الحديث: (١٨٢٨)، (٧/٦).

٤- سبق تخريجه، (ص ١٩)، هامش (٣٩).

٥- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ الدين النصيحة، رقم الحديث: (٥٧)، (٢١/١). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، رقم الحديث: (٥٥)، (٥٣/١). واللفظ لمسلم.

ثالثاً: إشاعة أجواء الحرية المسؤولة المنضبطة: إن توفير أجواء الحرية يسهم في حماية الوطن، من خلال تمكين المواطنين من التعبير عن أفكارهم ومقترحاتهم، وفي توفير بيئة مناسبة للإبداع والتميز والمراجعة؛ كل ذلك ضمن ضوابط المصلحة العليا للدولة وفي سياق الرشد السياسي والديني والأخلاقي، وهناك ثلاثة مبادئ شرعية نبوية تضمن ممارسة الحرية المنضبطة والهادفة والمسؤولة وهي:

- (١) الدين النصيحة: عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ...) (١)، وهذا المبدأ يعزز روح المسؤولية الفردية والجماعية.
- (٢) إنكار المنكر: فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ) (٢)، وهذا المبدأ يمثل صمام الأمان من أي انحراف شرعي قد يعصف بالوطن.
- (٣) ممارسة الشورى في الشؤون العامة، والخاصة، نحو الغزوات وتدابير شؤون البلاد، ويفتح هذا المبدأ المجال أمام جميع المواطنين للمشاركة الفعلية الحقيقية.

### المطلب السادس: تحقيق التنمية الاقتصادية (علاج مشكلتي الفقر والبطالة)

الاقتصاد عصب الحياة، به تتقدم البلدان، ويزدهر العمران، ويتطور الإنسان، وبدونه تتخلف أمم، وتنهار حكومات، وتستعبد شعوب، وتسترق دول وتقهتر حكومات. وحماية الوطن كما تكون بحبه والدفاع عنه، تكون أيضاً بتحسين الأوضاع الاقتصادية، للمواطنين من محاربة البطالة، وتدويل المال بين أبناء الوطن، وتشجيع الاستثمار من خلال الإفادة من التشريعات الإسلامية المتصلة بالتنمية الاقتصادية كالدعوة للعمل والكسب المشروع؛ فعَنِ الْمِقْدَامِ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (٣)، ومنها: النهي عن السؤال في غير سبب مشروع؛ عن أبي

١- سبق تخريجه، (ص٢٢)، هامش (٥٧).

٢- سبق تخريجه، (ص٢٠)، هامش (٤٥).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: (٢٠٧٢)، (٥٧/٣).

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَأَنْ يَجْتَبِ أَحَدُكُمْ حُرْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ)<sup>(١)</sup>، ومنها: مشروعية التجارة والسلم؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسَلِفُونَ بِالتَّمْرِ السَّنَتَيْنِ وَالثَّلَاثَ، فَقَالَ: (مَنْ أَسْلَفَ فِي شَيْءٍ، فَفِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ)<sup>(٢)</sup>، ومنها: إباحة الإجارة بما تحققه من نفع للمؤجر والمستأجر، ومنها: المشاركة في المال من خلال المزارعة الشجر من المالك (الأنصار) وسقايته من العامل (المهاجرون)<sup>(٣)</sup>، ومنها: المزارعة من خلال تقاسم الأرض والبذر من المالك والرعاية والسقاية من المزارع، وفي هذه التشريعات تحريك للمال، وتنشيط للاقتصاد، وتشغيل للأيدي العاملة، وكل ذلك يسهم في حماية الوطن من الفقر أو التخلف أو البطالة، ويحقق الكفاية الاقتصادية التي تحمي الوطن من التبعية للدول الأجنبية، ومن طرق التنمية الاقتصادية: تحقيق التكافل الاجتماعي من خلال الزكاة وصدقة الفطر، والأحاديث في ذلك مشهورة مستفيضة، والتكافل الاجتماعي من خلال الصدقات والتبرعات المفروضة والمسئونة يسهم في حماية الوطن من الجشع والطمع والعداء والطبقية الاجتماعية الجائرة. ومن صور التنمية: تأكيد السنة النبوية تقسيم الميراث الذي يؤدي إلى تفتيت الثروة، وتحريك المال، وتنمية الاقتصاد؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: (مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِلْوَرَثَةِ، وَمَنْ تَرَكَ كَلًّا فَلِإِنَانَا)<sup>(٤)</sup>، ومنها: تشريع الهبات والأعطيات كالعمرى<sup>(٥)</sup>، ومنها: تشريع الوقف والوصية، وفي قصة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في التصدق بماله مثال بين على التوازن الاجتماعي والتكافلي من حيث الانفاق وحفظ حق الورثة؛ فعن سعد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قَالَ لَهُ

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، رقم الحديث: (٢٠٧٤)، (٥٧/٣).

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب السلم، باب السلم في وزن معلوم، رقم الحديث: (٢٢٤٠)، (٨٥/٣).

٣- ما أرشد إليه حديث أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحرث والمزارعة، بَابُ إِذَا قَالَ: أَكْفَيْنِي مَوْئِنَةَ النَّخْلِ وَعَيْرِهِ، وَتُشْرِكِي فِي التَّمْرِ، رقم الحديث: (٢٣٢٥)، (١٠٤/٣).

٤- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض، باب الصلاة على من ترك دينًا، رقم الحديث: (٢٣٩٨)، (١١٨/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفرائض، بَابُ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِوَرَثَتِهِ، رقم الحديث: (١٦١٩)، (٦٣/٥).

٥- منها ما جاء عند مسلم، صحيح مسلم، كتاب الهبات، باب العمرى، رقم الحديث: (١٦٢٥)، (٦٧/٥).

بعد حوار بينهما حول قدر التبرع: (الثُلُثُ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ..)<sup>(١)</sup>، ولئن كانت الصدقات والتبرعات والهبات تمثل نوعاً من المواساة، إلا أن الإسلام دعا إلى ما هو أبعد من ذلك: دعا إلى الإيثار الذي يمثل أعلى أنواع المواساة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمْهَلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ<sup>(٢)</sup>، هذه الصدقات والتبرعات والتشريعات النبوية من الهبات والوصايا والإيثار وغيرها، تسهم جميعها في إحداث تنمية اقتصادية حقيقية في تنشيط حركة المال، ومحاربة البطالة، ولهذا أثره الكبير في حماية الوطن.

### المطلب السابع: مكافحة الفساد والمفسدين

إن مكافحة الفساد ومعاقبة الفاسدين سياسة تحفظ الوطن من الضياع وتحفظ المواطن - وهو الكنز الحقيقي للدولة - من الظلم والتعدي على حقوقه المعنوية أو المادية، ولهذا كان واجباً على الدولة أن تسنَّ القوانين الوقائية من الوقوع في الفساد، وأن تضع العقوبات الرادعة لمن يرتكبون الفساد، حفاظاً على ثروات البلد ومقدراته ومؤسساته. ولهذا حذر النبي ﷺ من ممارسة الفساد أو السكوت عنه أو المشاركة فيه، ومن ذلك: عَنْ خَوْلَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إِنَّ رَجُلًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٣)</sup>، وفي الأخذ على يد الظلمة يروي أنس رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَمْ أَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجُرُهُ، أَوْ

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة، رقم الحديث: (١٢٩٥)، (٨١/٢). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم الحديث: (١٦٢٨)، (٧١/٥).

٢- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة - باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح رقم الحديث: (١٠٣٢)، (٩٣/٣).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، بابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: (فَأَنْ لَّهُ خُمْسُهُ) رقم الحديث: (٣١١٨)، (٨٥/٤)، ومعنى (يتخوضون): "من الخوض وهو المشي في الماء وتحريكه والمراد هنا التخليط في المال وتحصيله من غير وجهه كيفما أمكن"، من تعليقات د. مصطفى البغا.

تَمَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ<sup>(١)</sup>، وقد مارس النبي ﷺ محاسبة الولاة والمسؤولين، فعَنْ أَبِي مُحمَّدٍ السَّاعِدِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ عَنْ هُدَايَا الْوَلَاةِ وَالْعَمَالِ: (.. أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هُدْيَتُهُ، وَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)<sup>(٢)</sup>، وتظهر قيمة محاربة الفساد في تطهير المجتمع من العناصر الخبيثة المدمرة ما يسهم في تقوية الوضع الداخلي للوطن، واستمرار نموه، وتميزه، وازدهاره.

## المبحث الثاني: الأسس الخارجية ومقوماتها

### المطلب الأول: الارتباط الوثيق بالأمة الإسلامية

لا يعني حب الوطن في الإسلام الانفصال عن جسد الأمة الإسلامية؛ فلا يتوقف نصر المظلوم، أو إغاثة الملهوف، أو إعانة المنكوب على الحدود الجغرافية للوطن، وإنما يمتد تضامن المسلم مع إخوانه حيثما كانوا، عملاً بمبدأ الأخوة الإسلامية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(٣)</sup> الحجرات: ١٠، وقد أكد النبي ﷺ هذا المبدأ؛ فعن النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)<sup>(٤)</sup>، والأخوة الإسلامية لا تنافي الاعتبارات الوطنية لكل دولة؛ وإنما علاقة الوطن في المفهوم المعاصر مع الأمة الإسلامية هي علاقة الجزء مع الكل، وحمانيته حماية للكل، وحماية الكل أيضاً حماية للجزء، وعليه فالمسلم مع أبناء الوطن متسامح، ومع أبناء الدين متعاطف، ومع أبناء آدم متعارف، وافتراس التناقض بين الانتماء للوطن والانتماء للأمة الإسلامية تعسف وافتراس مفتعل.

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يَمِينِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ إِنَّهُ أَخُوهُ إِذَا خَافَ عَلَيْهِ الْقَتْلَ، رقم الحديث: (٦٩٥٢)، (٢٢/٩).

٢- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الحيل، بابُ احْتِيَالِ الْعَامِلِ لِئُهْدَى لَهُ، رقم الحديث: (٦٩٧٩)، (٢٨/٩).

٣- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، بابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبِهَائِمِ، رقم الحديث: (٦٠١١)، (١٠/٨). مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، بابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ، رقم الحديث: (٢٥٨٦)، (٢٠/٨). واللفظ لمسلم.

إن ارتباط المسلمين كلُّ في وطنه بالأمة الإسلامية يمثل عامل قوة للوطن لاستناده إلى مبادئ التضامن والتعاطف والتراحم المنبثقة من رحم الأخوة الإسلامية التي لم يكتف النبي ﷺ بالدعوة المجردة لها، بل مارسها نموذجًا رائعًا على الأرض في المدينة المنورة من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومن خلال كتابة الصحيفة "المسلمون من قريش ويشرب ومن تبعهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس"<sup>(١)</sup>، وتظهر قيمة الوحدة الإسلامية في أنها تمثل درعًا للمسلمين، وردعًا لأعداء الأمة، وتؤمن بين الأوطان الإسلامية قدرًا كافيًا من التعاون الشامل اللازم لحماية البلاد.

### المطلب الثاني: التحالفات والمعاهدات مع المناطق والدول المجاورة

تُسهم التحالفات والمعاهدات السياسية والاقتصادية، وبخاصة مع الدول المجاورة في تحقيق الاستقرار والازدهار، وتجنب الحروب والاضطرابات، وتستفيد الدول بعضها من بعض في تحقيق التعارف الإنساني من خلال الاحترام المتبادل، ونقل الخبرات، والإفادة من إمكانيات كل دولة وثرواتها، وهذا ما حرص عليه الإسلام؛ قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ إن فقه التعارف يتطلب تعايشًا وتفاهمًا وتصالحًا تُستفيد منه الأمم في الاستقرار والسلام والعدل الدولي والتطور المعرفي، والتنمية الاقتصادية، وهذا ما حرص عليه النبي ﷺ؛ فقد جاءت وثيقة المدينة ضمانًا لعدم الظلم أو البغي، وتأكيدًا على للتحالف الوثيق بين أهلها ضد العدوان الخارجي، وتشجيعًا على التكافل الاجتماعي<sup>(٢)</sup>. وفي مناطق الاشتباك أو التوتر كان النبي ﷺ يقدم الصلح على القتال؛ لحقن الدماء، وتحقيق السيادة بالحق، ومن ذلك على سبيل المثال<sup>(٣)</sup>: غزوة ذي العُشيرة: سنة ٥٢هـ، حيث عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلب وحلفائهم من بني ضمرة<sup>(٤)</sup>، وفي غزوة الأبواء عقد النبي ﷺ معاهدة حلف مع مُحَشِيِّ بن عمرو الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، تقضي بتأمينهم على

١- ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٠١).

٢- انظر: أ.د. كمال الشريف، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، (١/٦٨-٧٠)، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠١م.

٣- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢/٣٤٦). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٩٩).

٤- العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (٢/٣٤٦). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (١/٥٩٩).

أموالهم وأنفسهم، والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(١)</sup>. وصالح صاحب أيلة وأعطاه الأمان على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام للمسلمين<sup>(٢)</sup>. ومن الشواهد على التحالفات وثيقة النبي ﷺ لأهل نجران تقضي بتأمينهم على أموالهم وأنفسهم، ودفع الجزية والدفاع عنهم ومناصرتهم<sup>(٣)</sup>، وتظهر قيمة التحالفات في حماية الوطن وأثرها في (تحقيق التعاون الشامل في التبادلات التجارية، وتفرغ كل دولة لتقوية وضعها الداخلي، والتحالف العسكري حال تعرض أي من الحلفاء لخطر داهم).

### المطلب الثالث: التضحية والفداء والجهاد لدفع العدوان

اتفق الفقهاء على وجوب الجهاد على المسلمين المكلفين لدفع خطر العدوان على أوطانهم إذا احتلها أو استولى على جزءٍ منها، ويكون قتاله فرض عين. ويلزم المسلمين أن ينصروا ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو، ويبدأ الوجود بالأقرب فالأقرب<sup>(٤)</sup>، فمن الطرق الواجبة على أبناء الوطن حمايةً لوطنهم أن يتصدوا ضد العدوان على النفس أو العرض أو الأرض، وفي آية مشروعية القتال ما يدل على هذا الدافع المشروع، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٥)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ<sup>(٦)</sup> ﴿٤٠﴾ الحج: ٣٩ - ٤٠، وقد حضَّ النبي ﷺ المسلمين على الدفاع عن أموالهم، - والأرض من المال- فعن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن الرسول الله ﷺ قال: (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ)<sup>(٧)</sup>، وإذا تتبعنا معظم غزوات النبي ﷺ نجد أن ثمة سببًا جوهريًا

١- ابن كثير، البداية والنهاية، (٢٤٣/٣).

٢- ابن القيم، زاد المعاد، (٤٧٠/٣).

٣- انظر: ابن حديدة، المصباح المضي، (١٩٧/٢). أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٥٤٨/٢).

٤- انظر: الموصلي الحنفي، الاختيار لتعليل المختار، (١١٧/٤)، الخطاب، مواهب الجليل، (٣٤٨/٣-٣٤٩)، الشرييني، مغني المحتاج، (٢٢/٦)، ابن قدامة، المغني، (١٩٧/٩)، ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (٨٠/٢٨)، الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، (٥٨٤٩/٨)، القحطاني، الجهاد في سبيل الله تعالى، (ص٧).

٥- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، بَابُ مَنْ قَاتَلَ دُونَ مَالِهِ، رقم الحديث: (٢٤٨٠)، (١٣٦/٣). مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ قَصَدَ أَخَذَ مَالٍ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ كَانَ الْقَاصِدُ مُهْدَرِ الدَّمِ فِي حَقِّهِ، رقم الحديث: (١٤١)، (٨٧/١).

دعا إليها، مثل: نقض العهود، والخيانة، والتآمر مع الأعداء، والتعدي على المسلمين، والإعداد للهجوم على المسلمين؛ فهذه الأسباب التي تمثل تهديدًا للوطن، كانت سببًا لكثير من غزواته ﷺ.

### المطلب الرابع: الرباط على الثغور

إن الحفاظ على أمن البلاد من أي خطر فريضة شرعية وضرورة وطنية، ولأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ فإن الرباط على الثغور بالإقامة فيها، وتأمينها، وحراسة المواقع التي يمكن أن يتسلل منها الأعداء يصبح واجبًا كفايًا، وعلى الدولة اتخاذ التدابير الأمنية الكافية لتحقيق هذا الواجب، وأصل هذا الواجب قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢٠٠) آل عمران: ٢٠٠. وفي السنة النبوية دعوة صريحة للمشاركة في الرباط؛ لما فيه من أجر وثواب، ويقظة أمنية، وعسكرية، تحفظ أمن الوطن والمواطنين، فعن سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سَوِّطٌ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)<sup>(١)</sup>. وتظهر قيمة الرباط في إبقاء الأمة يقظة منتبهة أمام أي تحركات من أعدائها، ويعينها على استكشاف ما لدى أعدائها من مكائد أو مؤامرات.

### المطلب الخامس: الإعداد المادي والأخذ بأسباب القوة

من فروض الكفايات التي تطالب بها الأمة امتلاك الإمكانات المادية العسكرية والصناعية والتقنية التي تساعدها في الحفاظ على أمنها واستقرارها وتطورها وازدهارها، وحتى تبقى مهيبَةً الجانب، مَصُونَةُ الشرف والأرض والعرض، يجب عليها أن تحصن الوطن بكل ما يتاح لها من تحصينات علمية وصناعية وعسكرية وزراعية؛ نهضةً بالوطن والمواطنين من جهة، وتقويةً لموقعها الإقليمي والعالمي، ودفعةً لأي خطر يمكن أن يهددها من جهة أخرى، وهذا يشمل كل صور الإعداد التي وسعتها آية الإعداد، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (٦٠) الأنفال:

١- أخرجه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ رِبَاطِ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رقم الحديث: (٢٨٩٢)، (٣٥/٤).

٦٠. وفي السيرة النبوية مواقف واضحة تدل على الاهتمام بالإعداد والأخذ بأسباب القوة، فمن ذلك: استخدام الرسول ﷺ للمنجنيق والدبابة في حصار الطائف<sup>(١)</sup>، ومنها: الدعوة للتصنيع الحربي؛ فالنبي ﷺ لما افتتح خيبر سبي فيما سبي ثلاثين قينا<sup>(٢)</sup> وكانوا صناعاً سماسر وحدادين، فدعا النبي ﷺ لاطلاقهم لينتفع المسلمون بصناعتهم<sup>(٣)</sup>، ومنها: الحث على استخدام آلات الرمي؛ فعن عُبَيْدِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾  أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ<sup>(٤)</sup>، ومنها: توفير حاجة الدولة من السلاح بشرائه عند العجز عن تصنيعه؛ فقد بعث النبي ﷺ سعيد بن زيد إلى نجد ليبْتَاعَ له الخيل والسلاح، واتخذ ﷺ أنواع السلاح. التي كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم<sup>(٥)</sup>، ومنها: التدريب على استخدام السلاح فقد أرسل النبي ﷺ غُرُورَةَ بْنَ مَسْعُودٍ، وَعَيْدَانَ بْنَ سَلَمَةَ، كَانَا مُجْرَشَ يَتَعَلَّمَانِ صَنْعَةَ الدَّبَابَاتِ وَالْمَجَانِيْقِ وَالضُّبُورِ<sup>(٦)</sup>.

- 
- ١- انظر: خطاب، الرسول القائد، (ص ٣٧٨). السهيلي، الروض الأنف، (٣٣٧/٧). أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٤٧٦/٢).
- ٢- القَيْن هو الحَدَّادُ وَالصَّانِعُ، وكل عَامِلٍ الْحَدِيدِ عِنْدَ الْعَرَبِ قَيْنٌ. انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٣٥٠/١٣)، فصل القاف.
- ٣- الكتاني، التراتيب الإدارية = نظام الحكومة النبوية، (٥٢/٢).
- ٤- أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمِيِّ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ وَذَمِّ مَنْ عَلمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، رقم الحديث: (١٩١٧)، (٥٢/٦).
- ٥- الكتاني، التراتيب الإدارية = نظام الحكومة النبوية، (٢٧٩/١).
- ٦- السهيلي، الروض الأنف، (٣٣١/٧). ابن هشام، سيرة ابن هشام، (٤٧٨/٢). وجرش: من مخاليف اليمن من جهة مكة، انظر: ابن منظور، لسان العرب، (٢٧٢/٦)، فصل الجيم، الضبور: جلدٌ يُعْشَى حَشْبًا فِيهَا رِجَالٌ تُقَرَّبُ إِلَى الْحُصُونِ لِلْقِتَالِ. انظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (ص ٤٢٨)، باب الرء، فصل الضاد.

### خاتمة (أهم التوصيات والنتائج):

أظهر البحث ما يحظى به الوطن من عناية دينية بالغة من خلال السنة النبوية، وقد توصلت فيه إلى جملة من النتائج والتوصيات، أجمالها فيما يأتي:

أولاً: ما ينطبق على الأمة الإسلامية على ترامي أطرافها، من مقومات حمايتها والمستمدة من التشريعات النبوية ينطبق على مستوى الوطن ذي الحدود الجغرافية وفق المفهوم المعاصر، وما ينسحب على الكل من مقومات مستنبطة من الهدى النبوي ينسحب على الجزء وهو الوطن، ومما يدعو لهذا أن الهدى النبوي قولاً وفعلاً وممارسة في الشأن الوطني، تم ضمن ما وصلت إليه سيادة الإسلام في عهده بدأت من يوم قيام الكيان الإسلامي في المدينة. واتسع مفهوم الوطن آنذاك ليشمل الجزيرة كلها، فضلاً عن التحالفات مع المجاورين والتي تضمن ولاءهم للدولة.

ثانياً: الاهتمام بالوطن فكرياً وثقافة وهوية وعناية شاملة وممارسة فعلية، جزء من التشريع الإسلامي النبوي ولا يتعارض مع الهوية الإسلامية الأكبر، والتي تستوعب الأوطان الإسلامية. ولم يكتف النبي ﷺ بالدعوة النظرية لحب الوطن والاهتمام به، بل ترجم أقواله إلى منهج متكامل وممارسة عملية تنوعت وتعددت بين احترام الأدمية وحقوق الإنسان، إلى التكافل الاجتماعي، ومحاسبة الفاسدين، والقتال لدفع خطر الأعداء.

ثالثاً: من أهم المقومات الداخلية لحماية الوطن: مقومات دينية، نحو الخطاب الديني الوسطي، وإنسانية، مثل احترام الكرامة الإنسانية. وهناك مقومات علمية معرفية، مثل الاهتمام بالعلم والعلماء، والاهتمام بالإعلام الهادف. وهناك مقومات وطنية، مثل الولاء للوطن والتسامح والتعايش المشترك، والاهتمام بتاريخ الوطن. وهناك مقومات سياسية داخلية، مثل سيادة القانون وحفظ الأمن العام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووحدة المجتمع وتماسكه. وهناك مقومات قانونية مثل العدالة الاجتماعية والمساواة الحقوقية، ومعرفة الحقوق والواجبات، وإشاعة أجواء الحرية المسؤولة المنضبطة، ومكافحة الفساد والمفسدين ومقومات اقتصادية، مثل تحقيق التنمية الاقتصادية.

رابعاً: من أهم الأسس الخارجية ومقوماتها: الارتباط الوثيق بالأمة الإسلامية، والتحالفات والمعاهدات مع المناطق والدول المجاورة، والتضحية والفداء والجهد لدفع العدوان، والرباط على

الثغور، والإعداد المادي والأخذ بأسباب القوة.

خامساً: أوصي الباحثين بإجراء مزيد من الدراسات والأبحاث حول هذا الموضوع، وذلك لقلّة الدراسات العلمية المعمّقة فيه، واستخراج ما في السنة من مواقف وشواهد تساعد في الوقوف على الصورة المتوازنة المعتدلة عن مكانة الوطن.

سادساً: أدعو اللجان القائمة على هذه الندوة المباركة إلى التعاون مع الإعلام لتبني هذه الدراسات وعرض خلاصاتها على المواطنين، وتقديمها إلى المؤسسات الرسمية وأصحاب القرار بغرض تفعيل (مقومات حماية الوطن وأساسه).

سابعاً: دعوة لأصحاب القرار الأكاديمي في الجامعات والكليات الشرعية في الوطن العربي لاعتماد مساق يحمل عنوان (الوطن في الكتاب والسنة)؛ وذلك للضرورة الملحة في زمن تستهدف فيه الأوطان.

هذا غيض من فيض، والموضوع بحاجة إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تسلط الضوء على مكانة الوطن، وسبل النهوض به، وحمايته داخلياً وخارجياً.

هذا ما توصلت إليه، فإن وفققت فمن الله وحده، فله الحمد والمِنَّة، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وأستغفر الله من كل زلل أو خطأ. والله ولي التوفيق وعليه الاتكال.

## المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، المبارك بن محمد الشيباني، أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- الأزدي القرطبي، محمد بن عيسى بن محمد، أبو عبد الله، الإنجاد في أبواب الجهاد وتفصيل فرائضه وسننه وذكر جمل من آدابه ولواحق أحكامه، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، ومحمد بن زكريا أبو غازي، دار الإمام مالك، مؤسسة الريان.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، دار الصديق للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- الألباني، محمد ناصر الدين، أبو عبد الرحمن، صحيح الترهيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله، الأدب المفرد، حققه وقابله على أصوله: سمير بن أمين الزهيرى مستفيداً من تخريجات وتعليقات الشيخ: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرّج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بيومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، أبو عيسى، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد

- فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، أبو العباس، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، الوفا بتعريف فضائل المصطفى، دار المعرفة.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، أبو الفرج، غريب الحديث.
- ابن حجر، أحمد بن علي، أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حديدة، محمد (أو عبد الله) بن علي، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق: محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت.
- الخطاب، محمد بن محمد الطرابلسي، أبو عبد الله، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط ٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
- خطاب، محمود شيت، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت، ط ٦، ١٤٢٢هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، أبو زيد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، أبو عبد الله، مختار الصحاح، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط ٥، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

## أُسُسُ حِمَايَةِ الْوَطَنِ، وَمُقَوِّمَاتُهَا فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ

- ابن رشد، محمد بن أحمد بن محمد، أبو الوليد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- رفاعي، عاطف إبراهيم المتولي، صور الإعلام الإسلامي في القرآن الكريم، دراسة في التفسير الموضوعي، إشراف د. حاتم مزروعة، رسالة ماجستير، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية (ماليزيا)، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- الزُّحَيْلِيُّ، وهبة بن مصطفى، الفِقهُ الإسلاميُّ وأدلَّتُهُ، دار الفكر، دمشق، ط ٤.
- أبو زهرة، محمد، العلاقات الدولية في الإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩٥م.
- أبو زهرة، محمد، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر ذي القعدة، ١٤٢٥هـ.
- السهيلي، عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد، أبو القاسم، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١.
- الشرييني، محمد بن أحمد الخطيب، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- الشريف، كمال، حقوق الإنسان في صحيفة المدينة، حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، ٢٠٠١م.
- أبو شُهْبَةَ، محمد بن محمد بن سويلم، السيرة النبوية على ضوء القرآن، دار القلم، دمشق، ط ٨، ١٤٢٧هـ.
- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٦، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، أبو طاهر، القاموس المحيط، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط ٨، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، الجهاد في سبيل الله تعالى، مطبعة سفير، الرياض.

- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد، المغني، مكتبة القاهرة ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط ١٤١٥هـ، ٢٧، ١٩٩٤م.
- الكتّاني، محمد عبّد الحّي بن عبد الكبير ابن محمد الحسني، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية في المدينة المنورة العلمية، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم، بيروت، ط ٢.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ (صحيح مسلم)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، لسان العرب، دار صادر، بيروت ط ٣، ١٤١٤هـ.
- الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود، أبو الفضل، الاختيار لتعليل المختار، مطبعة الحلبي، القاهرة ١٣٥٦هـ، ١٩٣٧م.
- نفاذ، إسماعيل، مفهوم الوطنية والمواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر، العدد ٦.
- ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب، أبو محمد، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.
- الهروي، أحمد بن محمد، أبو عبيد، الغريبين في القرآن والحديث، تحقيق ودراسة: أحمد فريد الزبيدي، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

أهم الروابط الإلكترونية:

- الحمصي، علي نديم الحمصي مفهوم المواطنة في الشريعة الإسلامية صحيفة المدينة المنورة نموذجًا،  
الموقع: [https://www.almaaref.org/books/contentsimages/  
books/dirasad/aleslameyoun\\_walmocharaka/page](https://www.almaaref.org/books/contentsimages/books/dirasad/aleslameyoun_walmocharaka/page)
- العلمي، عبد القادر، المواطنة مفهومها ومقوماتها، الموقع:  
<https://machahid24.com/etudes/74521.html>



# حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية

الدكتور/ بيدر محمد بن محمد حسن

أستاذ مساعد في كلية الشريعة والقانون - جامعة العلوم الإسلامية الماليزية

الجمهورية اليمنية





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين، محمد وعلى آله وصحابه الغر الميامين. أما بعد،

فإنه من الأهمية بمكان عند الحكم على حالة معينة دراسة ظواهرها السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية بقدر من الاتزان والاتساق والتمعن، سواء أكانت تلك القضية تتعلق بحماية الوطن، أم ببعض السلوكيات غير المرغوبة، والتي تؤثر سلبًا في الوطن، حتى تتكون فكرة واضحة تقود وتُعين على الوصول إلى نتائج إيجابية في القضية المراد دراستها.

ولكون البحث يناقش قضية حماية الوطن في السنة النبوية، من خلال ثلاثة مقومات أساسية وهي: المقوم الأخلاقي، والمقوم الاجتماعي، والمقوم الاستراتيجي؛ فإنه من الملائم دراسة هذه المقومات من خلال السنة النبوية المطهرة وتحليلها بما يتناسب وطبيعة القضية المراد دراستها.

لقد تطرقت السنة النبوية لقضية حماية الوطن من جهات عدة تتضمن الجانب الأخلاقي الذي يمثل الوازع النفسي، الجانب المؤسسي الذي يمثل تنظيم شؤون المجتمعات ما يخدم حماية الوطن. والجانب الاجتماعي، وتطرق البحث إلى هذه الاتجاهات التي تُعد الركائز الأساسية في الحفاظ على الوطن وحمايته.

وتتمثل مشكلة البحث في غياب المقومات الأساسية والجوانب المهمة التي يعتمد عليها في حماية الوطن؛ فالمقومات السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية التي تُعد من الركائز الأساسية في حماية الوطن، تكاد تكون مهملة في الجانب التوعوي والثقافي والتعليمي في البلدان العربية والإسلامية، مع أن السنة النبوية مثلت الإطار الفكري والأسس المنهجية لهذه القضية، ولذلك فإن البحث يحاول أن يلامس بعض هذه الأطر المؤسسية المنهجية والمهمة في حماية الوطن في السنة النبوية المطهرة من خلال التطرق إلى بعض المقومات الأساسية لحماية الوطن في السنة النبوية.

ويهدف البحث إلى بيان أهمية البعدين الاستراتيجي والمنهجي في التعامل مع قضية حماية الوطن في السنة النبوية، كون التنظير الإرشادي المجرد من الأعمال المؤسسية المنهجية يكون أثرها أنيًّا وغير مجدٍ على المدى الطويل، ويضع البحث بعض الأطر المنهجية والاستراتيجية التي يمكن أن تساعد في ترجمة بعض أفكار البحث إلى أعمال مؤسسية تحتضن التعليم والتثقيف الإيجابي في جانب حماية الوطن والعمل على أمنه، واستقراره، ورفيه، وازدهاره.

وهناك دراسات عن حماية الوطن في السنة النبوية وحب الوطن في السنة النبوية وهي كثيرة لا تتسع هذه المقالة لحصرها، وسوف تقتصر المقالة على أهم ما ورد في هذا الصدد، ولعل من أهم الدراسات التي تطرقت إلى قضية الوطن وحمايته وحبه ما يأتي:

- **"الدفاع عن الوطن فطرة وإيمان"** لعادل عبد الله هندي<sup>(١)</sup>. مقالة منشورة في مجلة المستشار. تطرق فيها الباحث إلى بعض القضايا المهمة تمثلت في الآتي: فطرية حبّ الأوطان، والإسلام والوطنية، وصور من الدفاع عن الوطن في السنة النبوية، بيد أن البحث لم يتطرق إلى قضية حماية الوطن بشكل منهجي استراتيجي، وتناول البحث حماية الوطن في السنة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية، وقضية حماية الوطن من خلال تأطير فكري استراتيجي يصلح أن يكون أنموذجًا لعمل مؤسسي يصب في مصلحة حماية الوطن وخدمته وأمنه واستقراره وتطوره ورفيه وازدهاره.

- **"الانتماء للوطن وضوابطه الشرعية دراسة نموذجية وفق الشريعة الإسلامية"**<sup>(٢)</sup>. تطرق الباحث في هذه الدراسة إلى الانتماء الوطني وضوابطه الشرعية، مبيِّنًا أهم المصطلحات المتعلقة والمتصلة به، نحو مفهوم الوطن والوطنية والمواطنة -الذي يُعد أهم ركائزه ودعائمه التي يقوم عليها - بمختلف وجهات النظر الفكرية لفقهاء وفلاسفة وعلماء، وركزت الدراسة بصفة خاصة على النظرة الشرعية لمفهوم الانتماء إلى الوطن من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، إضافة إلى آراء كبار علماء السنة؛ نحو شيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ ابن باز، إضافة إلى آراء وتصورات العديد من العلماء والباحثين؛ وذلك قصد الوصول إلى أثر الانتماء

١- ينظر: [http://www.almostshar.com/Subject\\_Desc.php?Subject\\_Id=4633&Cat\\_Subject\\_Id=34&Cat\\_Id=3](http://www.almostshar.com/Subject_Desc.php?Subject_Id=4633&Cat_Subject_Id=34&Cat_Id=3)

٢- ينظر: [https://www.alukah.net/publications\\_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8](https://www.alukah.net/publications_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8)

الوطني في السلم الاجتماعي.

ولم تستهدف الدراسة الأسس المنهجية والاستراتيجية التي يمكن أن تكون أرضية لعمل مؤسسي خاص لتنمية مهارات المجتمعات والشعوب من أجل حماية الوطن، وغطى البحث الذي نحن بصددده بعض الجوانب المؤسسية والمنهجية والاستراتيجية ذات الصلة بقضية حماية الوطن في السنة النبوية.

- "الوطن والمواطنة في القرآن والسنة"، لمحمد أفيقة<sup>(١)</sup>. تطرق الباحث فيها إلى قضية الوطن والمواطنة بشكل عام، تضمنت الرسالة بعض الجوانب المتعلقة بحب الوطن وحمايته في السنة النبوية، وإن كانت قليلة، فقد غلب على الرسالة الجوانب العامة المتعلقة بالوطن والمواطنة، وغاب عن الباحث التركيز على الأسس والمضامين المتعلقة بحماية الوطن والحفاظ عليه، وسوف يضيف هذا البحث بعض الجوانب الاستراتيجية والمنهجية المتمثلة في المقومات الأساسية لحماية الوطن في السنة النبوية.

وهناك دراسات أخرى لها علاقة بموضوع حماية الوطن وحبّه، استفاد الباحث منها في بعض الجوانب الفكرية التي تتسم بطابع علمي وتأصيلي، غير أن الجوانب الفلسفية للموضوع التي تبرز أهمية المقومات المذكورة في البحث هي من القضايا الجديدة في هذه الدراسة التي لم تتناولها الدراسات السابقة.

واشتملت دراستنا على ثلاثة مباحث تضمن كل مبحث بعض المطالب التي تعالج حماية الوطن في السنة النبوية في الجوانب السلوكية، والاجتماعية، والاستراتيجية.

١- يُنظر: أفيقة، محمد. الوطن والمواطنة في القرآن والسنة. رسالة ماجستير، جامعة العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، الجزائر. ٢٠١٦م.

## المبحث الأول: مفهوم الوطن وحمايته

سوف يتطرق المحور لمفهوم الوطن من خلال تعريف أصحاب المعاجم لمفردة "وطن" ثم بعد ذلك ننتقل إلى التعريفين الشرعي والقانوني للوطن.

**المطلب الأول - الوطن لغة:** هو منزل الإقامة من الإنسان ومحلّه<sup>(١)</sup>. وأوطنت الأرض اتخذتها وطنًا، يعني الوطن، بأنه محل الإنسان، وأوطن الأرض ووطنها واستوطنها وآتطنها أي جعلها وطنًا<sup>(٢)</sup>.

**المطلب الثاني - الوطن في المفهوم القانوني:** موطن الشخص هو المكان الذي يقيم فيه على وجه معتاد<sup>(٣)</sup>. ويركز التعريف القانوني للوطن على الحيز الجغرافي فقط دون الإشارة إلى الدولة والمؤسسات والنظم والقوانين والعلاقات الاجتماعية والنظم السياسية والاقتصادية وغيرها من الأمور المهمة التي ينبغي أن تشير إليها التعاريف القانونية والدستورية للوطن، ولذلك فإن البحث سوف يضيف في المفهوم العام للوطن ما يتعلق بالقضايا التي أهملتها التعاريف القانونية للوطن، وذلك بوصفها جزءًا مهمًا لا يقل أهمية عن الحيز الجغرافي للوطن.

**المطلب الثالث - الوطن في المفهوم العام:** الوطن هو الحيز الجغرافي الذي ينتمي إليه الإنسان وفقا للنظم المعمول بها في الدولة، وهو المكان الذي يشعر فيه الفرد بالانتماء له والولاء، والوطن ليس مجرد رقعة من الأرض؛ فالوطن يشمل على كل ما من شأنه تنظيم شؤون الناس والعمل على أمنهم واستقرارهم ورفاهيتهم، وعليه فإن مؤسسات الدولة ودستورها وقوانينها وأنظمتها والمجتمع تُعد روح الوطن والحيز الجغرافي هو الجسد.

ويستلزم الحفاظ على الوطن الحفاظ على الروح حتى لا يموت الجسد، ولذلك وجب الحفاظ على الوطن وحمايته جسديًا وروحيًا، حتى تسير حياة الناس بالشكل المطلوب في عمارة الأرض وبناء

---

١- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. (بيروت: دار الهداية. د.ت).  
٢- يُنظر: ابن منظور، معجم لسان العرب، (بيروت: دار صادر)، ص ٣٢٠. ويُنظر: الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (١٩٨٦)، مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان) ص ٣٠٣.  
٣- يُنظر: arab-ency.com/law/detail/164280. (١/٨١) مدني إماراتي) تم الاطلاع عليه بتاريخ ٢٠١٨/٩/١٢ م.

الحضارات الإنسانية الراقية، وقد أعلى الإسلام من شأن الأوطان بوصفها قيمة مهمة في حد ذاتها، كما أنها الهوية المعبرة عن الإنسان، فالحب والانتماء والولاء إلى الوطن واجب شرعي وقانوني.

ولقد أعطى النبي ﷺ اهتماماً بالغاً للوطن بوصفه جزءاً لا يتجزأ من حياته، وذلك حين هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بوقوفه على مشارف وطنه "مكة" ينظر إليها أسفاً حزيناً ليقول: "مَا أَطْيَبِكَ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(١)</sup>.

**المطلب الرابع: مفهوم حماية الوطن:** لا تعني حماية الوطن في السنة النبوية الحفاظ على حدوده من الاختراق والتعدي فحسب، بل تعني مفهوماً واسعاً وعميقاً؛ فالوطن بقدر حاجته إلى حماية أطرافه من أي اعتداء، فهو بحاجة إلى العناية بعمقه الروحي والمعنوي والحضاري، والمكوّن الاجتماعي والنظم والمؤسسات والعلاقات الاجتماعية، والتعامل الإيجابي مع كل المكونات التي تمثل الشعب والوطن والدولة، ونشر روح الألفة والمحبة بين فئات المجتمع على اختلاف مشاربها ومذاهبها، والابتعاد عن كل ما من شأنه تعكير صفو المجتمع والتأثير على وحدته وتماسكه وتعاونه.

وسوف يتطرق البحث في المباحث الآتية إلى أهمية هذه العوامل الداخلية في الحفاظ على الوطن وحمايته من خلال دراسة بعض المقومات المهمة والتي تمثل العصب الأساس للجبهة الوطنية الداخلية.

## المبحث الثاني: المقوم الأخلاقي السلوكي لحماية الوطن

لقد حرص الإسلام على بناء مجتمعات يسودها الأمن والسلام والوئام بين أفرادها بتكريس مبادئ إنسانية وأخلاقية راقية ومتعددة لبناء مجتمع متماسك قوي، بغض النظر عن الاختلافات الدينية والقبلية، وغيرها من الاختلافات التي تُعد من سنن الكون، من خلال روافد أخلاقية رائعة، مثل: التعاون، والحب، وبذل الخير، والمعروف، وإطعام الطعام، ونشر السلام، والتعاون على البر والتقوى، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وغيرها من المفردات الأخلاقية والسلوكية السامية في

١ - الترمذي، (٥ / ٧٢٣)، (ح ٣٩٢٦).

الإسلام التي حث عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وكل هذه المفردات تُعد دعائم راسخة في بناء وحدة مجتمعية وطنية، تتألف فيما بينها لحماية الوطن والحفاظ على مكتسباته والعمل على عمارته الإنسانية والحضارية، ويتطرق هذا المحور إلى مفردة أخلاقية عظيمة، ممثلة لمفردات متعددة، والاقتصار على مفردة واحدة في هذه الدراسة هو مجرد مثال وقراءة استراتيجية لكيفية التعامل مع المفردات السلوكية والأخلاقية الرائعة التي حوّاها القرآن والسنة النبوية المطهرة، وسوف نتطرق الدراسة إلى مفردة سلوكية واحدة لبيان أهمية البعد السلوكي والأخلاقي في السنة النبوية في حماية الوطن، وهذا المفردة السلوكية المهمة هي حقوق الجار، التي تركزت في تربية النبي ﷺ أصحابه وأُمَّته عليها، وحرص تمام الحرص على البلوغ بها إلى الغاية القصوى من الاهتمام، في تعاملاته اليومية مع جيرانه ﷺ، حتى ولو كانوا من غير المسلمين، وذلك حرصاً منه ﷺ على تعزيز السلوك الإيجابي في المجتمع الواحد وبناء الوجدان والشعور بالانتماء إلى مجتمع واحد وبلد واحد، كون ذلك من الروافد الأساسية في حماية الوطن.

### المطلب الأول: احترام الجار وحسن معاملته من روافد حماية الوطن

لقد كرّس الإسلام مفهوم الجار، بوصفه رابطة اجتماعية أصيلة في أخلاقيات المسلم، وهذا الخلق الراقي له مقاصد عظيمة، تجعل منه رافداً رئيساً من روافد حماية الوطن، ذلك أن لاحترام حق الجار والإحسان إليه مقاصد عظيمة، تجعل المجتمع يسوده الاحترام والتفاهم والحب والخير والسلام، أما إذا كانت هناك بعض المخالفات والتعدي على حقوق الجيران، وعدم القيام بحقوقهم من الإحسان والاحترام، فإن في ذلك مدعاة إلى توتر العلاقات بين الجيران، ومن ثم يحدث نوع من التفكك الاجتماعي في الوطن الواحد، الذي يقود إلى الخصومات والمشاجرات، وزعزعة النسيج الاجتماعي والتأثير السلبي في الوطن وأمنه الداخلي، لقد تعددت الأحاديث النبوية التي تدل على الإحسان إلى الجار، والحرص على الإحسان إليه ولو كان من غير المسلمين.

ولقد استوعبت الأحاديث المتعلقة بالجار ثلاثة جوانب مهمة:

الجانب الأول: الإحسان إلى الجار.

الجانب الثاني: منع الإساءة إلى الجار.

الجانب الثالث تحمل إساءة الجار.

ويتطرق البحث إلى الجوانب الثلاثة بشيء من التفصيل والتحليل في سياق المآلات التي تؤدي بدورها إلى حماية الوطن.

### المطلب الثاني: الجانب الأول الإحسان إلى الجار يمثل رافداً من روافد حماية الوطن

**الحديث الأول:** عن عائشة -رضي الله تعالى عنها-، عن النبي ﷺ قال: "مَا زَالَ يُوصِيَنِي جَبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورُّهُ"<sup>(١)</sup>. من القراءة التحليلية لهذا الحديث النبوي واستمرار جبريل عليه السلام في توصية النبي ﷺ بالجار، والإحسان إليه، حتى إن النبي ﷺ ظن أن الجار جزء لا يتجزأ من الأسرة الواحدة التي يرث بعضها بعضاً، هذا الحرص على الإحسان إلى الجار، هو مكون أساسي من مكونات الحرص على سلامة المجتمع، الذي يعد عنصراً أساساً في حماية الوطن وبناء أمنه واستقراره، والعمل على تماسكه وتعاطفه ورفقيه، وهذه النتائج التي يمثلها المجتمع المتعاون المتماسك المتعاطف، مثلت الروح التي تحيي وتنعش الوطن وتحميه من أي انزلاق نحو التفتت، والشقاق، والصراع، والنزاع. فالمعاني الاجتماعية السمحة التي حثنا الإسلام عليها هي في حقيقتها ومقاصدها تعني حماية الوطن، فالقراءة الصحيحة للأحاديث التي تحثنا على احترام الجار، تعني أن الأفراد هم مكون الوطن الواحد؛ فإذا ما ساد بينهم الاحترام والوفاء، فإن ذلك يكون السمة الروحية الأصيلة للوطن، وحمايته، وأمنه، واستقراره، وبناء حضارته.

وأي مجتمع يتصف بهذا الخلق النبوي السامي في التعامل مع الجار، فإنه لا شك قادر على تكوين منظومة حس اجتماعية عالية في تلاحم المجتمع وتماسكه، الذي يمثل العامل الأساس في حماية الوطن وبناء سلمه، وأمنه، واستقراره، ورفاهيته، وازدهاره.

**الحديث الثاني:** عن أبي شريح العدوي، قال: سمعت أذناي، وأبصرت عيناي، حين تكلم النبي ﷺ فقال: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ"<sup>(٢)</sup>. في هذا الحديث النبوي الشريف، تركزت الدعوة إلى إكرام الجار،

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب الأدب باب: الوصاة بالجار. ح/٦٠١٤.

٢- المصدر السابق. باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره. ح/٦٠١٩.

والضيف، وقد يكون الضيف هو الجار، والجار هو الضيف أيضاً، وقد عُدَّ إكرام الجار والضيف من الإيمان، وإكرام الجار لا يعني فقط أن تكرمه بالطعام والشراب وحسن الضيافة، وإنما الإكرام مفردة تستوعب كل المعاني الإيجابية التي من شأنها أن تخدم حماية الوطن، وهكذا نلاحظ كيف حرصت السنة النبوية من خلال هذه المفردات الأخلاقية الراقية من خلق مجتمع مدني متعاون متلاحم متراحم يكرم بعضه بعضاً ويحسن بعضه إلى بعض، وقد كان المجتمع الإسلامي الأول الممثل لهذه التعاليم الأخلاقية مجتمعاً رائعاً وفريداً، ولقد أثمرت تلك الأخلاق الرفيعة سلماً وتعاوناً وأمناً واستقراراً ليس له مثيل على مر العصور، وهذه من العوامل المهمة والمهمة التي تعزز معاني الوطن في النفوس والحرص على حمايته وأمنه واستقراره وبناء حضارته.

### المطلب الثالث:

#### الجانب الثاني التحذير من الإساءة إلى الجار يمثل رافداً من روافد حماية الوطن

لم تقتصر السنة النبوية على مجرد الحث على الإحسان إلى الجار والترغيب في ذلك، بل حتى تكتمل الصورة، فإن السنة النبوية المطهرة عملت على منهج متكامل للوفاء بالتزامات التماسك المجتمعي الرافد الأساس في حماية الأوطان، فكما رَغَبْتَ، حذرت ورهبت، ومن ضمن الأحاديث الواردة في التحذير والترهيب لمن يسيء إلى جاره، حديث أبي شريح، أن النبي ﷺ قال: "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهُ لَا يُؤْمِنُ. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقِهِ"<sup>(١)</sup>.

في هذا الحديث، إمعان في التوبيخ لمن يؤذي جاره، ولا يتحمل ما قد يصدر من تصرفات عنه ربما تؤدي إلى تكدير صفو العلاقة بين المتجاورين، واتساع رقعة التوتر بين الجيران، ما يؤدي إلى اتساع رقعة التوتر في المجتمع، وهذا بدوره يؤدي إلى الانتقاص من السكينة العامة للمجتمعات ويقلق بشكل كبير الاطمئنان الاجتماعي والسلام المدني بين الناس ما يؤدي إلى آثار سلبية على الوطن وحمايته وأمنه واستقراره، والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، منها: حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُقِْلِ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"<sup>(٢)</sup>.

١- صحيح البخاري. باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ح ٦٠١٦. مصدر سابق.

٢- المصدر السابق. باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ح ٦٠١٨.

## المبحث الثالث: المقوم الاجتماعي ركيزة في حماية الوطن

المجتمع هو الوعاء الذي تتفاعل فيه كل ما يتعلق بالإنسان من أمور حياتية تتعلق بأمره الشخصية أو تتعلق بالمجتمع أو بالوطن، فالمجتمع هو نواة الوطن، ولذلك فإنه من الأهمية بمكان عند مناقشة حماية الوطن في السنة النبوية، أن تُدرس الجوانب التي تتعلق بالمجتمع بشيء من الاستفاضة والتحقيق، للوصول إلى الجوانب الإيجابية التي من شأنها تكريس ما يخدم قضية حماية الوطن.

### المطلب الأول: الوضع الاجتماعي الإسلامي الأول وانعكاساته الإيجابية في حماية الوطن

لقد أسهم المحيط الاجتماعي للمسلمين إسهامات منهجية راقية في البحث والاستقراء، من خلال تأثر العقل المسلم بالأسلوب القرآني الراقي في الدعوة والنظر والتفكير، وليس هذا فحسب، فطريقة القرآن الكريم في التعاطي مع المدعوين من أهل الكتاب والمشركين، ومناقشتهم مناقشة فكرية للتفكير في السموات والأرض وفي خلق أنفسهم، وغير ذلك من الأساليب القرآنية الرائعة التي هي المنهج الدعوي لغير المسلمين، لدعوتهم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وهذا الأسلوب التربوي الراقي خلق مجتمعًا راقياً بفكره وثقافته، كل هذا كان له أكبر الأثر على النتاج الفكري الخصب الناضج بالنظر والاستقراء، لأن من الوظائف الأساسية للدين الإسلامي إنشاء مجتمع صالح يسوده الأمن والسلام، والبناء والتنمية والتطور، في المجالات التي تحتاج إليها الإنسانية كافة، وذلك من خلال تكوين الفرد الصالح الواعي المثقف العالم والمتعلم، حتى يتكون مجتمع صالح يسوده السلام والوئام، ولو اختلفت بهم اللغات والأديان والألوان والقبائل والأعراق.

ولقد بنى النبي ﷺ المجتمع الإسلامي الأول بناءً أخوياً وإيمانياً راسخاً جعل منه حمة واحدة لا تجزئها الأفكار المختلفة، ولا الآراء المتباينة، ولا القبائل المتباعدة، ولا الأجناس واللغات والألوان، فقد أرجع النبي ﷺ أصل العلاقة بين المجتمع الإسلامي الواحد إلى الإسلام والإيمان؛ كما في حديث النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى" (١).

١- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. كتاب البر والصلة. باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم. ح ٢٥٨٦.

إن تجسيد حياة المؤمنين في هذا الإخاء والتماسك والتعاطف والترّاحم، يشكل عنصر القوة، والمقوم الأساس في بناء وطن قوي متمكن في نفوس الناس ظاهراً في حياتهم الاجتماعية والمدنية على أرض الواقع المعيش، وهذا ما كانت عليه الأوضاع الاجتماعية في العهد الأول لصحابة الرسول ﷺ، لقد كان لذلك الترابط والتعاطف والترّاحم أثر واضح في بناء الوطن وحمائته، فإلى جانب التزام الناس بالدين الإسلامي الحنيف، واجتماعهم عليه، وعدم تفرقهم إلى جماعات وأحزاب، كان الأثر الواضح في الانعكاس الإيجابي على الوطن وحمائته من التفكك والانحدار إلى مهاوي الصراع، كما هو الحال في أيامنا هذه في بعض البلدان العربية التي تعاني من تفسخ النسيج الاجتماعي وانتشار الفوضى وضياع الأوطان.

والترابط المجتمعي هو الذي أنتج أمة قوية في شتى المجالات، ولكون المجتمع الإسلامي الأول يمثل عصبه الأمة الواحدة، في ظل منهج دستوري قرآني نبوي متأصل ومتجذر في النفوس والقلوب، ومسيطر على العقول والأفكار، فإن المجتمع الإسلامي كان نتاجه إيجابياً في التجاوب مع المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي وقعت بعد وفاة النبي ﷺ، وكان لذلك الأثر البالغ في الطريقة التي بنى من خلالها مجتمع الصحابة وطنهم، وإن اختلفوا في الطرق والأفكار والاستراتيجيات، إلا أن الوطن والعصبه الاجتماعية الواحدة كانت الهاجس الوحيد، الذي يجتمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم ولا يختلفون فيه.

لقد كان الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ المؤسسين للمجتمع الإسلامي الفذ، والذي تميز بتمسكه بالمبادئ الإسلامية الإنسانية في كافة الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية كافة، ولقد كان لهذا المجتمع المسلم المتمسك بالقرآن والسنة - اللذين هما أصل الخير في الأمة - الأثر البالغ في انعكاساته الإيجابية في بناء المجتمع الواعي بأهمية الوطن وحمائته من كل ما من شأنه أن يمس كيانه الواحد، ولقد كان ذلك واضحاً من خلال رجوع الأنصار إلى رأي المهاجرين في قضية اختيار الخليفة، حفاظاً على تماسك المجتمع المسلم وحمية الوطن من التفكك والانزلاق إلى مهاوي الصراع<sup>(١)</sup>.

١- يُنظر: الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. (بيروت: دار الكتاب العربي، ط ١. ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ج ٣، ص ٥٥.

من جهة أخرى، يظهر في هذا الجانب الاستيعابي لأهمية الوطن وحمايته لدى جمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار - رضوان الله تعالى عليهم -، حيث إنهم عدلوا عن آرائهم إلى رأي ثلثة من المهاجرين - رضوان الله تعالى عليهم -، واستوعبوا أهمية الاجتماع على رجل عظيم مثل أبي بكر الصديق - رضي الله تعالى عنه -، يمكنه القيام بما يتوجب عليه من رعاية شؤون المسلمين، والقيام بواجباته التي يحتمها عليه الواجب الإسلامي تجاه رعيته وتجاه الوطن وحمايته<sup>(١)</sup>.

ومن الانعكاسات الإيجابية للواقع الاجتماعي للمسلمين في العصر الأول هو التزامهم جميعاً بالسمع والطاعة والانقياد في المعروف، والانتقاد البناء للخليفة، إذا ما تجاوز في إدارته لشؤون الأمة سهواً، أو نسياناً، أو اجتهاداً، قدم فيه المفضل على الفاضل، أو لم يصب فيه الحق، وسرعان ما يرجع إذا ما بان له الحقيقة في ذلك، وعدم مناصبته العداء والخروج عليه وإثارة النعرات والزوابع والفتن التي تضر بالوطن وأمنه وسلمه واستقراره، وتدمر النسيج الاجتماعي الذي يعد نواة الوطن وحمايته ومصدر أمنه وقوته واستقراره وازدهاره ورفاهيته.

### المطلب الثاني: التماسك الاجتماعي مقوم من مقومات حماية الوطن

كما تقدم أن المجتمع المسلم الأول في عصر الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم-، كان يحظى باهتمام متميز في تماسكه وقوته، كونهم التزموا بالكتاب والسنة، التي صاغت المجتمع الإسلامي في بوتقة واحدة، تحت راية الإسلام، وألغت جميع الفوارق الطبقية التي من شأنها أن تشحذ الكراهية والحقد بين المجتمعات، وتؤثر سلباً في حماية الوطن وأمنه واستقراره، وتذكي روح العصبية المقيتة، ولقد جعلت الأخوة الإسلامية من المبادئ الإسلامية العليا، لكونها من أوثق عرى الإيمان، فالتزم المجتمع المسلم بهذه المبادئ الإسلامية الراقية، التي جمعتهم بعد تفرق وجعلت منهم كياناً مسلماً واحداً، لا يتطرق إليه الشقاق والنزاع والتعصب والتباغض والحصام والفصام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أخبره: أن رسول الله ﷺ قال: "المُسلِمُ أخو المُسلِمِ، لا يَظْلِمُهُ ولا يُسلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ

١- يُنظر: الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١. ١٤٠٧هـ).

ج ٢، ص ٢٤١.

كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>.

إن هذا الحديث النبوي الشريف يمثل الرابطة الإسلامية المتينة التي جعلت منهم مجتمعاً موحداً متماسكاً قوي الأواصر والروابط، أنتجت وئاماً وسلماً واستقراراً للوطن، ليس له مثيل في عالم الإنسانية جمعاء، فلقد كان لذلك الأثر البالغ في الطريقة التي كانوا يتعاملون بها مع بعضهم بعضاً، كما مثل الجانب الاجتماعي الرائع في توافقه وتكامله وتأخيه وتعاطفه جانباً آخر في بناء الوطن وحمايته.

### المبحث الرابع: الجانب الاستراتيجي المؤسسي مقوم من مقومات حماية الوطن

الجانب الاستراتيجي المؤسسي يتمثل في بناء المؤسسات الهادفة التي تعمل على حماية الوطن والحفاظ عليه، فمن خلال بناء المنظومة التأهيلية والتعليمية والتثقيفية الاستراتيجية، التي تستهدف الشعب والمجتمع، وتغرس فيهما القيم الراسخة التي تقوي الجوانب الإيجابية وتخدم الوطن، وتقوي أواصر المجتمع، وتبعدهم عن الممارسات التي من شأنها أن تؤثر سلباً في الوطن وترابط المجتمع، وحتى لا تنعكس تلك الممارسات على سكينه الوطن وأمنه واستقراره، يتحتم العمل بشكل كبير في الجانب التأهيلي الاستراتيجي.

إن الاهتمام بالجانب التربوي التثقيفي للشعوب في جوانب معينة تُعد من أفضل الضمانات على الإطلاق في حماية الأوطان في السنة النبوية، من التفسخ الداخلي والتآكل المجتمعي الذي يمثل سبباً رئيساً في تفشي ظاهرة ضياع الأوطان جراء ضعف القيم الثقافية الاستراتيجية والحضارية، لأن الإنسان إذا كان بمقدوره الاحتيال على القانون والدستور، فإنه يصعب عليه الاحتيال على الوازع النفسي الخلقي الإيماني المكرس بمراقبة الخالق سبحانه وتعالى، ذلك أن سلطان النفس - إذا ما أحسن صناعته وصياغته - كان أقوى من سلطان القانون، وهذا هو سر تميز التشريع الإسلامي في نُظمه ومبادئه وتشريعاته بتضمنه أساسين مهمين: أولهما المراقبة الذاتية، وثانيهما المراقبة الخارجية؛ فالمراقبة الذاتية، أساس صناعتها في النفس البشرية هو العلم والوعي والثقافة الواعية والمعرفة العميقة، ما يثمر عن الإيمان والتقوى والخلق النبيل، وهذا منحى استراتيجي طويل الأمد يصب في

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. كتاب المظالم. باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه. ح/٢٤٤٢. مصدر سابق.

صالح الوطن وحمايته وأمنه واستقراره ورفاهيته وبناء حضارته.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ يَوْمًا بَارِزًا لِلنَّاسِ، إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ بِمَشْيِي، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ<sup>(١)</sup>.

والمراقبة الخارجية هي مراقبة السلطات القانونية للفرد الذي يشذ عن المجتمع الصالح بتصرفاته المشينة التي تؤثر سلبًا في المجتمع والوطن، وهذه المراقبة القانونية يجب ألا تتسامح مع من يعبت بأمن الناس واستقرارهم ورفاههم<sup>(٢)</sup>.

وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - بابًا في إثم من آوى محدثًا<sup>(٣)</sup>، وقد لعن النبي ﷺ من آوى محدثًا كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي الطفيل، قال: قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ: أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسْرَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: مَا أَسْرَ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسُ، وَكَيْفِي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ<sup>(٤)</sup>.

والمحدث هو من اقتحم سلم الناس وأمنهم واستقرارهم، وأشاع فيهم الفتن وأقلق سكينتهم العامة، وبث فيهم الشحناء والبغضاء، وأوردهم هلاك الصراع والحروب والخراب والدمار، وهذا المحدث قد قرنت جريمته الشحناء ببعض الممارسات التي يُعد بعضها شركًا بالله سبحانه وتعالى، مثل الذبح لغير الله، إضافةً إلى مقارنتها بأشد أنواع العقوق وهو لعن الوالدين، ما يدل على حجم الكارثة التي يرتكبها المحدث في حق الوطن والمجتمع وسلمه وأمنه واستقراره.

والتشريع الإسلامي يجمع بين الروح والجسد ويوائم بينهما؛ فالروح هي المراقبة الذاتية التي

١- صحيح البخاري. باب: إن الله عنده علم الساعة، ح/٤٧٧٧. مصدر سابق.

٢- يُنظر: المدرسي، محمد تقي. المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه. (بيروت: دار الجيل، د. ط. ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ص ٢٢٥.

٣- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. مصدر سابق.

٤- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. باب: تحريم الذبح لغير الله. ح/١٩٧٨. مصدر سابق.

يكرسها الإيمان والتقوى والخلق القويم، التي تُعد نتاج العلم والمعرفة الحقيقية، فإذا ما افتقرت هذه النفس إلى المراقبة الذاتية، احتاجت إلى التدخل الخارجي المتمثل في القانون، كما يحتاج الخضوع إلى القانون، فإنه بحاجة من باب أولى إلى وازع نفسي يتعلق بالروح، تدفعه إلى الحرص على مصالح الوطن نظاما وحكومة وشعباً، وهذا الشعور بالمسؤولية يعد من الضمانات العظيمة التي تمنع الأشخاص من الاندفاع إلى الفساد الفردي، الذي يكون أساساً لفساد جماعي رهيب يتأثر بسببه الوطن سلباً، وتنقسم عرى النسيج الاجتماعي ما يؤدي حتماً إلى ضياع الوطن، كما هو حاصل في بعض الدول العربية التي لم تكن الشعوب على ثقافة استراتيجية جيدة تمكنها من تجاوز أي عوامل صراع، ولذلك فإن تلك المجتمعات التي سلّمت قيادتها إلى الجماعات الفتوية ضاعت أوطانها على يديها وأصبحت تحن إلى سابق الأيام التي كانت تعيش فيها في وطن واحد بأمن واستقرار وسلام ووثام<sup>(١)</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الباب قضية المجتمع التي تُعد محور حماية الوطن في السنة النبوية، فإذا ما استقام أمر المجتمع في مسؤولياته وأخلاقياته وسلوكياته، كان ذلك من المقومات الأساسية في بناء الوطن حمايةً وسلاماً وأمناً واستقراراً على الوجه المطلوب، وإذا ما كان المجتمع بعيداً عن السلوكيات اللائقة، أضر ذلك سلباً في الوطن وسلمه وأمنه واستقراره.

ولقد حرص النبي ﷺ في معالجة بعض المؤثرات الخارجية التي قد تؤثر في سلوكيات الأشخاص، وتؤثر بدورها في المجتمع والوطن برمته، ومن ذلك الحياة في بيئة قاسية كالبادية كما ورد من حديث عبد الله بن عباس، عن النبي ﷺ قال: "مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتَتِنَ"<sup>(٢)</sup>، القراءة الاستراتيجية لهذا الحديث النبوي الشريف تؤدي إلى معرفة مدى تأثير الإنسان ببيئته ومجتمعه اللذين يعيش فيهما، فالإنسان الذي يعيش في مجتمع عنيف شديد، غالباً ما يظهر أثر ذلك في شخصيته، ولذلك فإن حديث النبي ﷺ اشتمل على النهي عن الرجوع إلى البادية بعد التمدن، التي غالباً ما تكتسب منها الشخصية القاسية الشديدة في التعامل مع الآخرين، وربما تكون هذه الشخصية عنيفة في ردة أفعالها، ما يقوي جانب الخطر

١- يُنظر: المدرسي، محمد تقي. المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه. ص ٣٣٠. مصدر سابق.

٢- الشيباني، أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد. تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. باب: مسند عبد الله بن عباس، ح/ ٣٣٦٢.

على المجتمع والوطن وحمایته من نتائج الجفوة والشدة.

وقد أشار أكثر فلاسفة علم الاجتماع إلى دور المجتمع في التأثير السلبي، أو الإيجابي في خصائص الأشخاص وصفاتهم، سواء أكانوا صالحين، يهتمون لأمر أوطانهم وحمایتها وسلمها وأمنها الاجتماعي والمدني، أم فاسدين يعملون على تدمير نسيج الأوطان الاجتماعي وأمنها وسلمها المدني، وذلك إنما تعكس تصرفات حالة المجتمع الأخلاقية والثقافية<sup>(١)</sup>.

### المطلب الأول: الجانب المؤسسي في صناعة المرجعيات مقوم من مقومات حماية الوطن

إن العالم الإسلامي اليوم، تعتريه كبوات قاسية أدت إلى انفصام في عراه الاجتماعية والسلوكية والمنهجية والفكرية، وقادته بعيداً عن الاجتماع والائتلاف، والسلم المدني والاجتماعي والوطني، وأدت بدورها إلى تفشي حالات الإرهاب والجريمة، مما أصاب الأوطان بتمزقات خطيرة، وهذا ما يحتم على الحكومات أن تبني استراتيجية المرجعيات للناس للرجوع إليها في القضايا التي تمهمهم، ويتحتم على الناس أن يحتضروا من هذه العواصف الهيجاء بالمرجعيات المتخصصة والمجتهدين والمستوعبين لما يجري هنا وهناك في أوطانهم والعالم، وألا ينحروا وراء كل ناعق، وإنما يحتضروا بحمي العلم الرصين والفهم العميق والثقافة الإيجابية الواعية والحكمة السابعة التي تقدر الأمور بقدرها، وتعطي كل حادث حقه ومستحقه.

الجدير ذكره في هذا الصدد، أن تعدد المرجعيات، وكثرة الجماعات، قد يكون فيها سلبيات قاتلة تؤثر في الوطن والتماسك المجتمعي، وذلك إذا كانت تلك المرجعيات تحمل أيديولوجيات ذات توجهات مختلفة عن بعضها بعضاً، ولديها مشاريع سياسية خاصة بها، ما ينذر بكارثة مجتمعية يكون سببها تعدد المرجعيات وكثرة الجماعات، ولذلك فإنه يجب أن تكون المرجعيات واحدة ذات هدف واحد، وهو خدمة الوطن وسلمه واستقراره وتماسكه، بحيث يكون الوطن هو المحور الأساس الذي لا يختلف عليه اثنان، وإن أي قضية تثور من شأنها التأثير السلبي في الوطن، والتماسك الاجتماعي، فإنه يجب التوقف عندها تغليباً للأولويات والثوابت التي يجب ألا يستهان بها؛ فالوطن من الثوابت التي لا يُقبل التلاعب بها أو الاستهانة بشأنها، ومن هنا فإن إيجاد مرجعية

١- يُنظر: السمالوطي، نبيل محمد توفيق. المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي. (جدة: دار الشروق. د.ط، د.س) ص ٦٣.

للناس تكون متفقة حول الثوابت والأوليات تُعد من الأهمية بمكان، حتى لا ينفلت زمام الأمور، وتصبح القضايا الحساسة التي تؤثر في الوطن سلبيًا وإيجابيًا في مهب الآراء والتلاعبات الفكرية والإيدلوجية.

ولذلك فإن الإسلام حرص على أن وجود مرجعيات يعود إليها الناس في شؤونهم، وما أهمهم من الأمور، وخاصة المصرية منها، وذلك من القواعد العظيمة في التشريع الإسلامي أن القول في مسألة بغير علم يُعد من كبائر الذنوب والمعاصي، التي قُرنت بالشرك بالله سبحانه وتعالى. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ {الأعراف: ٣٣}.

وقد استنكر النبي ﷺ على جماعة من الناس اقتحامهم لأمر لا يعرفونه، فأفتوا فيه، وكان نتاج ذلك موت نفس كما جاء عن الأوزاعي، قال: بلغني أن عطاء بن أبي رباح، قال: "أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، يُخْبِرُ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَهُ جُرْحٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ أَصَابَهُ احْتِلَامٌ، فَاعْتَسَلَ فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ"<sup>(١)</sup>. وإن كان الحديث فيه خلاف بين العلماء في التصحيح والتضعيف، إلا أن الاستشهاد به في هذه القضية يوافق الأصول العامة للشريعة الإسلامية، التي تؤكد حرمة القول على الله بلا علم، وهذا رافد يؤكد أن معنى الحديث يصب في خدمة هذه القضية، ولذلك فإن التعنيف الشديد الذي نص عليه الحديث، إنما كان في قضية تتعلق بشخص واحد أدت إلى وفاته جراء اقتحام بعضهم للفتيا دون علم، فمن باب أولى ألا يتصدر للقضايا العامة للوطن وللمجتمعات والدول والشعوب، إلا المرجعيات المتفق عليها، والمعروفة بعلمها وتخصصها وقدرتها على دراسة الوقائع والأحداث، ومعرفة مصالحها ومفاسدها ومآلاتها.

والواقع خير شاهد، فحينما كثرت الجماعات وأصبح لكل جماعة مرجعية مستقلة عن

١- المؤلف المستدرك على الصحيحين - كتاب الطهارة- باب: كيف يفعل من احتلم وبه جراحة. ح/ ٦٣٥. وروي هذا الحديث من طريقين: من طريق الأوزاعي عن عطاء به، وهذا هو أمثل إسناد للحديث، ومن صحح الحديث وإنما صححه لأجل هذا الإسناد، وهو إسناد معلول، وعلته الانقطاع بين الأوزاعي وعطاء. والطريق الثاني عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، أما رواية هذا الحديث عن جابر فإنه لا يصح.

المرجعيات الوطنية، تفتشت الظواهر السلبية في تلك المجتمعات وتراكت على مدار عشرات السنوات، حتى أصبح لكل جماعة مساجدها الخاصة وأتباع وشعار وأهداف، بل أصبح لكل جماعة كيان مستقل بذاته في وطن واحد، وبعد هذه التراكمات الخطيرة التي أفرزت صراعاً مريراً وخطيراً أدت بدورها إلى ضياع بعض الأوطان.

### المطلب الثاني: استراتيجية التأهيل الإيجابي مقوم من مقومات الوطن وحمائته

التأهيل الإيجابي يتمثل في إتاحة الفرصة للشعوب والمجتمعات في التعرف عن كثب على الثقافة المدنية السليمة والصحيحة والمناسبة للحالة المجتمعية التي يعيشونها، ومحاولة تطوير نوعية التفكير الإيجابي للقضايا الاجتماعية والمدنية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنه يجب على الناس التعرف على الأشياء التي سوف يخوضون فيها، عن طريق السماع والاطلاع والقراءة للمتخصصين، وسؤالهم فيما استشكل من الأمور، ولذلك فإنه من الملاحظ المفارقات الكبيرة بين الدول التي تتمتع شعوبها بثقافة عالية، والشعوب التي تستلهم مواقفها من الجماعات النخبوية، التي تحركهم بناءً على ما تمليه عليهم مصالحهم ومطامحهم، وقد أشار ابن عاشور إلى شيء من هذا في خاتمة كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام<sup>(١)</sup>.

وقد أشار الطوفي إلى أهمية الرجوع إلى أهل الاختصاص في كل فن، ذلك أن المعتبر هو اجتهاد أهل كل فن دون غيرهم، فأهل السياسة يعتد بقولهم فيما هم مختصون به، وكذلك أهل الطب وأهل الاجتماع وأهل الاقتصاد، فلا يُسَوَّغ بحال التَّطُّفُّل ممن ليس له درية ودراية باختصاص معين، وإلا حصل الفساد، وارتكبت المحاذير، وكان ذلك سبباً مباشراً في الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي وضياع الأوطان، وهو الحاصل في عصرنا الحاضر في بعض البلدان العربية دون موارد<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان التشريع الفقهي الإسلامي يُوجِبُ على العبد أن يتعلم ما تستقيم به أمور دينه نحو

١- يُنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. (عمان: دار النفائس، ط ١.

١٤٢١هـ/٢٠٠١م). ص ٣٦٣.

٢- يُنظر: الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن الكريم. شرح مختصر الروضة. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١.

١٤٠٧هـ/١٩٨٧م). ج ٣، ص ٣٣.

الصلاة وما يتعلق بها من شروط ونواقض وأركان وواجبات وسنن، وغيرها من العبادات، وهو شأن خاص بالعبد في نفسه، ولا يتعدى النَّفع إلى الغير إلا في مساحة تهذيب النفس، فإنه من باب أولى أن تتوجه العناية والاهتمام بالتعليم والتثقيف إلى الأمور التي تتعلق بالشأن العام، ويؤثر على سلم الوطن واستقراره في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية، ولا يصلح أمر المجتمع والدولة والشعوب إلا به.

### المطلب الثالث: استراتيجية تجنب الثقافة السلبية كمقوم من مقومات الوطن وحمايته

تجنب الثقافة السلبية، تُعدُّ من أهم العوامل التي تؤدي إلى ضمان حماية الأوطان واستقرار البلدان وبناء السلم المدني والمجتمعي في شتى الجوانب، كون التغذية الثقافية السلبية يكون أثرها كارثيًا على المجتمعات والشعوب، وتؤدي إلى استقطاب حاد بين المكونات المذهبية والسياسية والعرقية في الدولة الواحدة والمجتمع الواحد، وتُندر التغذية الثقافية السلبية بتفَسُّخ مجتمعي حاد وخطير، يؤدي إلى الصراع المميت، وهو ما يُندر بفشل مدني ومجتمعي ذريع، يؤدي إلى فقدان الدولة ومؤسساتها، وتنقلب الأمور إلى فوضى عارمة وفتن مدلهمة تنهاوش فيها الجماعات والأحزاب على النفوذ والسيطرة بقوة السلاح، لا بقوة الفكر والبرامج التنموية الإصلاحية، ويكون السلاح هو البديل للسيطرة، وليس الفكر والعلم والثقافة.

وقد حث النبي ﷺ على أهمية التأهيل الإيجابي للناس، وأثر ذلك التأهيل الإيجابي على حياة الناس ومجتمعاتهم وسلمهم وأمنهم وصلاح أوطانهم، كما جاء من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِرَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا، أَخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُحَافًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"<sup>(١)</sup>، وهذا ظاهر للعيان حينما تعددت المصادر السلبية للثقافة والتلقي لدى بعض الشعوب العربية، فكان نتاج ذلك التحجيش الشعبي في بعض بلدان الوطن العربي والاستقطاب الحاد بين الجماعات والأحزاب من أجل أحداث معينة تصنعها بعض النُخب الفكرية والسياسية، وتجد ميدانًا واسعًا لاستقطاب الأنصار، وتحجيش الأتباع ضد القوى المنافسة، فيحتمد الصراع، وتضيع الأوطان، وتذهب ضحاياه آلاف الناس، وهذا نتاج غربة الشعوب عن

١- البخاري، محمد بن إسماعيل. صحيح البخاري. باب: كيف يقبض العلم. ح ١٠٠. مصدر سابق.

الوعي والعلم والثقافة، وقلة اهتمامهم بالمنهج القرآني والنبوي اللذين يعدان الحصانة الأساسية للشعوب والمجتمعات من استغلال النُخب الفكرية التي لا تأبه بأهمية الأوطان وأمنها واستقرارها إلا في محيطها الضيق ومصالحها الخاصة وهو ما يمثل تهديداً خطيراً ومباشراً لحماية الوطن وأمنه واستقراره وحضارته.

#### المطلب الرابع: استراتيجية الحضرة الإيجابية للثقافة السلبية مقوم من مقومات حماية الوطن

الحضرة الإيجابية يتمثل في الحد من قدرات التغذية الثقافية السلبية والتي يكون مؤداها في الغالب إلى فساد ذات البين والتأليب على المخالف، ونشر ثقافة الحقد والكراهية بين فئات المجتمع، وتناول المواضيع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في إطار طائفي ممنهج، يؤدي إلى التنازع والصراع والافتتال، إضافة إلى نشر ثقافة الجماعة الواحدة والحزب الواحد والمشروع الواحد وعدم قبول الآخر، وهذه الثقافة تهدد السلم المدني للمجتمع والوطن والدولة، وتسبب الاحتقان والصراع والاحتراب والتجزئة للوطن وللمجتمع والدولة الواحدة، كما أنها تُعد تهديداً خطيراً للوحدة الوطنية في أي بلد من البلدان.

وفي الغالب فإن الذين ينتهجون هذا الجانب من الثقافة يجهلون المآلات التي تسببه تغذيتهم الثقافية للمجتمعات والشعوب، ولذلك فإنه ينبغي منع من ليس له أهلية من الحديث فيما ليس من اختصاصه، سداً لما قد يحدث من فتن ومصائب تضر بالوطن وحمائته، وبالنسج الاجتماعي للشعوب والدول، وتحدث شرخاً كبيراً بسبب جهالة أولئك الذين يتصدرون للحديث في الأمور الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، ويولدون جهلاً مركباً يعشعش أثره السيئ في نسيج المجتمعات، ويفرز تشظيلاً مجتمعياً وانشطاراً مجتمعياً وسياسياً كبيراً يؤدي إلى هلاك الأوطان والمجتمعات، وتفشي ظواهر الاستقطاب السياسي والطائفي الحاد الذي يكون سبباً مباشراً في نكسة الأوطان والمجتمعات والدول والشعوب لعقود طويلة. كما هو حاصل في مجتمعات العالم الثالث وخاصة في بعض الدول العربية. قال الله تعالى: ﴿ هَتَأْتُمْ هَوَؤَلَاءِ حَاجِبَةً فِيمَا كُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٦].

الجدير ذكره، أنه حينما تتعرف الشعوب على مكانة العلم وأهله، فإنهم لن يألوا جهداً في أخذ الحقائق الواقعية فيما يتعلق بالأمور الاجتماعية السياسية والاقتصادية، وغيرها من أصحابها المتجذرين والمتعمقين فيها، فيتم بذلك تخصيص الدول والشعوب والمجتمعات من أنصاف المتعلمين والجهال الذين يفسدون أكثر مما يصلحون ويهدمون الأوطان والمجتمعات وسلمها وأمنها واستقرارها وحضارتها.

وإن المنهج الإسلامي قد حرص تمام الحرص على ألا يتصدر إلا أهل الاختصاص، وعدد التَّطَفُّل على العلم من أشد أنواع المخالفات الشرعية التي تستوجب المساءلة في الدنيا والآخرة، لأنه تتوقف على ذلك مسؤوليات عظيمة. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (٣٦) { الإسراء: ٣٦ }.

#### المطلب الخامس: استراتيجية التأهيل الاجتماعي مقوم من مقومات حماية الوطن

إن نواة الأوطان هي المجتمعات، والمجتمعات تتألف من مكونات قبلية وفكرية ومذهبية ودينية متنوعة، ومتى ما كان الحس الاجتماعي مفقوداً بين هذه المكونات المختلفة في مشاربها ومذاهبها، فإن آصرة المجتمع الواحد تقع تحت خطر التآكل والتفسخ والتفتت، وتصبح التعددية الاجتماعية والفكرية آفة خطيرة على استقرار تلك المجتمعات، حينما تفتقر تلك المجتمعات إلى التأهيل الاستراتيجي الاجتماعي، التي تنبني على المسؤوليات المتبادلة بين فئات تلك المجتمعات المختلفة، من خلال تقبل الآخر والعمل على تحجيم هوة الخلاف، ورتق الشقوق التي تُحدثها الخلافات الفكرية والمذهبية والسياسية، حتى لا يتحول الوطن إلى ميدان صراع بين تلك الجماعات والقبائل، فيؤدي ذلك إلى تآكل المجتمع تحت نير الصراعات الطائفية والأثنية والعشائرية<sup>(١)</sup>.

والأوطان في غالبها مكونة من فئات وأجناس ومشارب ومذاهب مختلفة، وهذا بدوره يجعل تلك الأوطان قابله للصراع، ولذلك فإن بناء استراتيجية التأهيل الاجتماعي تُعد من الأولويات المهمة التي تصب في حماية الوطن، بتنمية ثقافات: الوطن الواحد، والدين الواحد، والمجتمع الواحد،

١- يُنظر: عبد الباقي، زيدان. علم الاجتماع الإسلامي. (د.م: مصبعة السعادة، ط ١. د.س). ص ٢٠.  
ويُنظر: عبد الواحد، مصطفى. المجتمع الإسلامي. (جدة: دار البيان العربي، ط ٣. ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م). ص ١٤.

بحيث يكون الدين والوطن والأمة هي الصبغة الواحدة التي لا يمكن أن يُفترق فيها المجتمع، حتى يبقى متآلفاً متحداً متكاملًا مع بعضه، ولو اختلفت بهم الأجناس والأفكار والمذاهب والأديان، فإنهم يتحدون جميعاً في إعلاء قيمه الأساسية التي تجمعهم وهو الدين والوطن والأمة، وهذا بدوره يمثل حقيقة حماية الوطن من الشروخ الداخلية التي تعد أخطر من العدوان الخارجي على الوطن<sup>(١)</sup>.

ومن هذا المنطلق فقد حرص الإسلام على إعلاء قيمة الحاسة الاجتماعية في أكثر من موضع. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ {آل عمران: ١٠٣}.

والآيات التي تحث على الوحدة والاعتصام كثيرة، وأكثر من ذلك ما ورد عن النبي ﷺ قولاً وعملاً، فقد كان من الأولويات التي حرص عليها النبي ﷺ بعد هجرته المباركة، العمل على بناء الاستراتيجية الاجتماعية، والتي تُعد أساس بناء أي وطن قوي صالح راق مستقر متحضر<sup>(٢)</sup>، ولقد عمل النبي ﷺ في هذا الصدد من خلال خمس مراحل:

**المرحلة الأولى: استراتيجية التقريب بين الأوس والخزرج من أجل وطن واحد: عمل النبي ﷺ على التقريب بين الأوس والخزرج، وتنمية حاسة المسؤولية تجاه الوطن الواحد وحمانيته، من خلال إعلاء أواصر الأخوة الإسلامية، وجعلها من الثوابت الأصيلة في بناء الوطن وحمانيته وسلمه المدني والاجتماعي، إضافة إلى التخلية من رواسب الماضي المليء بالنزاع والصراع والثأر<sup>(٣)</sup>.**

**المرحلة الثانية: استراتيجية العمل على ترسيخ مبدأ الأخوة والتعاون بين المهاجرين الأنصار:** كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار من الأولويات التي تُعد ركيزة أساسية ومقوماً أساساً من مقومات حماية الوطن، ولقد لاقى اهتماماً عظيماً من النبي ﷺ لدى وصوله المدينة،

١- يُنظر: أبو زهرة، محمد. تنظيم الإسلام للمجتمع. (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ط. ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

ص ١٤.

٢- يُنظر: الكعكي، يحي أحمد. معالم النظام الاجتماعي في الإسلام. (بيروت: دار النهضة العربية، د. ط.

١٩٨١م). ص ١٨.

٣- يُنظر: المصدر السابق. ص ٢٠.

في طريقه لبناء الوطن المتماسك، الذي يعلي مصلح العامة، وتنصهر كل مصالحه في بوتقة الوطن الواحد المتماسك، فأصبحوا على اختلاف أجناسهم وبلدانهم يمثلون وطنًا واحدًا يحمونه ويعملون جاهدين على إعلاء قيمة الوطن وحمائته، فكُونُوا مجتمعًا متماسكًا تسوده المحبة والأخوة والوئام تكون ذلك من الركائز والأسس الضرورية لبناء الوطن وحمائته<sup>(١)</sup>.

### المرحلة الثالثة: استراتيجية التغاضي عن أعمال المنافقين وعدم الإفصاح عن أسمائهم أو قتلهم:

حرص النبي ﷺ على الوطن الواحد وحمائته بالتركيز على الاستراتيجية الاجتماعية لدى المسلمين، والحفاظ على النسيج الاجتماعي الواحد في المدينة، على الرغم من وجود أجسام غريبة فيه لا تؤمن بما يؤمن، وتعمل على خلخلة الوطن والمجتمع الإسلامي من الداخل، ولقد أشار القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى هذا الجسم الغريب الذي يتظاهر بالإسلام ويُيطن الكفر، من أجل التَّيْل من الوطن وحمائته والمجتمع الإسلامي، وذكر القرآن أوصافهم، لكن النبي ﷺ حرص على سِرِّيَّة أسمائهم من أجل الحفاظ على الوطن وحمائته من التفكك والصراع والانقسام، بل إنه عمل جاهدًا على تنمية مسؤولية الحفاظ على الوطن وحمائته بين أصحابه، فلم يسمح بفضحهم أو مضايقتهم، أو قتلهم، وذلك لحرص النبي ﷺ التام على أن يبقى مجتمع المدينة مجتمعًا متماسكًا تسوده الوحدة بعيدًا عن الصراع البيني في وطن واحد قوي ومتماسك، وهذا يمثل العنصر المهم في حماية الوطن وبناء سلمه وأمنه واستقراره وحضارته.

### المرحلة الرابعة: استراتيجية عد اليهود من الوطن الواحد:

يختلف اليهود عن المسلمين في الدين والثقافة، ولكن بوصفهم مواطنين يُشاطرهم المسلمون السكنى في المدينة المنورة، فإن النبي ﷺ لم يُغفل هذا الجانب، بل قام بعمل عظيم في عدِّ اليهود مكونًا أساسًا من مكونات المجتمع المدني والوطن الواحد، فعمل على تنظيم هذا المجتمع والوطن المختلف في دينه وجنسه وثقافته، من خلال التركيز على الاستراتيجية الاجتماعية التي تضمنتها صحيفة المدينة، التي كانت مثالًا رائعًا في ترتيب العلاقة بين فئات مجتمع المدينة المختلفة، وإشعار كل فصيل على مدى المسؤولية التي تقع على عواتقهم، في الحفاظ على تماسك الوطن وحمائته،

١- يُنظر: ابن عاشور، محمد الطاهر. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام. ص ١٩٢. مصدر سابق.

والدفاع ضد أي خطر داخلي أو خارجي يهدده، ويستوي في تلك المسؤولية كل من سكنوا المدينة لكونهم يمثلون المجتمع الوطني الواحد، وهذه هي الاستراتيجية الاجتماعية التي تعد من المقومات الرئيسة في بناء الأوطان وحمائتها والحرص على سلمها وأمنها واستقرارها وتطورها<sup>(١)</sup>.

من خلال السرد المتقدم لما كان عليه مجتمع المدينة المتعدد الأجناس والديانات، ودور النبي ﷺ في الحفاظ على الوطن وحمائته وبناء سلمه، وتنمية المسؤولية الاجتماعية لدى أفراد مجتمع الوطن الواحد في المدينة على اختلاف أجناسهم ودياناتهم، يتضح بجلاء أهمية الاستراتيجية الاجتماعية في بناء حماية الأوطان، حتى يسودها الوئام والتفاهم والتقارب وقبول الآخر، والبعد عن الإقصاء والصراع والتعصب الطائفي والمناطقية والفكرية والقبلي، فالاستراتيجية الاجتماعية، تعد من أهم مقومات حماية الوطن والحفاظ على سلمه وأمنه واستقراره، والعمل على تطوره في المجالات والأصعدة والميادين كافة.

#### المرحلة الخامسة: استراتيجية العفو من أجل الوطن وحمائته:

هكذا بدأ النبي ﷺ الحياة الجديدة في مكة، بالعفو العام عن الذين طالما آذوه، وعذبوا أصحابه، وطرده وقاتلوه، غير أنه ﷺ، لم يُبعث من أجل الانتقام لشخصه الكريم، ولا لأصحابه العظماء، وإنما بعث رحمة للعالمين، فكان من ضمن الاستراتيجيات التي اتبعها النبي ﷺ في بناء الوطن وحمائته من التصدع والانحياز، هو العفو والصفح وفتح صفحة جديدة من أجل قيمة عليا هي الوطن، ولذلك فإنه ﷺ، حينما دخل مكة فاتحاً نشر السلام والأمان بين أهلها فقال ﷺ: "مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السَّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ.." <sup>(٢)</sup>.

من جهة أخرى، فإن النبي ﷺ لم يضع من مكانة زعماء مكة أو ينتقص من حقوقهم، في حين أنهم كانوا هم من ألبوا عليه وقاتلوه وآذوه أشد الإيذاء، وإنما حفظ لهم مكانتهم، ووشحهم ببعض الأوسمة التي جعلت منهم أعواناً للحق، وأنصاراً للدين والشرعة، ومجاهدين فاتحين، وأئمة يهتدى بهم، فكان من ثمار ذلك بناء وطن متماسك قوي ضرب بأطنابه في أعماق التاريخ، ومثل نموذجاً رائعاً في كيفية بناء الأوطان وحمائتها بالعوامل والاستراتيجيات الحضارية والضرورية لبقائها وديمومتها.

١- يُنظر: المصدر السابق. ص ٤٠.

٢- القشيري، مسلم بن الحجاج. صحيح مسلم. باب: فتح مكة. ح ١٧٨٠. مصدر سابق.

## النتائج

هدفت هذه الدراسة الموسومة بـ: "حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية" إلى تقديم دراسة تأصيلية وصفية من خلال النصوص القرآنية والنبوية وأسهمت في التحليل النظري والواقعي لما من شأنه خدمة الوطن والحفاظ عليه وحمايته. وتوصلت إلى بعض النتائج التي تُعد من الركائز الأساسية في الأوطان والمجتمعات وهي:

- أولاً: التركيز على بناء السلوكيات الأخلاقية للمجتمعات والأفراد بما يتناسب مع الطبيعة المدنية والخلفية الاجتماعية والدينية لهم بوصفها ركيزة أساس في الحفاظ على الوطن وحمايته.
- ثانياً: التركيز على أهمية المجتمع المتماسك والمتعاون في حماية الوطن.
- ثالثاً: أهمية التأهيل الإيجابي والاستراتيجي للمجتمعات والأفراد من أجل حماية الوطن.
- رابعاً: تُعد الثقافة السلبية من العوائق الخطيرة التي يكمن فيها خلخلة الوطن وسلمه الاجتماعي وأمنه واستقراره.
- خامساً: أهمية تحديد مرجعيات موحدة للشعوب والمجتمعات لأن تفشي ظاهرة اختلاف المرجعيات الدينية والوطنية تسبب كوارث اجتماعية تكون سبباً في تأزم علاقة المجتمع ببعضه البعض ما يهدد الوطن الواحد وسلمه وأمنه واستقراره.
- سادساً: أهمية تحديد الأولويات التي تصب في خدمة الوطن، وإن أي قضية تثور من شأنها التأثير السلبي في الوطن وسلمه الاجتماعي، فإنه يجب معالجة أسبابها وآثارها مما يعود بالنفع في الوطن وأمنه وسلمه واستقراره.
- سابعاً: أهمية التغذية الثقافية الإيجابية في الحفاظ على الوطن وحمايته من الأيدي العابثة المتربصة.

### التوصيات:

- يوصي الباحث اعتماد مركز دراسات يقوم على استخراج جميع الأحاديث والنصوص الشرعية التي تخدم الوطن وتحت على حمايته، ودراستها دراسة تستوحي الجانب الأخلاقي والاجتماعي والاستراتيجي، وذلك لبناء منظومة متكاملة، هدفها الحفاظ على الأوطان والسلام والأمن والاستقرار في البلاد العربية والإسلامية والعالم أجمع.
- يوصي الباحث بالتركيز على الجوانب المتفق عليها، واعتمادها بوصفها مسلمات ومنطلقات للحفاظ على الوطن وحمايته.

## المراجع:

- أفيقة، محمد، الوطن والمواطنة في القرآن والسنة، رسالة ماجستير جامعة العلوم الإسلامية، قسم العقائد والأديان، الجزائر، ٢٠١٦م.
- الألباني، محمد بن ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، بيروت: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ن.م: دار طوق النجاة، ن.ط، د.ت.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى، سنن الترمذي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان ١٩٨٦.
- أبو زهرة، محمد، تنظيم الإسلام للمجتمع، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: دار الهداية، د.ت.
- السمالوطي، نبيل محمد توفيق، المنهج الإسلامي في دراسة المجتمع دراسة في علم الاجتماع الإسلامي، جدة: دار الشروق، د.ط، د.ت.
- الشيباني، أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، د.م: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٠٧هـ.
- الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن الكرم شرح مختصر الروضة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- عبد الباقي، زيدان، علم الاجتماع الإسلامي، د.م: مطبعة السعادة، ط ١، د.ت.
- عبد الواحد، مصطفى، المجتمع الإسلامي، جدة: دار البيان العربي، ط ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، عمان: دار النفائس، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- القشيري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.
- الكعكي، يحي أحمد، معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، بيروت: دار النهضة العربية، د.ط، د.ت.
- ابن منظور، معجم لسان العرب، بيروت: دار صادر، د.ت.

## حماية الوطن في السنّة النبوية ومقوماته ...

---

- المدرسي، محمد تقى، المجتمع الإسلامي منطلقاته وأهدافه، بيروت: دار الجيل، د.ط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.  
مدني إماراتي) تم الاطلاع عليه بتاريخ . (arab-ency.com/law/detail/16428081/1) .  
12/9/2018م.  
[http://www.almostshar.com/Subject\\_Desc.php?Subject\\_Id=4633&Cat\\_Subject\\_Id=34&Cat\\_Id=3](http://www.almostshar.com/Subject_Desc.php?Subject_Id=4633&Cat_Subject_Id=34&Cat_Id=3)  
[https://www.alukah.net/publications\\_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8](https://www.alukah.net/publications_competitions/0/55434/#ixzz5dnPCmOS8)



مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها

دراسة في هدي السنة النبوية

الدكتور / عطا الله مدب حمادي الزوبعي

دكتوراه في الحديث الشريف وعلومه (العراق)





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وآله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين أما بعد؛

تُعد الأوطان المهده والمستقر الذي عاشت وتعيش عليه المجتمعات البشرية عبر عصور التاريخ المتعاقبة والتي أسست بدورها لقيام الحضارات الإنسانية على تلك الأوطان، تلك الحضارات التي ارتقت بالإنسان فكريا واجتماعيا واقتصاديا وصناعيا وانتقلت به من عصر إلى آخر أكثر تطورا، من عصر ما قبل التدوين إلى عصر التدوين، ومن عصر ما قبل الصناعة إلى عصر صناعة الآلات والأواني والنسيج.

واستمرت عجلة تطور الحياة في بعض المجتمعات دون غيرها تسابق الزمن وسجلت السبق في سن القوانين لتنظيم شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وبناء المدن وصناعة العجلات والآلات الحربية المتطورة نسبيا للدفاع عن أبنائها وأوطانها ومكتسباتها.

وعندما ننظر في أسباب قيام تلك الحضارات ومقومات وجودها وطول أعمار بعض منها، نجد أن ذلك مرتبط ارتباطا وثيقا باستقرار تلك المجتمعات أمنيا في أوطانها؛ حيث كلما تيسرت أسباب الاستقرار الأمني للمجتمعات انعكس ذلك إيجابا على تطور الحياة وصرفت الهمم للإبداع والبناء والتنمية، وتنظيم أمور الحياة والكشف عن أممات فكرية واجتماعية جديدة أكثر تطورا وتنظيما للحياة، وهذا الذي نطق به قصص التاريخ وحوادثه وشهدت به آثار تلك الحضارات إلى يومنا هذا.

وعلى العكس من ذلك كلما فقد الأمن في مجتمع من المجتمعات فإن الفوضى تعم فيه وتصبح الأمور بيد سفهاء القوم وأرادلهم، وتشكل على إثر ذلك العصابات التي همها المصالح الشخصية؛ حيث لا تقييم وزنا للإنسان ولا اعتبارا لحرمة الدم والمال فيكثر الهرج والفساد في الأرض، فيقتل العباد وتخرَّب البلاد، وتصبح حياة الناس أشبه بالغابة يأكل القوي فيها الضعيف ويتغيب العدل

والإنصاف وتغتال الحرية وتنعدم الكرامة فلا تبقى أهمية للخصال الإنسانية والسمات البشرية التي فطر الله تعالى الناس عليها من حب للخير والإصلاح، ولا يبقى دور للعقل الذي خص الله تعالى به البشر، هكذا تكون الصورة مظلمة عند فقدان الأمن، وقد عاشتها شعوب وأمم عبر التاريخ وتعيشها اليوم شعوب نكبت بفقدان نعمة الأمن.

وقد كفلت الشريعة الإسلامية حق الدفاع عن النفس والوطن والديار وكذلك القانون الدولي والعرف الاجتماعي، قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِيَّائِكُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠)، فالآية أعطت الحق للمسلمين في رد العدوان على كل من يستهدف أرضهم وخيراتهم، بل أوجبت ذلك وجعلت القتال واجبا دينيا في سبيل الله؛ لأنه يحمي الدين من الفساد والعباد من الاستعباد، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٣٤)، وكفلت المادة (٥١) من ميثاق الأمم المتحدة حق أي دولة في الدفاع عن حدودها إذا وقع عليها عدوان خارجي، وجاءت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية مؤكدة للعرف الاجتماعي الذي عرفته البشرية عبر تاريخها في حق الدفاع وصد الغزاة. قال الفند الزماني:

فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُرْيَانُ  
وَلَمْ يَبَقْ سِوَى الْعُدْوَانِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا<sup>(٣)</sup>

ونحن إذا ما أردنا أن نقيم دولة تزهدها فيها الدعوة إلى الله، ويأمن فيها الدعاة من القتل والحطف والتنكيل، ويقام فيها شرع الله، ويمكن لدينه الذي ارتضاه، وتبنى الحضارة على المفاهيم الإسلامية فلا بد من إيجاد أرض آمنة، ومجتمع قادر على حماية هذه الدولة وصيانة مكتسباتها.

هذه هي الحقيقة التي لا اختلاف فيها والتي تكشف عن العلاقة المطردة بين ضرورة توفر الأمن، وإقامة دين الله التي مفادها ألا قيام لشرع الله في الأرض إلا بالتمكين، ولا تمكين

١- سورة البقرة آية (١٩٠).

٢- سورة النمل آية (٣٤).

٣- أبو علي القالي، الأمالي، ج ١، ص ٢٦٠.

إلا بشيوع الأمن في ربوع الوطن وحماية أرضه وحدوده، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلَيْبُ الْأُمُورِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾<sup>(٤١)</sup>، فجعل الله سبحانه وتعالى إقامة الدين مرتبطا بالتمكين في الأرض.

فان قيل إن الوطن ليس له أي اعتبار ولا أهمية في الدعوة إلى دين الله بدليل الهجرة حيث هاجر الأنبياء من أرض إلى أخرى أكثر أمنا وأفضل استقرارا في إقامة شعائر الله والدعوة إليه، وقد هاجر رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - إلى المدينة المنورة وترك مكة حرم الله وأعظم البقاع منزلة عند الله وأعز البلاد إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -.

قلت: نعم إن الدعوة إلى دين الله في المقام الأول، وهي مقدمة على الأرواح والأموال والأبناء وهي هدف أعلى ونحن نتحدث عن ضرورة تحقيق هذا الهدف الأعلى بالتمكين للدين الذي من أجله خلق الله تعالى البشر، ولأجله سن الله قوانين العدل والإصلاح والثواب والعقاب.

فكيف تُنشر دعوة وتُبنى دولة قائمة بدين الله في بيئة لا يأمن المسلمون فيها على أرواحهم وأموالهم، والأعداء يحيطون بهم من كل جانب، وهذا ما حدث في مكة في العهد الأول للإسلام، فكانت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة رحلة مباركة للبحث عن وطن آمن لتمكين دين الله وعبادته بحرية وأمن وفي المدينة المنورة تأسست دولة الإسلام وانتشرت دعوته في جميع أنحاء الجزيرة العربية ومنها مكة المكرمة.

فالهجرة على هذا المعنى هي ليست مسألة ترك وطن فُقد فيه الأمن والاستقرار فحسب والتوجه إلى أي مكان آخر، بقدر ما هي بحث عن وطن تتوافر فيه مقومات الأمن وتستقر فيه الدعوة إلى شرع الله، ولذلك نجد أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - لم يهاجر إلا بعد أن اطمأن إلى الموطن الجديد كل الاطمئنان بأن الأنصار سوف يحمون المسلمين ويمنعونهم من أعدائهم، كما يمنعون أنفسهم وأهلهم.

ونحن عندما ننظر في كنوز السنة النبوية نجد أنها أسست لصون كرامة الإنسان بالحفاظ على دينه ونفسه وماله وعقله وعرضه، وشرعت الدفاع عن النفس والمال والديار والأرض والمقدسات.

١ - سورة الحج آية (٤١).

وقد بحثت عن الكتابة في هذا الموضوع فلم أجد على حد علمي من كتب فيه بهذا العنوان، ولكن هناك مواضيع بحثية تتعلق بجانب محدود من هذا الموضوع وهي:

١- الإسلام والوطنية للدكتور محمد بن إبراهيم بن حسن السعيدى وقد حاول الباحث ربط مفهوم الوطنية بالإسلام ومعالجة ردة الفعل التي تولدت لدى بعض شباب المسلمين من ربط مفهوم الوطنية بالحركات السياسية القومية العلمانية والتي كان موقفها سلبيا تجاه الإسلام وتعاليمه، وقد أجاد الباحث وأفاد ولكن اقتصر بحثه على معنى الوطنية في الإسلام ولم يشمل الكلام على ما نحن بصددده من تأصيل لمقومات حماية الوطن في السنة النبوية، وذلك التزاما منه بعنوان الموضوع الذي بحثه.

٢- الوطنية وتعدد الثقافات في الفكر الإسلامي للدكتور أحمد بن عبد العزيز الحليبي، وهذا البحث كسابقه حاول الباحث ربط مفهوم الوطنية بالإسلام، وقد تكلم عن الثقافات المختلفة ثم بين أن الثقافة الإسلامية يمكن أن تؤسس لوطنية تجمع تحت خيمتها ثقافات متعددة تعطيها خصوصيتها دون أن تلغيها.

ثم إني وجدت خلطا في بعض الكتابات عن المواطنة والوطنية من حيث المفهوم؛ فبعضهم يعنون للمواطنة ويتحدث عن الوطنية أو العكس، ولا شك أن هناك فرقا في المفاهيم؛ فالمواطنة هي المساكنة وهي رابطة تقوم على القيم والمبادئ الدينية والإنسانية من حسن الجوار، وتنظيم الحقوق والواجبات بالعدل والإنصاف.

بينما الوطنية هي حب الوطن والشعور بالانتماء إليه والاستعداد للدفاع عنه، وعلى هذا فالمواطنة الحقبة الصالحة التي تقوم على العدل والإنصاف تعزز الوطنية وتنمي الشعور بالانتماء للوطن.

وكتيجة لهذه الأمور من جانب، وقلة الكتابة في هذا الموضوع من جانب آخر، تطلب الأمر مضاعفة الجهد للبحث في هذا الموضوع وفق الأهداف التالية: ١- بيان أهمية وجود الوطن الآمن والمحمي ضرورة حتمية لتمكين دين الله وإقامة شرعه، وهذا ما تم الكلام عنه في مقدمة البحث. ٢- الكشف عن مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح. ٣- تأصيل مفهوم حماية الوطن في السنة النبوية. ٤- إبراز دور السنة النبوية في تفعيل وسائل حماية الوطن والدفاع عنه.

## المبحث الأول: مفهوم الوطن في اللغة والاصطلاح

**أولا - الوطن في اللغة:** قال الفراهيدي: الوطن مَوْطِنُ الإنسان ومَحَلُّهُ. وأوطانُ الأغنام: مرابضُها التي تأوي إليها، ويُقال: أَوْطَنَ فلانٌ أرضَ كذا، أي: اتَّخَذَها مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يُقِيمُ بها<sup>(١)</sup>. وقال رؤبة:

حَتَّى رَأَى أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنَّنِي  
أَوْطَنْتُ أَرْضًا لَمْ تَكُنْ مِنْ وَطَنِي<sup>(٢)</sup>

والوَطَنُ والمَوْطِنُ وَاحِدٌ، وَجَمْعُ المَوْطِنِ مَوَاطِنٌ، وَجَمْعُ الوَطَنِ أوطان. والمثل السائر: لَوْلَا الوَطَنُ لَخَرَبَ البَلَدُ السَّوْدُ. والمَوْطِنُ: مَوْضِعُ الوَطَنِ<sup>(٣)</sup>. واستَوَطَنَ هذه البلادَ، أي: تَوَطَّنَها<sup>(٤)</sup>. والوَطَنُ: كُلُّ مَكَانٍ قَامَ بِهِ الإنسانُ لِأَمْرٍ فَهُوَ مَوْطِنٌ لَهُ<sup>(٥)</sup>. والوطن: محل الإنسان، وأوطان الغنم: مرابضها، وأَوْطَنْتُ الأَرْضَ، وَوَطَّنْتُها تَوَطَّنْتُها، أي اتَّخَذْتُها وَطَنًا<sup>(٦)</sup>. ووطنَ، يَطن، طِنًا، وَطَنًا، فهو واطِنٌ، والمفعول موطون به، والمواطِنُ اسم فاعل من واطن<sup>(٧)</sup>.

عند النظر في كلام أهل اللغة نلاحظ اتفاقهم على معنى واحد للوطن تواطأت كلمتهم عليه بلا خلاف وهو المكان والموضع من الأرض الذي يقيم فيه الإنسان، ولكن لم يخصوا ذلك بمكان وموضع الإنسان فقط بل أضافوا إليه موضع الحيوان، كما مر علينا من كلام الجوهري.

ونقل الأزهري أيضا في مادة (ع ط ن) عن الليث قال: كل مَبْرِكٍ يكون مَأْلَفًا لِلْإِبِلِ فَهُوَ عَطَنٌ لَهَا بِمَنْزِلَةِ الوَطَنِ لِلْغَنَمِ وَالْبَقَرِ<sup>(٨)</sup>، فجعل الأزهري المعنى شامل للإنسان وبعض الحيوان، ولكن

- ١- الفراهيدي، العين، ج ٧، ص ٤٥٤، وينظر تهذيب اللغة للأزهري، ج ١٤، ص ٢١، حيث نقل كلام الفراهيدي السابق ونسبه لبيث بن المظفر صاحب الفراهيدي الذي أكمل كتاب العين بعد الفراهيدي.
- ٢- الفراهيدي، العين، ج ٦، ص ٤٥٥.
- ٣- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٢٨.
- ٤- الفارابي، معجم ديوان الأدب، ج ٣، ص ٢٨٣.
- ٥- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٤، ص ٢١.
- ٦- الجوهري، الصحاح، ج ٦، ص ٢٢١٤.
- ٧- أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج ٣، ص ٢٤٦١.
- ٨- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ٢، ص ١٠٤.

قال الزبيدي: الوطن مجاز في الحيوان<sup>(١)</sup>.

قلت: وقد يستعمل الوطن في المعنويات مجازاً أيضاً كالمكان في القلب والنفس، كقول الشريف المرتضى: لا تكذبن فما قلبي لها وطن<sup>(٢)</sup>، أي فما قلبي لها مكان أو محل أو مسكن فهو على المجاز.

وقد جاء ذكر الموطن في القرآن الكريم، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ﴾<sup>(٣)</sup>، أي مواضع وأماكن كثيرة من الأرض.

يعني في أماكن حرب توطنون فيها أنفسهم على لقاء عدوكم، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم كثيرة<sup>(٤)</sup>، وأمكنة ومقامات<sup>(٥)</sup>.

**ثانياً - الوطن في الاصطلاح:** استعمل العلماء المعنى اللغوي للوطن في المعنى الاصطلاحي له. قال الجرجاني: الوطن الأصلي: هو مولد الرجل والبلد الذي هو فيه<sup>(٦)</sup>. وقال الكفوي: الوطن: هو منزل الإقامة<sup>(٧)</sup>. والوطن يصدق على البلد والمدينة والديار، كما قال ابن دريد: والوطن: حيث أوطنت من بلد أو دار أو مكان<sup>(٨)</sup>. ولا شك أن هذا المعنى قريب من المعنى المعاصر للوطن والذي هو: المكان الذي يعيش فيه مجتمع من الناس وله حدود معروفة.

وهكذا ومن خلال هذا المبحث يتبين لنا أن لفظة الوطن لم تكن لفظة معاصرة ولكنها لم تكن متداولة قبل المئة الأولى من الهجرة - على حد علمي - وقد تم التعبير عنها بالأرض والبلد والديار، وهذه الألفاظ لا تختلف في معناها عن مضمون المعنى المعاصر للوطن، وإذا أردنا أن

١- الزبيدي، تاج العروس، ج ٣٦، ص ٢٦١.

٢- الشريف المرتضى، الأمالي، ج ١، ص ٤٤٨.

٣- سورة التوبة، آية (٢٥).

٤- الطبري، جامع البيان، ج ١٤، ص ١٧٨.

٥- التفسير الوسيط، ج ٢، ص ٤٨٧.

٦- الجرجاني، التعريفات، ج ١، ص ٢٥٣.

٧- الكفوي، الكليات، ج ١، ص ٩٤٠.

٨- ابن دريد، جمهرة اللغة، ج ٢، ص ٩٢٨.

نسجل فرقا بين المعنى المعاصر والقديم للوطن فهو أن حدود الأوطان بين البلدان في عصرنا هذا أصبحت معروفة بدقة ومعلمة، وعليها اتفاقات مسجلة دوليا، ومسيطر عليها وعلى أساسها تمنح الهوية، بينما لم تكن في السابق بهذه الدقة، وإنما كانت حدود الإمارة والمدينة والقرية والقبيلة تسمى الحمى أو المضارب، وتخضع للعرف والاجتهاد، ولا شك أن هذا الفرق إنما هو في الشكل وليس في المفهوم.

وقد جاء تعبير القرآن الكريم عن هذا المفهوم للأوطان في مواضع عدة قال تعالى:

﴿ وَأَوْثَقَكُمْ أَرْضَهُمْ وَيَدَيْرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٢٧) قال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونِ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَاوِرِ كَرِيمِ ﴿٣١﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانِكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢).

فالوطن هو الديار والمقام الكريم والأرض الممتدة حولهم والتي تضمن خيراتها العيش الرغيد لأبناء المجتمع.

### المبحث الثاني: مقومات حماية الوطن في السنة النبوية

أولت السنة النبوية مسألة حماية أوطان المسلمين وديارهم وحفظ أمنهم عناية خاصة، وعدت نعمة الأمن من أعظم النعم على الفرد والمجتمع، ومطلبا ضروريا لاستقرار الحياة من جميع النواحي الدينية والاقتصادية والاجتماعية، ومقابل ذلك فإن حصول الخوف وفقدان الأمن من أعظم البلاء الذي يصيب الفرد والمجتمع، قال تعالى ممتنا على أهل مكة: ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبَّعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَخِّطَفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٥٧) (٣)، والحرم الآمن مكة وديارها وما حولها.

ووردت الأحاديث النبوية تارة تلفت النظر إلى هذه النعمة لذكرها وشكرها، وتارة تدعو الله بدوامها وعدم زوالها؛ فعن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: "مَنْ أَصْبَحَ مُعَاتِي فِي بَدَنِهِ، ءَامِنًا فِي سِرِّهِ،

١- سورة الأحزاب، آية (٢٧).

٢- سورة الدخان.

٣- سورة القصص آية (٥٧).

عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup>، وعن ابنِ عُمَرَ أَيْضًا يَقُولُ: "لَمْ يَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَوْلًا لِدَعْوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِّي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَأَمِنْ رُوعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي قَالَ يَعْنِي الْحُشْفَ"<sup>(٢)</sup>.

وعند النظر في كنوز السنة النبوية نجد أن هناك الكثير من الأحاديث قد وضعت المقومات الأساسية لحماية الأوطان أرضا وديارا وحدودا، وحثت على صيانة أمنها، وسوف أذكر جملة من هذه الأحاديث التي دلت بمضمونها ومعناها على إرساء تلك المقومات وحسب النقاط الآتية:

**أولا: تعزيز قيم المواطنة بين أفراد المجتمع:** إن المواطنة القائمة على تنظيم الحقوق والواجبات بالعدل والإنصاف، ومراعاة القيم والمبادئ الدينية والإنسانية من حق الجوار والإحسان إلى الجار والعمل بالإيثار، فإنها تعزز الشعور الوطني وتقوي رابطة الانتماء إلى الوطن، فعندما يُمنح الناس حقوقهم في المواطنة كاملة من حرية المعتقد والعيش بكرامة، فإن هذا يدفعهم للتعاون فيما بينهم وتوحيد صفوفهم لحماية وطنهم، وإن اختلفت أديانهم وتعددت أعراقهم وتنوعت مذاهبهم.

وقد كان للسنة النبوية السبق في رسم صورة لوطن متعدد الأديان والأعراق والقبائل تمنح فيه حقوق الأقليات الدينية والعرقية، وتنظم فيه الواجبات وتسان الكرامة، صورة فيها رقي أخلاقي واجتماعي قل نظيره وعز مثيله في المجتمعات المجاورة، حيث كانت الحضارات الغربية القديمة

١- الطبراني، الأوسط، برقم (١٨٢٨)، وله شواهد ضعيفة عن أبي الدرداء عند ابن حبان في صحيحه (كما في الإحسان)، كتاب الرِّقَائِقِ، باب الفقر والزهد والقناعة، (ذَكَرُ الْإِحْتِبَارِ عَمَّنْ طَيَّبَ اللَّهُ جِلَّ وَعَلَا عَيْشَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا) برقم (٦٧١)، وعن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُحْصِنِ الْحَطْمِيِّ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ فِي سَنَنِهِ، أَبْوَابُ الرُّهْدِ، بَابُ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ برقم (٢٣٤٦)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. وإسناد الطبراني أحسنها.

٢- أبو داود، السنن، كتاب الأدب، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (٥٠٧٤)، وابن ماجه السنن، كتاب الدعاء، بَابُ مَا يَدْعُو بِهِ الرَّجُلُ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى برقم (٣٨٧١)، وأحمد، المسند برقم (٤٧٨٥)، والبحاري، الأدب المفرد، بَابُ مَا يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ، برقم (١٢٠٠)، والحاكم، المستدرک برقم (١٩٠٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

اليونانية والرومانية تقسم المجتمع على طبقات وتجعل منهم درجات في نيل حقوقهم، وتستعبد كثيرا من شرائح المجتمع، وهذا العمل يولد شعورا بالغبن والإهانة، ويضعف رابطة الانتماء للوطن.

ومن الأمثلة التي جاءت بها السنة النبوية في صون حق المواطنة، وثيقة المدينة المنورة التي وضعها رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - والتي نظم فيها معالم الدولة الجديدة التي توازن بين الحقوق والواجبات، وقد راعت الوثيقة خصوصيات القبائل فجعلت كل قبيلة يتحملون مسؤولية العقل فيما بينهم، وعززت أمن المسلمين بأن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم من الداخل والخارج؛ حيث جاء فيها: "وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ، أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً ظُلْمًا، أَوْ إِثْمًا، أَوْ عُذْوَانًا، أَوْ فَسَادًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَكَلَدَ أَحَدِهِمْ"<sup>(١)</sup>.

وأعطت الوثيقة للأقليات الدينية حقهم في العيش على أرض الوطن أسوة بالمسلمين في حفظ كرامتهم وعدم ظلمهم ونصرتهم على من اعتدى عليهم؛ حيث جاء فيها: "وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسُوءَةَ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ"<sup>(٢)</sup>.

ولا شك أن الإتيان هنا في الوثيقة: "وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا" ليس إتيان دينيا وإنما هو إتيان وطني سياسي اجتماعي يخضع فيه الجميع لتعاليم الدولة التي تنظم شؤون المجتمع.

وبعد أن منحت الصحيفة حق الأقليات الدينية في المواطنة أمرتهم بوحدة الدفاع المشترك عن أرض الوطن إلى جانب المسلمين؛ لأنهم يعيشون على أرض واحدة وينعمون بخيراتها، فيتوجب عليهم الدفاع عنها، فقد جاء في الصحيفة: "وَإِنَّ عَلَى الْيَهُودِ نَفَقَتُهُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ نَفَقَتُهُمْ، وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ"<sup>(٣)</sup> وجاء فيها كذلك "وَإِنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرَبَ"<sup>(٤)</sup>، ولا يخفى على أحد أن هذا النوع من التعاون يهدف إلى حماية البلاد

١- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٥٠٢، وأخرج البيهقي في الكبرى برقم (١٦١٤٨) جزء من وثيقة المدينة بسنده عن ابن إسحاق حدثني عثمان بن محمد بن عثمان بن الأحنس بن شريق قال أخذت من آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكتاب.....، ويعني بالكتاب وثيقة المدينة.

٢- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣

٣- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٣.

٤- المصدر السابق، ج ١، ص ٥٠٤.

والديار والثروات.

ومن الأحاديث الأخرى التي أعطت للأقليات حق العيش بكرامة والتأمين على أرواحهم، وأجازت صلتهم ودعوتهم للإسلام، ما جاء في حديث أبي بكر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا"<sup>(١)</sup>، وما جاء عن أنس رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ، فَمَرَضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ". فَظَنَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطَعِ أَبَا الْقَاسِمِ ﷺ، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الأحاديث وأحاديث الوثيقة نجد التأكيد على الوحدة الوطنية من خلال صيانة حقوق المواطنة ونشر العدل والإنصاف، ورعاية جميع أبناء الوطن؛ لأن الشعور بالظلم من أقوى الأسلحة التي تمزق اللحمة الوطنية.

وهكذا جعلت السنة النبوية المواطنة من المشتركات المهمة التي تؤسس للعيش المشترك للشعوب والأمم وتوحد صفوفهم بوجه ما يدهمهم من أخطار، وإن الاختلاف الديني والعرقي والمذهبي لا يمكن أن يكون عائقا بوجه تعاون جميع أبناء الوطن لحماية وطنهم في ظل دولة ترعى حقوق المواطنة لأبنائها وتحترم مقدساتهم وتصون كراماتهم، وهذا كله يصب لصالح تضافر جهود أبناء الوطن في الدفاع عن وطنهم.

**ثانياً: تنمية الشعور الوطني بين أبناء المجتمع:** وذلك من خلال ابتعاث مشاعر حب الوطن في نفوس أبناء المجتمع وبث روح الانتماء له. والوطنية: هي سلوك يعبر فيه المواطن عن حبه لوطنه وانتمائه له وتمسكه به.

ومما لا شك فيه هو أن حب الإنسان للأرض التي يعيش عليها هي مسألة فطرية فطر الله تعالى الناس عليها؛ لذلك نجد أن الإنسان يتفاعل مع بيئته ومحيطه بشدة ويتعلق بالأرض التي عاش

---

١- أحمد، المسند، برقم (٢٣٧٧) و (٢٠٤٠٣) ورجاله ثقات، والحاكم في المستدرک، کتاب الجهاد، برقم (٢٥٧٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ.  
٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجنائز، باب إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الْإِسْلَامُ، برقم (١٣٥٦) وفي كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، برقم (٥٦٥٧).

فيها يعيش معالم أرضه منازلها وجبالها أنهارها وأوديتها، حجرها ومدرها أشجارها ونباتها، حتى تصبح هذه المعالم جزءاً من حياته يصعب عليه مفارقتها، وخاصة تلك التي كانت في مرحلة طفولته وصباه؛ حيث النفس على فطرتها الأولى لم يشوبها شيء من علائق الدنيا فيدمج لديه الزمان مع المكان ليسفر عن جملة حوادث وصور تُنقش في ذاكرته، تشده إلى وطنه وتعزز أواصر انتمائه إليه.

وجاءت السنة النبوية لترعى هذا الحب وتنميه ليكون دافعاً للتمسك بأرض الوطن وجزءاً من الوفاء له الذي فيه الحياة، ومنه الخيرات، وعلى ربوعه مكن الله دينه وأقام رسول الله - ﷺ - دولته، وقد كان رسول الله - ﷺ - شديد الحب للمدينة المنورة فعن أنس رضي الله عنه: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَتَنَظَّرَ إِلَى جُدْرَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَكَهَا، مِنْ حُبِّهَا"<sup>(١)</sup>.

وأوضح راحلته: سار سيرا سهلاً سريعاً<sup>(٢)</sup>، يعني حبا بها وشوقاً لها، فالمدينة تمثل حصن الإسلام والأرض والديار والمأوى والعيش الكريم، وهذا الحب والشوق هو جزء من الوفاء لها.

ويلفت رسول الله - ﷺ - نظر المسلمين إلى المدينة المنورة يجبها إلى نفوسهم ويسميتها بأجمل وأطيب الأسماء ويذكر جبل أحد وهو من أبرز معالمها، فعن أبي حميد قال: أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ - مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: "هَذِهِ طَابَةٌ، وَهَذَا أَحَدٌ، جَبَلٌ يُجِبُّنَا وَنُحِبُّهُ"<sup>(٣)</sup>.

وعن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَعِكَ أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمَا قُلْتُ: يَا أَبَتِ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ وَيَا بِلَالُ، كَيْفَ تَجِدُكَ؟ قَالَتْ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ إِذَا أَخَذَتْهُ الْحُمَّى يَقُولُ:

كُلُّ أَمْرٍ مِصْبَحٌ فِي أَهْلِهِ  
وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

١- البخاري، الصحيح، كتاب فضائل المدينة باب، برقم (١٨٨٦).

٢- ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ج ٣، ٢٨٦.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب المغازي، باب برقم (٤٤٢٢)، وكتاب المبعث النبوي، أبواب غزوة تبوك، برقم (٤٤٢٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب الفضائل، باب أَحَدٌ جَبَلٌ يُجِبُّنَا وَنُحِبُّهُ، برقم (١٣٩٢).

وَكَانَ بِلَالٌ إِذَا أَقْلَعَتْ عَنْهُ يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً  
وَهَلْ أَرَدِنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ  
بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ خِرٌّ وَجَلِيلُ  
وَهَلْ تَبْدُونُ لِي شَامَةً وَطَفِيلُ

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَحِثُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدَّهَا وَصَاعِهَا وَأَنْقُلْ حُمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>.

فنى كلمات بلال - ﷺ - تنطلق على لسانه من نفس جياشة في حب مكة ومعاملها أرضها ديارها جبالها نباتها ومياهها، وهكذا جميع المهاجرين، فإن حب موطنهم الذي فارقوه متحذر في نفوسهم.

لم تمر كلمات بلال ﷺ على رسول الله - ﷺ - مروراً اعتيادياً بل أولاً رسول الله - ﷺ - اهتماماً خاصاً فأراد رسول الله - ﷺ - أن يوجه هذا الحب إلى الموطن الجديد؛ ليكون حافزاً للتمسك به، فإن المحب يتمسك بمحبوبه، وليستثمر هذا الحب في الدفاع عن الموطن الجديد، فإن المحب يدافع عن محبوبه ولا يتخلى عنه، فجاء دعاء رسول الله - ﷺ - بأن يرزق الله تعالى المسلمين حب المدينة كحب مكة أو أشد حباً ليحفظ من هذا الحب رابطة قوية تعزز وطنيتهم وتدفعهم لحماية وطنهم الذي قامت عليه دولتهم وفيه عزهم وكرامتهم.

ثالثاً: التأكيد على وحدة صف المسلمين: إن وحدة صف المسلمين من أعظم المطالب التي أكد عليها القرآن الكريم والسنة النبوية، ونالت من الاهتمام والقدسية ما لم ينله أمر آخر؛ لأنه في وحدة الأمة قوتها وعزتها وبقائها وجودها وحمايتها وأوطانها ومكتسباتها، وفي تفرقها ضعفها وذهاب ريحها، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد جاءت الأحاديث الشريفة منسجمة مع الآيات القرآنية التي تأمر بوحدة الصف والتعاون

١- البخاري، الصحيح، كتاب المرضى، باب عيادة النساء الرجال برقم (٥٦٥٤).

٢- سورة آل عمران آية (١٠٣).

على البر والتقوى والإحسان إلى القريب والجار وتحرم شق الصف وتجرم المنشقين وتصب في تعزيز وحدة الأمة والمجتمع ونبد الفرقة والتنازع والتحذير منها.

فمن الأحاديث التي تأمر بالتكاتف والرحمة والمودة ما جاء عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ"<sup>(١)</sup>.

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي تأمر برعاية السلام وإفشائه بين المسلمين ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تُحَابُوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"<sup>(٣)</sup>.

ففي هذا الحديث الأخير جعل رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - السلام بين المسلمين هو القاعدة التي تبنى عليها المحبة ودخول الجنة، وهو الهدف المطلوب، ولا شك أن المحبة تصب في وحدة صف أبناء الأمة، وتشد من أواصر التعاون والتضامن بينهم.

ومن الأحاديث التي تأمر بصلة الأرحام ما جاء عن عبد الله بن عمرو، قَالَ سُفْيَانُ لَمْ يَرْفَعْهُ الْأَعْمَشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَرَفَعَهُ حَسَنٌ وَفَطْرٌ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، وَلَكِنْ

١- البخاري، الصحيح، واللفظ له، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره برقم (٤٨١)، وكتاب المظالم، باب نصر المظلوم برقم (٢٤٤٦)، وكتاب الأدب، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضا، برقم (٦٠٢٦)، ومسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم برقم (٢٥٨٥).

٢- البخاري، الصحيح، واللفظ له، كتاب المظالم، باب لَا يَظْلِمُ الْمُسْلِمَ الْمُسْلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ برقم (٢٤٤٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب البرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ برقم (٢٥٨٠).

٣- مسلم، الصحيح، كتابُ الْإِيمَانِ، بابُ بَيَانِ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ، وَأَنَّ مَحَبَّةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ إِفْشَاءَ السَّلَامِ سَبَبًا لِحُصُولِهَا برقم (٥٤).

الواصل الذي إذا قُطعت رَحْمُهُ وَصَلَهَا<sup>(١)</sup>، الحديث هنا يقرر أن من رد زيارة أخيه أو قريبه بزيارة فهو مكافئ له وهذا وفاء منه ولكن ليس واصلاً لرحمه، ولا يحصل على ثواب صلة الرحم إلا إذا قام بزيارة قريبه ابتداءً، ثم الاستمرار على دوام المواصله، وفي هذا غاية الحث على التواصل، وتعزيز للحمه المجتمع، وتمتين لروابط الأسرة التي هي وحدة بناء المجتمع.

ومن الأحاديث التي تنهى عن النزاع وتحرمه، ما أخرجه البخاري بسنده قال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا فِي غَزَاةٍ، قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: فِي جَيْشٍ، فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ....."<sup>(٢)</sup>.

نرى من خلال عرض هذه الأحاديث أن السنة النبوية ركزت على وحدة المجتمع من خلال زرع المحبة ومد حبال المودة ونشر السلام وتحريم التنازع، ووجه الاستدلال من ذلك كله هو أن الوحدة عنوان للقوة وهي أفضل عدة لردع الأعداء وحماية الأوطان، وإن الاختلاف والفرقة عنوان للضعف وهو يزيد من أطماع الظالمين ويمهد لعدوان المعتدين.

**رابعاً: ترسيخ الوعي الجماعي والمسؤولية التضامنية:** لا شك أن الشعور بالمسؤولية التضامنية تمنح المواطن ثقة عالية بنفسه وبمجتمعه؛ حيث يشعر أن المجتمع معه في كل كلمة حق يقولها أو عمل خير يعمله فيه إصلاح لأمته، وهذا يصب لصالح تعزيز حفظ أمن الوطن والمجتمع، وقطع الطريق على الحمقى والفاسقين أن يحدثوا خللاً في وحدة المجتمع أو يعرضوا أمنه للخطر، وذلك من خلال التعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح بين الناس. وقد وجهت السنة النبوية أبناء الأمة الإسلامية إلى تحمل كل فرد منهم المسؤولية تجاه بيته

١- البخاري، الصحيح، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، برقم (٥٩٩١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ برقم (٤٩٠٥) وفي باب قوله ﴿يَقُولُونَ لَنْ نَرَجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ برقم (٤٩٠٧)، ومسلم، الصحيح، كتاب البرِّ والصَّلةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ نَصْرِ الْأَخِ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا برقم (٢٥٨٤).

وأهله ومجتمعه ووطنه وأن يكون ناصحاً في قوله أميناً في عمله فقد جاء عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: "أَلَا كَلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ" (١).

فالحديث هنا يحث على أداء العمل بأمانة وإخلاص، وخاصة العمل الذي فيه خدمة عامة للأمة والمجتمع؛ لأن الحديث بدأ بأعلى وظيفة وهي وظيفة الأمير ثم تسلسل في المسؤوليات، فمن ولاة الله تعالى ووظيفة أو عمل فهو مسؤول أمام الله تعالى عن إلتقانها وصيانتها.

وأمرت السنة النبوية بتقديم النصح والمشورة لجميع المسلمين أمراء ومأمورين وإرشادهم إلى خير الدارين فعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: "الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (٢).

ومن كنوز السنة النبوية من الأحاديث الأخرى التي تؤكد هذا المعنى ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: تَحْجِرْهُ أَوْ تَمْنَعْهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ" (٣).

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، برقم (٨٩٣)، وكتاب في الاستقراض، باب العبد راعٍ في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه برقم (٢٤٠٩)، وكتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق برقم (٢٥٥٤)، وباب العبد راعٍ في مال سيده برقم (٢٢٥٨)، وكتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: "من بعد وصية يوصي بها، أو دين" برقم (٧٥١)، وكتاب النكاح، باب "قوا أنفسكم وأهليكم نارا" برقم (٥١٨٨)، وباب المرأة راعية في بيت زوجها برقم (٥٢٠٠)، وكتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" برقم (٧١٣٨)، ومسلم، الصحيح، واللفظ له، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، برقم (١٨٢٩).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم (٥٥).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الإكراه، باب يمين الرجل لصاحبه إنّه أخوه إذا خاف عليه القتل، أو نحوه، برقم (٦٩٥٢)، وفي كتاب المظالم، باب انصر أخاك ظالما أو مظلوما برقم (٢٤٤٣) و(٢٤٤٤)، ومسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما برقم (٢٥٨٤).

فنى هنا في هذا الحديث أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يجرم الظلم ويأمر بمنع الظالم من الظلم ويجعل ذلك نصرة له؛ لكي لا يتحمل الظالم إثمًا يهلكه في الآخرة، ولكي لا يحدث نزاعاً بين المسلمين، والملاحظ هنا أن السنة النبوية جعلت الأمر من مسؤولية أبناء المجتمع في السعي للإصلاح وإيجاد حل لمثل هذه المشكلات بين أفراد المجتمع وإن أي إهمال لهذه المسؤولية أو استهانة بهذا الأمر يؤدي إلى تفشي الظلم والعدوان وهذا بدوره يولد شعوراً بالكراهية، ويقطع التواصل والتراحم بين أفراد المجتمع الواحد ويحدث ضرراً عاماً في البنية الاجتماعية والوحدة الوطنية للمجتمع.

ومن الأحاديث التي تحت على المسؤولية الجماعية ووحدة المصير، ما جاء عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقُوا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا حَرَقْنَا فِي نَصِينَا حَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"<sup>(١)</sup>.

ومثل هذا الحديث حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ، مَنْ ضَارَّ ضَارَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ"<sup>(٢)</sup>.

ففي هذه الأحاديث نجد تأكيداً على أن الإنسان لا يحق له أن يتصرف بماله ومملكه إلا بالمعروف ولا يجوز له إلحاق الضرر بالناس سواء أكان ضرراً عاماً أم خاصاً بدعوى أنه يتصرف في ملكه. فالحرية مكفولة بعدم إيقاع أي ضرر أمني أو اجتماعي أو اقتصادي على الفرد أو المجتمع ولا شك أن هذه الأحاديث ترتفع بالإنسان عن المصلحة الشخصية والنزعة الذاتية إلى تغليب المصلحة العامة وتجعل من المواطن أداة فعالة لحماية وطنه وحفظ مصلحة أمته.

١- البخاري، الصحيح، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والإستهام فيه برقم (٢٤٩٣)، وفي كتاب الشهادات، باب القُرعة في المُشكلات، برقم (٢٦٨٦).

٢- الحاكم، المستدرک عن أبي سعيد الخدري، كتاب البيوع، برقم (٢٣٤٥)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجْهُ، قال الذهبي على شرط مسلم، وعن ابن عباس عند أحمد، المسند، برقم (٢٨٦٥)، وابن ماجه السنن، كتاب الأحكام، باب مَنْ بَنَى فِي حَقِّهِ مَا يَضُرُّ بَجَارِهِ، برقم (٢٣٤١)، وله طرق أخرى.

**خامسا: طاعة ولي الأمر بالمعروف:** أُلزمت السنة النبوية أبناء الأمة الإسلامية طاعة ولاة الأمور بالمعروف وجعلت هذا الأمر من صميم الدين وحذرت من الخروج عليهم من دون وجه حق؛ لأنه يحدث فتنة بين أبناء الأمة ويشق صفهم ويضعف شأنهم وهذا يصب في خدمة عدوهم.

وكان رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يأخذ البيعة من الناس على السمع والطاعة، فعن جرير رضي الله عنه قال: "بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ"<sup>(١)</sup>، وعن عبادة بن الصَّامِتِ رضي الله عنه قال: "بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا"<sup>(٢)</sup>. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ حَقٌّ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْمَعْصِيَةِ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا تَسْمَعُ وَلَا طَاعَةَ"<sup>(٣)</sup>.

هذه المجموعة من الأحاديث فيها إبراز واضح لمسألة السمع والطاعة لولي الأمر، وقد أوجبت السنة النبوية طاعة ولي الأمر بالمعروف وقد تضمنت الكثير من الفوائد والحكم أذكر منها الأمور الآتية:

- في حديث جرير نجد أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - كان يشترط السمع والطاعة بالمعروف في أخذه البيعة من الناس، ولذلك ذكرها البخاري في باب الشروط في

١- البخاري، الصحيح، كتاب البيوع، باب هَلْ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ بَغَيْرِ أَجْرٍ وَهَلْ يُعِينُهُ، أَوْ يَنْصَحُهُ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا اسْتَنْصَحَ أَحَدُكُمْ أَحَاهُ فَلْيَنْصَحْ لَهُ برقم (٢١٥٧)، وفي كتاب الشروط، باب مَا يَجُوزُ مِنَ الشُّرُوطِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ وَالْمُبَايَعَةِ برقم (٢٧١٥)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، برقم (٥٦).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُونَهَا، برقم (٧٠٥٦)، مسلم الصحيح، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ برقم (١٧٠٩).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السمع والطاعة للإمام، برقم (٢٩٥٥)، ومسلم، الصحيح، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، برقم (١٨٣٩).

- الإسلام، والبيعة أمرها عظيم وشأنها جسيم فهي عهد وميثاق يجب الوفاء به، وهذا مشعر بأهمية السمع والطاعة في الحفاظ على وحدة المسلمين وجمع شملهم.
- وفي حديث جرير بن عبد الله أيضا نجد أن شرط السمع والطاعة قرن مع الشهادتين ومع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ فالشهادتان تمثلان عقيدة المسلم والصلاة ركن العبادة الأعظم وكذلك الزكاة، وهذه هي أعظم أركان الإسلام فيكون السمع والطاعة بالمعروف على هذا المعنى من صميم الدين وركنًا من أركانه القويمة.
- تضمنت الأحاديث تأكيدًا آخر لشرط السمع والطاعة وهو ما ورد في حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - بعدم منازعة الأمر أهله لأن النزاع خروج عن الطاعة وهذا التأكيد خص به هذا الشرط دون غيره من الشروط الأخرى فجاء التأكيد عليه.
- الخروج عن طاعة ولي الأمر فيه مفسد عظيمة من انتهاك حرمة الدماء وإباحة للأموال والممتلكات وعبث بأمن الوطن والأمة والمجتمع، لذلك كان التشديد في النهي عنه والتحذير منه وتغليظ العقوبة بحق مرتكبه، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا"<sup>(١)</sup>.
- وفي هذا المقام نجد أن الروايات التي جاءت عن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - تعطي حلا ناجعا للأمة في حالة استثثار ولاة الأمور بالسلطة والأموال وتأمير بالصبر وانتظار الفرج في الدنيا والثواب في الآخرة، ولم تجز هذه الروايات الخروج على الحاكم مجرد الاستثثار ببعض الأموال؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قَالَ: "مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مِنْ فَارِقِ الْجَمَاعَةِ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً"<sup>(٢)</sup>.

١- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا برقم (٧٠٧٠)، وعن أبي موسى رضي الله عنه برقم (٧٠٧١)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، برقم (٩٨)، وعن أبي موسى برقم (١٠٠)، وعن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، برقم (١٠١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سَتْرُونَ بَعْدِي أُمُورًا تُنْكَرُونَهَا برقم (٧٠٥٤)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم (١٨٤٩).

عند النظر في هذه الأحاديث التي تأمر بالسمع والطاعة بالمعروف وتمنع الخروج والتمرد ومنازعة الأمر أهله نجد أنها تهدف إلى لم شمل المسلمين وحرص صفوفهم وجمع كلمتهم وقطع الفرصة على الغلاة والمغرر بهم والمغفلين من العبث في أمن الوطن وتخريب البلد، وبذلك تؤسس السنة النبوية قواعد متينة وراسخة في بناء وحدة المجتمع وحفظ أمن الأمة وحماية الوطن.

### المبحث الثالث: وسائل تفعيل حماية الوطن

إن مَهْمَة حماية الوطن وحفظ أمنه منوطة بأبنائه وإن تحقيق هذه المهمة مرتبط بمدى استعدادهم وجاهزيتهم للدفاع عنه وصيانة أرضه وخيراته ومياهه وسمائه وحراسة حدوده وسد ثغوره، وهذا يأتي في سياق الوفاء منهم لوطنهم وأداء الواجب تجاهه، ذلك الوطن الذي أقاموا فيه شعائر دينهم ومناسك عباداتهم وارتووا من مائه وأكلوا من خيراته وأقلنتهم أرضه وأظلتهم سماؤه، أرض أجدادهم وكرامة معاشهم ومستقبل أبنائهم.

وقد كان للسنة النبوية دور كبير وفعال في توجيه أبناء الأمة إلى ضرورة حماية الدين والوطن واستثمار الطاقات وتحفيز الهمم للدفع عن الأرض والعرض وحماية المقدسات والمكتسبات وحفظ بيضة المسلمين وبيان فضل الجهاد وثوابه والاستعداد له، وفي النقاط الآتية سأبين جانباً مهماً مما جاءت به السنة النبوية من وسائل وأساليب لتفعيل حماية الأوطان والديار والمقدسات:

**أولاً: الترغيب في اقتناء عدة الحرب:** إن حماية أوطان المسلمين ومقدساتهم لا شك تحتاج إلى جهد بدني كبير وإنفاق مالي كثير لتهيئة وسائل القتال وآلات الحرب للأخذ بكافة أسباب الردع التي شرعها الله تعالى للدفاع عن الأنفس والديار والمكتسبات، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>(٦٠)</sup>؛ فالآية تبين أن أعظم وسيلة من وسائل الحرب نكاية بالأعداء في ذلك الزمان هي الخيول نظراً لقوتها وسرعة انقضاضها؛ لذلك جاءت السنة النبوية تؤكد على اقتنائها وربطها والعناية بها وتدريبها لتهيئتها للقتال.

١ - سورة الأنفال، آية (٦٠).

وجعلت السنة النبوية لمن يفعل ذلك عظيم الأجر والثواب، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْحَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"<sup>(١)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَتَصَدِيقًا بِوَعْدِهِ فَإِنَّ شِبَعَهُ وَرِيَهُ وَرَوْتَهُ وَبَوْلَهُ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ لِلْفَرَسِ سَهْمَيْنِ وَلِصَاحِبِهِ سَهْمًا"<sup>(٣)</sup>.

من خلال هذه الأحاديث الشريفة يمكننا أن نبين الأمور الآتية:

- الأحاديث تحت على رباط الخيل لأنها وسيلة الحرب الفعالة وفيها المغنم والأجر وفي هذا العمل تهيئة واستعداد للدفع عن الأوطان وتأمين حمايتها.

قال القرطبي<sup>(٤)</sup>: وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان، وبها مجال في الميدان، خصها بالذكر تشريفاً، وأقسم بغارها تكريماً قال تعالى: ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا ۝١﴾ فَأَلْمُورِبَاتِ قَدْحًا ۝٢﴾ فَأَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾<sup>(٥)</sup>.

- أعظمت السنة النبوية الأجر وأجزلت الثواب لمن يقوم برباط الخيل يبتغي وجه الله وحماية الإسلام والمسلمين وديارهم وأوطانهم.

- لما كانت الخيل الوسيلة الأقوى والأسرع والعدة الأشد في الحرب جاءت السنة النبوية تحت على اقتناء هذه الوسيلة دون غيرها كالجمال والبغال والحمير، ولا شك أن الأخيرة تستعمل في الحروب، لكن التأكيد كان على القمة في القوة والبأس والشدة وفي هذا درس للمسلمين على أن يتجهزوا بأحدث العدد القتالية الفعالة وينتقوا الأسلحة الأكثر تطور في العالم؛

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، برقم (٢٨٤٩)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة برقم (١٨٧١).

٢- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من احتبس فرساً، برقم (٢٨٥٣).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب سهام الفرس، برقم (٢٨٦٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب كيفية قسمة الغنيمه بين الحاضرين برقم (١٧٦٢).

٤- الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٣٧.

٥- سورة العاديات.

لتكون رادعا لأعدائهم وليتمكنوا من حماية أنفسهم وثرواتهم وأوطانهم.

ولم تقف السنة النبوية عند مسألة اقتناء آلة الحرب وعدتها حسب بل نهبت المسلمين وحتتهم على صناعة السلاح بأنفسهم فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صُنْعِهِ الْخَيْرَ وَالرَّامِيَ بِهِ وَمُنْبَلَّهُ"<sup>(١)</sup>، ففي هذا الحديث الحث على صناعة آلة الرمي وهي القوة الرادعة في ذلك الزمان ويفهم من الحديث التأكيد على امتلاك ناصية العلم والمعرفة واكتساب مهارات الصناعات العسكرية وعدم الاقتصار على شراء الأسلحة من الأمم الأخرى وفي الصناعة فوائد كثيرة؛ منها الاقتصاد في المال وتوفيره لزيادة الإنتاج بخلاف الشراء ومنها اكتساب الخبرة في الإنتاج والتطوير، ومنها تأمين مصدر السلاح وضمان وجوده في أي وقت وخاصة في أوقات الحرب وهذا كله يصب في صالح تأمين حماية أوطان المسلمين.

**ثانياً: الحث على التدريب وممارسة الرمي والفروسية:** فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ، يَقُولُ: "﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾"<sup>(٢)</sup>، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ"<sup>(٣)</sup>، فالحديث هنا يحث أبناء الأمة على التدريب وممارسة الرمي بالسهم والرمح لأنها توقع أكبر الأذى في صفوف الأعداء، فإذا كان الرامي كثير الممارسة لهذا السلاح دقيقاً في تصويبه حصل المطلوب في صد العدوان وحماية الأوطان.

قال القسطلاني: "إن عادة الرمي لا تستثبت بدون المعالجة والإدمان الطويل، وليس شيء من عدة الحرب وأداتها أحوج إلى المعالجة والإدمان عليها مثل القوس والرمي بها ولذلك كرر عليه

١- ابن أبي شيبة، المصنف، كتاب الجهاد، برقم (١٩٧٧٩)، وأحمد، المسند، برقم (١٧٣٢١) و(١٧٣٣٥)، وأبو داود، السنن، كتاب الجهاد، باب في الرمي، برقم (٢٥١٣)، وفيه زيادة، والنسائي، السنن، كتاب الجهاد، باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله عز وجل، برقم (٣١٤٦) واللفظ له.

٢- سورة الأنفال، آية (٦٠).

٣- أحمد، المسند، برقم (١٧٤٣٢)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، برقم (١٩١٧).

الصلاة والسلام تفسير القوة بالرمي" (١).

وقال الصنعاني: "أَفَادَ الْحَدِيثُ تَفْسِيرَ الْقُوَّةِ فِي الْآيَةِ بِالرَّمِيِّ بِالسَّهَامِ لِأَنَّهُ الْمُعْتَادُ فِي عَصْرِ النُّبُوَّةِ وَيَشْمَلُ الرَّمِيَّ بِالْبِنَادِقِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْبُعَاةِ وَيُؤْخَذُ مِنْ ذَلِكَ شَرْعِيَّةُ التَّدْرِيبِ فِيهِ لِأَنَّ الْإِعْدَادَ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِعْتِيَادِ إِذْ مَنْ لَمْ يُحْسِنِ الرَّمِيَّ لَا يُسَمَّى مُعِدًّا بِالْمَرَّةِ" (٢).

ومثل هذا الحديث، حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال "خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَسْلَمَ يَتَنَاضِلُونَ بِالسُّوقِ فَقَالَ ارْمُوا بَنِي إِسْمَاعِيلَ فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ رَامِيًّا وَأَنَا مَعَ بَنِي فُلَانٍ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ فَأَمْسَكُوا بِأَيْدِيهِمْ فَقَالَ مَا لَهُمْ قَالُوا وَكَيْفَ نَرْمِي وَأَنْتَ مَعَ بَنِي فُلَانٍ قَالَ ارْمُوا وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ" (٣).

ويتناضلون يترامون فهم يتسابقون في الرمي فشجعهم رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على ذلك وذكرهم بأبيهم إسماعيل بأنه كان رامياً على سبيل المدح والفضيلة. قال النووي: وَالْمُرَادُ بِهَذَا كُلِّهِ التَّمَرُّنُ عَلَى الْقِتَالِ وَالتَّدْرِيبُ وَالتَّحَدُّقُ فِيهِ وَرِيَاضَةُ الْأَعْضَاءِ بِذَلِكَ (٤).

ولا يخفى على أحد أن قول رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم -: "وَأَنَا مَعَكُمْ كُلُّكُمْ" هو في غاية الحث على التدريب من أجل تحصيل المسلمين ببناء القدرات وكسب المهارات القتالية التي فيها تأهيل لأبناء الأمة في حماية أوطانهم.

ومن الأحاديث التي ترغب في الفروسية ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا سَبَقَ إِلَّا فِي خُفٍّ، أَوْ نَصْلٍ، أَوْ حَافِرٍ" (٥)، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: أَجْرَى النَّبِيُّ ﷺ مَا ضَمَّرَ مِنَ الْخَيْلِ مِنَ الْحَفِيَاءِ إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ وَأَجْرَى مَا لَمْ يُضَمَّرَ مِنَ الثَّنِيَّةِ إِلَى مَسْجِدِ بَنِي زُرَيْقٍ قَالَ ابْنُ

١- القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج ٥، ص ٩٣.

٢- الصنعاني، سبل السلام، ج ٢، ص ٥٠٤.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب المناقب، باب نِسْبَةِ الْيَمَنِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ، برقم (٣٥٠٧).

٤- النووي، شرح صحيح مسلم، ج ١٣، ص ٦٤.

٥- أحمد، المسند، بهذا اللفظ بإسناد صحيح، برقم (١٠١٣٨)، وأبو داود، السنن، كتاب الجهاد، بَابُ فِي السَّبَقِ، برقم (٢٥٧٤)، والترمذي، السنن، أبواب الجهاد، بَابُ مَا جَاءَ فِي الرَّهَانِ وَالسَّبَقِ، برقم (١٧٠٠)، النسائي، السنن، كتاب الخيل، باب السبق، برقم (٣٥٨٧) و(٣٥٨٨).

عُمَرَ: وَكُنْتُ فِيمَنْ أُجْرَى" (١).

وهنا في هذه الأحاديث الأخيرة ترغيب في الفروسية واكتساب المهارات القتالية العالية التي تؤهل المقاتلين على مهاجمة المعتدين وصد عدوانهم ودفع خطرهم عن أوطان المسلمين. لأن الخيل وسيلة الهجوم الفعالة في ذلك الزمان وكلما كان المقاتل متمرسا على الفروسية أكسبه ذلك القدرة على المناورة وسرعة الانقضاض.

ولم تقف السنة النبوية عند حد الترغيب في تعلم الرمي فحسب؛ بل حثت على الاستمرار في التدريب والممارسة وعدم الانقطاع عنه، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ: أَنَّ فُقَيْمًا اللَّحْمِيَّ قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ: تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ. قَالَ عُقْبَةُ: لَوْلَا كَلَامٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ أُعَانِهِ، قَالَ الْحَارِثُ: فَقُلْتُ لِابْنِ شِمَاسَةَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَالَ: " مَنْ عَلِمَ الرَّمِيَّ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى" (٢).

لا شك أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - يهدف من خلال هذه الأحاديث إلى تهيئة المسلمين لأي طارئ أممي قد يتعرضون له من أعدائهم فيستبق الأحداث ويعد المقاتلين الإعداد الصحيح الذي يعزز ثقة المقاتل بسلاحه من خلال التدريب المستمر عليه وممارسة الرمي به، ويجعل من سلاح المقاتل رفيقا عزيزا عليه وصديقا مقربا إليه وكما قال الشاعر وهو يصف جيش المسلمين في غزوة حمراء الأسد (٣):

كَادَتْ تُهَدُّ مِنْ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي      إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ  
تَرْدِي بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ      عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَارِيزِلِ

والميل جمع أميل قال الفراهيدي: والأميل من الرجال: الجبان، وهو في تفسير الأعراب: الذي

١- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب السبق بين الخيل، برقم (٢٨٦٨).

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الرَّمِيِّ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَذَمُّ مَنْ عَلِمَهُ ثُمَّ نَسِيَهُ، برقم (١٩١٩).

٣- ابن هشام السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٠٣، والأبيات لمعبد الخزاعي.

لا تُرْسُ معه<sup>(١)</sup>، والمعازيلُ أيضًا: القوم الذين لا رماح معهم<sup>(٢)</sup> طلبا للسلامة.

ونحن في هذا الزمان زمان التخصص، وذلك لكون آلة الحرب أصبحت أكثر تعقيدا ودقة، وتحتاج إلى ممارسة مستمرة وتخصص وملازمة من أجل الاستعداد والجاهزية، فلا بد أن ينطلق أبناء الأمة من هذه الأحاديث الشريفة التي أسست قواعد متينة في الحفاظ على أمن الوطن وحماية أرضه من أن تدنس، وصون كرامة المسلمين من أن تهان.

**ثالثا: التحريض على القتال والأمر بالصبر والثبات عند اللقاء:** إن مواجهة الظالمين والطغاة المعتدين وخوض غمار الحرب وتحمل بأسها يحتاج إلى مستوى عالٍ من الثبات، وقدر كبير من الصبر؛ وذلك لأن القتال فيه تضحية بالنفس والمال، والوجود بالنفس أقصى غاية الجود، فلا بد من شحذ الهمم واستنهاض الطاقات، وترغيب أبناء الأمة بالأجر العظيم والمقام الكريم الذي أعده الله تعالى للمجاهدين الذين يدفعون الأخطار، ويصدون العدوان عن الأمة.

وقد حثت السنة النبوية على القتال ومواجهة العدوان واستجلبت همم المقاتلين امتثالا قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِيضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَكِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٦٥) (٣).

قال ابن هشام في يوم بدر: "ثُمَّ حَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى النَّاسِ فَحَرَّضَهُمْ، وَقَالَ: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يُقَاتِلُهُمُ الْيَوْمَ رَجُلٌ فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، وَفِي يَدِهِ تَمْرَاتٍ يَأْكُلُهُنَّ: بَخَّ بَخَّ، أَفَمَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا أَنْ يَفْتَلَنِي هَؤُلَاءِ، ثُمَّ قَذَفَ التَّمْرَاتِ مِنْ يَدِهِ وَأَخَذَ سَيْفَهُ، فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ" (٤).

١- الفراهيدي، العين، ج ٨، ص ٣٤٥.

٢- الجوهرى، الصحاح، ج ٥، ص ١٧٦٤.

٣- سورة الأنفال آية (٦٥).

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٦٢٧، وأحمد، المسند، عن أنس رضي الله عنه بلفظ قريب بسياق قصة وفيه زيادة برقم (١٢٣٩٨)، ومسلم، الصحيح، عن أنس أيضا، كتاب الإمارة، بابُ ثبوتِ الجَنَّةِ لِلشَّهِيدِ، برقم (١٩٠١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّ بِشُعْبٍ فِيهِ عَيْنٌ عَذْبَةٌ، قَالَ: فَأَعَجَبَهُ يَعْني طِيبَ الشُّعْبِ فَقَالَ: لَوْ أَقَمْتُ هَاهُنَا وَخَلَوْتُ ثُمَّ قَالَ: لَا، حَتَّى أَسْأَلَ النَّبِيَّ ﷺ، فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: "مُقَامٌ أَحَدِكُمْ - يَعْنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ - خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ أَحَدِكُمْ فِي أَهْلِهِ سِتِينَ سَنَةً، أَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَتَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوقَ نَاقَةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ"<sup>(١)</sup>.

ومن الأحاديث التي ترغب في حراسة المسلمين وسد الثغور ما جاء عن ليث، (يعني ابن سعد)، عن أيوب بن موسى، عن مكحول، عن شريح بن السهم، عن سلمان قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ وَأَمِنَ الْفِتَانَ"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي تحث على النجدة ما جاء عن أنس بن مالك، قال: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا، وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْمِي، فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا" قَالَ: "وَجَدْنَا نَاهُ بَحْرًا، أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ" قَالَ: وَكَانَ فَرَسًا يُبْطَأُ"<sup>(٣)</sup>.

هذه جملة من الأحاديث الشريفة وهي أبواب في موضوعاتها، وقد أفادت أحكاما وفوائد كثيرة تتعلق بالتخلي عن الركون إلى الدنيا وزينتها والتحلي بالصبر والثبات والشجاعة على حماية حدود الوطن وصيانة ثرواته أذكر منها الأمور الآتية:

١- أحمد، المسند، بإسناد جيد، برقم (٩٧٦٢) و(١٠٧٨٦)، والترمذي، السنن، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الغدو والرواح في سبيل الله، برقم (١٦٥٠) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

٢- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، باب فضل الرِّبَاطِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، برقم (١٩١٣).

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق، برقم (٢٩٠٨) وفي باب إِذَا فَرَعُوا بِاللَّيْلِ برقم (٣٠٤٠) وفي كتاب الأدب، باب حُسْنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ وَمَا يُكْرَهُ مِنَ الْبُخْلِ برقم (٦٠٣٣)، ومسلم، الصحيح، واللفظ له، كتاب الفضائل، باب فِي شَجَاعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقَدُّمِهِ لِلْحَرْبِ، برقم (٢٣٠٧).

١- استنهضت السنة النبوية همم الرجال في الدفاع عن الدين والأرض والعرض وحثتهم على الصبر والثبات عند مواجهة العدوان ووجهت طاقاتهم للبذل والتضحية في سبيل دين الله وحفظ مقدسات المسلمين ومساجدهم وأوطانهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ الْأُمَّةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَلَئِنْ لَمْ يَنْصُرِكُمْ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُمْ لَأَنْبَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَسِيسِ﴾ (٤٠) ﴿١﴾.

٢- رغبت السنة النبوية أبناء الأمة في الأجر العظيم والثواب الجسيم والمقام الكريم في الآخرة والعزة والكرامة في الدنيا لمن يدافع عن أمن المسلمين وديارهم، ويحمي أوطانهم فهم بين إحدى الحسينيين.

٣- نعت السنة النبوية عن إعطاء الدبر للعدو وحثت من الخور والانكفاء والهزيمة لأنها سبيل إلى هلاك أرواح المسلمين واحتلال أوطانهم ونهب ممتلكاتهم وذهاب عزهم وكرامتهم وفساد دينهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢٥١) ﴿١﴾.

٤- حثت السنة النبوية على حراسة الحدود وسد الثغور والصبر على المرابطة فيها وفي هذا تنبيه على عدم الغفلة عن العدو المتربص بأبناء الأمة، وعدم إعطاء فرصة للمجرمين والطامعين في التسلل إلى أرض الوطن، قال تعالى: ﴿وَدِّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (٣) ﴿١﴾.

٥- حثت السنة النبوية على السرعة في نجدة المسلمين إذا ما تعرضوا إلى أي خطر أو أمر طارئ والتحلي بالشجاعة والإقدام كما فعل رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - .  
هذه مقتبسات من نور هدي رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - في تفعيل طاقات أبناء الأمة لرد أي عدوان يستهدفهم من الظالمين، ويتوجب على أبناء الأمة جميعهم من حكام ومحكومين أن يعملوا بما يقتندوا بآثارها ليهتدوا بنورها إلى الحق والرشاد ويتمكنوا من إعلاء كلمة الله وحفظ دينهم وحماية أوطانهم وصون كرامتهم.

١- سورة الحج آية (٤٠).

٢- سورة البقرة آية (٢٥١).

٣- سورة النساء آية (١٠٢).

رابعاً: الإنفاق على المقاتلين والاهتمام بهم ورعاية أسرهم: إن تهيئة العدد الكافي من حماة الوطن وتجهيزهم بالعدة اللازمة للدفاع عنه لا شك يحتاج إلى صرف الكثير من الأموال، منها في النفقة على المقاتلين ورعايتهم وتجهيزهم ورعاية أسرهم، ومنها في الإنفاق على آلة الحرب وصيانتها وتحديثها مع الزمن؛ ليكون المقاتل أكثر جاهزية وأشد فعالية في ردع العدوان، ولا يوجد مجال من مجالات الحياة تحتاج فيه الدولة إلى إنفاق أموال طائلة مثل الدفاع عن الأوطان؛ لذلك فإن دول العالم تخصص القدر الأكبر من ميزانيتها لهذا الغرض، وإن كانت هذه مهمة الدولة إلا أن الدولة قد تمر بها أوقات صعبة تحتاج فيها إلى تضافر جهود المواطنين مع الدولة للخروج من الأزمات المالية والاقتصادية وخاصة وقت المحن وتهديد الأمن.

وقد نبهت السنة النبوية إلى هذا الأمر وحثت أبناء الأمة على صدقة التطوع، وجعلت الثواب العظيم في الدنيا والآخرة لمن يتصدق في سبيل الله بالمال أو الظهر أو العدة أو يخلف غازياً بخير في أهله؛ فعن عبد الرحمن بن سمره قال: "جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو يتجهز إلى غزوة تبوك، وفي كفه ألف دينار، فصبها في حجر النبي ﷺ ثم ولي، قال عبد الرحمن: فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده في حجره ويقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا أبداً"<sup>(١)</sup> وقبل ذلك قال ابن هشام في غزوة تبوك: قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره، وأمر الناس بالجهاد والانكماش، وحض أهل الغنى على التفتة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها"<sup>(٢)</sup>. وعن زيد بن خالد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا" ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا"<sup>(٣)</sup>.

١- أحمد، فضائل الصحابة، برقم (٨٤٦) بهذا اللفظ، وابن أبي عاصم في السنة، باب في فضل عثمان بن عفان رضي الله عنه، برقم (١٢٧٩)، والحاكم، المستدرک، کتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، ذكر مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، برقم (٤٥٥٣)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، قال الذهبي: صحيح.

٢- ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٥١٧.

٣- البخاري، الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من جهز غازياً أو خلفه بخير، برقم (٢٨٤٣)، ومسلم، الصحيح، كتاب الإمامة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير، برقم (١٨٩٥).

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: "جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُمِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ"<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ جَهَّزَ غَازِيًا حَتَّى يَسْتَقِيلَ بِجَهَازِهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، وَمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُذَكَّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ"<sup>(٢)</sup>.

نستفيد من أحاديث هذا الباب الفوائد الآتية:

- من حديث ابن إسحاق نرى أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - كان يحض الناس على النفقة في سبيل الله لتتضافر الجهود في إعداد القوة اللازمة لمواجهة الأعداء ونرى الاستجابة السريعة من أصحاب رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - بنفوس كريمة وأيدي سخية.
- ثناء رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - على عثمان رضي الله عنه حيث جعل أجر نفقته مغفرة الله له ذنبه وهذا فيه ترغيب كبير في الحث على الإنفاق.
- الثواب العظيم يوم القيامة لمن جهز غازيا بالسلاح أو حملة على ظهره، والنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف.
- من لم يملك شيئاً من النفقة لم يجرم أجر الغزو في سبيل الله إن هو خلف غازيا في أهله بخير يرضى شؤونهم ويقضي حاجتهم ويدفع عنهم الأذى.
- وأخيراً نلاحظ أن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - قد أولى جانب النفقات

١- مسلم، الصحيح، كتاب الإمارة، بَابُ فَضْلِ الصَّدَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَتَضْعِيفِهَا، برقم (١٨٩٢)، وابن حبان، الصحيح، (كما في الإحسان)، كِتَابُ السِّيَرِ، بَابُ: فَضْلِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (ذِكْرُ الْبَيَانِ بِأَنَّ كُلَّ مَا أَنْقَقَ الْمَرْءُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ أُعْطِيَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهَا بَعْدَ دَهَائِهَا وَأَعْيَانِهَا عَلَى التَّضْعِيفِ)، برقم (٤٦٤٩).

٢- أحمد، المسند، برقم (٣٧٦)، وابن حبان، الصحيح، (كما في الإحسان)، كِتَابُ السِّيَرِ، بَابُ: فَضْلِ الْجِهَادِ (ذِكْرُ إِظْلَالِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَظَلَّ رَأْسَ غَازٍ فِي سَبِيلِهِ)، برقم (٤٦٢٨)، والحاكم، المستدرک، كِتَابُ الْجِهَادِ، برقم (٢٤٤٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ الْإِسْنَادِ وَقَدْ احْتَجَّ الْبُخَارِيُّ بِعُثْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُرَّاقَةَ وَهُوَ ابْنُ ابْنَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه وَلِهَذَا الْحَدِيثِ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، قال: الذهبي: صحيح.

في سبيل الله عناية كبيرة ولم يحقر من أمر الصدقة شيء ولو كانت صغيرة لأن المال عصب الحياة ووسيلة للنجاة، إذا سخر في إعداد الجند إعدادا صحيحا من خلال تجهيزهم بالعدة اللازمة لتحسين كفاءتهم القتالية، وتأمين أرزاقهم ورعاية عائلاتهم لرفع معنوياتهم القتالية، وهذا كله يصب في تحصيل أمن المسلمين والمحافظة على ديارهم ومقدساتهم وحماية وطنهم.

### النتائج والتوصيات:

**أولاً- النتائج:** بعد هذا العرض الموجز لموضوع حماية الوطن من حيث المفهوم والأهمية والمقومات التي أسس عليها وفق منظور السنة النبوية يمكننا أن نسجل النتائج الآتية:

**أولاً:** كشفت الدلائل الشرعية عن مفهوم الوطن فهو الأرض والديار والبلاد وجميع خيرات البلاد ونعمه، وهذا يتوافق مع مصطلح الوطن المعاصر من حيث المضمون.

**ثانياً:** الدفاع عن الوطن ضد التحركات العدوانية والتهديدات الأمنية حق كفلته الشرائع السماوية والقوانين الوضعية والعرف الإنساني.

**ثالثاً:** هناك تلازم كبير بين تمكين دين الله في الأرض وحرية عبادته والدعوة إليه، وبين وجود وطن آمن ومحمي تمنح فيه الحريات وتصان فيه الكرامة، فأمن الأوطان وحماتها هو مطلب شرعي لقيام دين الله في أرضه.

**رابعاً:** حفظ أمن الوطن وحمائته هو حماية لأرواح الناس وأمواهم وأعراضهم، وضمان لمستقبل أبنائهم من الضياع والتشتت، وصون لكرامتهم وحفظ لنعمتهم، فهو ضرورة مجتمعية لحفظ أبناء المجتمع من كل أنواع الفساد الديني والاجتماعي والاقتصادي.

**خامساً:** أرست السنة النبوية المقومات الأساسية لحماية الوطن من خلال تجسيد قيم المواطنة الحقة القائمة على العدل والإنصاف بين أفراد المجتمع في الحقوق والواجبات وضمان الحريات الدينية للأقليات غير المسلمة.

**سادساً:** رسخت السنة النبوية القيم الأخلاقية للمواطن تجاه وطنه وأمتة من خلال بعث روح الوفاء للوطن وتنمية حبه في نفوس أبنائه وإبراز حق الوطن في حمايته والاستعداد للتضحية في

الدفاع عنه وصيانتته.

**سابعاً:** نبهت السنة النبوية أبناء المجتمع على وحدة المصير، وأن ما يصيب الجزء من وهن وضعف يمتد تأثيره ليصيب الجميع وأمرت بالمودة والتعاون على البر والتقوى والتناصح بين أبناء المجتمع والعمل على وحدة الصف والكف عن الاختلاف والفرقة، وألقت أعباء المسؤولية في ذلك على كل فرد من أبناء الأمة وكل من موقعة.

**ثامناً:** استنهضت السنة النبوية المهتم وحفزت الطاقات لأبناء المجتمع من خلال حثهم على امتلاك السلاح والتدرب عليه والتمرس فيه، وعدم تركه ليكون رادعاً لأطماع الظالمين.

**تاسعاً:** أمرت السنة النبوية بالصبر والثبات في ميادين مواجهة الأعداء، والتحلي بالشجاعة والإقدام والنجدة ورغبت إلى ذلك بالأجر العظيم عند الله.

**ثانياً - التوصيات:** أوصي بزيادة البحث في موضوع حماية الوطن لاستيفائه وإعطائه حقه؛ فلا يزال في بداية الطريق والكتابة فيه قليلة، وهو موضوع حيوي بل هو موضوع الساعة؛ لأنه يتعلق بالأمن والأمن هاجس الناس جميعاً، وله أبعاد دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، ويبدو تعلقه بالنصوص الشرعية تعلقاً وثيقاً؛ وخاصة أبواب الجهاد والمغازي، فهو موضوع أصيل في الشريعة الإسلامية أعني موضوع حماية الوطن، ولا يغر عدم استعمال اللفظة والمعنى والمضمون واحد ولا مشاحة في الاصطلاح والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

تم بفضل الله ومنه وكرمه وصلى الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله وآله وأصحابه ومن والاه والحمد لله رب العالمين.

## المصادر

- أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (المتوفى: ٣٥٠هـ)، معجم ديوان الأدب تحقيق، دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة دكتور إبراهيم أنيس، طبعة مؤسسة دار الشعب للطباعة والنشر، القاهرة، عام النشر ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (المتوفى: ١١٨٢هـ)، سبل السلام، الناشر دار الحديث.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ ٢٠٠٨ م.
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريني الكفوي، الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، المحقق عدنان درويش محمد المصري، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت.
- أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، السنة، المحقق محمد ناصر الدين الألباني، الناشر المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠.
- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه العبسي الكوفي (١٥٩. ٢٣٥ هـ)، مُصنّف ابن أبي شيبه، تحقيق محمد عوامة.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق أحمد محمد شاكر، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.
- ابن حبان، محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي (المتوفى: ٧٣٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، الناشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
- أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه الأستاذ الدكتور عبد الحي الفرماوي، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت.
- أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، المتوفى سنة ٢٧٥ هجرية، السنن، تحقيق محمد عوامة، أرقام الأحاديث تتوافق مع طبعة دار الفكر بيروت.
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢.
- الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين المتوفى سنة ٤٣٦ هـ رضى الله عنه، أمالي السيد المرتضى في التفسير والحديث والادب، الطبعة الأولى، سنة ١٣٢٥ هـ سنة ١٩٠٧ م،
- أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، الناشر المطبعة الكبرى، الأميرية، مصر، الطبعة السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، المحقق مكتب تحقيق التراث، الناشر دار المعرفة ببيروت، الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ.
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، العين، المحقق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر دار ومكتبة الهلال.
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط عادل مرشد، وآخرون، إشراف د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.
- أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقیق، مصطفی عبد القادر عطا، الناشر دار الکتب العلمیة بیروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ ١٩٩٠.
- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١ هـ)، الجامع لأحكام القرآن، المحقق: هشام سمير البخاري، الناشر دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٣ م، مصدر الكتاب: موقع مكتبة المدينة الرقمية.

## مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها ...

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الأدب المفرد، المحقق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار البشائر الإسلامية بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩، ١٤٠٩.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، (المتوفى: ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، حسب ترقيم فتح الباري، الناشر دار الشعب القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ ١٩٨٧.
- أبو عبد الله، ابن ماجة محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي.
- أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (المتوفى: ٣٥٦هـ)، الأمالي، عني بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م.
- أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، (٢٠٩، ٢٧٩ هـ)، السنن، المحقق بشار عواد معروف، الناشر دار الغرب الإسلامي بيروت، سنة النشر ١٩٩٨ م.
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، كتاب التعريفات،
- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، كشف المشكل من حديث الصحيحين، المحقق: علي حسين البواب، الناشر دار الوطن الرياض.
- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.
- أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق مجموعة من المحققين، الناشر دار الهداية.
- أبو القاسم الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللحمي الشامي، (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المعجم الأوسط، المحقق طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر دار الحرمين القاهرة.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب ابن هشام الحميري المعافري، جمال الدين (المتوفى ٢١٣هـ)، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلي، الناشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م.

- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، المحقق محمد عوض مرعب، الناشر دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، جمهرة اللغة، المحقق: رمزي منير بعلبكي، الناشر دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الناشر دار العلم للملايين بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.
- صححه وضبط ألفاظه وعلق حواشيه (السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي)، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي قم ايران ١٤٠٣ هـ.
- المحقق ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.

مقومات حماية الوطن  
في خطبة حجة الوداع

الدكتور / بوعبيد الإزدهار  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - بني ملال  
جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب





## المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعلى آله وصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ثم أما بعد؛

فما أحوج البشرية اليوم، وهي تتطلع إلى غد مشرق، في ظل ما تعيشه من نكبات؛ أن تعمق الفهم في التشريع الرباني، وتعيد النظر في التاريخ الإسلامي، وتتبصر من خلاله فاعلية السنن الإلهية الناظمة لمساره وتشكلاته، وتستلهم منه عناصر استقرار البلدان وأمنها؛ وخطبة حجة الوداع- قيد الدراسة والتحليل- تعد واحدة من تلكم الوقائع التي شكلت مرجعًا معرفيًا وفكريًا في التأسيس النظري للدعامات العقدية والاجتماعية والتشريعية في حماية الوطن والدفاع عن حوزته بعد وثيقة المدينة؛ والتي تستوجب منا - اليوم، المزيد من النظر والتأمل في سياقاتها المعرفية والتاريخية، واستنباط ما فيها من الإشارات الدالة على الدفاع عن حرمة الوطن وصيانة بنياته الفكرية والدينية والاجتماعية؛ فقد حوت هذه الخطبة ما يحتاجه المسلم ليقوم بواجبه تجاه ربه ومجتمعه وأمته، وحوث أيضًا ما تحتاجه الأمة الإسلامية لكي تكون ظاهرة عزيزة مترابطة غير متفرقة.

لقد رسمت هذه الخطبة- التي ألقاها النبي ﷺ على مسامع الجمع الغفير من المسلمين بمكة أيام الحج، خريطة الطريق التي ينبغي أن تسير عليها البشرية بعد مرحلة النبوة في كل المستويات؛ إذ نصت على جملة من المقومات التي من شأنها أن تعصم دماء المؤمنين وتوحد صفوفهم وتقوي شوكتهم وتنزع عنهم القيود والأغلال التي علقت بأذهان بعضهم، وتُبدد ما في نفوسهم من بقايا الجاهلية، وتضمن للدولة الإسلامية الحديثة استمراريتها وتحميها من أي سوء منقلب في الفكر والعقيدة والسلوك، على تلكم المبادئ التي غرسها النبي ﷺ طيلة مدة الدعوة والبلاغ، وبخاصة أن مثل هذا المؤتمر العالمي لا يتكرر في حياته ﷺ مرة أخرى، فاغتنم الفرصة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، مصححًا ومبينًا دين ربه للناس من حوله.

ولأجل ذلك، كان جهد النبي ﷺ منصبًا -إلى جانب الدعوة والبيان- على حماية الأوطان،

يوصف ذلك واجبًا لكل إنسان، مهما اختلف لونه وعقيدته ودينه، لأن الوطن يعد المحضن الأساس الذي يوفر للناس الأمن والأمان، عليه أن يعتقد أن الوطن بيته، واجب المحافظة على أمنه وسلامة أركانه، وأن يدافع عنه، كل من موقعه ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

فما المقصود إذًا، بحماية الوطن؟ وما هي سياقات حجة الوداع المعرفية والتاريخية، ثم ما هي أهم مقومات حماية الوطن في عناصر هذه الخطبة النبوية؟

ولمقاربة قضايا هذه الدراسة وغيرها، سيتم التركيز على المبحثين الآتيين:

المبحث الأول: خطبة حجة الوداع، ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن - المفهوم والسياق:

المبحث الثاني: خطبة حجة الوداع: نحو ترسيخ مقومات فكرية واجتماعية وتشريعية لحماية الوطن:

نروم من خلال هذه الدراسة، الوقوف على الوثائق النبوية التي تعد مصدرًا من مصادر السياسة الشرعية، وخطبة حجة الوداع العظيمة واحدة منها، مع استلهاهم ما تحمله من تشريعات لقضايا مهمة في الاجتماع البشري، واستجلاء بنودها بوصفها آخر لقاء بين النبي ﷺ وأمته، إذ تناولت وصايا وقواعد بها إصلاح البشرية وسعادتها، وكذا معرفة الأبعاد التشريعية والمقاصدية لمبادئ العدل والمساواة والأخوة الإنسانية وحرمة إراقة الدماء والتأمين عليها، وإلغاء التمايز القومي والطائفي، والولاء للحكام وولادة الأمر، وغيرها من القضايا التي أقرها الدين الإسلامي، والتي تسهم بشكل كبير في حفظ الأمن واستقرار الأوطان ووحدتها.

## المبحث الأول:

### خطبة حجة الوداع ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن - المفهوم والسياق

#### المطلب الأول:

المقصود بمفهوم "حماية" و "الوطن" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

أولاً: مفهوم "حماية" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

مفهوم "حماية" لغة: الحماية في اللغة: مصدر حَمَى يحمي، حماية، من الحفظ والصيانة والنصرة؛ يقول ابن منظور إن: "حَمَى الشيء يَحْمِيهِ حِمَاةً بالكسر: أي مَنَعَهُ"<sup>(١)</sup>، ويقال: "حَمَيْتُ القوم حِمَاةً أي: نصرتهم"<sup>(٢)</sup>، ويقال: "حَمَيْتُ المكان: إذا دفعت عنه، ومنعت منه من يقرَّبُهُ، واحتمى الرجل من كذا: أي اتقاه"<sup>(٣)</sup>.

وفي الجملة، نجد أن لمفهوم "الحماية" معاني متعددة، حيث يأتي للدلالة على: المنع والنصرة، وهي داخلة تحت معنى المنع؛ لأن النصره منع الغير من الإضرار بالمنصور. وكذلك يأتي بمعنى الاتقاء وهو أيضاً قريب من المنع، حيث إن من احتمى من شيء اتقاه، واتقأه امتناعه منه. وأيضاً يأتي للدلالة على معنى الدفاع، وهو أيضاً يدخل تحت المنع، إذ إن المدافع عن الشيء يمنع عنه ما يضره.

مفهوم "حماية" اصطلاحاً: يتبين من خلال النظر في المعاجم الاصطلاحية أنه ليس ثمة فروق كبيرة بين معنى الحماية في اللغة والاصطلاح؛ إذ المعنى اللغوي هو نفسه المعنى الاصطلاحى، وأصل معنى الحماية لا يختلف في نفسه، وإنما يختلف نوع الحماية بحسب ما يضاف إليه.

فنقول حماية المريض على سبيل المثال: يعنى المنع مما يضره، ومعنى حماية المدني: المنع مما يضره من الاعتداء عليه، والدفاع عنه وغيره، وحماية الوطن؛ أي منع الضرر عنه وعن مواطنيه، واتقاء

١- لسان العرب، لابن منظور، مادة (حمى)، ١٤/١٩٨، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص ١٢٧٦.

٢- ينظر كتاب الأفعال، لابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى- ١٤٠٣هـ، ١/٢٦٠.

٣- أساس البلاغة، للزمخشري، مادة (حَمَى)، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، (د.ت)، ص ٩٦. وانظر، مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان عدنان داودي، مادة (حَمَى)، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية- ١٤١٨هـ، ص ٢٥٥.

شر المعتدين منه. وهذا المعنى مستعمل في الفقه الإسلامي، مثال ذلك قولهم: "وجبت الدية على العاقلة؛ لأنهم أهل نصرته، فلما كانوا متناصرين في القتال والحماية أمروا بالتناصر والتعاون على تحمل الدية ليتساووا في حملها كما تساووا في حماية بعضهم بعضاً عند القتال" (١)، فدل ذلك على أن من معاني الحماية في الاصطلاح النصره والتعاون في الضراء والسراء.

### ثانياً: مفهوم "الوطن" في التداول اللغوي والاصطلاحي:

**مفهوم "الوطن" في اللغة:** يطلق لفظ "الوطن" في اللغة، ويراد به "المنزل الذي يُقيم به الفرد، وهو محل الإنسان وموطنه، وجمع وطن أوطان، ويُقال وَطَنَ بالمكان أي أقام فيه، وأوطن فلان أرض كذا وكذا أي اتخذ منها مسكناً ومقاماً" (٢). والوطنُ في المعجم الوسيط يعني المكان، ويُقال "يطن" ووطناً: أي "أقام به، وأوطن المكان أي اتخذهُ وطنًا، وَطَنَ بالبلد اتخذها مسكناً ومحلاً، والوطن مكان إقامة المرء ومُستقره، ويُنسبُ انتماءه إلى وطنه سواء وُلد فيه أم لم يُولد فيه" (٣).

وخلاصة القول، أنّ مفهوم "الوطن" في الدلالة اللغوية يفيد المكان الذي يقيم فيه الإنسان ويتخذ مسكناً، ويربطه بجذوره التاريخية، والذي به تتحقق هويته وانتماءه.

**مفهوم الوطن في الاصطلاح:** جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: "الوَؤُ وَالطَّاءُ وَالثُّؤُنُ؛ كلمة صحيحة، فالوطن: محلُّ الإنسان. وَأَوْطَنْتُ الأَرْضَ: اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا" (٤). وإذا نظرنا في المصباح المنير نجد أن الوطن هو "مَكَانُ الإنسان وَمَقَرُّه الذي ولد به ونشأ فيه" (٥). كما نجد

- ١- أحكام القرآن، للخصاص، ١٩٥/٣. وانظر، المغني، لابن قدامة، (المرجع السابق)، ١٥٩/١٣.
- ٢- لسان العرب، لابن منظور، مادة وطن. وانظر، مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، باب الواو، مادة وطن، ص ٣٠٣ بتصرف، وكذا، القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مادة وطن، ص ١٦٧٠.
- ٣- المعجم الوسيط، مادة وطن، ص ١٠٤٢.
- ٤- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، باب الواو والطاء وما يثلثهما، مادة وطن، ١٢٠/٦.
- ٥- المصباح المنير، للفيومي، باب الواو والطاء وما يثلثهما، مادة وطن، ص ٢٥٤، وانظر، التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان، مادة وطن، ص ٢٣٨. ومعجم التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني، ص ٢١٢، وكذا كشف اصطلاحات الفنون، محمد بن علي التهانوي، باب الواو، ٣٧٧/٤-٣٧٨. وانظر، المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، باب الواو، مادة وطن، ص ٥٨٠.

أن: "الوطن هو البلد الذي تسكنه أمة يشعر المرء بارتباطه بها، وانتهائه إليها"<sup>(١)</sup>.

من خلال التعريفات السابقة نخلص إلى أن الوطن المراد هاهنا في الدلالة الاصطلاحية هو الوطن الخاص، الذي يُولد الشخص فيه ولادة ونشأة، أو نشأة فقط، الذي تربطه به روابط دينية وعقدية واجتماعية، لا يمكن فك الارتباط بها، تلك التي تدفعه إلى الاعتزاز والفخر بالانتماء لهذا الوطن دون الآخر، والدفاع عنه متى استوجب الأمر ذلك. بل تجده يضحى من أجله ويبدل الغالي والرخيص في تحقيق أمنه وسلامة أبنائه من الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر.

### المطلب الثاني: حجة الوداع؛ السياق التاريخي، ومسوغات الدعوة إلى حماية الوطن:

كانت حجة الوداع بمثابة المؤتمر العالمي الجامع في حياة النبي ﷺ، حيث التقى في مكة المكرمة (بعرفات) بجمع غفير من الناس من بلاد العرب والعجم، وذلك في السنة العاشرة للهجرة، فبعد أن أكمل الله تعالى الدين وفتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، أدى النبي ﷺ حجة الوداع، حيث حجَّ معه خلق كثير؛ فعن جابر رضي الله عنه قال: " إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشْرًا كَثِيرًا كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ"<sup>(٢)</sup>، وقد انتهز ﷺ اجتماع المسلمين هذا، فخطب فيهم خطبة عظيمة ودَّعَ فيها أصحابه، إذ وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون بالدموع، خاصة بعدما فهم الصحابة أنها آخر لقاء جامع للنبي ﷺ مع أمته، وقد أشار ﷺ إلى ذلك في بداية أول هذه الخطبة بقوله: " أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلِي فَإِنِّي لَا أَذْرِي لَعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا".

وجه النبي ﷺ خلال هذه الخطبة وصاياها الأخيرة الجامعة إلى أمته؛ حيث لخص فيها أحكام الدين ومقاصده الأساسية، هم أن يغرس في قلوب المسلمين معاني الدين الحق، ومبادئ الرحمة والإنسانية، ويرسي دعائم السلم والسلام في أوساطهم والأجيال من بعدهم، ويبدد ما علق في أذهان بعضهم من بقايا الجاهلية ومساوئها.

١- المصطلحات السياسية الدولية، الدكتور أحمد زكي، ص ٩٣

٢- أخرجه مسلم، في كتاب الحج، من حديث جابر الطويل في صفة حج النبي ﷺ رقم الحديث: ٢٩٤١.

وسبب تسمية هذه الحجة بحجة الوداع - كما يذكر ابن كثير - أنه ﷺ "ودّع فيها الناس، ولم يحج بعدها، وتسمى أيضاً بحجة البلاغ، لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وفعلاً، ولم يكن بقي شيء من دعائم الإسلام وقواعده إلا وقد بينه ﷺ" (١).

وبخصوص توثيق هذه الخطبة فقد وردت نصوصها متفرقة على الأبواب في كتب الحديث، وذكرها علماء السير، كالطبري في تاريخ الأمم، وابن هشام في سيرته، وابن كثير في البداية والنهاية، غير أن صاحب البيان والتبيين (٢)، قد انفرد بذكرها مجموعة وكاملة، حتى يسهل استحضار مضامينها في موضع واحد، ولتكون محل مداورة لمعانيها ودلالاتها وأبعادها الاجتماعية والحضارية، فبعد الحمد والثناء على الله والاستعانة به، أوصى ﷺ أمته بتقوى الله وملازمة طاعته جل وعلا، قال ﷺ: "أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد؛ أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أأكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربنا الجاهلية موضوعة، وأول ربنا أضع ربنا أضع ربنا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوعة كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تصلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرّات... (٣)".

وقد حملت هذه الخطبة بياناً جامعاً للحقوق والواجبات، وقضايا المرجعية وغيرها، بل إن هذه

١- البداية والنهاية، لابن كثير، ١٢٥/٥.

٢- البيان والتبيين، الجاحظ، المجلد الأول، الجزء الثاني، صص ٢١-٢٣.

٣- سيرة ابن هشام، ٤/٤٦٦ وما بعدها، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب في المتعة بالحج والعمرة، الحديث رقم: ٢٩٥٠، وسنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب حجة رسول الله، الحديث رقم: ٣٠٧٤.

الخطبة أرست قواعد الملة، وهدمت مبادئ الجاهلية التي علقت بممارسة المسلمين وغيرهم، كما عَظَّمَ ﷺ من خلالها حرّامات المسلمين ودعا إلى الكف عن سفك دماءهم. وذلك بعد أن استقرّ التشريع، وكمل الدين، وتمت النعمة، ورضي الله هذا الإسلام ديناً للإنسانية كلها، وقد نزل في هذا اليوم قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: " قال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العُميس عن قيس بن مسلم، عن طارق عن ابن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية من كتاب الله لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال، قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر ﷺ: " إِنِّي لَأَعْلَمُ أَيَّ يَوْمٍ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، نَزَلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ، فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ" (١).

كل تلك المعاني التي أشرنا إليها سالفًا، تروم زيادة التأكيد على أهمية حماية الأوطان، لأن عناد قريش واستمرارها في التضييق على الدعوة الإسلامية وضع الأمة في حالة استنفار وتأهب للحفاظ على وحدتها وضمّان استقرار أفرادها، هذه المرحلة كانت بحاجة إلى دعوة نبوية لتأكيد أهمية التعاون من أجل تحصين الوطن من أعداء الملة والدين، الذين يتصدون به الدوائر للثأر منه ومن أتباعه، هؤلاء أعداء الوحدة والسلام، ليس فقط في ذلك الزمان، بل ما أكثرهم في زماننا المعاصر. ومن ثمة فهنالك مبررات ومسوغات كانت وراء حرص النبي للتمكين لهذه الدعوة وما جاءت به من قيم تحفظ أمن الناس وأعراضهم ودماءهم وصون كرامتهم. ومن ثم فالعقل الإنساني بحاجة اليوم إلى ما يسدّد قصده، ويصيب هدفه في البلوغ بالبشرية عمومًا نحو خطى ثابتة إلى الرقي في سلم التنمية والنماء الحضاري، والتضييق على دعوات العنف والتطرف في المجتمع الإسلامي، تلك التي تروم تهديد أمنه واستهداف حصانة أفرادهِ.

١- أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب "اليوم أكملت لكم دينكم"، رقم الحديث: [٧٢٦٨]، ٩١/٩. وصحيح مسلم، كتاب التفسير، الحديث رقم: [٣٠١٧]، ٣١٣/٤.

## المبحث الثاني:

### خطبة حجة الوداع، نحو ترسيخ مقومات فكرية واجتماعية وتشريعية لحماية الوطن

تمهيد:

أرست الشريعة الإسلامية قواعد مهمة في تثبيت أمن الأوطان وحمايتها من الفوضى والانقسام؛ حيث أكدت كثير من النصوص الشرعية والوثائق النبوية على أسس ومقومات من أجل ضمان الاحترام المتبادل بين أفراد البلد الواحد، ثم وثقت العلاقة بين الراعي والرعية على أساس متين مبني على لزوم الطاعة والولاء للسلطان والحاكم، ودعت في ظل هذه العلاقة إلى الاعتصام بحبل الله تعالى والتمسك بسنة نبيه ﷺ، بالقطع مع أفعال الجاهلية ومعتقداتها، كما أعلنت - هذه الشريعة- من قيم الأخوة والتعاون وحب الخير للغير، وجعلت الجميع سواسية لا فرق لأحد منهم على الآخر مهما علا نسبه من النبي ﷺ أو اقترب.

كما أنها حرّمت إراقة دماء المسلمين ونهب أموالهم وفتك أعراضهم من أي سوء، فكل هذه المعاني لخصتها وثيقة حجة الوداع التاريخية حين نصت على جملة من هذه الأسس والمقومات التي لا تقوم الحضارة الإنسانية إلا بها. ولذلك، فمتى حصل الأخذ بهذه المقومات والعمل بمقتضاها تحققت نهضة حضارية هائلة فاقت كل ما هو عليه باقي الأنساق الحضارية المغايرة اليوم من مدننة ورفاهية، وتمتع خلالها الإنسان المعاصر بأضعاف ما يتمتع به غيره في غير الإسلام من طمأنينة واستقرار نفسي وأمن اجتماعي لم يكن يشعر به أو يتوقعه أصلاً من قبل؛ وللتقريب من هذه الأسس والمقومات، سيتم التركيز على الآتي:

### المطلب الأول: المقومات العقدية والفكرية

المقوم الأول: التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ مع إلغاء التمايز القومي والطائفي:

إن المرجعية التي تحدث عنها النبي ﷺ في خطبة الوداع لم تكن مرجعية فئوية أو طائفية، وإنما الدعوة هنا، كانت دعوة عامة لكل البشرية إلى الاجتماع على كتاب الله؛ الذي هو محل إجماع المسلمين أولاً، وعلى سنة النبي ﷺ ثانيًا. فمن شأن اعتصام العبد المؤمن بهما، والافتداء بما جاء فيهما من مقومات الوحدة ومسوغات الاصطفاف مع حماة الوطن من الشتات والفرقة، أن يقوي

عنده فرص النجاة من فتن هذا الزمان وأهواله في الانقسام والحراية بين أبنائه، إذ هو السبيل الوحيد للخلاص، والعودة للعزة والقوة، والتقدم الحقيقي.

وقد دعا الرسول الكريم ﷺ أمته في خطبة حجة الوداع إلى هذه المعاني حينما أكد الاتحاد والاعتصام بجبل الله المتين؛ في قوله ﷺ: "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ اِعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ"، فوافقت هذه الدعوة الكريمة من نبي الرحمة دعوة سابقة لها من رب العالمين، حين قال جل وعلا: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (الحج: ٧٨)، فدل ذلك على أن نصرة الأمة وتماسك بنيانها مرهون بشكل كبير بمدى تماسك أفراد هذه الأمة بدستورها المؤطر لسلوكها والمنظم لها؛ إذ بقدر ما يحصل تمثل للقيم المركزية النازمة لعلاقات الإنسان بربه ونفسه وأخيه الواردة في القرآن الكريم والسنة النبوية، بقدر ما يكون ثمة قوة وتناصر بين كل الأفراد مهما اختلفت ألوأنهم وعقائدهم وأجناسهم.

وبالمقابل، فإن الانحراف عن المنهج الرباني والهدي النبوي قد يدفع بالمرء إلى الزيغ والضلال، ويحرضه نحو زرع المزيد من الفتنة والاضطراب بين مختلف شرائح المجتمع. فليس ثمة شيء أفسد للمجتمعات وأكثر إضعافاً لها، وإغراءً لأعدائها بها، من الفتن والنزاعات الداخلية التي تقصم الظهر وتبعث على الفرقة والانحزام، بل هناك من يلبس لبوس الدين والغيرة على الوطن والدفاع عنه، وبه يخدع الجهلة والمتعجلين من أبنائه، ويسخروهم لخدمة أهدافهم الخبيثة، وخططهم الماكرة لزعزعة استقرار الأوطان وحرمان أهلها الأمن والأمان، كيف والله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣)، والنبي الكريم ﷺ يقول كذلك، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث النعمان أن: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ" (١).

فَيَبِينَ النَّبِيُّ ﷺ هذا المعنى الكبير، وهو من أجل ما يكون في فريضة الحج؛ اجتماع المسلمين؛ لأنهم، أخرجوا مندوبيهم إلى الحج من كل البقاع في مشارق الأرض ومغاربها؛ ليشهدوا الموسم

١- انظر، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، الحديث رقم: ٤٨١٣.

والمنافع الكثيرة المترتبة عنه والمصاحبة له، ولكي يَشْهَدُوا - أيضاً - هذا الأمر العظيم بوحدة المسلمين، وَبِتَوَاضُعِهِمْ لِرَبِّهِمْ وَمَدَلَّتِهِمْ بَيْنَ يَدَيْهِ جَلَّ وَعَلَا، وفي خُشُوعِهِمْ وانكسارهم لديه، إذ جمعهم على هيئة واحدة، لم تُفَرِّقْ بينهم مظاهر الدُّنْيَا على ما ينبغي أن يكون الحج الصحيح.

وقد شكل مشهد الحجيج وانتظام صفوفهم وتوحد قصدهم في صعيد عرفات أيام حج رسول الله، درساً بليغاً ومظهراً عظيماً من مظاهر وحدة المسلمين واجتماعهم ما يكون اجتماعهم في هذه البقعة الطيبة المباركة في يوم عرفات، مما أوحى إلى النبي ﷺ بحض أمته بالفعل وبالقول على ضرورة توحيد صف الأمة وتماسك عناصرها، كما حذَرَ من تفرقة صُفُوفِهَا وَأَبْنَائِهَا؛ إذ في الوحدة نصرة وعزة، وفي الفرقة هزيمة وذلة.

ومن ثمة فإن الاعتصام بحبل الله ورسوله من شأنه أن يزيد المجتمع قوة واتحاداً في مواجهة التحديات، واستلهاهم ما فيهما من إشارات دالة على ضرورة الحفاظ على وحدة الوطن والتأهب الدائم للدفاع عنه من كل المخاطر المحدقة به، مع الحذر الشديد عن أي اضطراب من شأنه أن يأتي بشر وضرر بالغين، فيزرع الفرقة والاختلاف بين الناس.

### المقوم الثاني: تصفية الوجود الوثني من المجتمع الإسلامي:

وضع النبي ﷺ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهلية، في خطبته العظيمة عندما أعلن عن إلغاء شعائر الجاهلية وشعاراتها، وإبطال أخلاقها ومبادئها الفاسدة، باضمحلال الشُّرك وإخفائه في هذا الوجود، رافعاً راية التَّوْحِيدِ والنصر على أعداء الدين، فقد قرر ﷺ إلى جانب ذلك، القضاء عن أسباب الأضغان والأحقاد، ودفن ما كان في الجاهلية مما يثير الخصومات، وجعل دماء الجاهلية موضوعة، وربا الجاهلية موضوع، ونصَّ على أن أول دم يضعه دم ابن عمه، وأن أول ربا يضعه ربا عمه العباس، ليعلم للناس أن الأمر للحق والقسط ولو على النفس والأقربين.

جاء في هذه الخطبة النبوية أن: "كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيْ مَوْضُوعٍ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضْعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرَضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَفَتَلْتُهُ هَذِيلٌ، وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رَبَا أَضْعُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ"، يقول الإمام النووي أنه: "في هذه الجملة إبطال أفعال الجاهلية وبيعها التي لم

يتصل به قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وأن الإمام وغيره ممن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر ينبغي أن يبدأ بنفسه وأهله فهو أقرب إلى قبول قوله، وإلى طيب نفس من قرب عهده بالإسلام<sup>(١)</sup>.

هذا يعني أن كل شيء من أمر الجاهلية باطل؛ إذ الإسلام أبطل أمور الجاهلية، فلا كبر، ولا بطر، ولا لوأد البنات، ولا للثأر ولا الانتقام، ولا فضل لقبيلة على قبيلة، ولا لأبيض على أسود إلا بالقوى والعمل الصالح، كل ذلك مردود على أصحابه، فقد تم القطع مع ممارسات الجاهلية سلوكًا واعتقادًا. وما يعكس ذلك بجلاء، حديثه ﷺ في موضع آخر، أن أبا ذر عيّر بلالًا بلون أمه، فقال له: يا ابن السوداء، فرد عليه النبي ﷺ بقوله: "إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ"<sup>(٢)</sup>، الواضح من الحديث أنه على الرغم من كبر سن أبي ذر ﷺ، لا يزال فيه أثر من آثار الجاهلية، فالجاهلية سلوك وخلق وحكم وتصور.

ومن صور الجاهلية، كذلك، وضعه ﷺ لمسألة الربا، التي كانت منتشرة بينهم، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس؛ وذلك ليكون قدوة في هذا الشأن يبدأ بنفسه وآله في تنفيذ الأوامر الربانية، فالربا تقطع المعروف وتزيل المواساة، وتمحو الإحسان بين الناس، وتزيد تسلط الطبقة الغنية على الطبقة الفقيرة، فيمتلئ المجتمع بالشحناء والبغضاء، ويشيع العدوان بين الناس، هذا في الدنيا. وفي الآخرة، فإن المرابين سيكون حالهم على الصورة التي ذكرها الله في القرآن، كما

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ (البقرة: ٢٧٥).

والرسول ﷺ يقول: "لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ"<sup>(٣)</sup>، فالربا تجارة الكسول وبضاعة الخامل، وشر مستطير في الدنيا والآخرة، فهو يهدم القيم، ويحطم الأخلاق، ويدمر الاقتصاد،

١- شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ١٨٢/٨.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، الحديث رقم ٣٠. وانظر صحيح مسلم، كتاب الإيمان والندور، باب إطعام

المملوك مما يأكل، رقم الحديث: ١٦٦١.

٣- أخرجه الإمام مسلم، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، حديث رقم ١٥٩٨.

ويربك الأمة، ويثقل كاهلها بالديون، وفوق ذلك فهو يوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وينتزع الرحمة من القلوب، فمن شأن هذه السلوكيات والمظاهر أن تهدد أمن الدولة الفكري والاجتماعي، فتظهر ممارسات مخالفة للدين تروم الانتقام والكيل بمكيالين لأولئك المرابين الذين يمتصون دماء المواطنين. بل إن الربا من الكبائر، وأحد السبع الموبقات التي جاء تحريمها صريحاً في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فالله تعالى قد أعلن الحرب على المرابين، حين قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩). فكان هذا وعيداً شديداً من رب العالمين، لمن لم ينته عن التعامل بالربا.

### المطلب الثاني: المقومات التشريعية والقانونية

#### المقوم الأول: تعظيم حرمة إزاحة الدماء بغير حق والتأمين عليها:

شدّد النبي ﷺ في هذه الخطبة على ضرورة الحفاظ على أمن الدولة الإسلامية الحديثة وكف الأذى عن دماء المواطنين والتأمين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وكل الخصومات المؤدية إلى الاقتتال بين المسلمين وغيرهم، وقد قرر ذلك التأمين في قوله ﷺ: "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَعَلَيْكُمْ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَلْقَوْا رَبَّكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، وَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا.."، فأول أساس ضروري لحياة الأمة؛ الأمن على النفس والمال والعرض، وهي نفسها المدخل الخطيرة لإنهاك المجتمع الإسلامي وإضعاف قواه، لذلك فقد جاءت هذه الخطبة النبوية الجامعة من أجل تعظيم حرمة سفك الدماء، والتشديد على عقوبة غصب الأموال وسرقتها، سواء كانت أموالاً خاصة أو عامة، لأنه لا يهناً للإنسان عيش، ويقر له قرار إلا إذا تحقق له الأمن على روحه وبدنه وماله وعرضه، ولا يخشى الاعتداء عليها وانتهاكها من قريب أو بعيد.

يقول ابن حجر في التعليق على هذا المقوم: "إن مناط التشبيه في قوله؛ "كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا"، وما بعده، ظهوره عند السامعين لأن تحريم البلد، والشهر، واليوم، كان ثابتاً في نفوسهم، مقررراً عندهم، بخلاف الأنفس والأموال، والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها، فطراً الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه، أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم، فلا يدركون المشبه

به أخفض رتبة من المشبه؛ لأن الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع<sup>(١)</sup>.

وكلام الرسول ﷺ هذا، جاء مطابقاً لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: إن "هذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله تعالى في غير ما آية في كتاب الله"<sup>(٢)</sup>.

ومن الأحاديث التي جاءت مؤيدة لهذا المعنى، قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: "لِزَوَالِ الدُّنْيَا أَهْوَى عَلَى اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ"<sup>(٣)</sup>. وكذلك ما جاء في حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا"<sup>(٤)</sup>.

تدلُّ هذه الآيات والأحاديث كلها على عظم حرمة إراقة دماء المسلمين بغير حق، وحتى يتم ردع الناس عن ذلك، أوجب الله القصاص وجعل فيه حياة للناس، لأنه إذا تذكر المرء أنه إن قتل سيقتل، امتنع عن القتل، فهذا معنى الآية الكريمة في قوله ﷺ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩). فحفظُ النفوس وصيانةُ الدماء والأموال والأعراض قضية من قضايا الإسلام الكلية ومقاصده الضرورية، فكلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، وللحد من ذلك، شرَّع القصاص في الإسلام من أجل الحفاظ على حياة الناس وصورها، لما يرتدع كل من همَّ بالجرمة عن الإجرام وتشفي صدور أولياء المقتول من الثأر

١- انظر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب العلم، باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع، ١٤٥/١.

٢- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ٣٧٦/٢.

٣- أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب التغليظ في قتل مسلم ظلماً، الحديث رقم: ٢٦١٩، ٨٧٤/٢. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، حديث رقم: ٢٦١٩، ١١٩/٦.

٤- رواه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ)، الحديث رقم: ٦٨٦٢، والإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمر، ٤٩٣/٩، ﷺ.

والانتقام الذي لا تقف معه الدماء عن الإراقة والسيلان.

ومن ثم، فالجتماع -أي مجتمع- لا يصلح حاله البتة بسفك الدماء أو بالانشقاقات والتنازعات والخصومات، وإنما يتحقق ذلك بتثبيت أفرادها بما ورد التنصيص عليه في عقيدة الإسلام، الداعية إلى حفظ الضرورات الخمس؛ من الحفاظ على النفوس والعقول والأموال والأعراض والدماء، فهي عقيدة تحترم الإنسان وتحفظ كيانه، وتحقق دماءه، وترفع شعار الإحسان مع المسلمين وغيرهم، بل تدعو إلى الإحسان مع النباتات والحيوانات، ومن شأن تمثل المرء لهذه المعاني وغيرها أن يزيد اللحمية بين الناس جميعاً ويقوي عندهم حب بعضهم بعضاً، ويدفع بهم إلى البحث عما به سعادتهم في العاجل والآجل.

المقوم الثاني: الالتزام والوفاء بالعهود وأداء الأمانات: شرَّع النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع وجوب رد الأمانات إلى أهلها والوفاء بالعهود بين الناس ضماناً لحقوق كل فرد من أفراد المجتمع، في قوله ﷺ: "مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ؛ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ أُتِّمِنَتْ عَلَيْهَا"، فتأكيد الرسول الكريم ﷺ في هذه الخطبة على مسألة صون الأمانة والحفاظ عليها، دليل على عظمها، وعظم ذنب المتهاون في تأديتها، وأنها مسؤولية كبيرة تتبع صاحبها إلى يوم القيامة، كما ورد في الحديث، قوله ﷺ " لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"<sup>(١)</sup>. ومن الأحاديث، كذلك، التي جاء الأمر فيها صريحاً بتأدية الأمانة والحفاظ عليها، قوله ﷺ، "أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أُتِّمِنَكَ، وَلَا تُخُنْ مَنْ خَانَكَ"<sup>(٢)</sup>، لأنه من ضيع الأمانة سيكون لما دونها أضيع.

وقد ذكر ابن هشام في سيرته قصة توضح أمانة النبي ﷺ، يقول فيها: "فتح النبي ﷺ مكة، ودخل المسجد الحرام فطاف حول الكعبة، وبعد أن انتهى من طوافه دعا عثمان بن طلحة - حامل مفتاح الكعبة - فأخذ منه المفتاح، وفتح الكعبة، فدخلها النبي ﷺ، ثم جلس في المسجد

١- رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، الحديث رقم: ٢٥٨٢، ٩٩٧/٤.

٢- المستدرک علی الصحیحین، للحاکم، کتاب البیوع، وأما حدیث أبي هريرة، الحديث رقم: ٢٢٩٧، ٥٢/٢.

فقام علي بن أبي طالب وقال: يا رسول الله، اجعل لنا الحجابة مع السقاية، فقال النبي ﷺ: "أَيْنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟"، فدعي له، فقال النبي ﷺ: "هَآكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمَ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ"<sup>(١)</sup>، ونزل في هذا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٥٨) (النساء: ٥٨).

والأمانة؛ هي ضدّ الخيانة، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) (الأحزاب: ٧٢). يقول الإمام الطبري: "إنه عُني بالأمانة في هذا الموضع: جميع معاني الأمانات في الدين وأمانات الناس، وذلك أن الله لم يخص بقوله: (عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) بعض معاني الأمانات"<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما ذهب إليه الإمام السعدي بقوله: أن "جميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين"<sup>(٣)</sup>.

وقد حرم الإسلام الخيانة وأخذ ما ليس لك إلا بحق، وقد ذكر ابن حبان في صحيحه؛ "أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ تُوِّيَّ يَوْمَ حَيْبَرٍ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "صَلُّوا عَلَيَّ صَاحِبِكُمْ" فَتَعَيَّرَتْ وَجُوهُ الْقَوْمِ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ "إِنَّ صَاحِبِكُمْ غَلٌّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَفَتَحْنَا مَتَاعَهُ، فَوَجَدْنَا حَرَزًا مِنْ حَرَزِ الْيَهُودِ لَا يُسَاوِي دِرْهَمَيْنِ"<sup>(٤)</sup>، والغل الخيانة كما ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره<sup>(٥)</sup>.

ومن شأن الإخلال بهذا الواجب أن يثير الفتنة بين الناس ويزرع الانتقام من خان الأمانة وضيعها، وهو أمر غير محمود العواقب، قد يجر بالعباد والبلاد إلى اقتتال وصراع دموي يفقد المرء من خلاله الأمن على نفسه وعرضه وماله؛ ثم إن ذلك مما قد يكون سبباً في إضعاف الأمة وشل

١- سيرة ابن هشام، ٤١٢/٢.

٢- تفسير الطبري، ٣٤٢/٢٠.

٣- تفسير الإمام السعدي، ص ٥٤٧.

٤- صحيح ابن حبان، كتاب السير، باب الغلول، ذكر ترك المصطفى ﷺ الصلاة على من مات، الحديث رقم: ٤٨٥٣، ١١/١٩٠.

٥- تفسير ابن كثير، ١٥١/٢، انظر تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ١٦١) أَي: يَخُون.

حركة أفرادها والخوض بهم في معارك هامشية هم في غنى عنها.

### المقوم الثالث: الاعتراف بحقوق المرأة والحفاظ على كرامتها: لقد صانت خطبة حجة

الوداع للمرأة أنوثتها وكرامتها، وحضت على تكريمها ورعايتها، وحفظت لها حقوقها الزوجية، بل "عدت حقوقها واجبات على الزوج وأمانة في عنقه" (١)، فقد قال رسول الله ﷺ "وَأَمَّا النِّسَاءُ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ، لَا يَمْلِكْنَ لِأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحَلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، وَاسْتَوْصُوا بِهِنَّ خَيْرًا"، والمسلم في علاقته الزوجية، وجب عليه الإحسان لزوجته، فلا يظلمها، ولا يقارنها بغيرها، لأن كل شخص له مميزات، وفيه عيوب، والكمال لله وحده، وهذا ما أرشد إليه الإسلام كما جاء في الحديث، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لَا يَفْرُكُ" (٢) "مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ" (٣). وقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا، أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ" (٤).

ومن شأن هذا التشريع النبوي أن يحفظ للأسرة كيانها ويزيد أفرادها تماسكًا، ويساعدها على القيام بأداء الرسالة المنوطة بها، والمتتملة في حفظ الأنساب وتربية النشء تربية حسنة حتى تؤهلهم لخدمة الأمة والوطن والسعي إلى ما به الخير والصلاح، والأسرة يتوجب عليها كمؤسسة أن تعلم الأبناء حب الوطن وتجلياته، وتغرس في قلوبهم القيم والمبادئ السمحة التي بها تستقيم سلوكياتهم البانية والمعمرة خيرًا وصلاحًا، ومن ثم فصون الأسرة هو صون بالضرورة لكل عناصر المجتمع من أي تغاير ونزاع بين أفرادها. وحرري بنا اليوم والأمة تنشد الاستقرار وتتطلع إلى وضع أحسن مما هو

١- انظر، الإعلان العالمي لحقوق العباد في حجة الوداع والبلاغ، مقال للدكتور رشيد كهوس، منشور بمجلة الأزهر- مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، رمضان - ١٤٣٤هـ/يوليوز - غشت، ٢٠١٣م ص ١٩٤٨.

٢- لا يفرك: أي لا يكره أو ييغض أو يظلم.

٣- رواه مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية ب، الحديث رقم: ١٤٦٩، ٩١/٢.

٤- رواه الترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، حديث رقم ١١٦٢، ٤٥٨/٣، ورواه الإمام أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم: ٧٤٠٢، ٣٦٤/١٢.

عليه، أن تصون المرأة وتضمن لها حقوقها التي أعطهاها الشرع الحكيم.

### المطلب الثالث: المقومات السياسية والاجتماعية

#### المقوم الأول: ضمان المساواة والأخوة الإنسانية الجامعة:

ألغى دين الإسلام التمايز القومي والطائفي وكل الفوارق الاجتماعية حين أقر مبدأ المساواة بين الناس جميعاً، بغض النظر عن اختلاف ألوانهم وأجناسهم، واقتراب نسبهم من آل البيت أو ابتعادهم. والمجتمع الذي يقوم أفراده على قدم المساواة هو مجتمع يشع منه الاطمئنان والأمان، والمحبة والتعاون على الخير، أما إذا انعدمت هذه المساواة في مجتمع، نتج عنه، ولا شك، الصراع وظهرت الطبقة، وتزعزعت الثقة بين الناس.

فالناس جميعاً في ظل القانون الإسلامي سواسية لا فرق بين غني وفقير، ولا بين قوى وضعيف، ولا بين حاكم ومحكوم، يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ اَلْقِصَاصُ فِي اَلْقَتْلِ اَلْحَرْبِ اَلْحَرْبِ وَاَلْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَاَلْاُنْثَى بِالْاُنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ اَخِيهِ شَيْءٌ فَاِنْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَاَدَاءٌ اِلَيْهِ بِاِحْسَنِ ذَلِكِ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكِ فَلَهُ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨)، إن الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب، وأنهم سواسية يتمتع الجميع بحقوقه كافة، فلا تمايز بينهم ولا تفاضل، يؤكد ﷺ في خطبة الوداع أنه "لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا عَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"، فالجميع سواسية كأسنان المشط؛ كل يؤدي وظيفته بدون استثناء.

ولنا في رسول الله ﷺ القدوة الحسنة؛ إذ بلغت المساواة والأخوة الإنسانية مستوى غير مألوف في زمانه؛ حيث فتح القلوب قبل الأمصار، بعدالته وجهده في رفع الظلم عن الناس، ناصحاً إياهم ومُرجباً في تمثل هذه المعاني في علاقاتهم ببعضهم بعضاً، وقد فتح المجال واسعاً بهذا السلوك أمام الجميع ليخدم كل فرد أمته ووطنه، إذ أسس لهذه القيم في مناسبات كثيرة؛ وخطبة الوداع كانت واحدة منها، حين خاطب عليه الصلاة والسلام القوم قائلاً: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، كُلُّكُمْ لِأَدَمَ وَأَدَمُ مِنْ تُرَابٍ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

فالإسلام دين يحث على الأخوة الإنسانية والمساواة بين الناس، ويحرم التفرقة والتمييز بينهم

اعتمادًا على أصول واهية في اللون والجنس وغيرهما، وإنما يجعل التقوى والعمل الصالح والأجود هو معيار تعيين الأفضلية بين الناس، يقول الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفُسُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: ١٣).

وقد عكست لنا خطبة حجة الوداع حكمة النبي ﷺ وقدرته على بناء الإنسان قبل العمران ونزع ما بقي في قلوبهم من الأغلال والتنافر والتباغض، بالدعوة إلى تعزيز قيم التعارف والتآلف بين قلوب المسلمين؛ وقد جاء في هذه الخطبة قوله ﷺ: "تَعَلَّمَنَّ أَنْ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخُو الْمُسْلِمِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِخْوَةٌ، فَلَا يَجُلُّ لِإِمْرِيٍّ مِنْ أَحِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، فَلَا تَظْلُمُوا أَنْفُسَكُمْ"، وكذا قوله ﷺ في نفس الخطبة: "لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ"، ومن الأحاديث، كذلك، الداعية إلى تمثل هذه المعاني، ما ذكره البخاري في صحيحه، فعن عبد الله ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: " الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (١).

كل هذه الشواهد والأدلة الشرعية، تؤكد على عنصر المساواة والأخوة الإنسانية، بوصفه الضامن لوحدة الأمة والحافظ لها من الفرقة والانقسام، فهو يركز على تعظيم الاتحاد والتعاون والتسامح والود والتراحم، وهي القيم نفسها التي تحتاجها البشرية اليوم حتى ترتفع عن الواقع المؤلم؛ واقع الحروب والصراعات القبلية والتحيزات الفكرية التي دمرت الإنسانية وضيقت عليها الدنيا بعد رحابتها. فلو أخذت الأمم والشعوب بهذه التعاليم والمبادئ في واقعها المعيش لسادت المحبة والود والوئام.

ومن ثم، فواقع أتباع الأنساق الدينية والفكرية والعقدية المتغايرة في واقعنا المعاصر يعكس هذه الرؤية الضيقة ويحرم الأجيال من الاستمتاع بإنجاز العقل البشري والاستفادة منه. المفروض على الجميع في -ظل هذا الصراع- أن يقدر كل منهم جهد الآخر ويثمنه، فلا يجعله متماثلاً له ولا

١- أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، حديث رقم: [٢٤٤٢]، ٣/١٢٨.

لنسخ متكررة لفكره وعقيدته ونسقه الاجتماعي، بل ينبغي أن يعترف باختلافه وتميزه هو الآخر، كل له خصوصياته، المطلوب - إذاً- أن يعيش في أمن وأمان إلى جانبه، دون أن يظلم الواحد منهم الآخر، أو يسلب ماله أو يهتك عرضه بذريعة مخالفته للدين والعقيدة وغيرهما.

وبرسم هذه الصورة الحضارية من التعارف والتعايش في واقع الناس، يمكن أن نتحدث عن مواطنة إيجابية؛ تلك التي أسست لها تعاليم الدين الإسلامي، مواطنة داعية إلى الإنتاج والفعالية، يُسهم فيها الجميع - كل من موقعه- بالدفع والارتقاء بالفكر والممارسة عن الشعور بالاستعلاء والأنانية الفردية، إلى تحقيق الاستقرار والتمكين لوحدة الأمة الجامعة. ولذلك فالاختلاف الظاهر بين النوع البشري اليوم، ينبغي أن يكون مدعاة للتعارف والتآلف لا الجفاء والتناكف. لأنه انطلاقاً من هذه المساواة المطلقة بين الناس، يتم "إقرار حقيقة إنسانية، وهي أنه لا ينبغي التمييز بين النوع الإنساني مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ودياناتهم" (١).

ومن ثمة فالروابط والعلاقات التي تجمع بين أبناء الوطن الواحد وبينهم وبين مؤسسات الدولة، "لا يمكن أن تقوم على إلغاء الصفات والانتماءات والمعتقدات وغيرها من الخصوصيات التي تميز فئة عن أخرى غيرها، وإنما ينبغي أن تقوم على احترام هذا التمايز، وإتاحة الفرصة أمام الجميع للمشاركة الفعلية في إغناء الوطن وتنمية رصيده الثقافي والحضاري" (٢).

وإذا كان التساكن والتعايش والشراكة والتعاون وما إليها من العناصر الأساسية التي يفترض توافرها بين المشتركين في الانتماء إلى الوطن نفسه، فإنها تهمز وتختل في حالة عدم احترام مبدأ المساواة، مما يؤدي إلى تهديد الاستقرار، لأن "كل من يشعر بالحيف، أو الحرمان دون حق مما يتاح لغيره، وتغلق في وجهه أبواب العدالة والإنصاف، يصبح متمرّداً على قيم المواطنة، ويكون بمثابة

---

١- وثيقة المدينة: نحو تأسيس مبادئ السلم الاجتماعي والتعايش الديني، الدكتور بوعبيد الازدهار، ورقة ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة حول "السلم المدني في السنة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، من تنظيم الأمانة العامة للحديث النبوي الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي - الامارات العربية، أيام: ٢٥-٢٧ / ٠٤/ ٢٠١٧م، الجزء الثاني، ص ٢٥٧.

٢- المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، د. علاء الدين عبد الرزاق جنكو، ص ٧، بتصرف.

قنبلة موقوتة قابلة للانفجار بشكل من الأشكال<sup>(١)</sup>.

لكن، عندما تتاح فرص التكافؤ بين أفراد الوطن الواحد؛ بأن تكون مجالات الحياة ومناشطها متاحة على قدر متساوٍ من الحقوق والامتيازات لكل المواطنين، فإنهم سيشعرون بواجبهم الوطني في حماية الأمة ومقاومة كل عوامل تفككها وانحيارها، إذ "الوطن الذي تتعدد أصول مواطنيه العرقية، وعقائدهم الدينية، وانتماؤهم الثقافية والسياسية، لا يمكن ضمان وحدته واستقراره إلا على أساس مبدأ المواطنة الذي يركز على منظومة قانونية وسياسية واجتماعية وأخلاقية متكاملة، والمساواة كمقوم رئيس لها، تعني أنه لا مجال للتمييز بين المواطنين على أساس الجنس، أو اللون، أو الأصل العرقي، أو المعتقد الديني، أو القناعات الفكرية، أو الانتماء السياسي والنقابي والجمعي<sup>(٢)</sup>".

وهكذا، فتمايز الناس في المجتمع الواحد بعد تكافؤ الفرص كتمايز الأعضاء في البدن الواحد، فهي غير متساوية ولا متماثلة، بل متميزة لكل منها دوره ومنزلته، وهي جميعاً يعتمد بعضها على بعض ويكمل بعضها بعضاً لتحقيق التوازن والعدل والوسط. ولا شك أن ترسيخ هذه القيم وتجسيدها في الممارسات النبوية كان دَيْدَنَهُ ﷺ طوال مرحلة الدعوة، وزاد الحرص عليها وتأكيدها في هذه المناسبة التاريخية، ليعلم للجميع أن عهد التفاضل والتمايز بالجنس واللون والنسب قد ولى دون رجعة، وأنه لا فرق بين أحد على الآخر، مهما ارتفع شأنه، ومهما علا وضعه الاعتباري إلا بالتقوى.

**المقوم الثاني: الولاء لولاة الأمور وطاعتهم:** شرَّع الله تعالى لعباده المؤمنين السمع والطاعة لولاة الأمر في السراء والضراء حماية لوحدة الأمة وتجنباً لفرقتها وافتراق مكوناتها، وقد وعظ النبي ﷺ الناس وذكَّرههم في خطبة الوداع بفضل الاعتصام بكتاب الله وطاعة أولي الأمر لما لهما من أثر كبير في توحيد الأمة وضمان وظيفتها الحضارية، فعن أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال ﷺ: " أَيُّهَا النَّاسُ، أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا أُمَرَائِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ "<sup>(٣)</sup>.

١- بيان من أجل الديمقراطية، برهان غليون، ص ١٤ بتصرف.

٢- العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، ص ٥٣.

٣- رواه ابن حبان في صححه، كتاب السير، باب طاعة الأئمة، ٤٢٦/١٠، حديث رقم: [٤٥٦٣].

فالواجب على الرعية طاعة من ولّاه الله عليهم في غير معصيته جل وعلا؛ وفي الحديث إشارة إلى اقتران طاعة أولي الأمر بطاعة الله في الإتيان بقي الفرائض المكتوبة من صلاة وصيام وزكاة، لذلك فمن أولويات الدين الإسلامي تحقيق مصالح الناس والتأكيد على اجتماع كلمتهم، وتوحيد صفهم، والالتفاف حول الأئمة والعلماء والبيعة لولاية الأمور وطاعتهم بالمعروف، لعظم ما ربّبه الله تعالى لهم من ثواب عظيم، وجزاء وفير.

إذ إن في التعاون والوحدة والاجتماع والطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر قوة وفتحاً عظيماً، يعود أثره في الفرد والجماعة، بالعزة والسعادة، وبالاستقرار والطمأنينة، ف"بالسمع والطاعة في المعروف لولاية الأمور من الأمراء والعلماء تنتظم الأمور، وتصلح الأحوال ويأمن الناس، وينصف المظلوم، ويردع الظالم، وتأمين السبل"<sup>(١)</sup>. ولهذا فقد أكدت النصوص الشرعية القطعية ضرورة طاعة ولاة الأمر ولزومها كما دعت إلى حفظها بين الناس جميعاً ضماناً لأنهم وسعادتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء: ٥٩).

قال الإمام السعدي: "وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعة لله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"<sup>(٢)</sup>.

وفي الحديث، عن عبادة بن الصامت قال: "دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَنَا فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا،

والترمذي في سننه، وقال: حسن صحيح، أبواب السفر، باب منه، ٥١٦/٢، الحديث رقم: [٦١٦]، والإمام أحمد في مسنده تنمة مسند الأنصار، حديث أبي أمامة الباهلي الصدي بن عجلان بن عمرو، عن النبي، ٤٨٦/٣٦، الحديث رقم: [٢٢١٦١].

١- بيان حقوق ولاة الأمور على الأئمة بالأدلة من الكتاب والسنة، وبيان ما يترتب على الإخلال بذلك، للشيخ عبد العزيز بن باز، ص ١٨.

٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الإمام السعدي، ص ١٨٤.

وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ<sup>(١)</sup>. وفي حديث آخر، فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي"<sup>(٢)</sup>.

والنصوص في هذا كثيرة متواترة تؤكد كلها ضرورة طاعة ولاة أمر المسلمين مع استحضار المصالح المترتبة عنها في حياة الناس العاجلة منها والآجلة، والداعي إلى ذلك كما يقول الإمام النووي: "اجتماع كلمة المسلمين، لأن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم"<sup>(٣)</sup>.

ولهذا، فإن الخروج عن الحكام وولاية الأمر يعد في وقتنا الراهن "من أخطر الأمور التي لا يمكن تجاهل ما قد ينتج عنها من فتنة وقتال وسفك دماء بين أفراد الأمة"<sup>(٤)</sup>، ومن ثمة فقد تعددت دواعي التزام طاعة ولاة الأمور ومبرراتها في الشريعة الإسلامية، يمكن إجمالها في الآتي<sup>(٥)</sup>:

■ إنها امتثال لأمر الله، ومظهر من مظاهر طاعته جل وعلا، فإنه من أطاع الأمير بالمعروف فقد أطاع الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ<sup>(٥٩)</sup>﴾ (النساء: ٥٩). ولا شك أن هذا الامتثال لأوامر الله من أعظم الأدلة على عبودية الإنسان لله، وخضوعه له والإيمان به رباً وإلهاً ومُشرعاً.

١- أخرج البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ "سترون بعدي أموراً تنكرونها"، ٤٧/٩، رقم: (٧٠٥٦)، ومسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، وتحريمها في المعصية: (٤٧٠/٣)، رقم: [١٧٠٩].

٢- رواه الشيخان؛ "صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ<sup>(٥٩)</sup>﴾ (النساء: ٥٩)، ٦٢-٦١/٩، الحديث رقم: [٧١٣٧]. وصحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، ٤٦٦/٣، الحديث رقم: [٣٣].

٣- شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير معصية، ٢٢٥/١٢.

٤- الخروج عن الحكام وأثره في تفريق الأمة، دراسة في ضوء السنة النبوية، د. أحمد إبراهيم يوسف سعدية، د. السيد حمدان السيد سعد، مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة السادسة، العدد ١٣، ١٤٣٨هـ، ص ٣٤٠.

٥- ينظر في كتاب: "من قواعد النظام السياسي في الإسلام"، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، صص ٤٤-٤٧.

- إن في ذلك ترويضاً للرعية، وتربية لها على الطاعة والانقياد لمن شرع الله طاعته من ولاية الأمور والوالدين والأزواج ونحوهم. وإذا تَرَبَّتْ الأمة على ذلك أصبحت تصرفاتها وفق إرادة الشارع، وبذلك تذوب أهواؤها وأنانيتها كما تنهذب غرائزها وطباعها.
- إنه بالطاعة لأولي الأمر تتلاحم الأمة وتتماسك، وتقوى الصلة بينهم جميعاً، سواء بين الراعي ورعيته، أم بين الرعية فيما بينها. وبهذا تتحقق وحدة الأمة وتتماسك قوتها.
- أنه بطاعة أولي الأمر "تنتظم أمور الدولة وأحوالها، سواء في أمور الدين كالعقيدة والعبادة والأخلاق، أم في أمور الدنيا كالمعاملات والعلاقات، ونحوها. إذ إن تطبيق الشريعة بأصولها وفروعها لا يتحقق إلا بطاعة الراعي، بل لا تتحقق مصالح العباد العاجلة والآجلة"<sup>(٦)</sup>.
- إنه سبب إشاعة الأمن والاستقرار في ربوع ديار الإسلام، وهذا أمر ظاهر، فالطاعة لأولي الأمر تعني سيطرة الشرع والعقل والقلب على كل التصرفات، والتغلب على الهوى والنفس اللذين يجران إلى الجريمة والتمرد والعصيان، وهذا كفيل في تحقيق الأمن والاستقرار والطمأنينة في النفس والمجتمع والبلاد.
- إنه يجعل الأمة المسلمة تظهر بمظهر الهيبة والقوة والرهبة أمام الأعداء، فإذا كانت هذه الأمة تأتمر بأوامر قيادتها العليا في غير معصية الله، فإن هذا سيكون له أثره في الأعداء بلا شك، لما فيه من معاني الاتحاد والائتلاف والتماسك بين أفراد الأمة.
- ثم إن الولاء لأولي الأمر ومبايعتهم سبب في نصر الأمة على العدو؛ فمتى تحققت هذه الطاعة اجتمعت كلمة المسلمين والتحمت صفوفهم واتحدت قوتهم للضرب على العائنين بأمنهم واستقرارهم، وهذه من أهم مقومات النصر، ولذلك كانت انتصارات المسلمين في المعارك الكثيرة بسبب طاعة النبي ﷺ والولاء له.
- ولكل هذه الاعتبارات، فقد اكتست دعوة النبي ﷺ أمته في خطبة حجة الوداع بالتزام طاعة ولي الأمر أهمية بالغة، كيف لا، وهي أصل من أصول العقيدة الصحيحة، وسبيل السعادة والهداية، فلا يجوز الخروج عن الحاكم أو الراعي مهما تغيرت الأوضاع وساءت الأحوال، لأنه إذا ما أرادت أي أمة أن تعيش آمنة مستقرة ومطمئنة في أوطانها فعليها بالتمسك ببيعة الراعي والوفاء

٦- انظر، جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص ١١٧/٢.

له وعدم الاختلاف معه، ففي طاعته؛ طاعة الله ولسوله، بل إن الشارع الحكيم ألزم الرعية اتباع الإمام وعدم مخالفته في أمور الدين كما الدنيا، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَلَا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا رَكَعَ، فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا، فَصَلُّوا جُلُوسًا أَجْمَعُونَ" (١).

وفي هذا الحديث دلالة واضحة على وجوب اتباع الإمام والراعي في أداء الشعائر الدينية كما الشؤون الدنيوية لما يحققه من مصلحة متبادلة بين الراعي والرعية، وبالنظر إلى عائدته النفسي والاجتماعي والفكري على الأمة وأفرادها في مستوى سعادتهم أو أمنهم واستقرارهم. فالخروج على الإمام أو الحاكم والإخلال بهذا الواجب يعد من أعظم المفاسد التي نعت عنها شريعتنا الإسلامية، لما يترتب عنها من أضرار بالغة تقود المجتمع إلى الهلاك والبوار، فيكون لقمة سائغة لأعداء الوطن والدين. ولعظم هذه المفسدة فقد جاء الأمر بالسمع والطاعة والولاء لولاة الأمر والتعاون معهم على البر والتقوى، لما يجلبه من مصالح دينية ومنافع دنيوية في العاجل والآجل.

وقد قال محمد بن الحسن القلعي (الشافعي) في هذا السياق: "نظام أمر الدين والدنيا مقصود، ولا يحصل إلا بإمام موجود، لو لم نقل بوجود الإمامة؛ لأدى ذلك إلى دوام الاختلاف والهرج إلى يوم القيامة. لو لم يكن للناس إمام مطاع؛ لأنثلم شرف الإسلام وضاع، لو لم يكن للأمة إمام قاهر، لتعطلت المحارِب والمنابر، وتعطلت السبل للوارد والصادر. لو خلا عصر من إمام؛ لتعطلت فيه الأحكام، وضاعت الأيتام، ولم يحج البيت الحرام. لولا الأئمة والقضاة والسلاطين والولاة؛ لما نكحت الأيامى ولا كفلت اليتامى. لولا السلطان لكان الناس فوضى، وأكل بعضهم بعضاً.. " (٢).

لهذا كله، كان الخروج على الحاكم أو السلطان سلوكاً غير مقبول لا عقلاً ولا شرعاً، وذلك

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب إقامة الصف من تمام الصلاة، الحديث رقم: [٧٢٢] ١/٤٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب اتمام المأمور بالإمام، الحديث رقم: [٨٦]، ٣٠٩/١.

٢- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، محمد بن علي بن الحسن القلعي، صص ٩٤-٩٥.

بالنظر إلى عواقبه الوخيمة وآثاره المدمرة؛ إذ إن الضرر والمحنة ستكون أشد على المسلمين من ظلم واعتداء الحاكم - إن كان كذلك - وما تعيشه كثير من الأقطار العربية والإسلامية اليوم من حرمان على مستوى الأمن والاستقرار، يعكس لنا بجلاء الصور المؤلمة والوضع المتدهور التي أصبحت عليه هذه البلدان، بسبب خروجها على السلطان أو الراعي، بل إن شعوب هذه البلدان أصبحت تتعنى يوماً واحداً من أيام ولاية الأمور الذين انقلبوا عليهم، ولو رجع بهم التاريخ إلى الخلف لاختاروا عن اقتناع الولاء والطاعة للراعي مهما كانت الأوضاع وساءت الأحوال، لذلك فهذه "الطاعة التي تتلخص باحترام ولي الأمر وامتثال أوامره في العسر واليسر بحسب الطاقة ما لم يأمر بمعصية لله عز وجل، إنها مسلك عدل متوازن، يجمع بين مصلحة الراعي والرعية، ويحقق الأهداف العامة للدولة، كما أنه يضيق نطاق الخلاف بين الراعي ورعيته بل يحسمه نهائياً، يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء: ٥٩) (١).

### المقوم الثالث: الانتماء إلى الوطن والتضحية من أجله، والتضامن بين أفراداه:

أوجب الإسلام الاعتزاز بالانتماء إلى الأوطان، وشرع الجهاد في سبيل الله تعالى، دفاعاً عن الدين والأرض والعرض، ورُتب عن ذلك جزاءً، فمن قُتل في سبيل الله مُدافعاً عن تلك المقاصد، كتب عنده جل وعلا من الشهداء. ولا تقتصر حماية الأوطان والدفاع عنها على مواجهة العدوان والدخيل فحسب، بل إن من الواجب في حماية الأوطان مناهضة كل فكر مغشوش، أو شائعة مغرضة أو محاولة استقطاب بعضهم لمصلحة أصحاب الأهواء المشبوهة. كما تشمل حماية الأوطان المحافظة على أسرارها الداخلية، وعدم التعامل مع أعداء الوطن أو من يريدون به السوء، أو يفتنون سمومهم في أجواء المجتمعات بغياً منهم وعدواناً.

وتصحيحاً لهذا الوضع، فقد أكد النبي ﷺ في خطبة الوداع أن الدفاع عن الوطن وحمايته من المخاطر جزء من الدين، فبالحفاظ عليه تُحفظ كرامة الإنسان وعرضه ونفسه وماله؛ حيث إن الله تعالى قرن بين الديار التي لا تنفك بحال عن الوطن والدين في كثير من الآيات، كما في قوله تعالى:

١- من قواعد النظام السياسي في الإسلام، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، (المرجع السابق)، ص ٥١.

﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (٨) (المتحنة: ٨)، فالوطن له أهميته في الدين، كما قرن بين الإخراج من الوطن وبين القتل كذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كُنْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيئًا ﴾ (٦٦) (النساء: ٦٦).

وقد صح عن رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم كانوا يشتاقون إلى مكة، ولما قدم رسول الله المدينة ومعه أبو بكر وبلال، أخبرت عائشة رسول الله، فقال: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَمَا حَبَبْتَ مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا، وَحَوْلِ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(١)</sup>. فكان رسول الله ﷺ كارهًا الخروج من مكة؛ ولما أخرجته قومه من مكة، قال ﷺ: "عَلِمْتُ أَنَّكَ خَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ"<sup>(٢)</sup>. وهذا يجعل الانتماء الوطني اليوم حاجةً ضروريةً تُشعر الفرد بالروابط المشتركة بينه وبين أفراد مجتمعه، وتقوية شعوره بالانتماء إلى الوطن وتوجيهه توجيهًا يجعله يفتخر بالانتماء ويتفانى في حب وطنه، ويضحى من أجله، كما أن مشاركة الإنسان في بناء وطنه تشعره بجمال الوطن وبقيمة الفرد في مجتمعه.

كل ذلك، له دلالة على تعلق الفطرة بالأوطان ومشروعية حبها وإصلاحها وبذل الغالي والنفيس من أجلها، وخطورة التخاذل في الذود والدفاع عنها أمر معلوم في الدين؛ فالوطن الذي يعيش فيه الإنسان يجب أن يعيش فيه بالحب والعمل والإنتاج والإصلاح حتى يعمره كما أمر الله ويحيى ثمار تلك العمارة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ

١- متفق عليه، رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مقدم النبي وأصحابه المدينة، حديث رقم: [٣٩٢٦]، ٦٦/٥، ومسلم في كتاب الحج، باب الترغيب في سكن مكة والصبر على لأوائها، حديث رقم: [٤٨٠]، ٣/٢.

٢- انظر، جامع المسانيد والسنن، لابن كثير، حرف العين، (عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري)، حديث رقم: ٦٦٤٥، ٣٥٥/٥، ومسند الإمام أحمد، مسند الكوفيين، حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهري، حديث رقم: [١٨٧١٧]، ١٣/٣١.

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ (هود: ٦١).

أما المفسدون الذين يفسدون الأوطان ويهلكون الحرث والنسل ويُروعون الأمنين ويقتلون النفس التي حرم الله، فقد غلظ الله عقابهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب شديد، ولو كان فاعل ذلك الفساد يفعلهُ باسم الدين ويراهُ حسنًا، فإنه ظالم لنفسه وللدين، ولو ادعى أنه يخدم الوطن بذلك، فإنه مفسد يسعى لحظ نفسه. على اعتبار أن الوطن كالسفينة التي يجب على جميع الركاب الحفاظ عليها حتى تنجو وينجو معها أهلها، ولو ترك من يعبث فيها لهلكت السفينة، وهلك كل من فيها. فالفرد الإيجابي هو الذي لا يقدم على خيانة وطنه الذي ترعرع فيه ونال من خيراته واستفاد من إمكاناته، وإنما يكون وقيًا أعظم ما يكون الوفاء لوطنه، مستعدًا للتضحية دائمًا في سبيله بنفسه، محبًا أشد ما يكون الحب له، حب أجل وأسمى من أن ترتقي إليه شبهة أو شك.

وباستحضار واقع الأمة اليوم، وما يعيشه كثير من الأقطار العربية والإسلامية من فرقة وتنازع في كل المستويات والميادين، وأمام خذلان بعض أبنائه وعدم الانخراط في حمايته والدفاع عنه، وجب التأكيد هاهنا أن حماية الوطن وتحصينه من تلك الممارسات العدوانية التي تجعل البلد عرضة للتهديدات الخارجية والداخلية، من التشويش على فكر شبابه، والتهديد لأمنه وسلامته أفراداً، فريضة شرعية، تستوجب من الجميع أفراداً وجماعات أن يلبوا نداء هذه النصره والحماية له متى كانت الحاجة إلى ذلك، غير أن هذا الأمر لا يتحقق إلا بتكتل أبنائه وتماسك أفراده، علماً أن الوطن هو الذي يوفر للجميع مقومات الحياة من الراحة والأمان، فهو الحمى والملاذ الأول الذي نعيش تحت رايته بسلام وأمان، فمن منا من الممكن أن ينعم بالأمان دون تلبية نداء الوطن في حمايته والدفاع عنه ضد أي مخاطر، خاصة تلك التي تهدف إلى الحفاظ على الأفكار الآمنة التي تُزرع في عقول أولاده.

إن تحقيق الأمن الفكري لأي أمة، يعد مدخلاً مهماً من مداخل توحيدها والرقى بأفرادها نحو إدراك جماعي يقدر العواقب في حالة التخلي عن هذا الواجب حق القدر، والسعي الجاد والحكيم نحو تأمين السلم والسلام في المجتمعات الإنسانية عموماً، بدل تحريبها وتدمير بناها، تلكم التهديدات التي تترصد بالأرض الآمنة من خلال الزج بمحاولات تحريف الأفكار لأبناء الوطن ستبوء دائماً بالفشل، إذا ما قابلها وعي حضاري وعمل دؤوب من أجل وضع الاحتياطات

والتحصينات التي تقف سداً منيعاً أمام هذه المحاولات. لأن النسيج الواحد للوطن لا يمكن أن تُكسره شوكة الظلم أو الأعداء الذين يتربصون بأمنه وأمانه، لذلك فإن الدوافع التي تجعل منا صلابة أمام أي تهديد لأرض الوطن ينبعث من واجبات الوطن تجاه أبنائه، فإن الأرض التي نشأنا عليها ونعمنا بخيراتنا، حريٌّ بنا رد المعروف عندما يطلب الوطن حمايته، فإن حمى الوطن من حمى الأفراد وحمى الشرف، لا يمكن أن يغفل عنها أي فرد يعيش على تراب الوطن.

ولأجل هذه الغاية، فإن زرع قيمة حب الوطن والدفاع عنه في نفوس الناشئة يعد مطلباً شرعياً وضرورة حضارية، ينبغي الحرص عليها وتعميمها في مختلف القنوات التواصلية سواء من خلال وسائل الإعلام أو في البرامج التعليمية أو على الخطب المنبرية، لتوعية أبناء الوطن بقيمته وفضله عليهم، مع العلم أن وقوفهم في تلبية حمايته والدفاع عنه والتصدي لوحده وإظهار الانتماء إليه، ليس فضلاً منهم ولا تكراً، وإنما ذلك واجب حتمي يثاب فاعله ويعاقب تاركه، فإذا تعرض الوطن لأي سوء، فإن ذلك السوء والأذى سيصل أثره إلى كل فرد من أفرادها، ثم إنه لا سلامة لهؤلاء إلا بسلامة أوطانهم، بل إنه لا تقدم لوطن ونُشدان نهضته إلا باستقراره وتحقيق الأمن بين أوساطه.

**الخاتمة:** إن حماية الدعوة الإسلامية وتأمين حدودها ورعاية مقاصدها وغاياتها، شكل قضية مركزية في خطاب النبي ﷺ في حجة الوداع؛ إذ كان على علم ودراية بضرورة تهيئة الظروف المناسبة لثبات المسلمين وتصحيح الاختلالات العقيدية والفكرية والتنظيمية المخالفة لروح الشريعة ومقاصدها قبل موادة أمته، والتي قد تفرق وحدتهم وتدمر علاقاتهم، والعمل على التأسيس لقيم المساواة والأخوة الجامعة، والإقرار بحقوق المواطنين عموماً والمرأة خصوصاً، وتعزيزها بالفعل الميداني، فنجد ﷺ قد عمل على ضمان تنفيذ هذه القيم، وتفعيل بنودها، وذلك إيماناً منه بحتمية التعاون والتآزر بين الناس جميعاً في بناء مجتمع إنساني سليم، يسوده الأمن والسلام، والود والتسامح والإحساء الإنساني.

والمأمل في عناصر خطبة الوداع التشريعية يدرك أنها جاءت برؤية شاملة مستوعبة لكل القضايا والإشكالات التي عرفها المجتمع الإسلامي وما يدور في فلكه، أكدت إلى جانب ما جاءت به وثيقة المدينة على ضرورة إخراج أهله من وضعية الصراع والتناحر العرقي والطائفي الذي

سببته قريش بعنادها، إلى رحاب الأخوة والمحبة والتسامح، ثم إن هذه البنود شكلت في عمومها حلقات متسلسلة لامست الجوانب التربوية والسياسية والاجتماعية والأمنية للمسلمين وغيرها من الأنساق العقدية المتميزة عنهم. وهذا يكشف حقيقةً، قدرة هذه الخطبة النبوية في إحداث نقلة تشريعية قانونية هائلة، إلى جانب ما أسست له وثيقة المدينة.

كما يجد المتأمل في هذه الخطبة، أيضًا؛ مقدار العدالة والمساواة والتسامح التي اتسمت بها معاملة النبي ﷺ مع كل الناس وحرصها على إسقاط كل الاعتبارات الطبقية والطائفية وتجاوزها بغية ترسيخ المبادئ السامية التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، كما أنها اشتملت هذه العناصر في مجموعها على ما تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية والعقدية والاجتماعية، وتنمية علاقة الأفراد بالدولة، وعلاقة بعضهم ببعض، حتى تنتظم كل هذه العلاقات في إطار قانوني تشريعي كلي وجامع يحدد المهام ويضبط الحقوق بالواجبات ويوسع دائرة الانتفاع وتكافؤ الفرص بين الناس جميعًا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، كما يحفز الرعية على طاعة الراعي والولاء له والتعاون معه على تحقيق المنافع والمصالح للوطن والأمة، بما يبعدهما عن عوامل الفتنة ومنزلقاتها الفكرية والعقدية. ومن شأن اجتماع هذه المقومات - التي تمت الإشارة إليها في متن هذه الورقة - في أي مجتمع من المجتمعات وتفعيلها أن تضمن الاستقرار وتقوي وحدة الأفراد والأمم والجماعات من الفتن والانحرافات، وتحفظ الأعراس وتصون الأموال من النهب والسرقات.

وقد توصلت من خلال البحث في "مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع" إلى الخلاصات الآتية:

١. إن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع قد اشتملت على عقائد وقواعد، وتضمنت أحكامًا ومقاصد، وقد تركزت معظم المقاصد التي تضمنتها الخطبة على المصالح الضرورية، لتحقيق عبادة الله في الأرض واستقامة أمور عبادته في الحياة.
٢. إن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع من حيث مناسبتها وما نصت عليه، تعد إعلانًا أو بيانًا ختامياً، شهدت فيه الأمة للنبي ﷺ بنجاحه في نشر الدعوة وبيان تعاليم شريعة ربه على أحسن وجه وأتمه، والذي نصَّ على:

- الاعتصام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ سبيل الرشd والهداية، ووقاية من الضلال والغواية.
  - الدعوة الصريحة إلى التوحيد، وإزالة آثار الشرك والوثنية في المجتمع الإسلامي.
  - حماية الوطن وتأمين أرواح المواطنين من المقاصد العليا لشريعتنا الإسلامية.
  - ضمان المساواة والأخوة الإنسانية الجامعة كفيلة بالقضاء على التمايز العرقي والطبقي.
  - الانتماء إلى الوطن والتضحية من أجله، والتضامن بين أفراده يعصم الأمة من الفتن والصرعات.
  - طاعة ولاة الأمر والتعاون معهم مصدر تثبيت الأمن في مجتمعات وصيانة للحممة بين أفرادها.
٣. الأخذ بهذه العناصر والمقومات مجتمعة والعمل بمقتضاها يحقق نهضة حضارية هائلة، تجعل الإنسان المعاصر ينعم بالطمأنينة والاستقرار النفسي الاجتماعي.
- أوصي في ختام هذه الورقة بـ:
- ضرورة ترسيخ قيم العدل والمساواة والأخوة الإنسانية في مجتمعاتنا المعاصرة لما لها من دور مهم في تثبيت أمن الأوطان وحمايتها من الفرقة والتنازع والخصام.
  - توجيه العقل الإنساني المعاصر إلى التشبث بالخيارات الإسلامية، بدل التأثير بالمقولات العدائية العدوانية التي تبغي المساس بالوحدة الوطنية وزرع الفتنة والحروب بين الناس.
  - تربية الناشئة على قيم حب الأوطان والتوعية بفضائلها في مختلف القنوات التواصلية؛ سواء من خلال وسائل الإعلام المرئي والمسموع أو في البرامج التعليمية أو على الخطب المنبرية.

## لائحة المراجع والمصادر:

- أحكام القرآن، للخصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت - ١٤٠٥هـ.
- أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، لبنان، (د.ت).
- الأفعال، لابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٣هـ.
- البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى - ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- بيان حقوق ولاية الأمور على الأئمة بالأدلة من الكتاب والسنة، وبيان ما يترتب على الإخلال بذلك، للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الجامع من إصدارات الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، السعودية، (د.ت).
- بيان من أجل الديمقراطية، برهان غليون، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبع الخامسة - ٢٠٠٦م.
- البيان والتبيين، الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية - ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ.
- التعريفات، لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت)
- التعريفات الفقهية، لمحمد عميم الإحسان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية - ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة، محمد بن علي بن الحسن القلعي، تحقيق: إبراهيم يوسف مصطفى عجو، مكتبة المنار - الأردن، الطبعة الأولى، (د.ت).
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى - ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.
- جامع المسانيد والسُنن الهادي لأقوم سنن، بن كثير تحقيق: د عبد الملك بن عبد الله الدهيش، دار خضر

- للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، الطبعة الثانية- ١٩٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - إبراهيم باحس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة السابعة- ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- سنن ابن ماجه، لابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، (د.ت).
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية- ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- شرح النووي على صحيح مسلم، (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثانية- ١٣٩٢هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية- ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، الإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، (ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) مصدر الكتاب: برنامج منظومة التحقيقات الحديثية - المجاني - من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية [الكتاب مرقم آليا].
- العدالة مفهومها ومنطلقاتها، أبو بكر علي محمد أمين، دار الزمان، دمشق- سوريا، طبعة - ٢٠١٠م.
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، (طبعة جديدة ومنقحة، ومصححة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ومحمد فؤاد عبد الباقي)، (د.ت).
- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السادسة- ١٤١٩هـ.

## مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع

- كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى-١٤١٨هـ /١٩٩٨م.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت- لبنان، (د.ت).
- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مكتبة لبنان- لبنان، طبعة ١٩٨٦م.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى- ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- عادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ، مكتبة لبنان- ١٩٨٧م.
- المصطلحات السياسية الدولية، الدكتور أحمد زكي بودي، دار الكتاب اللبناني - بيروت، (د.ت).
- المعجم الفلسفي، الدكتور جميل صليبا، دار الكتب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت - ١٩٨٢م.
- معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، طبعة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.
- المغني، لابن قدامة، تحقيق: د. عبد الله التركي، د. عبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الطبعة الرابعة- ١٤١٩هـ.
- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق، صفوان داودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية- ١٤١٨هـ.
- من قواعد النظام السياسي في الإسلام (طاعة أولي الأمر)"، د. عبد الله بن إبراهيم الطريقي، أستاذ بكلية الشريعة- الرياض، شبكة الألوكة، (د.ت).
- المواطنة بين السياسة الشرعية والتحديات المعاصرة، الدكتور علاء الدين عبد الرزاق جنكو - استاذ الفقه والأصول بكلية القانون والعلوم السياسية في جامعة التنمية البشرية في السليمانية، كوردستان - العراق، (د.ت).

### المجلات:

- مجلة الأزهر- مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية، رمضان - ١٤٣٤هـ/يوليوز - غشت، ٢٠١٣م.
- مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، السنة السادسة، العدد ١٣، ١٤٣٨هـ.

### المؤتمرات:

- أعمال الندوة العلمية الدولية الثامنة حول "السلم المدني في السنة النبوية؛ مقوماته وأبعاده الحضارية"، من تنظيم الأمانة العامة للحديث النبوي الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية دبي- الامارات العربية، أيام: ٢٥-٢٧ / ٠٤/ ٢٠١٧م.

التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة  
وترقية حماية الوطن

من خلال نصوص السنة النبوية

الأستاذ الدكتور / نصر سلمان

مدير مخبر الدراسات القرآنية والسنة النبوية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة - الجزائر





## المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛ فإن الموضوع الذي نحن بصدد دراسته، والمتعلق بـ: "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية"، والذي يكتسي أهمية بالغة في واقع الناس المعيش، وذلك من خلال تعايشهم الديني، المنفتح على كل مجالات الحياة المختلفة، فضلا عن ارتباطه الوثيق بإرساء أسس السلم الاجتماعي بين قاطني الوطن الإسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم، وتجسيد مبادئ الحرية الدينية، والتسامح، والعدل، والمساواة، والكرامة الإنسانية بينهم، ترسيخا لقيم المواطنة، وتعزيزا لأمن وسلامة الوطن، ما يجعلنا نوليها الأهمية الكبرى من حيث التناول والدراسة، وذلك من خلال مقدمة، ومطلب تمهيدي، وثلاثة مطالب رئيسة، وخاتمة، على النحو الآتي:

يعد موضوع: "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية" من البحوث القمينة بالدراسة والتنقيب، لما له من مكانة سامقة في إبراز سماحة الإسلام مع مخالفه في المعتقد، كما تكمن أهميته أيضا في إبراز تلك المظاهر الرائعة التي أرساها الإسلام للتعايش مع مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، والتي شملت جميع مناحي الحياة، الاجتماعية منها، والسياسية، والأسرية، والاقتصادية، والتي دون شك تبرز الوجه المشرق للإسلام، المفعم بالقيم الإنسانية والحضارية التي تجعله بمنأى عما يثار حوله من شبهات، وما يحاك ضده من دسائس، بل وتجعل مبادئه السمحة في التعامل مع غير أتباعه، لا سيما مع مواطنيه منهم، تتفوق على مبادئ حقوق الإنسان في العصر الحديث.

وتنطلق مشكلة البحث في هذا الموضوع من محاولة الجواب على سؤال رئيس ومحوري يتمثل في: هل كفل الإسلام -حقًا- التعايش الديني لمواطنيه، أم أن ذلك مجرد ادعاء؟ وما أثر ذلك في تحقيق قيم المواطنة؟ وما نتائجه في ترقية حماية الوطن؟ وأسئلة فرعية منبثقة عنه، تتمثل في: ما مفهوم كل من التعايش الديني؟ وما المقصود بمصطلح المواطنة؟ وما هي أبرز مجالات هذا التعايش مع مواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل المختلفة؟ وهل كفل الإسلام لمواطنيه من

غير المسلمين حرية المعتقد أم قام بمصادرتها؟ وعلى فرض كفالتة لها، فهل أوجد سبلا لحمايتها؟ وهل وضع خارطة طريق للتعامل مع مخالفه فيها؟ وهل خط لها أسسا وقيودا تحد من ممارستها في حالة تجاوزها وتعديها؟ وما هي أهم الضوابط التي حددها الإسلام للتعایش مع مواطنيه من أصحاب الملل المختلفة؟ وما هي انعكاسات ذلك على حماية الأوطان؟ هذه الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها عبر المادة العلمية المبثوثة في أثناء هذا البحث.

إن الدراسات الأكاديمية السابقة لموضوع البحث كثيرة، ومتعددة، ما يجعلنا لا ندعي قصب السبق في إعدادده، إلا أنه يمكننا القول بأن مباحث هذه الدراسة لم تكن مُستوعَبة في مصدر، أو مرجع بعينه، ما يبرر الخوض في هذ الموضوع قصد إعطاء تصورٍ شاملٍ حوله، لا سيما وأنه من المواضيع المهمة، التي تحتل الصدارة، وذلك لارتباطه بما يعتقدده الناس من قناعات، وأفكار، ما حدا بنا إلى الوقوف على عدد لا بأس به من هذه الدراسات السابقة لبحثنا، والتي منها:

**أولاً - حرية الاعتقاد في ظل الإسلام** لتيسير خميس العمر: هي دراسة أكاديمية، جاءت مركزة على أحكام الردة، دون سواها، وربطها بالفلسفات والأفكار الحديثة، مع توسع غير مبرر في التأريخ لعلم العقيدة، ما جعل الاستفادة منها ضيقة في نطاقها، لم تتجاوز بيان مفهوم الحرية الدينية، وبعض الضوابط المقيدة لها، ما يجعل بحثنا يتميز عن هذه الدراسة بكونه أكثر شمولية في طرحه، وأوسع في عرضه.

**ثانياً - الإسلام والتعايش بين الأديان** في أفق القرن ٢١، لعبد العزيز بن عثمان التويجري، هي دراسة مختصرة خصصت للتعايش العالمي بين بني الإنسانية جمعاء، وقد غلبت عليها النزعة السياسية في المعالجة، كما لا نجد أثرا لنصوص السنة في محتوياتها، ما يجعل دراستنا تختلف عنها؛ إذ جاءت دراستنا ملأى بنصوص السنة، ومركزة على التعايش البيئي، الذي تقتضيه المواطنة المشتركة.

**بعد عرضنا لبعض الدراسات السابقة لبحثنا** يمكننا القول بأن ما يتميز به بحثنا عن البحوث السابقة له كونه جاء مستمداً من نصوص السنة النبوية الشريفة، مؤصلا لموضوع التعايش الديني، ومبيناً لما يحوطه من مظاهر، ومؤيدات، وضوابط، وحماية، ومبرزاً لآثار هذا التعايش في إرساء قيم المواطنة الإيجابية وتعزيزها، التي تعود بالخير العميم على الوطن، وأهله بغض النظر عن معتقداتهم،

وأفكارهم، وقناعاتهم، خلافا للدراسات السابقة، التي تناولت بعض جزئيات الموضوع، إذ لم تكن مستوعبة لتفصيلاته، كما كان استدلالها بالمرويات الحديثية باهتا، وتركيزها على أهمية التعايش في إذكاء روح المواطنة وتفعيلها يكاد يكون منعما، ما يجعل الإضافة التي يقدمها بحثنا هذا واضحة جلية، بارزة للعيان.

### التمهيد: مفاهيم البحث الأساسية

سنتولى تناولها عبر أربعة فروع على النحو الآتي:

#### الفرع الأول: مفهوم التعايش: سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم التعايش لغة:** العين والياء والشين أصل صحيح يدل على الحياة والبقاء<sup>(١)</sup>، تقول: عايش فلاناً: عاش معه وعاصره، وقضى معه جزءاً من حياته، أو كلَّها، وتعايش القوم؛ أي عاشوا على الألفة والمودَّة، وتعايش النَّاسُ: وُجِدوا في الزَّمان والمكان نفسهما، والتعايش في المجتمع الطائفي، أن يعيش أهله في وئام، وتَسَاكُن، وتَوَافُقٍ دَاخِلَ الْمُجْتَمَعِ عَلَى الرَّعْمِ مِنْ اخْتِلَافِهِمُ الدِّينِيِّ وَالْمَذْهَبِيِّ، وَالتَّعَايِشُ السَّلْمِيُّ: تَعْبِيرٌ يُرَادُ بِهِ خَلْقٌ جَوٍّ مِنْ التَّفَاهُمِ بَيْنَ الشُّعُوبِ بَعِيدًا عَنِ الْحَرْبِ وَالْعُنْفِ<sup>(٢)</sup>.

**ثانيا - مفهوم التعايش اصطلاحاً:** عرفه الأستاذ أحمد عباس بقوله: "اجتماع مجموعة من الناس في مكان معين، تربطهم وسائل العيش، من المطعم والمشرب، وأساسيات الحياة، بغض النظر عن الدين والانتماءات الأخرى، يعترف كل منهم بحق الآخر دون اندماج، وانصهار"<sup>(٣)</sup>.

#### الفرع الثاني: مفهوم القيم: وسنتناوله من خلال ما يأتي:

**أولا - مفهوم القيم لغة:** إن مصطلح القيم يطلق في لغة العرب، ويراد به الفضائل التي تحجز

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة. ٤ / ١٩٤.

٢- معجم المعاني الجامع، تاريخ الزيارة هو، 14/08/2018. [www.almaany.com/ar/dict/ar-ar](http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar) / تعايش/.

٣- التعايش مع غير المسلمين، وأثره في الفكر الإسلامي، أحمد عباس، ص ١٢، نقلاً عن، صبحي أفندي الكبيسي، وعبدالله حسن الحديثي، "الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي"، مجلة مداد الآداب، ع ٣، ص ٣٢٤.

صاحبها عن الوقوع في مذمّات الأمور ونقائصها، والآداب التي تدعو للمحامد، وتنهى عن المقايح والأخلاق التي تؤصل لكريم الطباع، وجميل السجايا<sup>(١)</sup>.

**ثانيا - مفهوم القيم اصطلاحا: عرفت بأنها:** "طريقة في الوجود، أو في السلوك يعترف بها شخص أو جماعة على أنها مثال يحتذى، وتجعل من التصرفات، أو الأفراد الذين تنسب إليهم أمرا مرغوبا فيه، أو شأنه مقدرا خيرا تقديرا"<sup>(٢)</sup>.

**الفرع الثالث: مفهوم المواطنة:** سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم المواطنة لغة:** المواطنة اسم، وهي مصدر وَاطَنَ، وهي صفة للمواطن، تقول: وَاطَنَهُ عَلَى الْأَمْرِ: وَافَقَهُ عَلَيْهِ، وَوَاطَنَ سُكَّانَ الْبَلَدِ: عَاشَ مَعَهُمْ فِي وَطَنٍ وَاحِدٍ<sup>(٣)</sup>، ومنه فالمواطن هو الذي يتمتع بالحقوق التي يتمتع بها أبناء دولته أو مدينته<sup>(٤)</sup>.

**ثانيا - مفهوم المواطنة اصطلاحا: عرفت بأنها:** "اصطلاح يشير إلى الانتماء إلى أمة، أو وطن"<sup>(٥)</sup>، وكون المرء مواطنا من مواطني دولة ما، له فيها حقوق وامتيازات تكفلها له الدولة وبالمقابل عليه الالتزام بالواجبات التي تفرضها عليه، فإذا التزم بذلك أُعْطِيَ حق المواطنة<sup>(٦)</sup>.

**الفرع الرابع: مفهوم الوطن:** سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

**أولا - مفهوم الوطن لغة:** هو منزل الإقامة، وموطن الإنسان ومحله، قال رؤبة:

**كَيْمَا تَرَى أَهْلَ الْعِرَاقِ أَنِّي** **أَوْطَنْتُ أَرْضًا لَمْ تَكُنْ مِنْ وَطَنِي<sup>(٧)</sup>**

- ١- ابن منظور، لسان العرب ١٢/ ٢٢٥ - ٢٢٩، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ٢٠ / ٧٦٨.
- ٢- مليحة عوني الصغير، ومعن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، ص ٩٣.
- ٣- معجم المعاني الجامع. www.almaany.com/ar/dict/ar-ar. مادة، مواطنة، تاريخ الزيارة، ١٨ / ٨ / ٢٠١٨.
- ٤- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ٢ / ٤٣٩.
- ٥- الموسوعة العربية العالمية، ص ٣١١.
- ٦- معجم اللغة العربية المعاصرة، تمت زيارة موقعه بتاريخ، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨ م،  
www.maajim.com/dictionary/المواطنة
- ٧- ابن منظور، لسان العرب ١٥ / ٢٣٩.

## ثانيا - مفهوم الوطن اصطلاحا:

عرفه الجرجاني بقوله: "الوطن الأصلي، هو مولد الرجل، والبلد الذي هو فيه"<sup>(١)</sup>.

**المبحث الأول: مظاهر التعايش في الوطن الإسلامي بين المسلمين ومواطنيهم من معتنقي الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة**

لقد خط الإسلام جملة من القيم في تعامله مع المخالفين له في الدين، نحاول عرضها عبر الفروع الآتية:

**الفرع الأول: مظاهر التعايش السياسية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن مظاهر التعايش السياسية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى متعددة نجملها في الآتي:**

**أولا - مراعاة حق المواطنة لهم:** إن مراعاة حق المواطنة لساكنة البلاد الإسلامية أساس صلب لإرساء قيمة التعايش السياسي بين أصحاب الملل المختلفة، وقد أرسى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الحق لمواطني البلاد الإسلامية، حيث نصّب نفسه حجيحا لمن يعتدي على حق المواطنة لهؤلاء وذلك بإذابتهم، أو انتقاص حقوقهم، أو تكليفهم من الأعمال فوق ما يطيقون، أو افتكاك أشيائهم واغتصابها، دون رضاهم فقال: "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَعِيرٍ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيحُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٢)</sup>. كما أن من مستلزمات المواطنة بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى فتح الباب على مصراعيه للكفاءات الوطنية، بغض النظر عن معتقدها

١- التعريفات، ص ٢٥٣.

٢- أبو داود، السنن، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجار، حديث رقم ٣٠٥٢، بسنده، عن أبي صخر المديني، أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ سُلَيْمٍ أَخْبَرَهُ عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَوْلَادِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ آبَائِهِمْ ذَنْبَةً، قَالَ الْإِمَامُ السَّخَاوِيُّ: "وسنده لا بأس به، ولا يضر جهالة من لم يسم من أبناء الصحابة، فإنهم عدة، ينجر به جهالتهم، ولذا سكت عليه أبو داود". المقاصد الحسنة ١ / ١٨٥، ثم قال: "وله شواهد بينها في جزء أفرده لهذا الحديث"، وقال الإمام العراقي: "وهذا إسناد جيد وإن كان فيه من لم يسم، فإنهم عدة من أبناء الصحابة، يبلغون حد التواتر، الذي لا يشترط فيه العدالة". فتح المغيث ٤ / ٤، وصححه الشيخ الألباني، السلسلة الصحيحة، برقم ٤٤٥.

الديني، لتدلي بدلائها الفكرية، وتجاربها الحية، وهذا كله من أجل تقديمها للوطن ما ينفعه من استشارات فكرية، وخبرات ميدانية، لا سيما أن المواطن غير المسلم قد يكون أكثر تجربة، وأرحب عقلا، من بعض مواطنيه من المسلمين، فيما يتعلق ببعض مجالات الحياة المختلفة، ما يجعل الوطن لا يستغني عن آرائه الحصيفة، ومشوراته السديدة، وحسه الوطني، وإشفاقه على مصلحة الوطن، وقديما قيل: "مشورة المشفق الحازم ظفر"، ومشورة غير الحازم خطر"<sup>(١)</sup>، وقال الإمام القرطبي: "وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلاً مجرباً واداً في المستشير"<sup>(٢)</sup>، وهذا دون شك يعزز قيم التعايش السياسي بين أبناء الوطن الإسلامي، حيث لا يشعر فيه أحد بالدونية بسبب معتقده، أو قناعاته الفكرية، بل يجد نفسه على قدم المساواة في الحصول على الحقوق والامتيازات مع بقية مواطنيه من المسلمين، فلا يشعر البتة بأنه مواطن من الدرجة الثانية، بل يجد نفسه مع بقية مواطنيه كفرنسي رهان، يتمتع بما يتمتع به مواطنوه حذو القذة بالقذة، لا ينقص عنهم في استيفاء حقوقه، وتحصيل امتيازاته شرواً نقيراً.

ثانيا - جواز جوارنا وتأميننا لهم: لقد حرص الإسلام على تأمين مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، الذين يعيشون في ربوع الوطن الإسلامي، فمنح مواطنيهم من المسلمين حق جوارهم، وحمائيتهم، حيث لا يمكن خفر ذمة مسلم أدخل موطننا مخالفا له في النحلة في حمايته، وهو ما يؤكد ما رواه أبو النضر مولى عمر بن عبّيد الله أن أبا مرة مولى أم هانئ ابنة أبي طالب أخبره: أنه سمع أم هانئ ابنة أبي طالب تقول: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تسترّه، فسلمت عليه، فقال: من هذه فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحباً بأم هانئ فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثمان ركعات، ملتحفاً في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله، زعم ابن أمي، علي، أنه قاتل رجلاً قد أجزته، فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: قد أجزنا من أجزت يا أم هانئ قالت أم هانئ: وذلك ضحى<sup>(٣)</sup>.

قال الحافظ ابن حجر: "إذا أمن الكافر واحد منهم حرم على غيره التعرض له ولأمان... والمعنى أن ذمة المسلمين سواء صدرت من واحد، أو أكثر، شريف، أو ضيع، فإذا أمن أحد من

١- الماوردي، أدب الدنيا والدين ص ٣٠٢.

٢- الجامع لأحكام القرآن. ٤/ ٢٤٠.

٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، حديث رقم ٣١٧١، واللفظ له.

المسلمين كافراً، وأعطاه ذمة لم يكن لأحد نقضه، فيستوي في ذلك الرجل، والمرأة، والحر، والعبد، لأن المسلمين كنفس واحدة"<sup>(١)</sup>.

**والخلاصة:** أن المتأمل بإمعان في كل ما أوردناه من مظاهر للتعايش السياسي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة يلحظ أنها تصب في مجموعها في بوتقة ترقية حماية الوطن، وتعزيز أمنه واستقراره، وذلك أن هذا المواطن إذا وجد أن جميع حقوقه السياسية مكفولة، وذلك بحصوله على كل الحقوق والامتيازات التي يتمتع بها مواطنه المسلم، من الاعتداد باستشاراته، ومشاركته في انتخاب ممثليه، وإمكانية ترشحه لبعض المسؤوليات السياسية، فضلاً عن شعوره بالحماية، والأمان اللذين توفرهما له جنسية وطنه، لا شك أنه سيكون حصناً منيعاً لحماية هذا الوطن، والذود عن حياضه، وعدم التآمر عليه، لأنه يجد فيه الحضن الدافئ، والصدر الحاني، أما إذا حدث العكس، وذلك بأن أحس هذا المواطن، الذي لا يدين بالإسلام بأنه مهمش، ومحتقر، وأنه لا يتمتع بالحقوق ذاتها التي ينعم بها مواطنه المسلم، فإنه لا محالة سيكون ناقماً على هذا الوطن، الذي يحسّ فيه بالدونية، والصغار، ما يجعله يفكر في الثأر منه، وذلك بتخريب مقدراته، متى ما سنحت له الفرصة بذلك، وعدم الإخلاص له، بل قد يشوش على سمعته خارجياً، بحجة انتهاكه لحقوق الأقليات، وقد يتجاوز الأمر ذلك إلى الاستعانة بالأجنبي في تحصيل حقوقه، لا سيما وأنا في عالم منفتح بعضه على بعض، ما يؤدي إلى التدخل في شؤونه الداخلية، وذلك بالتضييق عليه تارة، وهرن قراراته السيادية تارة أخرى، وقد يصل الأمر مداه؛ إلى التدخل العسكري بحجة حماية هؤلاء المواطنين الذين انتهكت حقوقهم بسبب دياناتهم ونحلهم، وهذا دون ريب، يضرب حماية الوطن، وسلامة ترابه، وأمن مواطنيه، واستقرار ساكنته في مقتل، ولا مخلص من ذلك إلا بإعطاء هؤلاء المواطنين حقوقهم كاملة غير منقوصة، كما نصت على ذلك شريعتنا الغراء التي توخت في تشريعاتها مقاصد شتى، يأتي في طليعة سُلّم أولوياتها حماية الأوطان، المفضية إلى التعايش السلمي بين قاطني البلاد الإسلامية.

**الفرع الثاني:** مظاهر التعايش الاجتماعية والأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: وسنتناوله انطلاقاً من البندين الآتيين:

**البند الأول:** مظاهر التعايش الاجتماعية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن المتأمل للعلاقات الاجتماعية التي أرساها الدين الإسلامي الحنيف في تعامل المسلمين مع مخالفيهم في العقيدة عموماً، وممن يجمعهم بهم حق المواطنة خصوصاً يلمس سماحة قيمه في تعاملاته مع مخالفيه، والمنبئية على التعايش بين أتباعه ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، ممن يضمهم وطن واحد، وتجمعهم جنسية مشتركة، ويحكمهم قانون يطبق على الجميع، دون النظر لانتماء ديني معين، ما يجعل من هذا التعايش الاجتماعي واقعا معيشا بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، وذلك من خلال إبراد بعض النماذج لهذه السلوكات الاجتماعية، على سبيل التمثيل لا الحصر، وإبرازها في النقاط الآتية:

**أولاً - مبرتهم ومعاملتهم بالقسط:** لقد ندب الإسلام أتباعه إلى مبرة مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، ومعاملتهم بالعدل والقسط؛ حيث لم يجعل كفرهم سبباً للإساءة إليهم، أو الحيف في التعامل معهم، لا سيما إذا جعلوا من السلم شعاراً، ومن احترام روح المواطنة دثاراً، ومن إرساء وترسيخ مبدأ التعايش الاجتماعي منهاجاً ومسلكاً، فإن ذلك يعزز مبرتهم، ويوجب الإحسان إليهم، ويؤكد تمتعهم بحقوق وامتيازات المواطنة، التي يتمتع بها مواطنوهم من المسلمين، هذه المواطنة التي تجعلهم جميعاً يحرصون على التعايش الإيجابي فيما بينهم، تغليباً لمصلحة أمن الوطن وسكينة، وإسهاماً في رقيه وازدهاره؛ قال الله عز وجل:

﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) الممتحنة: ٨.

قال الإمام الطبري: " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتَلُوا فِي الدِّينِ﴾ الممتحنة: ٨، من جميع أصناف الملل والأديان أن تَبَرُّوهم وتصلوهم، وتُقْسِطُوا إليهم... إن الله يحبّ المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويُحْسِنون إلى من أحسن إليهم" (١).

**ثانيا - تأمين أرواحهم والإيصال بهم خيرا والتحذير من ظلمهم:** إن تأمين أرواح مواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى، والإيصال بهم خيرا، والتحذير من ظلمهم، أو الاعتداء عليهم يُعدُّ ركنا ركينا، وأساسا مكينا للتعايش الاجتماعي معهم؛ فقد جاءت نصوص السنة محدرة من الاعتداء على أرواحهم، حفاظا على حق المواطنة لهم، وتأمينا للمجتمع من الاضطرابات التي تنجم من جراء ذلك، وتأصيلا لمقصد الحفاظ على النفوس، الذي يحقق قيم السكنينة، والسلام، والأمن في ربوع الوطن المشترك، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه : **عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"**<sup>(١)</sup>.

كما جاءت النصوص حاثثة على اتقاء دعوة مظلومهم، موصية بهم خيرا، موجبة الوفاء لهم بعهودهم، والدفاع عنهم من أي خطر يحدق بهم، وعدم تكليفهم من الأعمال فوق وسعهم، فعن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: **سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ"**<sup>(٢)</sup>. وعن عمرو بن ميمون أن عمر رضي الله عنه قال - في وصيته للخليفة الذي بعده: **"وَأَوْصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ أَنْ يُؤْتِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلَا يُكَلَّفُوا إِلَّا طَاقَتَهُمْ"**<sup>(٣)</sup>. قال الإمام القراني في معرض حديثه عن تحريم الظلم لمواطني الدولة الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى: **"فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذى، أو أعان على ذلك، فقد ضيَّع ذمَّة الله تعالى وذمَّة رسوله وذمة دين الإسلام"**<sup>(٤)</sup>.

**ثالثا - تبادل الهدايا معهم:** إن تبادل الهدايا بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى يعد مظهرا من مظاهر التعايش الاجتماعي بينهم، يعززه قوله تعالى: **﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ**

- 
- ١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، حديث رقم ٣١٦٦.
  - ٢- أحمد، المسند، مسند المكثرين من الصحابة، مسند، أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، حديث رقم ١٢٥٤٩، وقال فيه الشيخ شعيب الأرنؤوط: **"إسناده صحيح على شرط الشيخين"**، وصححه الألباني، في صحيح الجامع، حديث رقم ١١٩.
  - ٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهم، حديث رقم ١٣٩٢.
  - ٤- الفروق، ٣ / ١٤.

عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْنِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴿۸﴾ الممتنحة: ٨،  
 ويدعمه إهداء عمر بن الخطاب رضي الله عنه حلة لأخ له مشرك بمكة قبل أن يسلم أخوه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأى عمر حلة على رجل تباع، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ابتع هذه الحلة تلبسها يوم الجمعة وإذا جاءك الوغد. فقال: إنما يلبس هذا من لا خلاق له في الآخرة، فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم منها بحل، فأرسل إلى عمر منها بحلة، فقال عمر: كيف ألبسها وقد قلت فيها ما قلت؟ قال: إني لم أكسكها لتلبسها، تبيعها أو تكسوها. فأرسل بها عمر إلى أخ له من أهل مكة، قبل أن يسلم<sup>(١)</sup>. وعن مجاهد أن عبد الله بن عمرو دحيت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورته<sup>(٢)</sup>.

كما بوب الإمام البخاري في جامعه لذلك بقوله: باب قبول الهدية من المشركين<sup>(٣)</sup>، وقال الإمام ابن حزم: "وإعطاء الكافر مباح، وقبول ما أعطى، هو كقبول ما أعطى المسلم"<sup>(٤)</sup>، وهذا دون ريب يرسخ قيم التعايش الاجتماعي، ويدعم أسس الألفة بين مواطني البلد الواحد، وينشر المودة والمحبة، ويمتد الروابط والشائج بينهم، ويزيل الشحناء والبغضاء من نفوسهم، فضلا عن تقريب بعضهم إلى بعض وتحيبهم، من أجل أن تكون الحياة طيبة، وأبناء الوطن متعاونين، والأمور ميسرة، ولا شك أن مجتمعا يتبادل أفراد الهدايا، ويفكر بعضهم في بعض، متغلبين على روح الأثرة في نفوسهم، جاعلين الإيثار منهجا ومسلكا، ومشركين مواطنيهم في ذلك، بغض النظر عن مللهم ومعتقداتهم؛ لجدير بأن تبنى على كواهل حضارات، يسودها التعايش، والمودة، والمحبة، والتآخي في الإنسانية، قصد استشعار روح المواطنة المسؤولة، والفاعلة، والمساهمة في الحراك الموصل للنهوض بالوطن المشترك، والسمو به إلى أعلى درجات التقدم والرفي والتحضر.

#### رابعا - تبادل العواري بينهم: إن تبادل العواري بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل

- ١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦١٩.
- ٢- الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حق الجوار، حديث رقم ١٩٤٣، قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وقد روي هذا الحديث عن مجاهد عن عائشة وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا".
- ٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، ٩٢٢ / ٢.
- ٤- المحلى ١٥٩ / ٩.

الأخرى يُعدُّ وجهاً من أوجه التعاون، والتعايش الاجتماعي بين ساكنة البلاد الإسلامية، بغض النظر عن مللهم ونحلهم؛ إذ الإنسان في هذا المجتمع محتاج إلى ما في يد أخيه الإنسان؛ حيث لا يستطيع أن يستغني عن إعانتته، ولو حرص على ذلك، ما يجعل العارية نوعاً من أنواع البر والإحسان، التي تقوى بها روابط التعايش، وأواصر المودة والمحبة بين مواطني البلاد الإسلامية. وإن ما يؤكد هذا التعايش في نصوص السنة النبوية استعارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أذراعاً من مواطنه صفوان بن أمية، وهو مشرك في غزوة حنين، وقد نقل ذلك الحاكم النيسابوري: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سَارَ إِلَى حُنَيْنٍ... ثُمَّ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - إِلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فَسَأَلَهُ أَذْرَاعًا مِائَةَ دِرْعٍ، وَمَا يُضْلِحُّهَا مِنْ عُدَّتِهَا، فَقَالَ: أَغْضَبًا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - سَائِرًا<sup>(١)</sup>.

**خامساً - عيادة مريضهم:** أباحت الشريعة الإسلامية عيادة المرضى، ولو كانوا على غير دين الإسلام، ويتأكد ذلك، إذا كان المريض من أصحاب الملل الأخرى يقاسم المسلم وطناً مشتركاً، فإن ذلك أدعى لعيادته، وأدعم لروح التعايش معه، وأظهر لخالل الإسلام السمحة، عسى أن يكون ذلك سبباً في هدايته، والتحاقه بحافل المؤمنين من أبناء وطنه من المسلمين. قال بدر الدين العيني - رحمه الله -: "جواز عيادة أهل الذمة، ولاسيما إذا كان الذمي جاراً له، لأن فيه إظهار محاسن الإسلام، وزيادة التآلف بهم، ليرغبوا في الإسلام"<sup>(٢)</sup>.

هذا وقد جاءت نصوص السنة النبوية نادرة لذلك، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ غُلَامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَسْلِمَ". فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه، فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَهُوَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

١- الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین - کتاب المغازی والسرایا - ذکر غزوة حنین واجتماع الأنصار عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حديث رقم ٤٣٩٤، وقال عقبه: "صحيح الإسناد، ولم يُخرجه"، وعلق عليه الإمام الذهبي في التلخيص بقوله: "صحيح"، وقال الشيخ الألباني، حسن الإسناد، إرواء الغليل، برقم ١٥١٣.

٢- عمدة القاري، ٨ / ١٧.

أَتَقَدَّهُ مِنَ النَّارِ"<sup>(١)</sup>. مما سبق يمكن القول بأنه لا شك أن عيادة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لمرضى مواطني دار الإسلام من أصحاب الملل الأخرى، كما صنع مع الغلام اليهودي، يعد مظهرا رائعا من مظاهر التعايش الاجتماعي بين المسلمين ومواطنيهم ممن لا يدينون بالإسلام، كما يُعدُّ سلوكا إنسانيا مؤصلا لروح التواصل، والتآلف بين أبناء الوطن الواحد، ومجسدا لأواصر الرحمة التي تقتضيها الطبيعة الإنسانية، التي تقوم على التعايش بين بني البشر، وذلك لكون زيارة المسلم للمريض الكافر تعد سلوكا نابعا من تلك الرحمة التي قذفها الله عز وجل في قلب المؤمن، وهو شعور يجعل المسلم يرقُّ لآلام الخلق، ويسعى لإزالتها، وهذه الرحمة ليست إلا كاملا في الطبيعة الإنسانية، التي فطرت على التعايش، والتآلف بين المتساكنين في الوطن الواحد.<sup>(٢)</sup>

**والخلاصة:** أن المتأمل بإمكانه في كل ما أوردناه من مظاهر إيجابية للتعايش الاجتماعي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة النبوية الشريفة، يلحظ أن لذلك تأثيرا بالغا في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على أمنه، وسلامته من الفتن، التي تعصف بكينونته من القواعد، وذلك أن هذه الأقلية من أصحاب الملل الأخرى والتي تقطن بلاد المسلمين، حينما يشعر أفرادها بأنه يطبق عليهم ما يطبق على مواطنيهم من المسلمين من قوانين تضبط الجميع، دون انحياز، أو محاباة، أو حيف؛ لا شك أن ذلك سيشرعهم بأنهم مواطنون من الدرجة الأولى، وهذا دون ريب سينعكس بالإيجاب على أمن الوطن وحمايته، وذلك لأن الفرد إذا شعر بانتقاص في كرامته، أو أحسَّ بعدم المساواة مع مواطنيه، فكر في الانتقام، والدسياسة، وعدم الإخلاص لهذا الوطن، بل وخيانتته، غير آبه بأمنه واستقراره وحمايته.

هذا، وإن هذه الأقلية من أصحاب الملل الأخرى التي تعيش في ربوع البلاد الإسلامية حينما تتلمس دفء العلاقات الاجتماعية في واقعها المعيش، فتجد مواطنيها من المسلمين يتبادلون معها الهدايا، ويعيرونها أمتعتهم، ويعودون مرضاها، يزيدونها هذا ارتباطا بمواطني هذا البلد، الذي تعزز فيه الأواصر الاجتماعية بين ساكنيه؛ ما يجعل الجميع يوجه كل طاقاته للحفاظ على هذه الروابط التي تُؤثِّلُ قيم المحبة، والتآلف، والتراحم، والتي دون ريب ستنعكس بالخير على أمن الوطن

١- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، حديث رقم ١٣٥٦.

٢- نور الدين محمد طاهر بن يريح، أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية ص ٦٩.

وحمايته، فتغيب من قاموسه تلك القيم السلبية التي قد ينجرّ عليها انحرام اللحمة الاجتماعية، لأن هذا المواطن إذا احتاج لشيء ما في يد موطنه ولم يتمكن من الحصول عليه بالطرق الحضارية، كالإهداء، وتبادل العواري، سوف يلجأ لأخذه عن طريق الغصب، أو السرقة، وهذا دون ريب سوف يؤثر في سلامة أمن الوطن وحمايته.

**البند الثاني: مظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:**

إن مظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى متعددة، بعضها خاص بأهل الكتاب كحلّ زواج المسلمين من نسائهم، وبعضها عام يشمل كل أصحاب الملل والنحل على اختلاف مشاربهم الدينية والعقدية؛ هذه المظاهر التي سنورد بعض نماذجها على سبيل التمثيل لا الحصر، على النحو الآتي:

**أولاً - حلّ زواج المسلمين من مواطناتهم من أهل الكتاب:** لقد منعت الشريعة الإسلامية زواج المسلم بالمشرقة لقوله ﷺ ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١، ولقوله أيضا: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا بِعِصْمِ الْكُوفِرِ ﴾ المتحنة: ١٠، كما منعت زواج المسلمة بالكافر مطلقا لقوله عزّ وجلّ:

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ﴾ البقرة: ٢٢١. ولقوله أيضا:

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهِنَّ حُلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ المتحنة: ١٠، وذلك خوفا من أن يكون هذا الزواج سببا في فتنتها عن دينها.

بينما أجازت الشريعة الإسلامية للمسلم الزواج من مواطنته الكتابية التي لها دين سماوي، كاليهودية، والنصرانية لقوله ﷺ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ المائدة: ٥؛ إذ المتأمل في هذه الآية يجدها قد قيدت هذا الجواز بالإحصان أي: العفاف: كما ورد في قوله تعالى أيضا: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ المائدة: ٥.

بل إن زواج المسلم بالكتابية قد يتجاوز الجواز إلى الاستحباب، إذا رُجِيَ منه أن يكون سببا

في هداية هذه الزوجة والتحاقها بركب جحافل المؤمنين، وفي ذلك يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: "وقد يقال باستحباب نكاحها، إذا رجي إسلامها، فعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ: أَنَّ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تَزَوَّجَ بِنْتَ الْفَرَاغِصَةِ وَهِيَ نَضْرَانِيَّةٌ وَعَمَّتْ حَتَّى حَنَفَتْ<sup>(١)</sup> حِينَ قَدِمَتْ عَلَيْهِ<sup>(٢)</sup>، فأسلمت، وحسن إسلامها، وقد ذكر القفال: أن الحكمة في إباحة الكتابية ما يرجى من ميلها إلى دين زوجها، إذ الغالب على النساء الميل إلى أزواجهن وإيثارهم على الآباء والأمهات..."<sup>(٣)</sup>.

وعلى الرغم مما قرناه من حل نكاح الكتابية، بل ومن استحبابه في بعض الحالات، إلا أنه يحسن التنبيه إلى أن أحكام الإسلام يتأسس قوامها على الطهر، والعفة، وينبغي على مراعاة المصالح في المعاش والمعاد، ولذلك نجد أن الإسلام، وإن أباح نكاح الكتابية، إلا أنه خطأ قيودا لهذه الإباحة، فاشتراط في نسائهم عدم الخشية على عقيدة الأبناء، والعفة، وعدم بوار المسلمات، وذلك لما ورد عن الصَّلْتِ بْنِ بَهْرَامٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ يَقُولُ: تَزَوَّجَ حُدَيْفَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَهُودِيَّةً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنْ يُفَارِقَهَا، فَقَالَ: إِنِّي أَخَشَى أَنْ تَدْعُوا الْمُسْلِمَاتِ وَتَنْكِحُوا الْمُؤَمِّسَاتِ<sup>(٤)</sup>.

**قال أبو عبيد:** "يعني: العواهر؛ فنرى أن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، إنما ذهب إلى ما في الآية وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ المائدة: ٥، فيقول: إن الله

١- حنفت أي: أسلمت. ابن منظور، لسان العرب، ٤ / ٢٥٠.

٢- البيهقي، السنن الكبرى - كتاب النكاح - جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب وإمائهم وإماء المسلمين - باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الشرك دون أهل الكتاب وتحريم المؤمنات على الكفار، أثر موقوف رقم ١٤٠٩٣، قال فيصل بن عابد اللحياي: "وزواج عثمان من نائلة مستفيض، مشهور، لا يحتاج إلى إثبات، وقد كان أبوها نصرانيا، فتولى العقد أخوها." المرويات الموقوفة المسندة للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول....، حديث رقم ٣٢٥.

٣- المنهاج ٣ / ١٨٧.

٤- البيهقي، السنن الكبرى، كتاب النكاح، جماع أبواب نكاح حرائر أهل الكتاب وإمائهم وإماء المسلمين، باب ما جاء في تحريم حرائر أهل الشرك دون أهل الكتاب وتحريم المؤمنات على الكفار، حديث رقم ١٤٠٩٦، وصححه الشيخ الألباني في إرواء الغليل برقم ١٨٨٩.

إنما اشترط العفاف منهن وهذه لا يؤمن أن تكون غير عفيفة"<sup>(١)</sup>.

مما سبق يمكننا القول: إن زواج المسلم بمواطنته الكتابية بشروط وضوابط<sup>(٢)</sup> يندرج ضمن أرقى مراتب التعايش الأسري في الوطن المشترك؛ إذ يفتح بابا واسعا للعلاقات الأسرية المتينة، التي ترضى فيها أسرة الفتاة أن تصاهر أسرة هذا الفتى رغم تغاير الملة والدين، وأن يكون إخوة هذه الفتاة أحوالا لأبناء هذا الفتى، فهذا دون شك هو قمة التعايش الأسري الذي يصل فيه الانصهار بين الزوج والزوجة، وبين أسرتيهما إلى أن يقدم والد الفتاة الكتابية فلذة كبده، وقرّة عينه، وحشاشة روحه، لمواطنه المسلم، راضية بذلك نفسه، قريرة بفعله هذا عينه، ما يجعلنا نقول: إنه لا ريب أن مثل هذا الصنيع يصنف في أعلى مدارج التعايش الديني، وأسمى مراتب العلاقات الإنسانية.

**ثانيا - صلة ذوي القربى منهم:** لقد ورد من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: "قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي، قَالَ: نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ"<sup>(٣)</sup>.

إن في هذا الحديث رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين، ولم يقاتلوه، وفي هذا قمة التعايش الأسري، وذروة سنام التسامح بين المسلمين، وغيرهم من أصحاب الملل الأخرى؛ إذ لم ينه عن صلتهم، وبرّهم، كما لم يجعل كفرهم سببا لقطيعتهم.

هذا، وقد علق الإمام الخطابي - رحمه الله - على قصة وفود أم أسماء - رضي الله عنها - بقوله: "فيه أن الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة..."<sup>(٤)</sup>، يضاف إلى ذلك أن من مظاهر صلة ذوي القربى منهم الوصية لهم وذلك لأنهم لا يرثون المسلمين لاختلاف الدين، فنذبت الشريعة لهم الوصية برا وإحسانا لمكان قرابتهم، ما يجعلنا نقول: أي تعايش أسري هذا؟ وأي تسامح ديني

١- -الناسخ والمنسوخ ص ١٤٠.

٢- إن الإسلام وإن أباح نكاح الكتابية، إلا أنه وضع لذلك قيودا تتمثل في، ١ - عدم الخشية على عقيدة الأبناء، ٢ - العفة، ٣ - عدم بوار المسلمات، ٤ - ألا تكون حربية ٥ - ألا يكون ذلك في مواطن الأقليات المسلمة، راجع المتن قبل هامش، ٤٥.

٣- البخاري، الجامع الصحيح كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦٢٠.

٤- ابن حجر، فتح الباري ٥/٢٣٤.

هذا الذي أقره الإسلام وحبب فعله لمواطنيه من المسلمين تجاه أقاربهم من مواطني البلاد الإسلامية، رغم كفرهم؟؛ حيث ندب لهم الوصية لما منعهم من الميراث؛ قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ الأحزاب: ٦، قال الحسن: "إلا أن يكون لك ذو قرابة ليس على دينك، فتوصي له بالشيء من مالك، هو وليك في النسب، وليس وليك في الدين"<sup>(١)</sup>، وقال قتادة معلقاً على هذه الآية: "للقرابة من أهل الشرك وصية ولا ميراث لهم"<sup>(٢)</sup>.

**ومجمل القول:** إن الرائي لمظاهر التعايش الأسرية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى في نصوص السنة الغراء، يلمس فيها تعزيزاً، ودعماً لترقية حماية الوطن، وذلك من خلال تمتين روابط أواصر المصاهرة، وعلائق النسب بين أفرادها، ويتجلى ذلك في زواج المسلم من الكتائبية بشروط وضوابط؛ إذ تتولد عن هذا الزواج روابط نسبية بين الأم الكتائبية وأبنائها، وحرمة مصاهرة بين الزوج وأقارب زوجته، ما يولد علاقات طيبة بين أسرتي الزوج والزوجة؛ حيث تنأى هذه العلاقات بالطرفين في أن يفكر أحدهما في الكيد للآخر، أو ظلمه حفاظاً على وشائج المصاهرة، وحقوق الخؤولة والنسب، ومراعاة مصلحة الأبناء المتولدين عن هذا الزواج، وهذا دون ريب ينعكس إيجاباً على استقرار الوطن وأمنه وحمايته؛ إذ لا يختلف اثنان أن حماية الوطن، واستقراره وأمنه من استقرار خليلته الأساسية المتمثلة في الأسرة، التي إذا ما عم الوثام والتفاهم والتوادد، والحب بين أفرادها، انعكس ذلك على الوطن حباً، وتضحية، وحماية، وإذا حدث العكس نتج عن ذلك أفراد تحركهم الأحقاد، والعقد النفسية، ما ينعكس سلباً على الوطن الذي تنتشر من جراء ذلك بين أرجائه الأخلاق الدنيئة، والتصرفات السيئة التي تعصف بحماية مقوماته، وتنخر أمنه وتؤثر على سلامة مرتكزاته الخلقية، والدينية.

كما أنه، ونظراً إلى أهمية الأسرة في دفع عجلة ترقية حماية الوطن نجد السنة النبوية المطهرة دعت إلى تمتين الروابط بين أفرادها، وإن اختلفت مللهم ونحلهم، وذلك عن طريق تشريعها لصلة ذوي القربى منهم، والوصية لهم، والإحسان إليهم، وهذا كله دون ريب يسهم في استقرار الوطن وحمايته، وأمنه من خلال التعايش الإيجابي بين المسلمين، وأصحاب الملل الأخرى؛ إذ لا قطيعة

١- الجصاص، أحكام القرآن ٥/٢٢٤.

٢- الطبري، جامع البيان ١٠/٥٣.

رحم، ولا شحنةاء، ولا شح، ولا خلافة، ما يجعل الوطن مطهراً من مواطنين يسكن قلوبهم الغل، والبغي والحسد، وهذا دون شك يكون سببا في كسر جناح الوطن الأسري، هذا الجناح المتين، الذي يمثل العمود الفقري، وذروة السنام، وأس البناء، في ترقية حماية الوطن، والحفاظ على ديمومة أمنه واستمرارية استقراره.

**الفرع الرابع: مظاهر التعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** قال آدم ميتز: "ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخة في الصنائع التي تدرّ الأرباح الوفرة، فكانوا صيارفة، و تجاراً، وأصحاب ضياع، وأطباء، بل أهل الذمة نظموا أنفسهم حيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلاً يهود، على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طيبب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده"<sup>(١)</sup>.

هذا، وإن المتعمّن في نصوص مرويات السنة النبوية الشريفة، يلمس بجلاء مفاصل هذا التعايش الاقتصادي بين المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، والذي سنورد بعض نماذجه على النحو الآتي:

**أولاً - حلية الإجارة بينهم:** يعد عقد الإجارة بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، مظهراً من مظاهر التعاملات الاقتصادية بينهم، وذلك لأن الناس ليسوا على مستوى واحد من المعيشة، ومن امتلاك بعض الأدوات، واكتساب المهارات والخبرات، فيحتاجون إلى خدمة بعضهم بعضاً، فشرع عقد الإجارة بين المتساكنين في الوطن الواحد، بغض النظر عن مللهم ومعتقداتهم لما في ذلك من رفع الحرج عن الناس والتيسير عليهم في حياتهم؛ فالفقير مثلاً محتاج إلى مال الغني، والغني محتاج إلى عمل الفقير وخبرته، ومراعاة حاجة الناس أصل في شرع العقود<sup>(٢)</sup>، ولا شك أن مراعاة حاجة الناس تندرج ضمن مقصد التعايش الاقتصادي بين بني الإنسانية جمعاء، حيث يكمل بعضهم بعضاً، ولأدلّ على هذا التعايش من صنيع رسول الله - صلى الله عليه وآله

١- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٨٦/١.

٢- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الموسوعة الفقهية، ٢٥٤/١.

وسلم -، في استئجار مواطنه ابن أريقط، وهو على شركه ليكون له دليلا لرحلة الحجرة المباركة، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: "واستأجر النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلاً من بني الدليل، ثم من بني عبد بن عدي، هادياً خريئاً، الخريئ: الماهر بالهداية قد غمس يمين حلف في آل العاص بن وائل، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ، فأتاهما براحتيهما صبيحة ليالٍ ثلاث، فارتحلا، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل الدليلي، فأخذ بهم وهو طريق الساحل" (١).

يضاف إلى ذلك أن من مقتضيات التعايش الاقتصادي بين مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ونحلهم، أن كل فرد منهم مسخر لخدمة الآخر، وذلك في حدود طاقاته وإمكاناته الفكرية، والجسدية، وأن هذا التسخير يعد من المستلزمات التي تملئها روح المواطنة، وقد وضع القرآن الكريم ذلك في قوله عز وجل ﴿أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف: ٣٢.

قال الإمام ابن رشد الجد - (رحمه الله) - في تفسير هذه الآية: "يستسخر هذا في خدمته إياه ويعود هذا في خدمته إياه ويعود هذا على هذا في شدة في فضل الله، رخصة منه لعباده ونعمة عددها عليهم بأن جعل افتقار بعضهم لبعض سببا لمعاشرهم في الدنيا وحياتهم فيها حكمة منه لا إله إلا هو" (٢).

ثانيا - مشروعية الرهن بينهم: يُعدّ الرهن وسيلة رائدة، ومظهرا من مظاهر التعايش الاقتصادي بين ساكنة الوطن الواحد من المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، وذلك لما فيه من مد يد العون والإحسان للمحتاجين منهم، وفي ذلك يقول علي عثمان الفقي: "حرص الإسلام منذ شروق فجره على تشجيع مد يد العون لذوي الحاجة، والحرص على أن يتشبع المسلم بروح المواساة لبني جنسه، حتى يعيش المجتمع متراحما متواددا، وتشجيعا لهذا الغرض النبيل وضعت

١- البخاري، كتاب الإجارة، باب "استئجار المشركين عند الضرورة، أو إذا لم يوجد أهل الإسلام وعامل النبي صلى الله عليه وسلم يهود خيبر"، حديث رقم ٢٢٦٣.

٢- المقدمات بهامش المدونة، ٣/٣٥٤.

تشريعات تضمن الحقوق من الضياع، وتحفظها من الجحود، حتى يضل باب التعاون مفتوحا على مصراعيه، وبذلك تنعم البشرية بحياة تعطرها روح الإخاء، والتعاطف، والمودة<sup>(١)</sup>.

وحرصا على استمرارية روح التعايش بين المتعاملين مع بعضهم من بني البشرية شرع الرهن لحفظ الحقوق، وعدم انقطاع المعروف بين الناس، ليعيشوا متعاونين، متآلفين، وقد أعطى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - النموذج الأسمى في التعايش الاقتصادي مع مواطنيه، وذلك باستيفاء احتياجاته الغذائية من يهودي مقابل رهن درعه لحين استيفائه دينه، فما أروعه من تعايش، يحفظ حقوق كل من الدائن، والمدين، وهذا ما نتلمسه في نصوص السنة المطهرة، فعن أنس رضي الله عنه: "أَنَّه مَشَى إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم بِجُبِّ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سَنَخَةٍ<sup>(٢)</sup>، وَلَقَدْ رَهَنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم دِرْعًا لَهُ بِالْمَدِينَةِ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، وَأَخَذَ مِنْهُ شَعِيرًا لِأَهْلِهِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: مَا أَمْسَى عِنْدَ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم صَاعٌ بُرٍّ، وَلَا صَاعٌ حَبٍّ، وَإِنَّ عِنْدَهُ لَتَسْعَ نِسْوَةٌ<sup>(٣)</sup>، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "تُوِّفِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ"<sup>(٤)</sup>، وَعَنْهَا أَيْضًا - قَالَتْ: "اشْتَرَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم - طَعَامًا مِنْ يَهُودِيٍّ بِنَسِيئَةٍ وَرَهْنَهُ دِرْعًا لَهُ مِنْ حَدِيدٍ"<sup>(٥)</sup>.

**ثالثا - توظيف خبراتهم في مجال الاستثمار الزراعي:** ما لا شك فيه أن الشريعة الإسلامية تقوم على رعاية مصالح الناس في المعاش والمعاد، وما هو معلوم أن حاجة الناس ومصلحتهم تستدعي تشريع كل من المزارعة، والمساقاة؛ إن كثيراً من الناس تؤول إليهم ملكية بعض البساتين وذلك عن طريق الهبة، أو الميراث، أو الشراء، ولا يتيسر لهم القيام على استثمارها، وكذلك كثير من الناس قد لا تتيسر لهم أسباب ودواعي الملكية وهم من الخبراء بخدمة الأرض، وشؤون الزراعة، والاستثمار؛ إذ من الحكمة والمصلحة تسهيل الاتفاق بينهما على ما يصلح الشجر، وينضج الثمر،

١- فقه المعاملات . دراسة مقارنة . ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

٢- الإهالة السَّنَخَةُ هي: كل شيء من الأدهان، ما يؤتدم به إهالة، وقيل، هو ما أذيب من الألية، والشحم، وقيل، الدسم الجامد، والسَّنَخَةُ، المتغيرة الريح. ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٥٤ .

٣- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب البيوع - باب شراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالنسيئة، حديث رقم ٢٠٦٩ .

٤- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب وفاة النبي، حديث رقم ٤١٩٧ .

٥- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرهن، باب من رهن درعه، حديث رقم ٢٥٠٩ .

وينمي الإنتاج، ويوفر الأرباح، ويكون ذلك عن طريق عقدي المزارعة والمساقاة<sup>(١)</sup>، بين طرفين من أبناء الوطن الواحد، بغض النظر عن انتماءاتهم العقديّة، وقناعاتهم الدينيّة، خدمة لاقتصاد أوطانهم، وتنمية لمواردها، واستزادة لمداخيلها، واستخراجا لخيراتها، تحقيقا للتعایش الاقتصادي فيما بينهم، هذا التعایش الذي يحقق الرفاه المعيشي، والأمن الغذائي، والاكتفاء الذاتي، والذي خبر كنهه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -، فتعاقد مع بعض اليهود من مواطني خيبر، - التي صارت إحدى مناطق دولته، بعد فتحها، حيث أصبح مواطنوها من اليهود بعض رعايا البلاد الإسلاميّة -، على أن تبقى أراضي خيبر وشجرها تحت أيدي هؤلاء المواطنين من اليهود، ليعملوا على زراعتها وسقيتها، باذلين في ذلك كل ما لديهم من خبرة في المجال الزراعي، مقابل أخذهم نصف ما تنتجه الأرض، وما يثمره الشجر، و يؤكد هذا ما ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ حيث قال: "أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شرط ما يخرج منها"<sup>(٢)</sup>، وعنه أيضا: "أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دفع إلى يهود خيبر نخل خيبر وأرضها، على أن يعملوها من أموالهم، وأن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شرط ثمرتها"<sup>(٣)</sup>، وهذا هو التعایش الاقتصادي بحق، الذي لا يقصى منه طرف بسبب ملته، أو نخلته، وإنما يشترك في إرساء دعائمه جميع مواطني البلاد الإسلاميّة، على اختلاف معتقداتهم، وقناعاتهم، فهذا يشارك بالأرض، أو الشجر، وذاك بالخبرة، واليد العاملة الفنيّة، فيتعاون الجميع، خدمة لمصلحة الوطن وساكنيه، وارتقاء باقتصاده وأمنه الغذائي.

**أقول:** إنّ المستقرى للتاريخ يجد آثار هذا التعایش الاقتصادي قد آتت أكلها، وأينعت ثمارها، وحقققت مقاصدها؛ حيث نرى شعوبا بأسرها، و دولا بأكملها، اعتنقت الإسلام بسبب هذه التعاملات الاقتصاديّة والتجارية، دون أن يصلها فاتح، أو غاز، أو قائد عسكري، و إنما دخلوا في الإسلام عن طريق التجار، والنازحين إليها من المسلمين، الذين كانوا نماذج للقيم الفاضلة، والتعایش الاقتصادي، والقدوة السامية في أخلاقهم و تصرفاتهم، بل قد وصل المد الإسلامي

١- محمد فوزي فيض الله، الفقه الإسلامي، ص ٤٤٠.

٢- البخاري، كتاب الإجارة، باب إذا استأجر أرضا فمات أحدهما، حديث رقم ٢٢٨٥.

٣- مسلم، كتاب المساقاة، باب "المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع"، حديث رقم ١٥٥١.

للصين، و أندونيسيا التي تعد أكبر بلد إسلامي اليوم عن طريق هؤلاء<sup>(١)</sup> الذين قال عنهم توماس أرنولد الأستاذ بجامعة لندن: "إن الإسلام قد حلّ بأفئدة هؤلاء، وغمر قلوبهم بالإيمان، عن طريق التجار، و النازحين إليها، و غيرهم ممن كانوا أمثلة للناس في سلوكهم و أفعالهم، وكانوا حقا أئمة يهدون بأمر الله"<sup>(٢)</sup>.

**وصفوة القول:** إن الناظر لما عرضناه من مظاهر للتعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى من خلال نصوص السنة النبوية الكريمة، يلحظ ارتباطها الرئيس بحماية الوطن وأمنه المالي والغذائي، وتحريره من التبعية الخارجية، فاستغلال خبرات غير المسلمين من مواطني البلاد الإسلامية في المجال الزراعي مثلا يُفضي إلى وفرة الإنتاج، وجودة المحاصيل، ما يؤدي إلى الاكتفاء الذاتي، الذي يعزز الأمن الغذائي للوطن، ما يجعله في حماية من أي ضغوطات، أو مساومات أجنبية، تتعلق بلقمة عيش مواطنيه.

كما أن الناظر في مشروعية الكثير من التعاملات الاقتصادية بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى يجدها تدعم تعزيز الحماية الاقتصادية للوطن، وذلك عن طريق إيجاد مناصب شغل لمواطني البلاد الإسلامية من خلال توظيفهم في دفع عجلة التنمية وإسهامهم في كل ما يخدم الحماية الاقتصادية للوطن من بيع وشراء، ومبادلات تجارية واستغلال خبرات بعضهم قصد الاستفادة مما يمتلكونه من تفوق فكري، ويد عاملة فنية، بغض النظر عن مللهم ونحلهم، وهذا كله دون ريب سيسهم في امتصاص البطالة، التي إذا ما جثمت بكلكلها على صدر الوطن، جعلت من جبهته الاجتماعية حربا ضروسا عليه، يغذي أوارها، ويشعل فتيل شرارها تلك الأيدي المعطلة، والبطون الجائعة، ما يجعل أمن الوطن وحمايته وسلامة استقراره في مأزق، ولا مخلص من ذلك إلا بالتعايش الاقتصادي بين المسلمين ومواطنيهم، وذلك بوضع اليد في اليد، عن طريق التعاون المثمر لتحريك دواليب الاقتصاد الوطني، حماية للوطن من التبعية الأجنبية، وتأمينا لجبهته الاجتماعية من أن ينفرد عقدها المصون وحفاظا على سلمه واستقراره، حيث يعيش فيه جميع مواطنيه في صفاء وإخاء، وتراحم، وتعاون وتعايش في كنف نظام اقتصادي قوي قادر على توفير

١- عاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي، ص ٧٨.

٢- الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٢ وما بعدها.

كل ضروريات العيش الكريم للمواطن، والحماية الحقيقية للوطن.

## المبحث الثاني: ترسيخ الإسلام لقيم الحرية الدينية لمواطنيه أساساً للتعيش والمواطنة وترقية لحماية الوطن:

يدعي كثير ممن يناصبون الإسلام العدا المقيت أنه لم يعط هامشاً للحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، بل إنه صادرها منهم، وطمس معالمها في نصوصه وتشريعاته، وواقعه المعيش، ما يجعل هذه الدراسة مُلزِمة بإبراز الأسس المظهرة لهذه الحرية، حتى تتجلى عظمة الإسلام في إقراره لمبدأ الحرية الدينية، وحيازته لقصب السبق في عدم المساس بها، ولو كانت مخالفة لما جاء به، حيث إن المتأمل لنصوص الكتاب والسنة، يجدها مألئى بما يدعم الحرية الدينية في الإسلام، ويجعل أصولها ومؤيداتها ماثلة للعيان، يسهل استنباطها منها، بما لا يدع مجالاً للحاقد، أو مكابر، أو طاعن فيها، بل يجد الإسلام قد جعلها أصلاً أصيلاً، وركناً متيناً، من مقومات التعيش الديني بين مواطنيه في البلاد الإسلامية، واعدّها أساساً صلباً لأمن الوطن واستقراره، ما حدا بنا إلى تناول ذلك كله وبيانه من خلال الفروع الآتية:

### الفرع الأول - تعريف الحرية الدينية: سنتناوله على النحو الآتي:

أولاً - تعريف الحرية: سنتناوله بشقيه اللغوي والاصطلاحي على النحو الآتي:

أ - تعريفها لغة: (الحُرُّ) بالضم من الرمل ما خلص من الاختلاط بغيره و(الحُرُّ) من الرجال خلاف العبد مأخوذ من ذلك لأنه خلص من الرق وجمعه (أحرارٌ) <sup>(١)</sup>.

ب - تعريفها اصطلاحاً: "هي ما يميز الإنسان عن غيره، ويتمكن بها من ممارسة أفعاله، وأقواله، وتصرفاته، بإرادة واختيار، من غير قسر، ولا إكراه، ولكن ضمن حدود معينة" <sup>(٢)</sup>.

ثانياً - تعريف الحرية الدينية: وهي: "أن يتمتع الإنسان بحق اختيار ما يوصله إليه تفكيره، وتطمئن إليه نفسه من عقيدة، أو رأي دون إكراه، مع الأخذ بعين الاعتبار احترام سلامة النظام العام وأمن الأمة" <sup>(٣)</sup>.

١- الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ١/١٢٨.

٢- الزحيلي، حق الحرية في العالم، ص ٣٩.

٣- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ص ٤٩.

الفرع الثاني: الحرية الدينية أساس مكين لتعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى ومدى أثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة: إن المتأمل لنصوص الكتاب والسنة، يجدها ملامى بما يدعم قيم الحرية الدينية في الإسلام، ويتجلى ذلك من خلال إسقاطه الإكراه والإجبار في اعتناق عقيدة بعينها، وذلك لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة: ٢٥٦، وقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٩) يونس: ٩٩، وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الكهف: ٢٩؛ حيث ضمن الإسلام حرية العقيدة لمواطنيه من أصحاب الملل والنحل المختلفة، فلا قهر، ولا إكراه، ولا قسر على الدخول في الإسلام، ما يبين أنهم نعموا في ظلّه بحرية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً<sup>(١)</sup>.

كما أن المتمعن في كتب السنن والسير، يجدها تعج بالنصوص والوقائع المؤصلة لمبدأ التعايش بين مواطني البلاد الإسلامية، على اختلاف مللهم ونحلهم، والتي تعد الحرية الدينية إحدى ركائز نجاح هذا التوافق الاجتماعي بينهم، هذه الحرية، التي جعلت من التسامح منهجاً، ومن التعايش سبيلاً، والتي أرسّت أسسها نصوص السنة المطهرة، ووقائع التاريخ الإسلامي المجيدة، والتي منها

ما ورد في وثيقة المدينة: "يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ<sup>(٢)</sup> إلا نفسه وأهل بيته..."<sup>(٣)</sup>، وكتاب الخليفة عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، وفيه: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم، وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقض منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، لا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم"<sup>(٤)</sup>.

مما سبق ذكره نقول: إن المتأمل لما ورد من نصوص في السنة المطهرة، مؤصلة لمبدأ الحرية الدينية كأساس مكين، وحصن منيع لتعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى

١- منيب محمد ربيع، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي وتطبيقاته، ص ١٣٥.

٢- يوتغ، وتغ وتغا إذا هلك، ويوتغ نفسه، يهلكها. الزمخشري، الفائق في غريب الحديث ٣/٤٤٤.

٣- ابن كثير، السيرة النبوية، ٢/٣٢٢، وابن هشام، السيرة النبوية، ٢ / ١١٤.

٤- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ٢/٤٤٩.

في البلاد الإسلامية، يلحظ مدى حرص الإسلام على حماية الوطن واستقراره، وذلك لأن هذا المواطن إذا شعر بالتضييق عليه في قناعاته الفكرية، ومعتقداته الدينية، كان أداة تخريب ومِعْوَل هدم لهذا الوطن، الذي لم ينعم فيه بحريته التي يرى أنه اعتُدي على صرحها المصون، وحصنها المشيد؛ فقد يلجأ إلى الكيد للوطن بطلبه الحماية من أطراف أجنبية، كما يشوه صورته على مستوى منظمات حقوق الإنسان، متهما إياه بخنق الحريات، والاعتداء على القناعات الشخصية، وقد يصل به الأمر إلى التنسيق مع مواطنيه من منتحلي ملتته، إلى المغالبة من أجل الحصول على هذه الحرية عن طريق بثّ الفوضى، والمهرج، وإقامة الاحتجاجات والمظاهرات، التي قد يبلغ مداها إلى حد رفع السلاح في وجه الأمنين، وهذا دون ريب سيكون له مفعوله السليبي على حماية الوطن، وسلامة مواطنيه، واستقرار ساكنته، ما يجعلنا نقول: إن منح الإسلام لحق الحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل والنحل المخالفة يعد طوق نجاة، وصمام أمان لحماية الوطن، وطمأنينة قاطنيه، فما أجله من تشريع وما أحكمها من تعاليم وما أروعها من حرية تفضي لحماية الأموال، والأرواح، والأديان، والأوطان وهذا هو عين مقاصد الشريعة الغراء، وأسس بناء تشريعاتها الحكيمة.

**الفرع الثالث: كفالة الإسلام لحرمة أديرة مواطنيه وكنائسهم من أصحاب الملل الأخرى، وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية أساس رصين للتعايش الديني وصمام أمان لحماية الوطن:** لقد جعل القرآن الكريم صيانة أماكن العبادة، وحرمة الشعائر الدينية للمسلمين، وغير المسلمين من أسباب الإذن بالقتال، لينعم الجميع بحريتهم الدينية، وألاّ تهم عليهم أماكن عبادتهم من الملاحدة وأشباههم<sup>(١)</sup> قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَّ مَتَّ صَوَامِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الحج: ٤٠.

مما سبق يتبين حرص الإسلام على إرساء حرمة أديرة، وكنائس مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وذلك من خلال كفالته لحماية أماكن عبادتهم، وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية، ما يجعل الجميع ينعم بحريته الدينية، وهذا دون شك يرسخ قيم التسامح، والتعايش الديني بين أفراد

١- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ٢٢٦ وعاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي ٧٤.

الوطن، وفتات مواطنيه رغم اختلاف قناعاتهم الفكرية، ومعتقداتهم الدينية، وهذا ما توضحه هذه النماذج الآتية:

أ- - كتاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأهل نجران باليمن وفيه: "ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد - ﷺ - على أموالهم، وأنفسهم، وأرضهم، وملتهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانته، ولا كاهن من كهانته، و ليس عليه دنية، ولا دم جاهلية، ولا يخسرون، ولا يعسرون، ولا يبطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً، فبينهم النصف غير ظالمين، ولا مظلومين..."<sup>(١)</sup>.

ب - مصالحة خالد بن الوليد لأهل الحيرة على "ألا يهدم لهم بيتاً، و لا كنيسة، و لا يمنعهم ضرب نواقيسهم، و لا إخراج صلبانهم يوم عيدهم"<sup>(٢)</sup> وكذا ما ورد في معاهدته لأهل عانات: "و لهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل، أو نهار، إلا في أوقات الصلوات، و أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم"<sup>(٣)</sup>.

**ومجمل القول:** إن كفالة الإسلام لحرمة أديرة مواطنيه وكنائسهم من أصحاب الملل الأخرى وإقرارهم على ممارسة شعائرهم الدينية يعدّ أساساً صلباً للتعايش الديني، وصمام أمان لحماية الوطن، وذلك أن هذا المواطن إذا وجد نفسه ممنوعاً من أداء شعائره، وألقى أماكن عبادته مهددة بالغلق، أو الهدم، أو التحويل إلى مرافق أخرى، لا شك أن هذا سيجعله يفكر في الانتقام لما طاله من حجر على قناعاته، وتضييق على مقدساته، وقد ينتقل من مواطن بارٍّ بوطنه، متعايش مع أفراد، باذل قصاري جهده لخدمته مضحٍ من أجله، إلى مواطن سلبي، يكره مواطنيه، ويكيد لهم، وقد يصل به الأمر إلى الاعتداء على دور عبادة المسلمين المتمثلة في المساجد، بل قد يبلغ الأمر مداه، إلى حد وضع القنابل والمتفجرات في ربوعها، ما ينتج عنه سقوط أرواح بريئة، وسفح دماء معصومة، وهذا كله ينعكس سلبياً على أمن الوطن وحمايته واستقراره، وعليه نقول: لا مخلص

١- أبو يوسف، الخراج، ص ٧٢، وابن كثير، البداية والنهاية ٣ / ٦٠/٥.

٢- أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٦.

٣- أبو يوسف، الخراج، ص ١٤٦.

من ذلك إلا بالالتزام بتطبيق التشريعات الإسلامية الواردة في نصوص الكتاب والسنة، والمؤصلة لصيانة أديرتهم، وكنائسهم، وبيعهم، ما يث الطمأنينة في نفوسهم ويشعرهم بأنهم يتمتعون بكامل الحرية الدينية والرعية الوطنية، فيكونون بذلك أداة بناء في أوطانهم يدافعون عنها بالغالي والنفيس وبذلك تحمي الأوطان، وتتعايش الأديان، وتأتلف الحضارات وتأتى بنفسها عن التصادم والصراعات.

**الفرع الرابع: قيود الحرية الدينية الملزمة لمواطني البلاد الإسلامية من أصحاب الملل الأخرى ودورها في ترقية حماية الوطن:** لقد كفل الإسلام لمخالفه حرية العقيدة، بل وسمح بممارسة مظاهرها من مناقشات تدور في شأنها، وشعائر تقام عليها، ولكنه في مقابل ذلك لم يترك هذه الحرية على عواهنها بل جعل لها قيودا وضوابط حتى يكفلها الكفالة الصحيحة التي لا عوج فيها ولا أمتا، ومن ثم لا يسمح لهذه الحرية أن تتعدى حدودها، وتتجاوز نطاقها بهدف الفتنة والاضطراب، والإثارة، ونشر الإلحاد، والكفر، والزندقة، واستعمال القوة والعنف، فإن حدث شيء من ذلك، أوجب الإسلام على الحاكم المسلم تأميننا للوطن، وإقرارا لقيم السكينة، والتعايش الديني، ودفعنا للاضطراب أن يمنع ذلك حتى ولو أدى الأمر إلى القتال عملا بقوله عز وجل: ﴿ وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنَّهُمْ فَلَاعُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩٣) البقرة: ١٩٣، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقِنَلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٩٠) النساء: ٩٠، وقوله: ﴿ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ التوبة: ٧<sup>(١)</sup>، هذا وإن كل ما يطلبه الإسلام من المواطنين من غير المسلمين، أن يلتزموا بقيود، وضوابط هذه الحرية التي نعموا بها في ظل تعايشهم مع المسلمين من أبناء وطنهم، والتي يمكن إجمالها فيما يأتي:

**أولا -** عدم إظهار شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية، مراعاة لمشاعر مواطنيهم من المسلمين، وحرمة دينهم، وذلك لما في هذا الإظهار من تحد للوجدان الإسلامي، ما يؤدي إلى

١- صبحي عبده سعيد، السلطة والحرية في النظام الإسلامي - دراسة مقارنة -، ص ١٤١.

الفتنة والاضطراب<sup>(١)</sup>، وبذلك قال الحنفية<sup>(٢)</sup>، والحنابلة<sup>(٣)</sup>، ولكن الصواب الذي نراه في عصرنا الحاضر أنهم لا يمتنعون من إظهار شعائرهم، حيث يكون هذا الإظهار مشروطاً، ومقيداً بتوفر ضوابط منظمة لذلك، وهو ما ارتآه كثير من علمائنا المعاصرين، حيث يربوا جواز إظهار شعائرهم في البلاد الإسلامية، التي اتخذوها وطناً لهم، وذلك إذا أمن في هذا الإظهار الفتنة، وعدم استفزاز مشاعر الأغلبية المسلمة، والاحتراز من الوقوع في الاضطرابات، التي تهدد سلامة الوطن وساكنته، فإنه لا مانع من إظهارها، ولا شك أن في هذا تساوقاً، وتناغماً، مع تسامح الإسلام مع مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وأن ذلك يعد مظهراً رائعاً من مظاهر التعايش الديني، والحرية في ممارسة الشعائر، إذ لا إغلاق لباب الحريات أمام مواطني البلاد الإسلامية، بسبب نحلهم الدينية، وهذا دون ريب ينعكس إيجاباً على الوطن، بأن يسود مواطنيه التآلف، والتراحم، والتعاون، ويعم في ربوعه الأمن، والأمان، والسلم، والسلام، والطمأنينة، والسكينة، والوثام.

ثانياً - عدم السماح لجميع مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ومعتقداتهم الدينية بتوجيه الإهانات للرموز الدينية، أو الإساءة إلى الديانات السماوية، أو الازدراء بالأنبياء أو الرسل، أو السخرية منهم، لأن ذلك يشكل انتهاكاً للحرية الدينية التي ينعمون بها.<sup>(٤)</sup> وقد نعى القرآن الكريم على الأطراف التي تسيء للرموز الدينية، فقال عن أصحاب الملل الأخرى: " وَإِن نَّكُوثُوا يَمَنَّاهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَدِ ابْتُلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَأَ أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ التوبة: ١٢ والطعن في الدين، أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف والاستنقاص على ما هو منه<sup>(٥)</sup>. كما نهى المسلمين عن الإساءة لغيرهم ممن يخالفونهم في العقيدة، فخطبهم بقوله: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ الأنعام: ١٠٨

- ١- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ص ٢٢٧.
- ٢- الكاساني، بدائع الصنائع، ١١٣/٧.
- ٣- البهوتي، كشاف القناع، ٧٢١/١.
- ٤- سعدي محمد الخطيب، حرية المعتقد و أحكامها التشريعية و أحوالها التطبيقية و أهميتها في حوار الأديان، ص ٥٥-٥٧.
- ٥- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٨٠ / ٢٠.

قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِرَسُولِهِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ عَنِ سَبِّ آلِهِ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ مَفْسَدَةٌ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَهِيَ مُقَابَلَةُ الْمُشْرِكِينَ بِسَبِّ إِلِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ آيَةِ: قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، لَتَنْتَهَيْنَ عَنِ سَبِّكَ آلِهَتَنَا، أَوْ لَنَهْجُونَ رَبَّكَ، فَنَهَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْلَادَهُمْ، ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا يَنْدَرُجُ فِي مَضْمُونِ تَرْكِ الْمَصْلَحَةِ لِمَفْسَدَةٍ أَرْجَحُ مِنْهَا"<sup>(٦)</sup>.

مما سبق إيراده نخلص إلى أن المتفحص لمسألة القيود والضوابط التي شرعها الإسلام لممارسة الحرية الدينية لمواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، وذلك عن طريق عدم السماح لمواطنيه من أصحاب النحل المختلفة باستفزاز المسلمين في مشاعرهم الدينية، أو الإساءة لرموزهم المقدسة، فإنه حينما يغوص في مضامين هذه القيود يجد جميعها يصب في بوتقة أمن الوطن، واستقراره، وحمانيته، وهذا لما يترتب عن خرم هذه القيود من الفتن، والقتال، والصراعات الدينية، التي قد تصل إلى حد القتال، والتطاحن بين أبناء الوطن الواحد، ما يجعل الوطن يغرق في صراعات داخلية مقيتة تقضي على روح المحبة والتعايش بين أبنائه، وتضرب حمايته، وسلمه الاجتماعي، وأمنه الداخلي، وطمأنينة مواطنيه في مقتل.

### المبحث الثالث: قيم الإسلام في التعايش مع مواطنيه من أصحاب الملل المختلفة وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة

لقد أفاض الإسلام اللثام لأتباعه عن كيفية التعامل مع مخالفيهم في العقيدة عموماً، ومن يقاسموهم وطناً واحداً خصوصاً، حاثاً إياهم على التسامح، والتعايش، والتآلف، والاتحاد، والإنصاف، والمواساة، والمحبة، والصلة، والنصح، وحسن المعاملة، جاعلاً ذلك كله نظاماً اجتماعياً حضارياً للعالمين<sup>(٧)</sup>، موطداً به لدعائم قيم العدل، والمساواة، واحترام الآخرين<sup>(٨)</sup>، ما حدا به إلى أن يحدد مجموعة من الضوابط والقيم النبيلة، التي تحكم هذا التعايش في الوطن الإسلامي، وسنشير

٦- تفسير القرآن العظيم. ٣ / ٣٧٤.

٧- ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، إرساء قواعد التسامح، المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. ص ٣٢٠ - ٣٢٤.

٨- خالد فهمي مصطفى، حرية الرأي والتعبير في ضوء الاتفاقيات الدولية والتشريعات الوطنية والشريعة الإسلامية و جرائم الرأي والتعبير، ص ١٤٣.

لأبرزها من خلال الفروع الآتية:

**الفرع الأول- اعتبار قيمة الكرامة الإنسانية ضابطا أساسيا للتعايش مع مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** وذلك دون النظر لدينهم، أو جنسهم، أو لوهم لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠؛ حيث لم يكن هذا التكريم حكرا على المواطنين المؤمنين منهم، بل هو عام يشمل جميع بني الإنسانية، دون التفريق بين مؤمنهم وكافرهم، بل تجاوز الأمر إلى مراعاة كرامة الأموات منهم، وهو ما يؤكد ما ورد عن ابن أبي ليلى أَنَّ قَيْسَ بْنَ سَعْدٍ، وَسَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ كَانَا بِالْقَادِسِيَّةِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا جِنَازَةٌ، فَقَامَا، فَقِيلَ لَهُمَا: إِنَّهَا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَقَالَا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ، فَقَامَ، فَقِيلَ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ فَقَالَ: أَلَيْسَتْ نَفْسًا<sup>(١)</sup>.

وعظفا على ما أوردناه من اعتبار قيمة الكرامة الإنسانية ضابطا أساسيا للتعايش بين مواطني البلاد الإسلامية على اختلاف مللهم ونحلهم، فإننا نُثَنِّي بالقول بأن لهذه الكرامة أهميتها الكبرى في ترقية حماية الوطن، وذلك لأن هذا المواطن غير المسلم حينما يشعر بإهدار كرامته الإنسانية، وأنه يعامل بقسوة، ويتعرض للإهانات والتعنيف، والانتقاص من بشريته، لا شك أن هذا سيؤدّد فيه عقدا نفسية، تعود بالوبال على أمن الوطن وحمايته؛ إذ تجعل منه مواطنا حاقدا، مستعدا لخيانة هذا الوطن، وتخريب مقدراته، والتأرّ من كان سببا في إهدار كرامته، وهذا كله يفضي إلى زعزعة الأمن والطمأنينة والحماية التي ينعم بها الوطن، ما يضطرنا إلى القول بأن احترام قيمة الكرامة الإنسانية، يعدّ من أهم الركائز، وأبرز اللبّات، المسهمة في ترقية النهوض بالوطن، وحماية لحمته البشرية، ورقعته الترايبية، وموارده، ومقدّراته المالية.

**الفرع الثاني: عدّ قيم العدل ضابطا أساسيا للتعايش مع مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** نعني بقيمة العدل إقامة ميزان الإنصاف بين جميع شرائح المجتمع، فلا تمييز لأحد عن الآخر في تحصيل الحقوق وأداء الواجبات، بسبب نحلته أو دينه، بل كلهم على قدم المساواة أمام قيمة العدل وسلطانه، هذا العدل الذي تكون له آثاره السامية في نهضة الأمم؛ إذ يصلح به السلطان والعمران، كما نص على ذلك الطرطوشي في معرض

١- مسلم، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب القيام للجنّاة، حديث رقم ٩٦١.

حديثه عن العدل قائلاً عنه بأنه: "قوام الملك ودوام الدول، وأسس كل مملكة سواء كانت نبوية أو صلاحية"<sup>(١)</sup>. كيف لا؟ وقد جاءت نصوص الكتاب والسنة أمرة به، وحاثه عليه، ومُرْتَبَة المثوبة على القيام به، والعقوبة على تركه، أو الميل عن صراطه المستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ النحل: ٩٠.

قال الشعبي، عن شتير بن شكل: سمعت ابن مسعود يقول: "إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"<sup>(٢)</sup>. هذا ونظراً إلى مكانة قيمة العدل في واقع رقي الأمم، ونهضة المجتمعات، وتعايش الشعوب فقد عدته الشريعة الإسلامية أساساً لكل الرسالات السماوية؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد: ٢٥، وجعلت تطبيقه على الجميع ركناً من أركان التعايش، وذلك بغض النظر عن نتائج تطبيقه، وعن هوية المطبق عليه، أو دينه، أو عرقه، أو مركزه الاجتماعي، أو علاقته بالمطبق؛ يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ النساء: ١٣٥، ويقول أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ المائدة: ٨

وَعَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: "لَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ خَيْبَرَ، فَأَقْرَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا، وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَحَرَصَهَا عَلَيْهِمْ"<sup>(٣)</sup>. وعنه أيضاً: أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: "حَرَصَهَا ابْنُ رَوَاحَةَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ وَسَقٍ، وَزَعَمَ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا خَيْرَهُمْ ابْنُ رَوَاحَةَ أَحَدُوا الثَّمَرَ، وَعَلَيْهِمْ عِشْرُونَ أَلْفَ وَسَقٍ"<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ: "أَفَاءَ اللَّهُ

١- سراج الملوك، ص ١٦٩

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم. ٤ / ٥٩٧.

٣- أبو داود، السنن، كتاب البيوع، باب في الخرص حديث رقم ٣٤١٤، وقد صححه الألباني، غاية المرام برقم ٤٥٩.

٤- نفسه.

عَزَّ وَجَلَّ خَيَّرَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَقْرَهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَا كَانُوا وَجَعَلَهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ فَخَرَصَهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِلَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحِيفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسَقِي مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ وَإِنْ أَيْبُتُمْ فَلِي فَقَالُوا: بَهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا فَأَخْرُجُوا عَنَّا<sup>(١)</sup>.

مما سبق يتبين بأنه لا ظلم، ولا انتقاص لحق إنسان بسبب مخالفته لعقيدة الإسلام لقوله تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ المائدة: ٨، ولقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء: ٥٨.

بعد إيرادنا لهذه النصوص، المجسدة لقيمة العدل، نلخص إلى أن آثار العدل في واقع نهضة الأمم، تعد مفخرة كبيرة، ومنقبة عظيمة في الإسلام؛ إذ تتجسد بها في أوساط المجتمع قيم شتى، كقيمة الاستقرار والتعايش في المجتمع، وبث الطمأنينة بين أبنائه، لأنه إذا خلا المجتمع من العدل، تأصلت الكراهية والأحقاد بين أبنائه، وسادت فيه الفوضى، وانتشرت الجريمة، واستشرت الفتن، وتسارع الناس إلى أخذ الثارات والحقوق بأيديهم، دون وازع يزعهم، أو رادع يردعهم، وهذا كله دون ريب يعصف باستقرار الوطن، ويؤثر على حماية أمنه، وطمأنينة ساكنيه، أما إذا ساد العدل بينهم اطمأنوا على عصمة دمائهم، وسلامة أقاتهم، وتحصيل حقوقهم، ونظافة أعراسهم، وصيانة حرياتهم، ورد مظالمهم، فإذا تحقق كل هذا ساد المجتمع قيم التعايش، والسلام، والوثام، والأمن، والأمان، والطمأنينة، والسكينة، والخير، والبر، لينعكس ذلك كله على الوطن حماية، وأمنًا، واستقرارًا، وتحضرا، ورفقيا، وازدهارا.

**الفرع الثالث - عدّ قيم المساواة ضابطا أساسا للتعايش بين مواطني البلاد الإسلامية وأثرها في حماية الوطن من خلال نصوص السنة:** نعني بالمساواة عدم المحاباة، أو التمييز، أو التفرقة، أو الانحياز لشخص دون آخر، في الحصول على الحقوق والامتيازات، أو في القيام

١- أحمد، المسند، مسند جابر بن عبد الله ﷺ، حديث رقم ١٥١٨٤، وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "إسناده قوي على شرط مسلم"، كما صححه الشيخ الألباني، غاية المرام برقم ٤٥٩.

بالبواجبات والالتزامات، حيث لا يؤخر، أو يقدم أحد على أحد بسبب دينه، أو جنسه، أو شرفه، أو عشيرته، أو مركزه الاجتماعي، بل كلهم على قدم المساواة في التمتع بحقوق المواطنة مغنما ومغرما، ويؤيد ذلك ما ورد عن سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ وَيَهُودِيٌّ، فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الْحَقَّ لِلْيَهُودِيِّ فَقَضَى لَهُ، فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَضَيْتَ بِالْحَقِّ، فَضَرَبَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالدَّرَّةِ ثُمَّ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودِيُّ: إِنَّا نَجِدُ أَنَّهُ لَيْسَ قَاضٍ يَقْضِي بِالْحَقِّ، إِلَّا كَانَ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكٌ وَعَنْ شِمَالِهِ مَلَكٌ، يُسَدِّدَانِهِ وَيُوقِفَانِهِ لِلْحَقِّ، مَا دَامَ مَعَ الْحَقِّ، فَإِذَا تَرَكَ الْحَقَّ، عَرَجَا وَتَرَكَاهُ"<sup>(١)</sup>.

إذ لا حيف على أحد بسبب كفره واعتقاده لغير دين الإسلام، بل هم على قدم المساواة في الإنسانية، وذلك لما ورد: "عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، قَالَ حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ"<sup>(٢)</sup>.

وعليه، فلا حيف على أحد بسبب حسبه، أو نسبه، أو كفره واعتقاده لغير دين الإسلام، كما نجد رسولنا الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - قد نصب نفسه خصما لمن يظلم أحدا من أهل الذمة، تأكيدا منه لدعامة المساواة في التعامل؛ إذ إن من مقتضيات المساواة عدم الافتيات على المواطنين من أصحاب العقائد المخالفة لقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"<sup>(٣)</sup>.

**والخلاصة:** إن المتأمل لقيمة المساواة بين المسلمين، ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى،

١- مالك، الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق، حديث رقم ٢٦٦٣، مرسلا، عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب، وذكره، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب حديث رقم ٢١٩٧.  
٢- أحمد، المسند، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث رقم ٢٣٩٧٢، وصححه شعيب الأرنؤوط في حكمه على أحاديث المسند، ورواه البيهقي، شعب الإيمان، باب في حفظ اللسان، وقال: "في هذا الإسناد بعض من يجهل، عن جابر" ٤ / ٢٨٩، حديث رقم ٥١٣٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٠٠، وفي صحيح الترغيب، برقم ٢٩٦٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، ٣ / ٥٨٦.

٣- سبق تخريجه.

في البلاد الإسلامية بوصفها ضابطا للتعايش بينهما، من خلال نصوص السنة النبوية المطهرة، يلحظ أنها تمثل قطب الرحي، وأس البناء، كما تعدّ ضمانا حقيقية لحماية الوطن من الفتن، والقلق التي تعصف بأمنه، واستقراره، وذلك لأن هذا المواطن إذا شعر أنه مواطن من الدرجة الثانية، وأنه لا يجني الحقوق نفسها التي ينعم بها مواطنه، وأنه تفرض عليه واجبات زائدة، غير التي تفرض على غيره من الساكنة، فإن هذا سيجعل منه مواطنا ناقما، تملأ نفسه الأحقاد، غير مخلص لهذا الوطن الذي أهدر حقوقه، وعامله معاملة تمييزية، ما ينعكس على أمن الوطن وحمايته واستقراره، ورقبه، فيصبح هذا المواطن الذي يشعر بالضميم يفكر في الانتفاض على هذا الوضع، وقد ينسق مع أمثاله ممن هم في مثل وضعيته، فيثبون في الوطن القلاقل والفتن بدافع استرداد هذه الحقوق الضائعة، وهذا دون ريب يُؤثر على سلامة حماية الوطن، ويضرب طمأنينة قاطنيه في مقتل، ما يجعلنا نقول جازمين بأن تمثل قيمة المساواة بين ساكنة الوطن الواحد، هي بمثابة صمام الأمان لاستقرار وحماية الأوطان.

**الخاتمة:** بعد دراستنا المتأنية لهذا الموضوع خلصنا إلى جملة من النتائج والتوصيات نوجزها فيما يأتي:

**أولا - أهم النتائج المتوصل إليها:** بعد دراسة هذا الموضوع، وبيان تفاصيله خلصنا إلى النتائج الآتية:

١ - ترسيخ الإسلام مبدأ احترام حق المواطنة في البلاد الإسلامية لأصحاب الملل الأخرى، فلا انتقاص لحق أحد بسبب كفره؛ إذ يتمتع هؤلاء بكامل الرعوية، فيعيشون في كنف دولة الإسلام مواطنين من الدرجة الأولى.

٢ - إقرار الإسلام لمبدأ التعايش السلمي بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل والنحل الأخرى، ممن يجمعهم بهم وطن واحد، يعيش فيه الجميع في أمن وسلام ووثام.

٣ - إرساء الإسلام لمبدأ الشمولية في تعايش المسلمين مع مواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، فلم يكن هذا التعايش مقتصرًا على مجال بعينه، بل كانت دائرته رحبة، شاملة لجميع مناحي الحياة، الاجتماعية منها، والسياسية، والأسرية، والاقتصادية.

٤ - كفالة الإسلام لحق حرية مواطنيه من أصحاب الملل الأخرى، من خلال عدم إكراههم على

- الدخول فيه ، بل وحماية دور عبادتهم وأماكنها، هذه الحرية التي تعد بحق ركنا شديدا في جسد التعايش بين مواطني البلاد الإسلامية، على اختلاف مشاربهم، ونزعاتهم الدينية.
- ٥ - إقرار الإسلام لمبدأ كبح جماح الحرية الدينية، إذا أخل أصحابها بالآداب والأخلاق، وعرضوا سلامة النظام العام، وسكينة المجتمع وأمنه للخطر، والاضطرابات.
- ٦ - إرساء الدين الإسلامي الحنيف لأسس التعايش بين مواطنيه، وذلك من خلال تطبيقه، وتجسيده لقيم العدل والمساواة في التعامل مع مخالفيه، فلا ظلم، ولابغي، ولا تمييز على أحد بسبب دينه، وقناعاته الفكرية.
- ٧ - عُدُّ التعايش الديني بين المسلمين ومواطنيهم من أصحاب الملل الأخرى، مرتكزا أساسا، وقاعدة صلبة، وحصنا منيعا لتأثيل مقومات حماية الوطن، وترسيخ سبل أمنه واستقراره.
- ثانيا - توصيات البحث:** بعد دراستنا لهذا البحث، وتتبع جزئياته، وإبراز أهم حيثياته، تراءت لنا التوصيات الآتية:
- ١ - إدراج جملة من المساقات والمواد الدراسية في كل أطوار التعليم المختلفة، بدءا من المراحل الأولى، وانتهاء بالمرحلة الجامعية، تحتوي مضامينها على ترسيخ قيم التعايش، والتسامح، والسلام، والتراحم، والتآلف بين بني الإنسانية عموما، وساكنة الوطن الواحد خصوصا، بغض النظر عن اختلاف معتقداتهم، وأفكارهم، وقناعاتهم، وذلك من أجل بث هذه القيم في نفوس الناشئة، حتى يشبوا على تمثلها في واقعهم المعيش، فينعكس ذلك على أوطانهم أمنا، وسلما، ورفقا، وازدهارا، وتعايشا، وهذا على المستويين الداخلي، والخارجي.
- ٢ - إعداد مادة إعلامية توعوية، تبرز محاسن التعايش الديني بين بني البشر، وتبين فوائده على الإنسانية، وبثها باحترافية كبيرة في وسائل التواصل المسموعة، والمرئية، من إذاعة، وتلفزيون، وشبكة عنكبوتية، حتى ينتشر الوعي بأهمية التعايش، والتسامح، في سلامة الأبدان، واستقرار الأوطان.
- ٣ - عقد جملة من المؤتمرات، والندوات الدورية، والمحاضرات، والأيام الدراسية، وإعداد بعض الكتيبات، والمطويات، والنشرية المظهرة للانعكاسات الحميدة للتعايش الديني على الأفراد، والمجتمعات والأوطان، يُتَوَخَّى فيها بساطة الأسلوب، وحسن العرض، ومراعاة مستويات

المخاطبين، حتى تنتفع بذلك غالبية شرائح أبناء الوطن، الذي يضمّ بين جنباته منتسبين له، يتبنون مللاً ونحلاً مختلفة، لكنهم يجمعهم فيه قاسم مشترك مُوَحِّدٌ، ومُوحِّدٌ، ألا وهو التساوي في المواطنة والانتماء للوطن.

٤ - إشباع المنظومة القانونية بالمواد التشريعية المؤصلة للتعايش الديني في البلاد الإسلامية بين شرائح أبناء الوطن من مختلفي المعتقدات، ووضع الآليات المساعدة على تنفيذ ذلك، بل وإدراج النصوص العقابية، الرادعة لمن ينتهك، أو يعتدي على حرمة هذا التعايش.

بعد عرضنا لهذه النتائج والتوصيات: نحسب أننا قد أمطنا اللثام، وكشفنا النقاب عن العديد من المسائل اللصيقة بالتعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية، قصد إبراز صورة الإسلام المشرقة، ومبادئه السامية، وتعاليمه المضيئة في تعامله، وتعايشه مع مواطنيه، من أصحاب الملل والنحل المختلفة، عسى أن يكون ذلك سببا في إماتة ما يثار ضد الإسلام من دعاوى مغرضة مزعومة، وأفكار حاقدة محمومة، وآراء ماكرة مسمومة، سائلين المولى عز وجل أن يتقبل عملنا هذا، ويجعله خالصا لوجهه الكريم، إنه سميع قريب مجيب، إذ به الاستعانة وعليه التكلان، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وأمته أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## قائمة المصادر والمراجع:

- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة، عبد الهادي أبو ريذة، فصل اليهود والنصارى، ط ٥، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، تحقيق، مجمع اللغة العربية. الكويت، دار الدعوة للنشر والتوزيع.
- ابن الأثير الجزري، أبو السّعادات، مجد الدين محمد بن المبارك (ت: ٦٠٦ هـ)، النهاية في غريب الحديث والأثر، إشراف وتقديم: علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي، الأثري، ط ١، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، جمادى الأولى، ١٤٢١ هـ.
- أحمد عباس، التعايش مع غير المسلمين، وأثره في الفكر الإسلامي، رسالة ماجستير، مخطوطة، بكلية أصول الدين العراق.
- الألباني، محمد ناصر الدين، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل. ط ١، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م.
- صحيح الترغيب والترهيب، ط ٥، الرياض السعودية، مكتبة المعارف.
- صحيح الجامع، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، ط ١، الرياض السعودية، مكتبة المعارف، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.
- غاية المرام، ط ١، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦ هـ)، الجامع الصحيح، بيروت، لبنان، دار المعرفة.
- البهوتي، منصور بن إدريس الحنبلي كشاف القناع عن متن الإقناع، ط ١، مصر، المطبعة المشرقية، ١٠٥١ هـ.
- البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨ هـ)، السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصر، دار الكتب العلمية.
- شعب الإيمان، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، ط ١، الرياض، المملكة العربية السعودية، مكتبة، الرشد، ٢٠٠٣ م.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (ت: ٢٧٩ هـ)، الجامع، مراجعة: أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي.

## التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة ...

- توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين، وإسماعيل النجراوي، مصر، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٩١ هـ / ١٩٧٠ م.
- التويجري، عبد العزيز بن عثمان، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن ٢١، ط ٢، المملكة المغربية منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، ١٤٣٦ هـ ٢٠١٥ م
- تيسير خميس العمر، حرية الاعتقاد في ظل الإسلام، ط ١، دمشق دار الفكر، سوريا، وبيروت، لبنان دار الفكر المعاصر، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- الجرجاني، الشريف علي، التعريفات، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨٣ م.
- الحصاص، أحمد بن علي الرازي الحنفي (ت: ٣٧٠ هـ)، أحكام القرآن، بيروت، لبنان دار الكتاب العربي.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله (ت: ٤٠٥ هـ)، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
- ابن حجر، أبو الفضل، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت: ٨٥٢ هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رmqه: محمد فؤاد عبد الباقي، كما قام بإخراجه وتصحيح تجاربه وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب، بيروت. لبنان، دار المعرفة.
- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (ت: ٤٥٦ هـ)، المحلى، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان دار الآفاق الجديدة.
- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١ هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٢، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.
- خالد فهمي مصطفى، حرية الرأي والتعبير في ضوء الاتفاقيات الدولية والتشريعات الوطنية والشريعة الإسلامية وحرائم الرأي والتعبير، ط ١، الإسكندرية، مصر، دار الفكر الجامعي، ٢٠٠٨ م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)، السنن. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد. صيدا. بيروت. لبنان، المكتبة العصرية.
- الذهبي، شمس الدين بن محمد بن عثمان (ت: ٧٤٨ هـ)، المستخلص، ط ١، تحقيق: مصطفى عبد القادر، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
- ابن رشد (الجد)، محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٠ هـ)، المقدمات الممهيات لبیان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات . بhamش المدونة، بيروت، لبنان دار الفكر.

- الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد (ت: ٥٣٨ هـ)، الفائق في غريب الحديث، تحقيق: علي بن محمد، ط٢، بيروت، لبنان دار المعرفة.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت: ٩٠٢ هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي، ٢٠٠٤ م.
- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تحقيق وتعليق الشيخ: علي حسين علي، ط٢، القاهرة، مصر، دار، الإمام، الطبري، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
- سعدى محمد الخطيب، حرية المعتقد وأحكامها التشريعية وأحوالها التطبيقية وأهميتها في حوار الأديان، ط١، بيروت، لبنان، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠١١ م.
- صبحي أفندي الكبيسي، وعبدالله حسن الحديثي، الوسائل الاقتصادية في التعايش مع غير المسلمين في الفقه الإسلامي، مجلة مداد الآداب، العدد ٣.
- صبحي عبده سعيد، السلطة والحرية في النظام الإسلامي - دراسة مقارنة -، القاهرة، مصر، دار الفكر العربي.
- صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، بيروت، لبنان دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢.
- الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠ هـ)، جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت، لبنان، دار الفكر ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م.
- تاريخ الأمم والملوك، ط١، بيروت، لبنان دار الكتب العلمية، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م.
- الطرطوشي، محمد بن الوليد بن خلف الفهري المالكي، المعروف بأبي بكر الطرطوشي أو ابن أبي رندقة (ت: ٥٢٠ هـ)، سراج الملوك، تحقيق، محمد فتحي أبي بكر، تقديم، شوقي ضيف، ط١، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية. ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م
- عاصم أحمد عجيلة، حرية الفكر وترشيد الواقع الإسلامي، ط٣، مصر، مطابع نهضة مصر، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام البغدادي (المتوفى، ٢٢٤ هـ)، الناسخ والمنسوخ.
- العيني، بدر الدين، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد الحنفي (ت: ٨٥٥ هـ)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة، عادل زعيتر، ط١، ١٩٥٦ م.

## التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة ...

- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني (ت: ٣٩٥ هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون. دار الفكر، ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩ م.
- الفقي، محمد علي عثمان فقه المعاملات. دراسة مقارنة.، ط ٢، القاهرة، مصر دار المريخ.
- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقرئ الراعي الفيومي (ت: ٧٧٠ هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، بيروت. لبنان دار القلم.
- القراني، شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الصنهاجي (ت: ٦٨٤ هـ)، الفروق، بيروت لبنان، دار المعرفة.
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٦٧١ هـ)، الجامع لأحكام القرآن. ط ٢، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: ٧٧٤ هـ)، تفسير القرآن العظيم. ط ٣، حائل، السعودية، دار الأندلس، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.
- السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، بيروت، لبنان دار المعرفة.
- البداية والنهاية، بيروت، لبنان مكتبة، المعارف.
- الموردي، علي بن محمد حبيب (ت: ٤٥٠ هـ)، أدب الدنيا والدين، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، مصر، الدار المصرية اللبنانية.
- محمد فوزي فيض الله، الفقه الإسلامي وفق منهج السنة الرابعة من كلية الشريعة بجامعة دمشق. ط ٢، دمشق، سوريا، مطبعة طربين، ١٣٩٨ هـ/١٩٧٧. ١٩٧٨ م.
- مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١ هـ)، الجامع الصحيح. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة، مصر، و بيروت. لبنان، دار الكتاب المصري. ودار الكتاب اللبناني.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، تمت زيارة موقعه بتاريخ، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨ م  
www.maajim.com/dictionary
- معجم المعاني الجامع، تاريخ الزيارة هو، ١٤ / ٠٨ / ٢٠١٨. ar-ar. dict. almaany.com
- مليحة عوني الصغير ومعن خليل العمر، مدخل إلى علم الاجتماع العام، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨١ م.
- ابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم بن علي (ت: ٧١١ هـ)، لسان العرب، تقديم: عبد الله العلابي، إعداد وتصنيف: يوسف خياط، بيروت، لبنان، دار لسان العرب.

- منيب محمد ربيع، ضمانات الحرية في النظام الإسلامي وتطبيقاته، ط ٤، القاهرة، مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- الموسوعة العربية العالمية، الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٩٩٦ م.
- ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، إرساء قواعد التسامح، المملكة العربية السعودية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.
- نور الدين بن محمد بن الطاهر بن يريح، أساليب التعامل مع الخصوم في ضوء السنة النبوية - دراسة تحليلية -، إربد، الأردن، دار الكتاب الثقافي، ٢٠٠٥ م.
- ابن هشام، محمد بن عبد الملك بن هشام (ت: ٢١٣ هـ)، السيرة النبوية، ط ٢، القاهرة، مصر، دار الفجر للتراث، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م.
- الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت: ٨٠٧ هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسين أحمد صالح، ط ١، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، مركز السنة والسيرة، ١٩٩٣ م.
- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م.
- وهبة الزحيلي، حق الحرية في العالم، ط ١، دمشق، سوريا، دار الفكر، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب القاضي (ت: ١٨٢ هـ)، الخراج، بيروت، لبنان دار المعرفة.

موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا Wikipedia.org

www.maajim.com/dictionary.

www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

www.drakem.com/Portals/Content/?info=T0RBekpsTjFZbEJjWjJVbU1RPT0rdQ==.jsp

# حِمْيَاةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَبَادِيُ وَالْمُنْطَلَقَاتُ

الدكتورة / كريمة محمد سوداني  
أستاذ مساعد / زائر ومتعاون الجامعة القاسمية-الإمارات  
الجمهورية الجزائرية





## المقدمة

الحمد لله واهب النعم، ومزيل النقم، والصلاة والسلام على قائد الأمم، ورافع الهمم، الإمام الأشم، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد،

فَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْتَلَاهُ بِالْأَكْلِ مِنْ شَجَرَةِ الْجَنَّةِ الَّتِي كَانَتْ الْبَدَايَةَ لِهَبوطِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَاسْتِخْلَافِهِ فِيهَا، بِإِعْمَارِهَا وَتَطْبِيقِ هُدَى اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٣٦) فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابِغُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) [البقرة: ٣٦-٣٨]، فَقَدْ عَبَّرَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ عَنْ سُكْنَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ فِي الْأَرْضِ بِلَفْظِ الْاسْتِقْرَارِ، وَهُوَ مِنَ الْقَرَارِ؛ أَي: الثَّبَاتِ وَالْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، دَلَالَةً عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ سِوَاهُ أَكَانَ فَرْدًا أَمْ جَمَاعَةً لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَكَانٍ يَعْشُ فِيهِ، وَيَكُونُ لَهُ مَوْثَلًا يَنْعَمُ فِيهِ بِالْحَيَاةِ الْحَنِيفَةِ.

مِنْ هُنَا جَاءَتْ فِكْرَةُ الْاَوْطَانِ، الَّتِي تُعَدُّ حَمَايَتَهَا مَقْصِدًا شَرْعِيًّا لَا غَنَى عَنْهُ فِي قِيَامِ حَيَاةِ الْاَفْرَادِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ، وَقَدْ جَاءَتْ الشَّرِيعَةُ الْاِسْلَامِيَّةُ الْغَرَاءُ بِمَا يَضْمَنُ السَّلَامَةَ وَالْاَمْنَ وَالْاَمَانَ فِي ظِلِّ تِلْكَ الْاَوْطَانِ.

وعليه يأتي هذا البحث للمشاركة به في مؤتمر: "حماية الوطن في السنة النبوية مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية - المبادئ والمنطلقات"، وذلك ضمن: المحور الثاني: أسس حماية الوطن ومقوماتها في السنة النبوية.

أهميَّة البحث: إنَّ حُبَّ الْوَطَنِ لَيْسَ مَجْرَدَ دَعْوَى بِاللِّسَانِ لَا يَصِدِّقُهَا إِيمَانٌ بِالْقَلْبِ أَوْ عَمَلٌ بِالْجَنَانِ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يُبْنَى عَلَى أُسُسٍ وَمَبَادِيٍّ وَمُنْطَلَقَاتٍ يَتَّفِقُ عَلَيْهَا أُنْبَاءُ الْمَجْتَمَعِ الْوَاحِدِ، وَأَفْرَادُ الْأُمَّةِ الْوَاحِدَةِ، لِتَنَالَ حَظَّهَا مِنَ التَّطْبِيقِ فِي الْوَاقِعِ الْعَمَلِيِّ، وَهَذِهِ الْأُسُسُ وَالْمَبَادِيُّ لَيْسَتْ إِلَّا صَمَامَ الْأَمَانِ لِحَيَاةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ آمِنَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ، خَالِيَةٍ مِنَ الْآفَاتِ وَالْانْحِرَافَاتِ، وَلِذَلِكَ وَجَبَ بَيَانُ هَذِهِ

المبادئ والأسس من خلال سيرة الرسول ﷺ وسنته، واستلهاها في واقعنا المعاصر.

### أهداف البحث:

١. توضيح معاني الوطن والمواطنة وما يتعلق بهما.

٢. بيان أهمية الوطن من خلال السنة النبوية.

٣. تحديد مبادئ حماية الوطن في السنة النبوية ومُنطلقاتها.

واعتمدت في إنجاز هذا البحث منهجين هما: الاستقراء والوصف؛ بوصفهما الأنسب في معالجة قضايا هذا البحث وحيثياته.

**الدراسات السابقة:** لم يتوفّر لديّ -فيما اطّلعْتُ عليه- دراساتٌ علميّةٌ سابقةٌ عن موضوع البحث، سوى مقالٍ بعنوان "حبّ الوطن في ضوء السنة النبوية" للباحثة د. ليلي محمد اسليم، نُشر بمجلة "جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات"، العدد ٤، يناير ٢٠١٣، وهو بحثٌ كما يظهر من عنوانه مُخصّصٌ لِحُبِّ الوطن من خلال السنة النبوية، قامت فيه الباحثة بجمع الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدّثت أو أشارت إلى حُبِّ الوطن، وقد ذكرت في مُقدمته أنّ أهميته تكمن في إغفال الدراسات الحديثة لهذا الموضوع (طبعا هذا كان سنة ٢٠١٣ م وما قبلها)، وكذلك إلقاء الضوء على مظاهر حُبِّ الوطن التي تُشكّل حُقوقا للوطن والمواطنين، كما أنّها لخصت أهداف بحثها في: إظهار مدى اعتناء السنة النبوية بعُرس قيم حُبِّ الوطن في نفوس المسلمين، وأنّ السنة النبوية شملت كلّ شيءٍ، ومنها حُبُّ الوطن.

**الإضافة العلمية لهذا البحث:** أما بالنسبة إلى البحث الذي بين أيدينا، فيتميّز بتقسيماتٍ وتفصيلاتٍ واضحةٍ لعناصره من حيث إيراد تعريفاتٍ مُتعلّقةٍ بالوطن والمواطنة وحماية الوطن، وإضافةً أحاديثٍ أخرى دالّةٍ على الموضوع، مع حُسن التّقسيمِ لِلدلائلِ الأحاديثِ النبويةِ على الموضوعات التي سيقَت فيها، بالإضافة إلى إفراد عنوانٍ خاصٍّ بمبادئ ومُنطلقاتِ حماية الوطن في السنة النبوية كما يَظهُرُ مِنْ حِطَّتِهِ.

## المبحث الأول: مَفْهُومُ الْوَطَنِ وَالْمُواطِنَةِ وَحِمَايَةِ الْوَطَنِ

إنَّ الحديثَ عن موضوعِ مباديِّ حِمَايَةِ الْوَطَنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَمُنْطَلَقَاتِهَا يَسْتَدْعِي ابْتِدَاءَ تَحْدِيدِ مَعْنَى "الْوَطَنِ"، الَّذِي هُوَ مِفْتَاحُ هَذَا الْبَحْثِ وَأَسَاسُهُ، كَمَا أَنَّ كَلِمَةَ "الْمُواطِنَةِ" وَهِيَ أَحَدُ اشْتِقَاقَاتِ كَلِمَةِ "وَطَنٍ" لَا غِنَى عَنْهَا فِي دِرَاسَةِ هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَبَيَانِ مَعْنَى "حِمَايَةِ الْوَطَنِ" اسْتِكْمَالًا لِبَيَانِ مُصْطَلَحَاتِ الْبَحْثِ، وَعَلَيْهِ سَابِقًا بِتَعْرِيفِ "الْوَطَنِ" فِي الْاسْتِعْمَالِ اللَّغَوِيِّ وَالشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ، ثُمَّ أَعْرَضُ لِلْمُواطِنَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَكَذَا أُبَيِّنُ مَعْنَى حِمَايَةِ الْوَطَنِ، فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ عُنَاصِرٍ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ:

أولاً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ لُغَةً. ثانياً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ فِي الْاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ. ثالثاً: الْمُواطِنَةُ وَأُسُسُهَا. رابعاً: مَعْنَى حِمَايَةِ الْوَطَنِ. وأبدأ مع العنصر الأول.

أولاً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ لُغَةً: جَاءَ فِي مَعْجَمِ مَقَائِيسِ اللُّغَةِ: "الْوَاوُ وَالطَّاءُ وَالنُّونُ: كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ. فَالْوَطَنُ: مَحَلُّ الْإِنْسَانِ. وَأَوْطَانُ الْعَنَمِ: مَرَابِضُهَا، وَأَوْطَنْتُ الْأَرْضَ: اتَّخَذْتُهَا وَطَنًا"<sup>(١)</sup>.

وقال في لسان العرب: "الوَطَنُ: الْمَنْزِلُ تُقِيمُ بِهِ، وَهُوَ مَوْطِنُ الْإِنْسَانِ وَمَحَلُّهُ... وَالْجَمْعُ أَوْطَانٌ... وَأَوْطَنَهُ: اتَّخَذَهُ وَطَنًا، يُقَالُ: أَوْطَنَ فُلَانٌ أَرْضَ كَذَا وَكَذَا، أَيْ: اتَّخَذَهَا مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يُقِيمُ فِيهَا"، قَالَ: "أَمَّا الْمَوَاطِنُ: فَكُلُّ مَقَامٍ قَامَ بِهِ الْإِنْسَانُ لِأَمْرٍ فَهُوَ مَوْطِنٌ لَهُ، كَقَوْلِكَ: إِذَا أَتَيْتَ فَوْقَمْتَ فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ فَادْعُ اللَّهَ لِي وَإِلْحَاوَانِي"<sup>(٢)</sup>.

فمما سبق يتضح أن الْوَطَنَ مِنَ الناحية اللغوية هو المكان الذي يسكنه الإنسان ويُقيم فيه، بَعْضُ النَّظَرِ عَنْ كَوْنِ هَذَا الْمَكَانِ هُوَ أَصْلُ مَوْلِدِهِ أَوْ مَوْلِدِ آبَائِهِ، أَمْ لَا، مَكَثَ فِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً، أَمْ لَا.

ثانياً: مَفْهُومُ الْوَطَنِ فِي الْاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ وَالِاصْطِلَاحِيِّ: جَاءَ الْاسْتِعْمَالُ الشَّرْعِيُّ لِاسْتِقْطِاقِ كَلِمَةِ "وَطَنٍ" فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾

١- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٢٠/٦.

٢- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣.

[التوبة: ٢٥]، والمواطنُ هنا المقصودُ بما: "مقاماتُ الحربِ ومواقفُها"، قاله في البحر المحيط<sup>(١)</sup>، وهي أيضاً: الأماكن<sup>(٢)</sup>، والمشهدُ من مشاهدِ الحربِ<sup>(٣)</sup>.

أما في الحديثِ الشريفِ: فحَاءَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَهَى عَنِ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، وَأَفْتَرَشَ السَّبِيحَ، وَأَنَّ يُوْطِنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوْطِنُ الْبَعِيرُ<sup>(٤)</sup>. واحتُلفَ في معناه على قولين: الأول: "أَنَّ يَأْلَفَ الرَّجُلُ مَكَانًا مَعْلُومًا مِنَ الْمَسْجِدِ، مَخْصُوصًا بِهِ، يُصَلِّي فِيهِ، كَالْبَعِيرِ لَا يَأْوِي مِنْ عَطَنِ<sup>(٥)</sup> إِلَّا إِلَى مَبْرَكٍ دَمَتْ<sup>(٦)</sup>، قَدْ أَوْطَنَهُ وَأَخَذَهُ مَنَاحَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنْ يَبْرُكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ قَبْلَ يَدَيْهِ إِذَا أَرَادَ السُّجُودَ مِثْلَ بُرُوكِ الْبَعِيرِ"<sup>(٧)</sup>.

١- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، ٣٩٢/٥.

٢- ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، ٤١٣/٣. وبهذا المعنى روى الإمام البخاري عن أبي بكر ﷺ، قال يزيد بن ثابت ﷺ: "إِنَّ عَمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخَشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَاءِ فِي الْمَوَاطِنِ...". البخاري: تفسير القرآن، بابُ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، "مِنَ الرَّأْفَةِ"، ٧١/٦ (٤٦٧٩).

٣- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣.

٤- من حديث عبد الرحمن بن شبل، أخرجه: أبو داود وسكت عنه: أبوابُ تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ، بَابُ صَلَاةٍ مَنْ لَا يُقِيمُ صَلَاتَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ٢٢٨/١ (٨٦٢)؛ والنسائي: التَّطْبِيقِ، بَابُ التَّهْيِ عَنِ نَقْرَةِ الْغُرَابِ، ٢١٤ / ٢ (١١١٢)؛ وابن ماجه: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، وَالسُّنَّةُ فِيهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي تَوْطِينِ الْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ يُصَلِّي فِيهِ، ١ / ٤٥٩ (١٤٢٩)؛ وأحمد، المسند، ٢٤ / ٢٩٢ (١٥٥٣٢، ١٥٥٣٣)، ٢٤ / ٤٣٩ (١٥٦٦٧)، ٣٩ / ١٦٩ (٢٣٧٥٨). وقد ضَعَّفَ الحديث بسبب تميم بن محمود الأنصاري، قال فيه البخاري: "في حديثه نظر"، وقال العقيلي: "لا يتابع عليه". انظر: الضعفاء الكبير، ١٤/٢-١٥، وابن حجر، تهذيب التهذيب، ١ / ٤٥١ (٩٥٧).

٥- "العَطْنُ، مُحَرَّكَةٌ: وَطْنُ الْإِبِلِ، وَمَبْرَكُهَا حَوْلَ الْحَوْضِ، وَمَرِيضُ الْغَنَمِ حَوْلَ الْمَاءِ، جَمْعُهَا: أَعْطَانٌ كَالْمَعْطِنِ، جَمْعُهَا: مَعَاظِنٌ". الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١١٢١.

٦- قال في القاموس: "دَمَتْ الْمَكَانَ وَغَيْرُهُ، كَفَرِحَ: سَهَّلَ وَلَا نَ. وَالِدَمَاتُ: سَهْلَةُ الْخُلُقِ". الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص ١٦٨.

٧- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٤١/٥. وانظر: العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ٧٣ / ٣. قال: "الْوَجْهُ الثَّانِي لَا يَصِحُّ هَا هُنَا؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مُشَبَّهًا بِهِ، وَأَيْضًا لَوْ كَانَ أُرِيدَ هَذَا الْمَعْنَى لَمَا اخْتَصَّ التَّهْيِ بِالْمَكَانِ فِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دُكِّرَ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ الْأَوَّلُ. قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: وَحَكَمْتُهُ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى الشُّهُرَةِ وَالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَالتَّقْيِيدِ بِالْعَادَاتِ وَالْحُظُوظِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكُلُّ

فالحاصلُ أنَّ "الوَطَنَ" في الاستعمال الشرعي لا يبعدُ عنه من الناحية اللغويَّة: وهو المكان الذي يوطنه الرَّجُلُ ويَتَّخِذُهُ مكانًا للإقامة والعيش فيه.

أما من الناحية الاصطلاحية، فنجدُ من التَّعريفات:

- تعريف الجرجاني: "الوَطَنُ الأصلي: هو مَوْلِدُ الرَّجُلِ، والبلدُ الذي هو فيه"<sup>(١)</sup>.

- تعريف أبي البقاء الكفوي، قال: "المَوْطِنُ: كلُّ مقامٍ قامَ فيه الإنسانُ لأمرٍ ما فهو مَوْطِنٌ له"<sup>(٢)</sup>.

- وفي المعجم الفلسفي يقول: "الوَطَنُ بالمعنى العام: منزلُ الإقامة، والوَطَنُ الأصلي: هو المكانُ الذي وُلِدَ به الإنسانُ، أو نشأَ فيه، والوَطَنُ بالمعنى الخاص: هو البيئة الروحيَّة التي تتَّجِهُ إليها عواطفُ الإنسانِ القومِيَّة"<sup>(٣)</sup>.

والذي نلخُصُّ إليه من خلال ما سبق، أنَّه يُمكنُ صياغة مفهوم عامٍّ للوَطَنِ بأنَّه: المكانُ الذي يُقيمُ فيه الإنسانُ مُدَّةً، ويكونُ منزلًا ومُستقرًّا له. ولا يُشترطُ بعدَ ذلكُ أن يكونَ هذا الوطنُ هو منشؤهُ الأصلي ومكانُ ولادته، أم لا.

---

هَذِهِ آفَاتٌ أَيُّ آفَاتٍ، فَتَعَيَّنَ الْبُعْدُ عَمَّا أَدَّى إِلَيْهَا مَا أَمَكَنَ". اهـ. وذكر ابن الأثير حديثًا آخر بلفظ: "نهى عن إبطان المساجد"، قال: "أَيُّ اتَّخَاذِهَا وَطَنًا". ومنه الحديث في صِفَتِهِ ﷺ "كان لا يُوطِنُ الأَمَاكِنَ"، "أَيُّ لَا يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ مَجْلِسًا يُعْرِفُ بِهِ". النَّهْيَةُ فِي غَرِيبِ الْحَدِيثِ وَالْأَثَرِ، ٤٤١/٥.

١- التَّعْرِيفَاتِ، ص ٣٢٧.

٢- أَبُو الْبَقَاءِ الْكُفَوِيُّ، الْكُلِّيَّاتِ، ص ٨٠٣.

٣- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ٥٨٠/٢. وربط مفهوم الوطن بالمعنى الخاص بالقومية، إنما بالنظر إلى ظهور الحركات الاستقلاليَّة الحديثة والمعاصرة، والتي تتَّخِذُ من وَحْدَةِ اللُّغَةِ، أو الرُّقْعَةِ الجُغْرَافِيَّةِ، أو الأهداف الاقتصادية، أو السِّياسِيَّةِ، أو غير ذلك من الرِّوَابِطِ الوَضْعِيَّةِ، جامِعًا لها، وهذا مخالفٌ لما جاء في أصل منشأ مفهوم الوطن. انظر في تعريف القومية وأصل نشأتها: غالب بن علي عواجي، المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، ٩٠٩/١.

### ثالثا: المُوَاطَنَة وَأُسُسُهَا

المُوَاطَنَة لُغَةً: هي مأخوذة في العربية من كلمة "وَطَن" التي عرّفناها سابقا، ومن الناحية الصَّرْفِيَّة، فإنَّ كلمة "مُوَاطَنَة" على وزن "مُفَاعَلَة"، هذه الصيغة التي تحملُ صِفَةَ المِشَارَكَةِ والتَّفَاعُلِ، مِنْ وَاطَنَ، قال في لسان العرب: "وَاطَنُهُ عَلَيَّ الأَمْرُ: أَضْمَرَ فِعْلُهُ مَعَهُ، فَإِنْ أَرَادَ مَعْنَى وَافَقَهُ قَالَ: وَاطَاهُ. تَقُولُ: وَاطَنْتُ فُلَانًا عَلَيَّ هَذَا الأَمْرَ، إِذَا جَعَلْتُمَا فِي أَنْفُسِكُمَا أَنْ تَفْعَلَاهُ [...]، وَقِيلَ: وَطَنَ نَفْسَهُ عَلَيَّ الشَّيْءِ وَلَهُ، فَتَوَطَّطْتُ، حَمَلَهَا عَلَيْهِ"<sup>(١)</sup>.

ويقابل المُوَاطَنَة باللغة الإنجليزية Citizenship<sup>(٢)</sup>، وترجمتها الحرفية "المدينة"، وهي مشتقة من الكلمة اليونانية "Politeia" المشتقة بدورها من كلمة "Polis"، أي المدينة، كما هو واضح من اشتقاق الكلمة؛ لأنّها في أصل اشتقاقها Citizenship<sup>(٣)</sup> الآتي من كلمة "City"، وهو ذاتُ المعنى، أي المدينة<sup>(٤)</sup>.

أما من الناحية الاصطلاحية: فهناك عدّة تعريفات للمُوَاطَنَة، منها<sup>(٥)</sup>:

- "المكان الذي يستقر فيه الفرد بشكلٍ ثابتٍ داخل الدولة، أو يحمل جنسيتها ويكون مشاركا في الحكم، ويخضع للقوانين الصادرة عنها، ويتمتع بشكلٍ متساوٍ دون أي نوع من التمييز - كاللون أو اللغة - مع بقية المواطنين بمجموعة من الحقوق، ويلتزم بأداء مجموعة من الواجبات تجاه الدولة التي ينتمي إليها، بما تشعره بالانتماء إليها".
- "العلاقة بين فردٍ ودولةٍ كما يُحددها قانون تلك الدولة، وبما تتضمّن تلك العلاقة من واجباتٍ وحقوقٍ في تلك الدولة".

١- ابن منظور، لسان العرب، ٤٥١/١٣. وانظر: وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، الموسوعة الفقهية، ٢١٩/٣٩ (مواطن الإجابة).

٢- موقع إلكتروني: <https://en.wikipedia.org/wiki/Politeia>

٣- تُنظر هذه التعريفات: صلاح الدين سلطان، المُوَاطَنَة في غير ديار الإسلام، ص ١٣-١٤؛ وأحمد شُعيفان، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية، ص ٣٧٧، والموسوعة السياسية؛ موقع إلكتروني، <https://political-encyclopedia.org/dictionary/%D9%85%D9%81%D9%87%D9%88%D9%85%20%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%A7%D8%B7%D9%86%D8%A9>

- "الْتَمَتُّ بِالْحُقُوقِ الْمَدَنِيَّةِ الْمُرْتَبُطِ بِالْجِنْسِيَّةِ".
  - "عُضُويَّةٌ كَامِلَةٌ فِي دَوْلَةٍ أَوْ فِي بَعْضِ وَحَدَاتِ الْحُكْمِ، بِحَيْثُ لَا تُتَمِيزُ بَيْنَ الْمَوَاطِنِ وَالْجِنْسِيَّةِ".
- من خلال هذه التعريفات يتضح أنَّ مفهومَ المُوَاطَنَةِ خاضعٌ لقانونِ كلِّ دولةٍ وما يُنصُّ عليه دُستورُها، الذي لَهُ ارتباطٌ في كثيرٍ مِنَ الأحيَانِ بما يُعرفُ بالجنسِيَّةِ، وإن كان من الممكن تقسيمُ المُوَاطَنَةِ على قِسْمَيْنِ:

**مُوَاطَنَةٌ عَامَّةٌ:** وهي العلاقةُ بين أفرادِ المجتمعِ الواحدِ والدولةِ التي يعيشون على أرضها ذاتِ الحدودِ الجُغرافيَّةِ والسياسِيَّةِ المعلومة، ولها قوانينٌ مُعيَّنة، تتحدَّدُ بموجبِها الحقوقُ والواجباتُ.

**مُوَاطَنَةٌ خاصَّةٌ:** وهي التي تتعلَّقُ بمنحِ الدولةِ الجِنْسِيَّةِ لأفرادِها بما يكفُلُ لهم مزيداً من الحقوقِ وأداءِ الواجباتِ.

وبذلك يكونُ جميعُ أفرادِ المجتمعِ على اختلافِ مشاربهم، الذين يعيشون على أرضٍ واحدةٍ، وترتبطُهم مبادئٌ ومفاهيمٌ مُشتركةٌ، لهم دورٌ أساسٌ ومشاركةٌ إيجابيةٌ وفعالةٌ في خدمةِ الأرضِ والدولةِ التي ينتمون إليها، ويتنوعُ هذا الدورُ بتنوعِ الصِّفَةِ التي تمنحُها هذه الدولةُ لأفرادِ مجتمعها؛ إن كانت رابطةَ الجِنْسِيَّةِ، أو الإقامةِ، أو غير ذلك<sup>(١)</sup>.

أما أُسسُ المُوَاطَنَةِ العامَّةِ في الإسلامِ، فهي التي تتحقَّقُ بها مصالحُ الأمةِ، وتُحفظُ بها مكاسبُها وثرواتها في عنصرَيْها البشريِّ والماديِّ، وهذا المفهومُ جاءتِ النصوصُ الشرعيَّةُ تُعضِّدُه وتؤيِّدُه، نلحظُ ذلكَ في أساسينِ من أُسسِ بناءِ المجتمعِ الإسلاميِّ، هما:

- الأُخُوَّةُ الإنسانيَّةُ: وهي التي يُعبَّرُ عنها بوحدَةِ الأصلِ والمنشأ: وذلكَ في قوله تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١٠١]، وقوله تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣﴾ [الحجرات: ١٣]، وفي حديثِ النَّبِيِّ ﷺ: "... النَّاسُ بَنُو آدَمَ،

١- انظر: خليل حسين، موسوعة القانون الدولي العام، ٩٨/١-٩٩.

وَأَدَمَ مِنْ تُرَابٍ...<sup>(١)</sup>، كما أوضح ﷺ أَنَّ التَّمْيِيزَ العُنْصُرِيَّ لِعِرْقٍ، أَوْ لَوْنٍ، إِنَّمَا هُوَ مَحْضٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَذَلِكَ فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ العُفْرَانِيِّ ﷺ، عِنْدَمَا سَأَبَ بِلَالاً ﷺ، فَعَبَّرَهُ بِأَمِّهِ، فَقَالَ ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"<sup>(٢)</sup>.

- الأَخُوَّةُ الدِّينِيَّةُ: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال ﷺ فيما يرويه عنه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ..."<sup>(٣)</sup>.

فهذان الأساسان كفيلا يَجْعَلُ جميع أفراد المجتمع الإسلامي الواحد، والذين يَسْكُنُونَ وَطَنًا واحدًا، يَتَعَاوَنُونَ وَيَتَحَدُونَ عَلَى تَقْدِيمِ كُلِّ مَا هُوَ نَافِعٌ وَمُفِيدٌ، وَيُسَهِّمُ فِي ازْدِهَارِ البِلَادِ والعِبَادِ؛ لِأَنَّ المُواطَنَةَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَرْتَبُطُ أَفْرَادَ الوَطَنِ الوَاحِدِ تَقْتَضِي المِشَارَكَةَ فِي بِنَائِهِ، وَإِحْلَالَ السَّلَامِ والأَمَانِ بَيْنَ سُكَّانِهِ.

#### رابعاً: مَعْنَى حِمَايَةِ الوَطَنِ

أصل اشتقاق "الحماية" من الفعل "حمى"، قال في القاموس "حمى الشيء، يحميه، حمياً، وحمائيةً، بالكسر، وحميةً: منعه. وكلاً حمى، كرضى: حمى. وقد حماه حمياً وحميةً وحمائيةً، بالكسر، وحمومة. وحمى المريض ما يضره: منعه إياه، فاحتَمَى وَحَمَى: امتنع. والحمى كغني: المريض الممنوع

١- أبو داود: الأدب، باب في التفأخر بالأحساب، ٤/٩٢٢ (٥١١٨)؛ والترمذي واللفظ له: المناقب، باب في فضل الشام واليمن، ٥/٧٣٥ (٣٩٥٦)، وقال: وهذا - وهو حديث سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، والذي قال فيه: حسن غريب - أصح عندنا من الحديث الأول - أي حديث سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه. - وسعيد المقبري قد سمع أبا هريرة ويروي عن أبيه أشياء كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري في مواضع، منها: الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، وَلَا يُكْفَرُ صَاحِبُهَا بِأَرْكَابِهَا إِلَّا بِالشَّرْكِ، ١/١٥٠ (٣٠)؛ ومسلم: الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، وإلباسه مما يلبس، وَلَا يُكَلِّفُهُ مَا يَغْلِبُهُ، ٣/١٢٨٢ (١٦٦١).

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري: المظالم والغصب، باب: لَا يَظْلِمُ المُسلِمُ المُسلِمَ وَلَا يُسْلِمُهُ، ٣/١٢٨ (٢٤٤٢)؛ ومسلم: البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/١٩٩٦ (٢٥٨٠).

مَّا يَضُرُّهُ، وَكُلُّ حَمِيٍّ وَمَنْ لَا يَحْتَمِلُ الضَّيْمَ. وَالْحَمِيَّ كَمَا إِلَى وَبُدُّ، وَالْحَمِيَّةُ بِالْكَسْرِ: مَا حَمِيَ مِنْ شَيْءٍ. وَالْحَامِيَّةُ: الرَّجُلُ يَحْمِي أَصْحَابَهُ، وَالْجَمَاعَةُ أَيْضًا: حَامِيَّةٌ. وَهُوَ عَلَى حَامِيَّةِ الْقَوْمِ أَي: آخِرُ مَنْ يَحْمِيهِمْ فِي مُضِيِّهِمْ. وَأَحْمَى الْمَكَانَ: جَعَلَهُ حَمِيًّا لَا يُقْرَبُ، أَوْ وَجَدَهُ حَمِيًّا<sup>(٤)</sup>.

بِالنَّظَرِ إِلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْمَذْكُورَةِ، فَإِنَّ حِمَايَةَ الْوَطْنِ هِيَ: مَنَعُهُ مِنْ كُلِّ مَا يُؤْذِيهِ أَوْ يَضُرُّهُ؛ إِنَّ مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَادِّيَّةِ أَوْ الْمَعْنَوِيَّةِ، مِنْ حَيْثُ الْوُجُودِ، أَوْ الْعَدَمِ، وَبِالتَّالِي تَشْمَلُ الْحِمَايَةَ: كُلَّ فِعْلٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحَقِّقَ لِلْوَطَنِ الْأَمْنَ وَالْأَمَانَ، وَالسَّلَامَ وَالسَّلَامَ، وَالْحِفَاظَ عَلَى ثِرَاوَتِهِ وَمُقَدَّرَاتِهِ، كَمَا يَضْمَنُ الْاسْتِقْرَارَ وَالطَّمَأْنِينَةَ وَالْعَيْشَ الْكَرِيمَ لِكُلِّ مَنْ يَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِهِ، وَيَنْتَمُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْتَفِعُونَ بِخَيْرَاتِهِ.

وهذه الحِمَايَةُ الَّتِي يَحْتَاجُهَا الْوَطْنُ، إِنَّمَا هِيَ نِتَاجُ مَا يَبْدُلُهُ مُوَاطِنُوهُ مِنْ جُهْدٍ وَكَدِّ وَعَمَلٍ؛ إِذِ التَّدَاوُعُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ، وَالدَّفَاعُ عَنِ الْأَوْطَانِ وَاجِبٌ مَنُوطٌ بِسَاكِنِيهِ؛ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ، الَّذِينَ وَلَا بُدَّ تَرْتِيبُهُمْ وَشَائِجُ حُبِّ الْوَطَنِ، وَالتَّفَانِي فِي خِدْمَتِهِ، وَالْعَمَلِ عَلَى اسْتِقْرَارِهِ وَتَطْوِيرِهِ، وَلَا زَمَّ ذَلِكَ أَنَّ الْوَطْنَ مُهِمٌّ لِكُلِّ مَنْ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ.

وفي المبحث الثاني حديثٌ عن أَمِيَّةِ الْوَطَنِ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ مِنْ خِلَالِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

## المبحث الثاني: أَمِيَّةِ الْوَطَنِ لِلْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ فِي ضَوْءِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

لَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ فَرْدٍ أَنْ يَعِيشَ خَارِجَ حُدُودِ وَطْنِهِ، لِأَنَّهُ اجْتِمَاعِيٌّ بِطَبْعِهِ، وَحَاجَتُهُ إِلَى الْمَجْتَمَعِ تَعْنِي ابْتِدَاءً حَاجَتَهُ إِلَى الْوَطَنِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ وَيُؤَلَّفُ مِنْ خِلَالِهِ عِلَاقَاتِهِ الْأُسْرِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ، كَمَا وَيَسْتَثْمِرُ فِيهِ طَاقَاتِهِ وَإِمْكَانَاتِهِ، وَعَلَيْهِ نَبْذُ أَنَّ لِلْوَطَنِ أَمِيَّةً بِالْغَةِ لِكُلِّ مَنْ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ، يُمَكِّنُ تَلْخِيصُ أَبْرَزِهَا مِنْ خِلَالِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَطَهَّرَةِ فِيمَا يَأْتِي:

١. إِشْبَاعُ الْحَاجَةِ الْفِطْرِيَّةِ لِحُبِّ الْوَطَنِ: فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ، أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا"، وَفِي زِيَادَةٍ: "حَرَكَهَا مِنْ حُبِّهَا"<sup>(٦)</sup>. وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ ﷺ كَانَ إِذَا اقْتَرَبَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَسْرَعَ السَّيْرَ وَحَثَّ دَابَّتَهُ بِسَبَبِ حُبِّهِ الْمَدِينَةَ

٤- القاموس المحيط، ص ١١٧٤. وانظر: لسان العرب، ١٤/١٩٧.

٥- أي طُرُقُهَا الْمَرْتَفَعَةَ. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣/٢٢٠.

٦- البخاري: أبواب العمرة، بَابُ مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَدِينَةَ، ٧/٣ (١٨٠٢).

وَشَوْقَهُ إِلَيْهَا<sup>(١)</sup>. فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ فِطْرَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، وَلِذَلِكَ فَهُوَ دَائِمٌ الْحَنِينَ إِلَيْهِ، وَإِنْ ابْتَعَدَ عَنْهُ لَشُغْلٍ شَاغِلٍ، لَمْ يَهِنَا حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَهُوَ الَّذِي وَجَّهَنَا إِلَيْهِ رَسُولُنَا الْكَرِيمُ ﷺ فِي قَوْلِهِ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ<sup>(٢)</sup> فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ"<sup>(٣)</sup>.

وفي حديثٍ بَدَأَ الْوَحْيِ عِنْدَمَا أَخْبَرَ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ الرَّسُولَ ﷺ بِأَنَّ قَوْمَهُ سَيُخْرِجُونَهُ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَوْ تُخْرِجِي هُمُ؟"<sup>(٤)</sup>، ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ لِيُخْرِجَ مِنْ بَلَدِهِ مَكَّةَ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ دُونِ سَبَبٍ، وَأَنَّ الْأَصْلَ أَنْ يَعِيشَ الْمَرْءُ فِي وَطَنِهِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَأْلَفُهُ، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بِسَبَبٍ إِخْرَاجِ قَوْمِهِ لَهُ، دَعَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَ إِلَيْهِ وَإِلَى صَحَابَتِهِ وَطَنَهُمُ الْحَدِيدَ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحَّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(٥)</sup>.

٢. إِشَاعَةٌ وَشَائِحِ الْأَلْفَةِ وَالتَّأْلِيفِ: وما ينعكس من خلالها على المجتمع من الوحدانية والتعاون والإخاء، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لِمَكَّةَ: "مَا أَطْيَبَكَ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكَ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا سَكَنْتُ غَيْرَكَ"<sup>(٦)</sup>. فعلى الرغم من الشُّرْكِ الَّذِي كَانَ يَسُودُ مَكَّةَ، وَالإِيذَاءِ الَّذِي لَحِقَ رَسُولُنَا الْكَرِيمَ صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَلْفَ عَيْشَتِهَا، وَتَعَوَّدَ عَلَيْهَا بِمَا فِيهَا مِنْ شَجَرٍ وَحَجَرٍ، وَحَتَّى أَهْلِهَا عَبَّرَ عَنْهُمْ بِ"قَوْمِي"، وَلَمْ يَقُلْ فِي مُحَاطَتِهِ لِبَلَدِهِ الْحَبِيبِ مَكَّةَ: "قَوْمِكَ"، أَوْ "أَهْلِكَ"، وَهُمْ الَّذِينَ لَاقَى مِنْهُمْ شَتَّى أَنْوَاعِ الْأَذَى وَالصُّدُودِ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى

١- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٦٢٠/٣.

٢- أي حاجته. انظر: شرح النووي على مسلم، ٧٠/١٣.

٣- سيأتي تخريجه عند النقطة السادسة من هذا المبحث.

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري: بَدَأَ الْوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، ٧/١ (٣)؛ ومسلم: الإيمان، بَابُ بَدَأَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ١٣٩/١ (١٦٠).

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، ٢٣/٣ (١٨٨٩)؛ ومسلم: الْحَجَّ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي سَكَنِ الْمَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى لَأْوَائِهَا، ١٠٠٣/٢ (١٣٧٦).

٦- الترمذي: أَبْوَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ فِي فَضْلِ مَكَّةَ، ٧٢٣/٥ (٣٩٢٦). قال الترمذي: "حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ".

أَنَّ الْوَطْنَ يُؤَلَّفُ أَيْضًا لِأَهْلِهِ الَّذِينَ هُمْ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْوَطْنِ، لَا غِنَى عَنْهُ.

٣. تَوْفِيرُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ: مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ شَعُورَ الْمَرْءِ بِانْتِمَائِهِ إِلَى بُقْعَةٍ مُعَيَّنَةٍ، يَعِيشُ عَلَى أَرْضِهَا، وَيُمَارِسُ فِيهَا نَشَاطَاتِهِ الْمُنْتَوَعَةَ، يُحَقِّقُ فِيهَا ذَاتَهُ، وَيُحَطِّطُ مِنْ خِلَالِهَا لِمُسْتَقْبَلِهِ وَمُسْتَقْبَلِ أُنْبَائِهِ، كُلُّ ذَلِكَ لَا يَكْتَمِلُ إِلَّا بِوُجُودِ عُنْصُرٍ أَسَاسٍ يَضْمَنُ لَهُ تَحْقِيقَ كَامِلِ طُمُوحَاتِهِ، أَلَا وَهُوَ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ، فَالْوَطَنُ الَّذِي يَتَوَفَّرُ فِيهِ الْأَمْنُ وَالْأَمَانُ هُوَ جَنَّةُ الْفَرْدِ وَالْجَمْعِ، وَهُوَ الَّذِي يَدْفَعُ بِعَجَلَةِ التَّطَوُّرِ وَالِازْدِهَارِ قُدَمَا إِلَى الْأَمَامِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِمَّا امْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى قُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ هُوَ نِعْمَةُ الْأَمْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ٣-٤]، وَفِي سُورَةِ الْقَصَصِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتُ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصاص: ٥٧]، كَمَا دَعَا سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ الْمَكَّةَ الَّتِي صَارَتْ وَطَنًا لِابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَذُرِّيَّتِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهَا حِكَاةَ عَنْهُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. وَفِي حَدِيثٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ ءَامِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَاتِي فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حَيَّرَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(١)</sup>. وَهُوَ مَا يُعَزِّرُ قِيَمَةَ الْأَمْنِ الَّتِي يُوفِّرُهَا الْوَطَنُ لِسَاكِنِيهِ.

٤. التَّمَتُّعُ بِرَعْدِ الْعَيْشِ: وَلَا يَنْفَكُ عَنِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ، طُمَأْنِينَةُ رَعْدِ الْعَيْشِ، فَالْوَطَنُ الْآمِنُ هُوَ فَرْصَةٌ مُنَاسِبَةٌ لِتَطْوِيرِ سُبُلِ الْعَيْشِ، وَتَوْفِيرِ قُوَّةِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، بَلْ وَالسُّنَّةِ، وَكَمْ مِنْ أَنَاسٍ اتَّخَذُوا لَهُمْ وَطَنًا غَيْرَ الْوَطَنِ الَّذِي وُلِدُوا فِيهِ، لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي وَطَنِهِمُ الثَّانِي مَصْدَرًا لِرِزْقِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَبِالْعُودَةِ إِلَى سُورَةِ قُرَيْشٍ، فَالْآمِنَانِ عَلَى قُرَيْشٍ وَقَعَ بِالْأَمْنِ مِنْ خَوْفِ الْأَعْدَاءِ، وَبِأَمْنِ تَوْفِيرِ الْعَيْشِ مِنَ الْجُوعِ أَيْضًا، وَالَّذِي عَبَّرَ عَنْهُ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِطْعَامِ، فِي قَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قریش: ٣-٤]، وَفِي دُعَاءِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَلِكَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الشَّرَارِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]. كَمَا دَعَا نَبِيَّنَا الْكَرِيمُ ﷺ لَوْطَنِ الْجَدِيدِ الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ بِالْخَيْرِ وَالْبِرْكَةِ، فَقَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبِرْكَةِ"<sup>(٢)</sup>،

١- أخرج من رواية سلمة بن عبید الله بن محصن الخطمي، عن أبيه: البخاري في الأدب المفرد، ص ١١٢ (٣٠٠)؛ والترمذي: أبواب الرُّهْدِ، ٥٧٤/٤ (٢٣٤٦)، وقال: حسنٌ غريبٌ.

٢- البخاري: فضائل المدينة، باب: المدينة تنفي الخبث، ٢٣/٣ (١٨٨٥).

قال الحافظ ابن حجر: "أي من بركة الدنيا"<sup>(١)</sup>. وفي الحديث السابق الذكر أيضا: "مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ، مُعَانِي فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا"<sup>(٢)</sup>، إشارة إلى هذه القيمة وهي الأمن الغدائي، التي لطالما سعى إليها الناس جميعا؛ أفرادا ومجتمعات، دولاً وحكومات، ضمن حدود الوطن الذي يلتقي فيه ويعيش على أرضه هؤلاء وهؤلاء.

**٥. الاستقرار النفسي والأسري:** ففي طبيعة الإنسان حاجته إلى الاستقرار النفسي والأسري، وذلك لا يستقيم إلا بالانتماء إلى الوطن والسكن فيه، وهو المعنى الذي لفت إليه حديث النبي ﷺ فيما يرويه مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: "اتَّيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَقِيقًا، فَظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا، فَسَأَلَنَا عَنْ مَنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا، فَأَحْبَرْنَا، فَقَالَ: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فليُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيُؤْمِكُمْ أَكْبَرُكُمْ"<sup>(٣)</sup>، فهؤلاء الفتية قام في أنفسهن الشوق إلى أهلهم، ومن لازمه الشوق إلى وطنهم الذي هو مكان إقامة أهلهم، لما فيه من الاستقرار النفسي والأسري، وإن كانت العودة إلى ديارهم تعني فيما تعنيه تعليم قومهم ما سمعوه من النبي ﷺ، وهو مُقَدَّمٌ على الشوق إليهم، ولكن كما قال الحافظ - رحمه الله -: "اقتصار الصحابي على ذكر سبب الأمر برُجوعهم بأنه الشوق إلى أهلهم دون قصد التعليم، هو لما قام عنده من القرينة الدالة على ذلك، ويمكن أن يكون عرف ذلك بتصريح القول منه ﷺ، وإن كان سبب تعليمهم قومهم أشرف في حقهم، لكنّه أخبر بالواقع ولم يتزَيَّن بما ليس فيهم، ولما كانت نيّتهم صادقة، صادف شوقهم إلى أهلهم الحظّ الكامل في الدين، وهو أهليّة التعليم"<sup>(٤)</sup>. اهـ.

**٦. تحقيق مبدأ التعاون على الخير بين أفراد المجتمع الواحد:** فبالنظر إلى حديث مالك

١- فتح الباري، ٤/٩٨.

٢- سبق تخريجه وشيكا، في النقطة الثالثة: توفير الأمن والأمان.

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ واللفظ لمسلم: البخاري في مواضع، منها: الأذان، بَابُ الْأَذَانِ لِلْمُسَافِرِ إِذَا كَانُوا جَمَاعَةً وَالْإِقَامَةَ، ١/١٢٨ (٦٣١)؛ ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة، بَابُ مَنْ أَحَقَّ بِالْإِمَامَةِ، ١/٤٦٥ (٦٧٤).

٤- ابن حجر، فتح الباري، ٢/١٧١.

بْنِ الْحُوَيْرِثِ السَّابِقِ الذِّكْرُ، وَالَّذِي يَقُولُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ، وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ لَكُمْ أَحَدَكُمْ ثُمَّ لِيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ"، فَقَدْ أَشَارَ إِلَى مُنْتَهَى مَا يَرْبُطُ الْفَرْدَ بِمُجْتَمَعِهِ مِنْ عِلَاقٍ، أَوْ هُوَ التَّعْلِيمُ وَالتَّصْحُّحُ وَالإِشْرَادُ، وَإِقَامَةُ الدِّينِ، وَلِذَلِكَ نَجَدُ النَّبِيَّ ﷺ يَصِفُ الْإِبْتِعَادَ عَنِ الْوَطْنِ بِأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، لِمَا لَهُ مِنْ تَأْتِيرٍ سَلْبِي فِي الْمَسَافِرِ، وَفِي مَنْ تَرَكَ وَرَاءَهُ، قَالَ ﷺ: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ<sup>(١)</sup>، فَلْيَعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ"<sup>(٢)</sup>، أَي إِذَا قَضَى حَاجَتَهُ، فَلْيُسْرِعْ بِالرَّجُوعِ إِلَى أَهْلِهِ، لِمَا فِيهِ نَفْعُهُ هُوَ بِالِاسْتِقْرَارِ فِي بَلَدِهِ وَوَطْنِهِ وَاسْتِقَامَةِ عَيْشِهِ، وَأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ بِنَفْعِهِمْ بِجُهْدِهِ وَعِلْمِهِ وَخِبْرَاتِهِ.

٧. الكَرَامَةُ وَحِفْظُ الْحُقُوقِ: الْوَطْنُ هُوَ الْحِصْنُ الْحَصِينُ لِأَيِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَتِمَّتْ فِيهِ الْجَمِيعُ بِحُقُوقِهِمْ وَكَامِلِ كِرَامَتِهِمْ وَاحْتِرَامِهِمْ، فَقَدْ عَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بِبَعْضِ بَنِي جِلْدَتِهِمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالتَّهْجِيرِ مِنَ الدِّيَارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥]، فَقَدْ كَانَ هَذَا التَّصَرُّفُ مِنْهُمْ إِغْلَالًا فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى مُوَاطِنِهِمْ، الَّذِينَ كَانُوا الْأَجْدَرُ بِهِمْ حِمَايَتِهِمْ وَالِدَّفَاعَ عَنْهُمْ، وَحِفْظَ كِرَامَتِهِمْ وَكَامِلِ حُقُوقِهِمْ، بَلْ إِنَّ الْحِجَّةَ تَقُومُ عَلَى مَنْ اسْتَضْعَفَ فِي أَرْضِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِقَامَةَ شَعَائِرِ دِينِهِ، فَلَمْ يُهَاجِرْ مِنْهَا إِلَى حَيْثُ يَتِمَّتْ بِجُرْيَةِ التَّدِينِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاوْلِيكَ مَا وَبَّيْتُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٩٧) [النساء: ٩٧]، كَمَا أَنَّ هِجْرَةَ نَبِيِّنَا الْكَرِيمِ - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِلَى الْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَوْلَا إِبْدَاءُ قَوْمِهِ لَهُ وَلَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، حَيْثُ صَارَ الْعَيْشُ فِي مَكَّةَ وَهِيَ الْوَطْنُ الْأُمُّ خَالِيًا مِنَ الْكِرَامَةِ وَحِفْظِ الْحُقُوقِ، بَلْ إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ قَدْ أَمَرَ صَحَابَتَهُ

١- أي حاجته. انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣/٧٠.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: أَبْوَابُ الْعُمْرَةِ، بَابُ: السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، ٣/٠٨ (١٨٠٤)؛ وَمُسْلِمٌ: الْإِمَارَةُ، بَابُ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَاسْتِحْبَابِ تَعْجِيلِ الْمَسَافِرِ إِلَى أَهْلِهِ بَعْدَ قَضَائِ شُغْلِهِ، ٣/١٥٢٦ (١٩٢٧).

بالمهجرة إلى الحبشة، أين يتوفّر العيش الكريم، ويلقون التقدير والاحترام لإنسانيتهم، فكان مما قاله ﷺ: "إِنَّ بَارِضَ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحُقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرْجًا وَمَخْرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ"<sup>(١)</sup>.

فهذه الأهمية للوطن تستدعي من كل إنسان يعيش في وطنه أن يزعى حقوقه، ويبادر لحمايته والدود عنه ضمن مبادئ ومُنطلقات، هي موضوع المبحث الثالث والأخير.

### المبحث الثالث: مبادئ حماية الوطن في السنة النبوية ومُنطلقاتها

إن الإخلاص للوطن ليس مجرد شعور أو كلام يُردّد، بل هو عمل دائم وسعي قائم لتحقيق أغنى الغايات وأرقى الدرجات للمكان الذي نعيش فيه ونأوي إليه، وهو بذل وعطاء مستمر، وهو أيضا في الدرجة الأولى دفاع عنه وحماية له من كل ما يُزعزع أمنه واستقراره، أو يُعزقل نموه وتقدمه، وقد قرّن المولى سبحانه وتعالى بين النفس والبلد الذي تعيش فيه، وجعل التضحية بهما من أعظم وأشقّ التكاليف، فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ [النساء: ٦٦].

وعليه، يتوجّب على أبناء الوطن الواحد القيام بحقه وتأدية الواجب اتجاهه، وهو ما جاءت النصوص الشرعية مؤكدة وداعية إليه، لاسيما السنة النبوية، والتي يمكن من خلالها استخلاص عدّة مبادئ ومُنطلقات لحماية الوطن، نُحملها فيما يأتي:

١- من حديث أم سلمة رضي الله عنها، أخرجه: أحمد، المسند، ٣/٢٦٣ (١٧٤٠)؛ والبيهقي، السنن الكبرى، ٩/٩ (١٨١٩٠). قال الهيثمي عن حديث أحمد: "رواه أحمد، ورجاله رجال الصّحيح غير [محمد بن إسحاق] - أي عن محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب -، وقد صحّ بالسّماع". مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٦/٢٤-٢٧ (٩٨٤٢).

١. عِبَادَةُ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ عَلَى أَرْضِهِ: وَيَتَضَحَّ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۗ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِمَّنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِمَّنْ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧]. ذَلِكَ أَنَّ الشَّرْكَ مَدْعَاةٌ إِلَى كُلِّ ضَلَالٍ وَمُفْسَدَةٍ، وَقَدْ أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ عَلَى أَوْلَادِكَ الَّذِينَ رَضَخُوا لَوَاقِعِ حَالِهِمْ مِنَ الشَّرْكَ وَتَرَكَ عِبَادَةَ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يُغَادِرْهَا إِلَى حَيْثُ يُقِيمُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ، فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١٧﴾ [النساء: ٩٧]، وَقَالَ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ۝٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]. وَيُعَضِّدُ هَذَا قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا"<sup>(١)</sup>، وَالْمَقْصُودُ بِ"لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ"، أَيِ فَتْحِ مَكَّةَ، لِأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلَامٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْهِجْرَةِ مِنْهَا"<sup>(٢)</sup>، وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَطَاعَ الْمُسْلِمُ الْقِيَامَ بِحَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَرْضِ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا فَتَمَّةَ وَطَنِهِ الَّذِي يَلْزُمُهُ، وَكَذَلِكَ بَيَّنَّتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ (رضي الله عنها)، وَقَدْ سُئِلَتْ عَنِ الْهِجْرَةِ، قَالَتْ: "لَا هِجْرَةَ الْيَوْمَ، كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَفِرُّ أَحَدُهُمْ بِدِينِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، مَخَافَةَ أَنْ يُفْتَنَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ، وَالْيَوْمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ حَيْثُ شَاءَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ"<sup>(٣)</sup>، وَقَدْ شَرَحَهُ الْحَافِظُ بِقَوْلِهِ: "فَمُقْتَضَاهُ أَنَّ مِنْ قَدَرِ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ اتَّفَقَ لَمْ تَجِبْ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ مِنْهُ، وَإِلَّا وَجِبَتْ، وَمِنْ ثَمَّ قَالَ الْمَاورِدِيُّ: إِذَا قَدَرَ عَلَى إِظْهَارِ الدِّينِ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ فَقَدْ صَارَتْ الْبَلَدُ بِهِ دَارَ إِسْلَامٍ، فَالِإِقَامَةُ فِيهَا أَفْضَلُ مِنَ الرَّحْلَةِ مِنْهَا؛ لَمَا يَتَرَجَّى مِنْ دُخُولِ غَيْرِهِ فِي الْإِسْلَامِ"<sup>(٤)</sup>.

- ١- البخاري في مواضع، منها: الجهاد والسير، بَابُ فَضْلِ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، ١٥/٤ (٢٧٨٣)؛ ومسلم: الحج، بَابُ تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلَاهَا وَشَجَرِهَا وَلَقَطِئِهَا، إِلَّا لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣).
- ٢- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٣٨/٦، ١٩٠.
- ٣- البخاري: مناقب الأنصار، بَابُ هِجْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ، ٥٧/٥ (٣٩٠٠).
- ٤- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٢٩/٧.

٢. حُبُّ الْوَطَنِ بِكَامِلِ مَكُونَاتِهِ: روى لنا الصَّحَابِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ السَّاعِدِيُّ رضي الله عنه، قَالَ: "أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ: "هَذِهِ طَابَةٌ"<sup>(١)</sup>، وَهَذَا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ"<sup>(٢)</sup>. ففي هذا الحديث إشارة إلى حُبِّ الْوَطَنِ بِمَعْلَمِهِ وَأَثَرِهِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْهُ، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا قَفَلَ رَاجِعًا، حَثَّ دَابَّتَهُ شَوْقًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَا جَاءَ فِي الرَّوَايَةِ الْكَامِلَةِ لِلْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ، حَيْثُ قَالَ صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي مُتَعَجِّلٌ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَعَجَّلَ مَعِي، فَلْيَتَعَجَّلْ"<sup>(٣)</sup>.

وَدَعَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحِبَّ إِلَيْهِ وَلِصَحَابَتِهِ وَطَنَهُمُ الْجَدِيدَ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ"<sup>(٤)</sup>، فَيُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ نِعْمَةٌ، وَإِلَّا لَمَا سَأَلَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - هَذَا الْحُبَّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَهُ وَطَنٌ وَبَلَدٌ يَعِيشُ فِيهِ، فَإِنَّ مِنَ الْبِرِّ بِهِ أَنْ يُحِبَّهُ بِمَا فِيهِ مِنْ أَمَاكِنَ وَمَا تَحْوِيهِ، وَهِيَ هُمْ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -، قَدْ تَغَنَّوْا بِأَوْطَانِهِمْ، فَتُرْوَى السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رضي الله عنها عَنْ بِلَالٍ رضي الله عنه عِنْدَمَا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ وَأُصِيبُوا بِبَوَائِهَا، تَقُولُ: "كَانَ بِلَالٌ إِذَا أُفْلِعَ عَنْهُ الْحُمَى يَرْفَعُ عَقِيرَتَهُ"<sup>(٥)</sup> يَقُولُ:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً  
بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْ حَرٌّ وَجَلِيلٌ،  
وَهَلْ أَرَدَنْ يَوْمًا مِيَاهَ مَحَنَّةٍ  
وَهَلْ يَبْدُونَ لِي شَامَةً وَطَفِيلٌ"<sup>(٦)</sup>

- ١- أي المدينة، وطابة من الطيب، وقيل: هو من الطيب، بمعنى الطاهر؛ لخلوصها من الشرك وتطهيرها منه. انظر: ابن الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/٣٣٣.
- ٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْمَغَارِي، بَابٌ مِنْ بَابِ نُزُولِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الْحِجْرَ، ٨/٦ (٤٤٢٢)؛ وَمُسْلِمٌ: الْحَجَّ، بَابُ أُحُدٍ جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ، ١٠١١/٢ (١٣٩٢).
- ٣- الْبُخَارِيُّ: الزَّكَاةَ، بَابُ حَرَصِ الثَّمَرِ، ١٢٥/٢ (١٤٨١)؛ وَهِيَ رِوَايَةٌ مُسْلِمٌ فِي الْمَوْضِعِ السَّابِقِ، وَفِي: الْحَجَّ، بَابُ أُحُدٍ جَبَلٌ يُجْبِنَا وَنُحْبُهُ، ١٠١١/٢ (١٣٩٢).
- ٤- هُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رضي الله عنها الْآتِي فِي قِصَّةِ بِلَالٍ رضي الله عنه وَشِكَايَتِهِ مِنْ وِبَاءِ الْمَدِينَةِ.
- ٥- أَي: صَوْتَهُ بِبِكَاءٍ أَوْ بَغْءًا، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَصْلُهُ أَنَّ رَجُلًا انْعَقَرَتْ رِجْلُهُ فَرَفَعَهَا عَلَى الْأُخْرَى وَجَعَلَ يَصِيحُ، فَصَارَ كُلُّ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ يُقَالُ: رَفَعَ عَقِيرَتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَرْفَعْ رِجْلَهُ. انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٧/٢٦٣؛ وَالزَّيْبِيدِي، تَاجُ الْعُرُوسِ مِنْ جَوَاهِرِ الْقَامُوسِ، ١٣/١٠٣.
- ٦- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ كَرَاهِيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُعْرَى الْمَدِينَةُ، ٢٣/٣ (١٨٨٩)؛ وَمُسْلِمٌ بِاخْتِصَارٍ: الْحَجَّ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي سَكَنِ الْمَدِينَةِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَوَائِثِ، ١٠٠٣/٢ (١٣٧٦).

و"وادي": هو وادي مَكَّة، و"إذخر" بكسر الهمزة والحاء: الحشيش الأخضر، وهو حشيش معروف طيب الرائحة، و"جليل" بفتح الجيم: نبت ضعيف يُحشى به خصاص البيوت وغيرها، و"مياه مجنة": موضع على أميال من مَكَّة وكان به سوق<sup>(١)</sup>، وقيل: "مياه مجنة": بفتح الميم وكسرهما، هو موضع بأسفل مَكَّة<sup>(٢)</sup>، و"يبدوون لي شامة وطفيل": أي يظهر شامة وطفيل، وهما جبلان بقرب مَكَّة، وقيل: عثبان<sup>(٣)</sup>.

فَقَدْ تَغْنَى ﷺ بِكُلِّ مَا كَانَ فِي مَكَّة مِنْ وادٍ وَشَجَرٍ وَحَجَرٍ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى حُبِّ الْوَطْنِ بِكُلِّ مَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ الْمُسْلِمُ يَحِبُّ وَطَنَهُ بِمُخْتَلَفِ مَعَالِمِهِ، وَيَتَغْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَالْآثَارِ.

٣. الدُّعَاءُ لِلْوَطَنِ: دَعَا إِبْرَاهِيمَ ﷺ لِمَكَّةَ لَمَّا قَدِمَ إِلَيْهَا بِزَوْجَتِهِ هَاجِرَةَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وَقَالَ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وَقَدْ حَفَلَتِ الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ الشَّرِيفَةُ بِدُعَائِهِ ﷺ لِلْمَدِينَةِ، كَقَوْلِهِ ﷺ: "اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحَبِّبْنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدَّنَا، وَصَحْحَهَا لَنَا، وَأَنْقُلْ حُمَاهَا إِلَى الْجُحْفَةِ"<sup>(٤)</sup>. وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ"<sup>(٥)</sup>، أَي بَرَكَةِ الدُّنْيَا

١- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٦٣/٧. وفي تعريف الإذخر، يُنظر: شرح النووي، ٧-٦/٧، ١٢٧/٩، والقاموس المحيط، ص ٣٦٩.

٢- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ١٨٦/١.

٣- انظر: ابن حجر، فتح الباري، ٢٦٣/٧.

٤- هو حديث السيدة عائشة ﷺ السابق الذكر قريباً.

٥- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: البخاري: فضائل المدينة، باب: المدينة تُنْفِي الْحَبْثَ، ٢٣/٣ (١٨٨٥)؛ ومسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، ٩٩٤/٢ (١٣٦٩).

أو ما هو أعظم، كما قال الحافظ ابن حجر<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤْتَى بِأَوَّلِ الثَّمَرِ، فَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثَمَارِنَا، وَفِي مَدَّنَا، وَفِي صَاعِنَا، بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةِ"<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَدَعَا لِأَهْلِهَا، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَإِنِّي دَعَوْتُ فِي صَاعِهَا وَمُدَّهَا بِمِثْلِي مَا دَعَا بِهِ إِبْرَاهِيمُ لِأَهْلِ مَكَّةَ"<sup>(٣)</sup>.

كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في الدعاء لغير المدينة قوله: "اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي بَيْمِنَا"<sup>(٤)</sup>.

فهذه الأحاديث ظاهرة في أن من حقوق الوطن على أهله الدعاء له بكل خير وتوفيق وبركة، ذلك أن الأوطان هي مؤئل ومرجع كل إنسان حاضر أو باد، مقيم أو مسافر، ورحاؤها واستقرارها يعود على أهلها بالسعادة وطيب العيش.

٤. الدَّفَاعُ عَنْهُ ضِدُّ الْأَعْدَاءِ: أَدَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقِتَالِ لِلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٣٩)</sup> الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩-٤٠]، وعليه، يُشْرَعُ الدَّفَاعُ عَنِ الْوَطَنِ بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ، صَوْنًا لَهُ مِنْ كُلِّ اعْتِدَاءٍ، أَوْ اسْتِبَاحَةٍ لِبَيْضَتِهِ، وَقَدْ قَالَ صلى الله عليه وسلم بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ: "لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"<sup>(٥)</sup>، ففيه

١- انظر: فتح الباري، ٩٨/٤.

٢- مسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحرير صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، ١٠٠٠/٢ (١٣٧٣).

٣- مسلم: الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحرير صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمها، ٩٩١/٢ (١٣٦٠).

٤- البخاري: الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الفتنة من قبل المشرق"، ٥٤/٩ (٧٠٩٤).

٥- البخاري في مواضع، منها: الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ١٥/٤ (٢٧٨٣)؛ ومسلم: الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلالها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣). وقد سبق تخريجه.

أَنَّ الْحَاكِمَ إِذَا دَعَا رَعِيَّتَهُ لِلْجِهَادِ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوا وَيُلبَّتُوا، وَخَاصَّةً إِذَا تَعَلَّقَ الْأَمْرُ بِحِمَايَةِ الْوَطَنِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقِيَامِ بِالْأَمَانَةِ، وَعَدَمِ الْخِيَانَةِ وَالْغَدْرِ الْجَاهِ الْأَيْمَةِ وَالْحُكَّامِ<sup>(١)</sup>.

وَكَذَلِكَ دَافَعِ النَّبِيُّ ﷺ وَصَحَابَتُهُ عَنِ مَدِينَتِهِمْ، وَخَيْرٌ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ غَزْوَةُ الْخَنْدَقِ، حَيْثُ شَارَكَ ﷺ بِنَفْسِهِ فِي حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَذَلِكَ فِيَا يَرُويهِ الْبَرَاءُ ؓ، قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بِيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا، وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا، فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَتَبَّتِ الْأَقْدَامُ إِنْ لَاقَيْنَا، أَنْ الْأُلَى قَدْ بَعَوْا عَلَيْنَا، إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبِينَا"<sup>(٢)</sup>.

٥. **المحافظة على المكاسب والثروات والممتلكات:** إن أصول الشريعة الغراء إنما جاءت مراعيةً لحاجات العباد، فدلَّت بِعُمومِهَا وَخُصُوصِهَا عَلَى جَلْبِ كُلِّ مَصْلَحَةٍ، وَدَرْءِ كُلِّ مَفْسَدَةٍ، وَهَكَذَا هِيَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَاطِقَةٌ بِهَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْجَلِيلَةِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَحْقِيقِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، كَمَا جَاءَتْ آيَاتُ الْكَرِيمَةِ بِالنُّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ وَالْمُفْسِدِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، فَمِنَ الْحِمَايَةِ لِلْوَطَنِ أَنْ يُحَافِظَ أُنْبَاؤُهُ عَلَى مُقَدَّرَاتِهِ؛ مِنْ هَيْكَلِ وَمُؤَسَّسَاتٍ وَمُتَمَلِّكَاتٍ؛ خَاصَّةً وَعَامَّةً؛ لِأَنَّهَا جَمِيعُهَا تُسَهِّمُ فِي نُمُوِّهِ وَتَطْوِيرِهِ وَالْإِرْتِقَاءِ بِهِ، وَضَمَانِ اسْتِقْرَارِهِ اجْتِمَاعِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا، وَقَدْ أَرْشَدَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحِفَاظِ عَلَى الثَّرَوَاتِ الْمُتَاحَةِ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﷺ: "لَا تَتَّخِذُوا شَيْئًا

١- انظر: شرح النووي على مسلم، ١٣/٠٨؛ وفتح الباري، ٦/٢٨٤.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: الْجِهَادُ وَالسِّيَرُ، بَابُ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، ٤/٢٦ (٢٨٣٧)؛ وَمُسْلِمٌ:

الْجِهَادُ وَالسِّيَرُ، بَابُ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ وَهِيَ الْخَنْدَقُ، ٣/١٤٣٠ (١٨٠٣).

فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا<sup>(١)</sup>، وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: "نَهَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُصَبَّرَ الْبَهَائِمُ<sup>(٢)</sup> (٣)، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: "أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، وَغُلَامٌ مِنْ بَنِي يَحْيَى رَابِطٌ دَجَاجَةٌ يَرْمِيهَا، فَمَشَى إِلَيْهَا ابْنُ عُمَرَ حَتَّى حَلَّهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ بِهَا وَبِالْغُلَامِ مَعَهُ، فَقَالَ: ازْجُرُوا غُلَامَكُمْ عَنْ أَنْ يَصْبِرَ هَذَا الطَّيْرَ لِلْقَتْلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم "نَهَى أَنْ تُصَبَّرَ بِهَيْمَةً أَوْ غَيْرِهَا لِلْقَتْلِ"<sup>(٤)</sup>.

فهذه الأحاديث الشريفة أصل في عدم الإسرافِ والعبثِ والإفسادِ في الأرضِ، بمنعِ اتِّخَاذِ أَيِّ حَيَوَانٍ أَلِيفٍ وَغَيْرِهِ هَدَفًا لِلرَّمْيِ وَالْقَتْلِ؛ لِأَنَّ قَتْلَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَعْدِيبٌ لَهُ مِنْ جِهَةٍ، وَإِهْدَارٌ لِمَنْفَعَتِهِ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ النَّوَوِي: "لِأَنَّهُ تَعْدِيبٌ لِلْحَيَوَانِ، وَإِتْلَافٌ لِنَفْسِهِ، وَتَضْيِيعٌ لِمَالِيَّتِهِ، وَتَفْوِيتٌ لِدَكَاتِهِ إِنْ كَانَ مُدَكِّي، وَلِمَنْفَعَتِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُدَكِّي"<sup>(٥)</sup>.

هذا بالإضافة إلى ما في ذلك من الإخلالِ بِتَوَازُنِ البَيْعَةِ، وَهُوَ ذَاتُ السَّبَبِ الَّذِي يُمْكِنُ اسْتِنَاجُهُ مِنْ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: "عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارُ، لَا هِيَ

١- أخرجه من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: مسلم: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٧).

٢- أَيُّ تُحْبَسَ لِثَرْمِي حَتَّى تَمُوتَ. فتح الباري، ٦٤٣/٩.

٣- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الذَّبَائِحُ وَالصَّيْدُ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الْمُثَلَّةِ وَالْمَصْبُورَةِ وَالْمُحْتَمَّةِ، ٩٤/٧ (٥٥١٣)؛ وَمُسْلِمٌ: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ صَبْرِ الْبَهَائِمِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٦).

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الذَّبَائِحُ وَالصَّيْدُ، بَابُ مَا يُكْرَهُ مِنَ الْمُثَلَّةِ وَالْمَصْبُورَةِ وَالْمُحْتَمَّةِ، ٩٤/٧ (٥٥١٤)؛ وَمُسْلِمٌ: الصَّيْدُ وَالذَّبَائِحُ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهِرَّةِ، ١٥٤٩/٣ (١٩٥٨). وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: "مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا".

٥- شرح النووي، ١٠٨/١٣.

أَطْعَمْتَهَا وَلَا سَقَّتْهَا إِذْ حَبَسْتَهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشٍ <sup>(١)</sup> الْأَرْضِ <sup>(٢)</sup>؛ لِأَنَّ الْهَرَّةَ إِلَّا وَهِيَ دَوْرٌ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى تَوَازُنِ الْبَيْئَةِ وَبِقَاءِ الْأَنْوَاعِ، فَلَوْ عَمَدَ النَّاسُ إِلَى الْعَبَثِ بِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ لِأَذَى ذَلِكَ إِلَى فَسَادِ عَرِيضٍ يَنْجُمُ عَنْهُ اخْتِلَالُ بَيْئَتِي قَدْ يَتَسَبَّبُ فِي أَضْرَارٍ بِالْعِغَةِ لِلْوَطَنِ وَأَهْلِهِ، وَقَسَّ عَلَى هَذَا كُلِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُوَدِّيَ إِلَى تَضْيِيعِ ثَرَوَاتِ الْبِلَادِ، فَوَاجِبٌ إِذْنًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ الْمَحَافِظَةَ عَلَى كُلِّ مَكَاسِبِ الْوَطَنِ؛ مِنْ بَيْئَةٍ مُتَوَازِنَةٍ، وَهِيَائِكِلَ، وَمُؤَسَّسَاتٍ، وَأَمْوَالٍ، وَثَرَوَاتٍ، بَلْ وَالْعَمَلُ عَلَى إِغْنَائِهَا وَتَطْوِيرِهَا وَازْدَهَارِهَا.

٦. الإِسْهَامُ فِي بِنَاءِ الْوَطَنِ وَخِدْمَتِهِ: فَإِلَى الْإِنْسَانِ إِتِمًا خُلِقَ لِعِمَارَةِ الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ أَشَأْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، وَقَدْ أَمَرْنَا بِالِانْتِشَارِ وَالسَّعْيِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠]، وَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، فَفِي ذَلِكَ بِنَاءٌ لِلْوَطَنِ الَّذِي يَعْيشُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، بِالسَّعْيِ فِي ابْتِغَاءِ الرِّزْقِ، وَالَّذِي يَعْنِي فِيْمَا يَعْنِيهِ بِذَلِكَ الْجُهْدُ وَاسْتِنْفِرَافُ الْوُسْعِ فِيْمَا يَعُودُ عَلَى الْوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ بِالْخَيْرِ وَالْفَائِدَةِ، وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا؛ فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ" <sup>(٣)</sup>، فَهَذَا الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ وَإِنْ كَانَ فِي فَضْلِ الْغَرْسِ خَاصَّةً، وَأَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَكَاسِبِ، إِلَّا

١- قال الجوهري في الصحاح: "الخشاش بالكسر: الحشرات، وقد يُفتح". الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ١٠٠٤/٣. وقال النووي: "هي هوائها وحشراتها، وقيل صغار الطير، وحكى القاضي -أي القاضي عياض- فتح الخاء وكسرها وضمها، والفتح هو المشهور". شرح النووي، ٢٠٧/٦، وانظر: ٢٤٠/١٤. وقول القاضي عياض المذكور، هو في: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، ٢٤٧/١. وقد حكى النووي عنه أيضا أن خشاش الأرض قيل: نباتها. انظر: المشارق، ٢١٤/١. قال النووي: "وهو ضعيف أو غلط". شرح النووي، ٢٤٠/١٤.

٢- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِي أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: أَحَادِيثُ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الْغَارِ، ١٧٦/٤ (٣٤٨٢)؛ وَمُسْلِمٌ: السَّلَامُ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْهَرَّةِ، ١٧٦٠/٤ (٢٢٤٢).

٣- الْبُخَارِيُّ: الْمَزَارَعَةُ، بَابُ فَضْلِ الزَّرْعِ وَالغَرْسِ إِذَا أُكْلِيَ مِنْهُ، ١٠٣/٣ (٢٣٢٠)؛ وَمُسْلِمٌ: الْمَسَاقَاةُ، بَابُ

أنه يُشيرُ إلى عِظَمِ فَوَائِدِ الزَّرْعِ وَالغَرَسِ عَلَى صَاحِبِهِ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِ وَوَطَنِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ عِمَارَةِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا<sup>(١)</sup>؛ إِذْ إِنَّ الْغَرَسَ أَسَاسُ مَعَاشِ النَّاسِ وَتَأْمِينُ غِذَائِهِمُ الَّذِي يَحْفَظُهُمْ مِنَ الْفَقْرِ وَالْمَجَاعَاتِ، كَمَا أَنَّ رِبْطَهُ بِالصَّدَقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ تَشْجِيعٌ لِلنَّاسِ، وَحِصٌّ لَهُمْ عَلَى مُمَارَسَةِ هَذَا النَّشَاطِ الْحَيَوِيِّ لِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

٧. **الالتزام بمبادئه وقوانينه:** إِنَّ مِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ اسْتِقْرَارِ الدُّوَلِ وَالْأَوْطَانِ، الْإِلْتِزَامَ بِالْقَوَانِينِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهَا، وَعَدَمَ الرِّكَابِ الْمَخَالَفَاتِ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا الْإِخْلَالُ بِالنِّظَامِ وَشُيُوعُ الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ، مِمَّا يَوْقَعُ النَّاسَ فِي الْحَرْجِ وَضَنْكِ الْحَيَاةِ، وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ أَوَائِلِ الْمُنْجَزَاتِ الَّتِي قَامَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، هُوَ وَضْعُ الْمَبَادِيِ التَّنْظِيمِيَّةِ لِحَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْجَدِيدِ، مِنْ حَيْثُ عِلَاقَةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَكَذَلِكَ عِلَاقَتُهُمْ بِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ كَانَتْ كُتُبُ السِّيَرَةِ<sup>(٢)</sup> تَذَكُّرُ صِغَةً عِدَّةً لِهَذِهِ الْمَبَادِيِ وَالْقَوَانِينِ، فَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي الصَّحِيحِ، مِنْهَا حَدِيثٌ عَلِيُّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: "مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئًا نَقْرُوهُ إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ وَهَذِهِ الصَّحِيفَةَ - قَالَ [الرَّوَايَةُ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ] وَهُوَ يَزِيدُ بْنُ شَرِيكِ التَّمِيمِي: [وَصَحِيفَةٌ مُعَلَّقَةٌ فِي قِرَابِ سَيْفِهِ<sup>(٣)</sup>] - فَقَدْ كَذَبَ، فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ، وَأَشْيَاءٌ مِنَ الْجِرَاحَاتِ، وَفِيهَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ<sup>(٤)</sup>، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا أَوْ آوَى مُحَدَّثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَذْنَاهُمْ، وَمَنْ أَدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ،

فَضَّلَ الْغَرَسَ وَالزَّرْعَ، ١١٨٩/٣ (١٥٥٣). وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، بَلْفِظٍ: "مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أَكَلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَزْرَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ". مُسْلِمٌ: الْمُسَافَاةُ، بَابُ فَضَّلَ الْغَرَسِ وَالزَّرْعَ، ١١٨٨/٣ (١٥٥٢).

١- انظر: شرح النووي، ٢١٣/١٠؛ وفتح الباري، ٥/٤٠.

٢- انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، ١٤٣/٢.

٣- قال النووي: "قِرَابٌ، بِكَسْرِ الْقَافِ، وَهُوَ وَعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ، أَلْطَفُ مِنَ الْجِرَابِ، يَدْخُلُ فِيهِ السَّيْفُ بِغَمْدِهِ، وَمَا خَفَّ مِنَ الْأَلَةِ". شرح النووي، ١٣/١٤٢.

٤- أَمَا عَيْرٌ: فِقِيلُ جَبَلٍ مَعْرُوفٌ بِالْمَدِينَةِ، وَأَمَا ثَوْرٌ فَاسْتُشْكَلَ؛ لِمَا اسْتُهْرَ أَنَّهُ جَبَلٌ بِمَكَّةَ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّهُ وَهْمٌ مِنَ الرَّوَايِ، وَقَدْ فَسَّرَ بَعْدَهُ تَفْسِيرَاتٌ، أَحْسَنُهَا أَنْ يَكُونَ جَبَلًا صَغِيرًا خَلْفَ جَبَلٍ أُحُدَ بِالْمَدِينَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا. انظر: شرح النووي، ٨٢/٤؛ وفتح الباري، ٤/٨٤.

أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا" (١).

فالملاحظ أن هذه الصحيفة - وهي أُنْمُوذَجٌ للقوانين المنظمة لمجتمع المدينة - قد شملت عمدة مجالات، والتي من شأنها الحفاظ على تماسك المجتمع، والسيرُ قُدَمًا نحو رفعة البلاد، والحفاظة عليها من أيّ خللٍ في توازنها واستقرارها.

٨. **حِفْظُ الْأَمْنِ الْعَامِّ:** الْأَمْنُ الْعَامُّ مِنَ الْمَبَادِي شَدِيدَةُ الْخُطُورَةِ فِي ثَبَاتِ الْمُجْتَمَعِ وَاسْتِقْرَارِ أَيِّ دَوْلَةٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالتَّغْلِيظِ فِي عُقُوبَةِ مَنْ يُعْرِضُ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ إِلَى الْخَوْفِ وَالتَّرْهِيْبِ، مِنْ خِلَالِ آيَةِ الْحِرَابَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، وَذَلِكَ يَشْمَلُ كُلَّ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ مِنْ تَخْوِيفٍ وَتَرْهِيْبٍ لِلنَّاسِ، أَوْ قَتْلِهِمْ، أَوْ الْإِعْتِدَاءِ عَلَى أَمْوَالِهِمْ بِالسَّرِقَةِ وَخُوحِهَا، وَإِنَّمَا اسْتَحَقَّقُوا هَذَا اللَّوْنِ مِنَ الْعَذَابِ لِمَا فِي جِنَايَتِهِمْ مِنَ الطَّعْنِ فِي هَيْبَةِ الدَّوْلَةِ، وَتَغْرِيرِ غَيْرِهِمْ بِفِعْلَتِهِمْ (٢)، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ تَعْظِيمُ جَزَاءِ مَنْ يَسْهَرُ عَلَى حِفْظِ أَمْنِ الْبِلَادِ، فَقَالَ ﷺ: "عَيْنَانِ لَا تَمْسُهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" (٣)، بَلْ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي الْقِيَامِ بِهَذِهِ الْمِهْمَةِ، وَذَلِكَ فِيمَا يَرُويهِ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشَجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَرَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الْحَبِيرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي

١- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعٍ، مِنْهَا: فَضَائِلُ الْمَدِينَةِ، بَابُ حَرَمِ الْمَدِينَةِ، ٢٠/٣ (١٨٧٠)؛ وَمُسْلِمٍ: الْحَجَّ، بَابُ فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهَا بِالْبُرْكَ، وَبَيَانِ تَحْرِيمِهَا، وَتَحْرِيمِ صَيْدِهَا وَشَجَرِهَا، وَبَيَانِ حُدُودِ حَرَمِهَا، ٩٩٤/٢ (١٣٧٠).

٢- انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨٢/٦ وما بعدها.

٣- الترمذي وحسنه: فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله، ١٧٥/٤ (١٦٣٩).

طَلْحَةَ عُرْيٍ<sup>(١)</sup>، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: "لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا"<sup>(٢)</sup>، ثُمَّ قَالَ: "وَجَدْنَاهُ بَحْرًا"<sup>(٣)</sup>، أَوْ قَالَ: "إِنَّهُ لَبَحْرٌ"<sup>(٤)</sup>. وقد استخلص الإمام النووي - رحمه الله - من فوائد هذا الحديث استحباب تبشير الناس بعدم الخوف<sup>(٥)</sup>، وهو ظاهر في الدلالة على أهمية الأمان في حياة الناس.

٩. التَعَايُشُ وَوَحْدَةُ الْمَجْتَمَعِ: وَلَعَلْنَا نَصِلُ الْآنَ إِلَى آخِرِ مَبْدَأِ فِي مَبَادِي حِمَايَةِ الْوَطَنِ، أَلَا وَهُوَ ضَمَانٌ وَحْدَةَ الْمَجْتَمَعِ، مَعَ مَا يَتَّبَعُهُ مِنَ التَّعَايُشِ السَّلْمِيِّ بَيْنَ مَخْتَلَفِ مُكُونَاتِهِ، فَقَدْ جَاءَتْ النُّصُوصُ الشَّرْعِيَّةُ بِالْحَثِّ عَلَى وَحْدَةِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِخْوَةٌ مُتَعَاوِنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: ٠٢]، وَقَوْلُهُ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْدِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات: ١٠]، وَفِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاظِفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى"<sup>(٦)</sup>. وَهَذِهِ لَبِنَةٌ أَسَاسِيَّةٌ فِي بِنَاءِ الْوَطَنِ وَحِمَايَتِهِ مِنْ أَيِّ تَصَدُّعَاتٍ أَوْ شِقَاقَاتٍ قَدْ تَعَصَّفَ بِهِ، وَتَجَعَّلُهُ غَرَضَةً لِلْفُرْقَةِ وَالتَّمَرُّقِ، مِمَّا يُضَعِّفُهُ وَيَتْرُكُهُ فَرِيسَةً سَهْلَةً لِلْأَعْدَاءِ.

وكما أَنَّ لِلْمُسْلِمِينَ عِلَاقَاتِهِمُ الْمَوْحَدَةَ، فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَعِيشُونَ عَلَى أَرْضِهِمْ وَفِي وَطَنِهِمْ عُهُودٌ وَمَوَاقِيقُ تَضَمَّنُ التَّعَايُشَ السَّلْمِيَّ، وَتَبَادُلُ الْمَنَافِعِ بِمَا يَكْفُلُ حُقُوقَ كُلِّ طَرَفٍ، وَلَا أَدَلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ بِالْعَدْلِ مَعَ الْغَيْرِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٠٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ

١- أي ما عليه سرج في عنقه. كذا قال الحافظ في الفتح، ٧٠/٦.

٢- قال الحافظ: "هي كلمة تقال عند تسكين الرّوع؛ تأنيسا وإظهارا للرفق بالمخاطب". فتح الباري، ٥/٤٠٠.

٣- أي واسع الجري. انظر: شرح النووي، ٦٨/١٥.

٤- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ فِي مَوَاضِعَ، مِنْهَا: الْجِهَادُ وَالسَّيْرُ، بَابُ الْحَمَائِلِ وَتَعْلِيقِ السَّيْفِ بِالْعُنُقِ، ٣٩/٤ (٢٩٠٨)؛ وَمُسْلِمٌ: الْفَضَائِلُ، بَابُ فِي شَجَاعَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقَدُّمِهِ لِلْحَرْبِ، ١٨٠٢/٤ (٢٣٠٧).

٥- انظر: شرح النووي، ٦٨/١٥.

٦- مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: الْبُخَارِيُّ: الْأَدَبُ، بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، ١٠/٨ (٦٠١١)؛ وَمُسْلِمٌ: الْبِرُّ وَالصَّلَاةُ وَالْآدَابُ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاظِفِهِمْ وَتَعَاوُدِهِمْ، ١٩٩٩/٤ (٢٥٨٦).

ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا  
عَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ [المائدة: ٠٨].

بَلْ إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَشْرَعُ الدِّيَةَ فِي قَتْلِ الْمُعَاهِدِ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وجاء في السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَوْلُهُ رضي الله عنه: "مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَّدَ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"<sup>(١)</sup>. والمُعَاهِدُ كما قال الحافظ: "من له عَهْدٌ مع المسلمين؛ سواءً كان بِعَقْدِ جَزِيَّةٍ، أو هُدْنَةٍ من سُلْطَانٍ، أو أَمَانٍ مِنْ مُسْلِمٍ"<sup>(٢)</sup>.

وهذا إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَهْمِيَّةِ التَّعَايُشِ مَعَ مَنْ يَخَالِفُونَا، حِفَاظًا عَلَى الصَّالِحِ الْعَامِّ، وقيامًا بِحُقُوقِ الْوَطَنِ فِي الْإِسْهَامِ فِي بِنَائِهِ، وَحِمَايَتِهِ مِنَ الْقَلَاقِلِ وَالْفِتَنِ.

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ الْمَبَادِيِ وَالْمَنْطَلَقَاتِ فِي حِمَايَةِ الْوَطَنِ، كما يُمَكِّنُ اسْتِخْلَاصُهَا مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَشْرُفَةِ.

وَأَصْلُ فِي خَآئِمَةِ هَذَا الْبَحْثِ إِلَى الْخَاتِمَةِ، وما تَضَمَّنَتْهُ مِنْ نَتَائِجٍ وَنَوَاصِيَاتٍ.

١- البخاري: الجزية، بَابُ إِثْمِ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا بِغَيْرِ جُرْمٍ، ٩٩/٤ (٣١٦٦)؛ والديات، بَابُ إِثْمِ مَنْ قَتَلَ ذِمِّيًّا بِغَيْرِ جُرْمٍ، ١٢/٩ (٦٩١٤).

٢- فتح الباري، ٢٥٩/١٢.

الخاتمة: في نهاية هذا البحث، نلخص إلى بعض النقاط الرئيسية، التي يمكن أن نستشفها مما تمت مناقشته في صفحاته، من خلال نتائج وتوصيات، أجملها فيما يأتي:

### أولاً: النتائج

١. إنَّ الوَطَنَ هو المكان الذي يتخذهُ المرءُ مكاناً ومُسْتَقَرّاً لِلعَيْشِ فِيهِ، بَعْضُ النَّظَرِ عَنِ أَصْلِ مَنْشَأِهِ.
٢. لِلْمُوَاطَنَةِ مَعْنَى عَامٌّ يَجْتَمِعُ فِيهِ سُكَّانُ الوَطَنِ الوَاحِدِ، وَيَعْمَلُونَ مِنْ خِلَالِهِ عَلَى خَيْرِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ.
٣. حُبُّ الوَطَنِ فِطْرَةٌ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، وَهُوَ مَا يُعَزِّزُ قِيَمَةَ الْإِنْتِمَاءِ وَالتَّفَانِي فِي خِدْمَةِ الوَطَنِ وَأَبْنَائِهِ.
٤. لَا غِنَى لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَنِ وَطَنِ يَأْلَفُهُ بِمَا فِيهِ مِنْ مَكُونَاتٍ، وَيُشَكِّلُ مَعَ قَوْمِهِ مُجْتَمَعًا قَوِيًّا وَمُتَماسِكًا.
٥. طُمَأْنِينَةُ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَرَعْدُ العَيْشِ أَسَاسُ اسْتِقْرَارِ الْأَوْطَانِ.
٦. الإِقَامَةُ فِي وَطَنِ مَعْلُومٍ سَبَبٌ لِلِاسْتِقْرَارِ النَّفْسِيِّ وَالْأَسْرِيِّ.
٧. الوَطَنُ فُرْصَةٌ لِتَحْقِيقِ وَتَعَزِيزِ مَبْدَأِ التَّعَاوُنِ وَالتَّوَادُدِ وَالتَّرَاحُمِ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ.
٨. وَطَنُ المرءِ هو الذي تُحْفَظُ فِيهِ حُقُوقُهُ وَكِرَامَتُهُ.
٩. إِنَّ أَسْمَى أُسَاسِيَّاتِ حِمَايَةِ الوَطَنِ وَمُنْتَطَلِقَاتِهَا هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاحِدِ الْأَحَدِ عَلَى أَرْضِهِ.
١٠. الوَطَنُ نِعْمَةٌ، وَحُبُّهُ بِكُلِّ مَا فِيهِ نِعْمَةٌ أُخْرَى، تَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ وَالشُّكْرَ لِلَّهِ تَعَالَى.
١١. مِنْ حُقُوقِ الوَطَنِ عَلَى أبنَائِهِ الدُّعَاءُ لَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَالدَّفَاعُ عَنْهُ بِالنَّفْسِ وَالتَّنْفِيسِ.
١٢. الْحِفَاظُ عَلَى مُقَدَّرَاتِ الوَطَنِ مَبْدَأٌ مِنْ مَبَادِي الْقِيَامِ بِوَجِبِ شُكْرِ النِّعْمَةِ لِلَّهِ تَعَالَى.
١٣. الإِسْهَامُ فِي بِنَاءِ الوَطَنِ وَخِدْمَتِهِ شَرَفٌ لِكُلِّ مُنْتَمٍ إِلَيْهِ.
١٤. لِكُلِّ دَوْلَةٍ قَوَانِينُهَا الْمُنْتَظَمَةُ لَهَا، وَمِنْ وَاجِبِ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهَا الْإِتْرَامُ بِهَا، وَالْعَمَلُ عَلَى تَنْفِيزِهَا؛ حِفَاظًا عَلَى الْأَمْنِ الْعَامِّ، وَاسْتِقْرَارِ النَّاسِ فِي حَاضِرِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ.

١٥. التَّعَايُشُ مِنْ أَهَمِّ مَبَادِيِ اسْتِقْرَارِ الأُوْطَانِ والمُجْتَمَعَاتِ، لما له مِنْ دَوْرٍ في حِفْظِ الحُقُوقِ وأداءِ الواجِبَاتِ، وتَنْظِيمِ العَلاَقَاتِ القَائِمَةِ عَلى تَبَادُلِ المَنَافِعِ، وَخِدْمَةِ الصَّالِحِ العَامِّ.

#### ثانيا: التَّوْصِيَّات

١. اعْتِمَادُ المَنَاهِجِ التَّربُويَّةِ والتَّعْليمِيَّةِ التي تَغْرِسُ في نُفُوسِ الطُّلَّابِ الحِفاظَ عَلى الوَطَنِ قَوْلًا وَعَمَلًا.
٢. بَثُّ الوَعْيِ لَدَى الآبَاءِ والأُمَّهَاتِ بِضُرُورَةِ غَرْسِ قِيَمَةِ حُبِّ الوَطَنِ والتَّفاني في خِدْمَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ الشُّكْرِ لَهِ تَعَالَى.
٣. تَوَجُّهُ النَّاثِئَةِ إلى خِدْمَةِ أُوْطَانِهِمْ بِمُخْتَلَفِ الأَنْشِطَةِ التَّطَوُّعِيَّةِ والرِّياضِيَّةِ؛ لِتَنْمِيَةِ الحِسِّ الوَطَنِيِّ في نُفُوسِهِمْ عَن طَرِيقِ مُؤَسَّساتِهِمِ التَّعْليمِيَّةِ والتَّربُويَّةِ.
٤. تَعَاهُدُ إِقامَةِ المُؤْتَمَرَاتِ والنَّدَوَاتِ التي تُبَيِّنُ عِنايَةَ الشَّرِيعَةِ الإِسْلامِيَّةِ السَّمْحَةَ قُرْآنًا وَسُنَّةً بِحُبِّ الأُوْطَانِ، والحِفاظِ عَلَيْهَا، والقِيامِ بِحُقُوقِهَا.

هذا، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## فهرس المصادر والمراجع

- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ٣، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، مرتضى، الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤هـ.
- التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط ١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ.
- زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٦٥٤هـ)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وأخران، ط ٢، القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- السنن الكبرى، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ط ١، الهند - حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف النظامية، ١٣٤٤هـ.
- سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط ٢، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البصري (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط ٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٠هـ-١٩٩٠.
- شرح النووي على مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

## حِمْيَاةُ الْوَطْنِ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمَبَادِيِ وَالْمُنْطَلَقَاتِ

- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط ٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، ط ٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (ت ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- القاموس المحيظ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ٢، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- قاموس المصطلحات السياسية والدستورية، أحمد سُعيفان، ط ١، بيروت، مكتبة لبنان، ٢٠٠٤ م.
- الكليات (كتاب)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري (ت ٧١١)، ط ١، بيروت: دار صادر، ١٤١٤ هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب بن علي عواجي، ط ١، جدة، المكتبة العصرية الذهبيّة، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

- المعجم الفلسفي (بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية)، جميل صليبا (ت ١٩٧٦م)، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٢٩هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- المُوطَنة في غير ديار الإسلام بين النافين والمثبتين - دراسة فقهية نقدية-، صلاح الدين سلطان، ط ١، بيروت، دار ابن حزم، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.
- موسوعة القانون الدولي العام، خليل حسين، ط ١، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية، ٢٠١٢ م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك بن محمد، ابن الأثير الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

تعزير الانتماء وأثره في حماية الوطن  
من خلال الهدى النبوى

الدكتور / شفيق لامة

أستاذ التعليم العالى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق - جامعة الحسن الثانى

الدار البيضاء - المملكة المغربية





## المقدمة:

خلق الله تعالى الإنسان مجبولاً على حب الوسط الذي يحس فيه بالأمن والاستقرار، ويزداد حبه لهذا المحيط بتوسع دائرة علاقاته الاجتماعية المحافظة على هذا الأمن الذي تحتفي فيه مظاهر ودواعي التوتر والصراع والاختلاف، ويتحول بشكل أو بآخر إلى أداة تحول دون فقدانه لهذا المكسب، بل قد يدخل في علاقات تعاونية مع أفراد ومؤسسات قد لا يشاركها المعتقد نفسه للحفاظ على هذا الأمن الذي إذا ما فقدته يحس بفقدان وجوده وكيونته تبعاً.

وفي ظل تنامي ظاهرة ضعف الانتماء للوطن وحماية أمنه بين فئات من شباب الأمة في الأزمنة المتأخرة، ونشر أنواع من الخطاب السلبي اتجاه هذا الوطن؛ تبرز الحاجة إلى موضوع يبحث عن سبل تعزيز الانتماء للوطن في ضوء الهدي النبوي.

وسيكون من الإجحاف عدم الإشارة إلى من تناول هذا الموضوع بالدراسة وسبق إليه، أو على الأقل أثار أحد مباحثه وموضوعاته، وفي هذا الصدد نذكر جملة من الرسائل والمقالات لباحثين عالجوا الموضوع من زوايا مختلفة على النحو الآتي:

- "الانتماء إلى الوطن وأثره في حماية الشباب من الانحراف"<sup>(١)</sup>: وهو بحث للدكتور بدر بن علي بن عبد الله عبد القادر، أكثر فيه صاحبه من الشواهد القرآنية والحديثية التي تؤكد أهمية الانتماء للوطن، وانعكاس ذلك على فئة الشباب خاصة دون غيره من باقي أفراد المجتمع.

- "تعزيز الانتماء وأثره على الفرد والمجتمع"<sup>(٢)</sup>، وقد تناول فيه صاحبه مفهوم الانتماء

---

١- بحث تقدم به صاحبه ضمن مؤتمر واجب الجامعات السعودية وأثرها في حماية الشباب من الجماعات والأحزاب والانحراف، والذي نظمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتاريخ ١١-١٢ جمادى الأولى ١٤٣٩هـ الموافق لـ ٢٨-٢٩ يناير ٢٠١٨. المجلد الخامس/ ص١٥٥٧-١٥٩٣

٢- رسالة علمية تقدم بها صاحبها لنيل درجة الماجستير سنة ١٤٣٧هـ بكلية التربية التابعة لجامعة جدة بالمملكة العربية السعودية.

- وأهميته وموقف الإسلام منه، مستشهداً بنصوص شرعية كثيرة، من باب الاستدلال لا من باب الاستنباط والاستنتاج، مع بيان بواعث ودوافع الانتماء لدى الفرد والجماعة.
- "ضعف الانتماء، مظاهر وعلاج"<sup>(١)</sup>، للكاتب محمد الطائي وهو عبارة عن مقال في مجلة المجتمع الإسلامي، حاول فيه صاحبه مقارنة الموضوع من الجانب النفسي والاجتماعي.
- "دور إذاعة (أمن.إف.إم) في تعزيز الانتماء الوطني لدى الطلبة الجامعيين"<sup>(٢)</sup>: وهو عبارة عن رسالة علمية لنيل درجة الماجستير للطالب يوسف حمائل بكلية الإعلام التابعة لجامعة الشرق الأوسط، ويظهر من الوهلة الأولى أن الموضوع مقتصر فقط على الجانب الإعلامي، بما يطرح مسألة الحاجة إلى بحث يتناول الموضوع تناولاً جدياً وجديداً وشمولياً، يستحضر السيرة النبوية وقراءتها في سياق الأحداث المعاصرة، مع طرح السؤال الكبير: كيف كان تصرف رسول الله ﷺ لو كان بين ظهرانيها في خضم الوقائع الراهنة؟ وهكذا تأتي هذه الورقة لتثير سؤال البحث عن الآليات التي يمكنها بناء الإنسان المسلم الذي يعتز بالانتماء لوطنه، ويحرص على تصريف طاقاته ومهاراته في وطنه من خلال تفاعله الإيجابي مع من يشاركونه هذا الوطن، وإن اختلفت عقائدهم وتباينت أفكارهم وقناعاتهم، فالوطن وعاء مشترك يتسع للجميع.
- وفي هذا السياق، لا يسعنا إلا تلميح الجهود الحميدة التي تقوم بها الأمانة العامة لندوة الحديث الشريف، بكلية الدراسات الإسلامية والعربية/ديب، خدمة لسنة رسول الله ﷺ، وكذا التنويه بالمواضيع العلمية التي تختارها وتنقيها لندواتها وأنشطتها العلمية، والتي توجت هذه السنة في إطار الندوة الدولية التاسعة، بعنوان: "حماية الوطن في السنة النبوية: مقصد شرعي وضرورة مجتمعية"، وذلك بمشاركة في هذه الندوة المباركة من خلال هذه الورقة البحثية التي اخترنا لها عنوان: "تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي".

١- هو مقال بتاريخ ٢٤ فبراير ٢٠١٥ بمجلة المجتمع، الموقع

<http://mugtama.com/theme-showcase/item/14864>

٢- رسالة ماجستير تقدم بها صاحبها سنة ٢٠١١م بكلية الإعلام جامعة الشرق الأوسط.

## إضاءة مفاهيمية: (مفهوم الانتماء / مفهوم الوطن)

١. مفهوم الانتماء: وهو من الجذر اللغوي نَمِيَ نَمِيًا، ومعناه الزيادة و الكثرة والعلو والارتفاع<sup>(١)</sup>، وانتمى على صيغة افتعل، التي تدل على المطاوعة والمشاركة والعادة. وإذا عدي هذا الفعل بحرف الجر (إلى)، أصبح من معانيه الاعتزاء والانتساب إلى الشيء والالتصاق المعنوي به، فيقال: فلان ينتمي إلى قبيلة كذا أي ينتسب إليها وتجمعه بها روابط النسب، كما أنه يحس اتجاهها بشعور الالتصاق الفكري والعاطفي، وإن بانث بينه وبينها الديار، وبه نفهم تلك القصائد في الجاهلية التي كان الشعراء يرتبطون بها عاطفيًا ووجدانيًا من خلال ذكر الأجداد والأوطان.

٢. مفهوم الوطن: الوطن من الثلاثي: وَطَنَ: وَالْوَطَنُ: هو "محلُّ الإنسان والمكان الذي يقيم فيه، ويُقال: أَوْطَنَ فلانٌ أرضَ كذا، أي: اتَّخَذَهَا مَحَلًّا وَمَسْكَنًا يُقِيمُ بها، وَالْمَوْطِنُ: كلُّ مكان أقام به الإنسان لأمرٍ. وواطنتُ فلانًا على هذا الأمر، أي: جعلتُما في أنفُسِكُما أن تعملاه وتفعلاه، فإذا أردتَ مُوافَقَتَهُ قلتَ: واطأتهُ. وتقول: وَطَّنتُ نفسي على الأمر فتَوَطَّنتُ، أي: حملتها عليه فَذَلَّتْ..."<sup>(٢)</sup>. وقد سعى بعضهم إلى التفريق بين الوطن والموطن الذي هو مصدر ميمي للوطن يجعل هذا الأخير يدل على الحروب والمواقع، واستدل له من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾<sup>(٣)</sup>. وفي اعتقادي-والله أعلم- أن السياق هو الذي يحدد معنى الكلمة، والأصل فيه هو دلالته على محل إقامة الإنسان وسكناه، ويشترك معه في هذا المعنى على لغة العرب أحيانًا جنس الغنم والبقر والإبل، ففي لسان العرب: "الوطن: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه... وأوطان الغنم والبقر: مراتبها وأماكنها التي تأوي إليها."<sup>(٤)</sup> وفي الحديث عن عبد الرحمن بن شبل قال: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ نَفَرَةِ الْغُرَابِ،

١- الأزهري، تهذيب اللغة، ج ١٥/ص ٣٧١.

٢- الفراهيدي، العين، ج ٧/ص ٤٥٥.

٣- سورة التوبة: الآية ٢٥.

٤- ابن منظور، لسان العرب، ج ١٣/ص ٤٥١.

وَأَفْتَرَأَشِ السَّبْعِ، وَأَنَّ يُوطَّنَ الرَّجُلُ الْمَكَانَ فِي الْمَسْجِدِ كَمَا يُوطَّنُ الْبَعِيرُ<sup>(١)</sup>. فنهى أن يتخذ لنفسه من المسجد مكانا معيناً لا يصلي إلا فيه. كالبعير لا يبرك من عطنه إلا في مبرك قلم.

وأما الموطن فكل مقام قام به الإنسان لأمر فهو موطن له، ومنه مواطن مكة؛ أي موافقها<sup>(٢)</sup>، وبهذا فهو أعم من الأول؛ إذ يعني (المكان أو الموضوع أو الموقف) بصورة عامة سواء أكان ذلك المكان وطناً أم كان غير ذلك، كما أن الموطن قد يتوسع فيه فيستعمل استعمالات أخرى بعضها مجازي، فيقصد به الموقعة الحربية كما تقدم أو المقام أو الموقف أو المنزل أو المجلس... إلخ، وكل ذلك يستدل عليه من السياق والقرائن، فإذا قلت: المغرب موطني، فالموطن هنا بمعنى الوطن، وإذا قلت: هذا الوادي موطن سوء، فالموطن بمعنى المكان أو الموضوع فحسب، وإذا قلت: ابتعد عن مواطن الذل، فالموطن بمعنى الموقف،... إلخ.

٣. الفرق بين الوطن والدولة: إذا كان من معاني الوطن الإقامة والتوطين والإذلال والاستقرار وحمل النفس على التعود على مكان معين كما تقدم ذكره؛ فإن مفهوم الدولة يفيد معنى التغيير والتبدل والتحول، إذ تعود في جذرها اللغوي إلى الثلاثي "دَالَ" بما يفيد من الانتقال والتداول، وعليه؛ فالوطن استقرار أكثر وثبات من خلال المجتمع المدني الذي يشكله، بينما تعني الدولة مفهوم الغلبة والقهر بما يؤديه مدلول التحكم والإدارة والتسلط السياسي الذي

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب صلاة من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود. ج ١/ ص ٢٢٨ ح ٨٦٢. وقد ضعف سنده الأرنؤوط في المسند ج ٢٤/٢٩٢ ح ١٥٥٣٢ لتفرد تميم بن محمود عن عبد الرحمن بن شبل به، وقد ضعفه جماعة منهم البخاري والعقيلي، ووثقه آخرون، منهم ابن حبان، والحاكم بموافقة الذهبي له في التلخيص، وهذه الطريق وطريق عبد الحميد بن سلمة عن أبيه مرفوعاً التي أخرجهما أحمد، جعلت الإمام الألباني يحسنه "ويقول: لكن له شاهد يتقوى به." (ينظر تخريجه للحديث في: سنن أبي داود ج ٤/ ص ١٣، وفي الصحيحة ج ٣/ ص ١٥٦ ح ١١٦٨) وذلك رغم جهالة عبد الحميد وأبيه كما صرح بذلك الحافظ في التهذيب ج ٦/ ص ١١٦، وفي اعتقادي أن تخريج ابن حبان وابن خزيمة لهذه الطريق في صحيحيهما، جعل الإمام الألباني رحمه الله يحكم بحسن الحديث لما يتقوى به من شواهد أحاديث أخرى كحديث أبي هريرة وحديث عائشة رضي الله عنهما فلتنظر في مظانها، والله أعلم.

٢- ينظر لسان العرب: ج ١٣/ ص ٤٥١.

تمارسه فئة اجتماعية على فئة أخرى، ولذلك قالوا: إن الأيام دول، وهي عبارة توحى بالتغيير والحركة والتبدل، فبين الوطن والدولة تضاد من هذا الجانب وإن اتحد المدلول أحياناً، إذ لا غنى لأحدهما عن الآخر. كما أن هناك معياراً آخر للتفرقة، وهو المعيار الداخلي والخارجي للشعوب والأمم التي تعيش داخل هذه الوحدات السياسية، فلا تنظر إلى تلك الرقع الجغرافية المغايرة لأوطانها باعتبارها أوطاناً، بل هي دول وكيانات سياسية تحكم مواطنيها، بينما لا تجد الحرج نهائياً في اعتبار الدول التي تحكمها، وتنظم العلاقة بينها وبين حاكمها - كيفما كانت هذه العلاقة - أوطاناً، لكون الارتباط بينهم وبين أوطانهم ارتباط انتماء وولاء، وهم بهذا مواطنون، ومن خلال هذا المعيار، نفهم معنى قول بعضهم:

بلادي<sup>(١)</sup> وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام<sup>(٢)</sup>

٤. مفهوم الانتماء للوطن: بعدما عرفنا مفهوم الانتماء مفرداً، والوطن مفرداً يمكن تعريف الانتماء للوطن بأنه ذلك الانتساب الحقيقي للوطن بما يشكله هذا الأخير من مكان يجتمع فيه أفراد متشاركون من حيث الدين والفكر والوجدان، وإلا فهم متطاعون إن لم تكن لهم هذه الأمور التي توحدهم، لوجود قدر مشترك بينهم من حيث الحقوق الإنسانية التي يمتلكونها جميعاً داخل هذا الوطن، كالبحت عن الأمن والحق في الحياة، وتبادل المنافع، ما يجعلهم يعتزون بهذا الانتماء عن طريق الالتزام والثبات على المنهج والتفاعل مع احتياجاته، ويتجلى ذلك كله من خلال مواقف تظهر المحبة العميقة للوطن، وتدعو صاحبها إلى التعلق به، والتفاني في حمايته والتضحية لأجله.

١- ورد هذا البيت أيضاً بلفظ، " وطني وإن جارت علي عزيزة....، وقد نسب إلى أبي فراس الحمداني ووزنه لا يستقيم.

٢- لعل قائل البيت الأصلي هو: الشريف قتادة أبو عزيز بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم. تولى إمارة مكة المكرمة عام ٥٩٧ هـ وتوفي ٦١٧ هـ. وذلك بعد الاضطراب الشديد في القائل الأصلي له. من موقع

[/https://awraq-adbyah.tumblr.com](https://awraq-adbyah.tumblr.com)

## المبحث الأول:

### أسس تعزيز الانتماء للوطن من خلال نصوص السنة والسيرة النبوية

إن الدارس لتاريخ الأمة الإسلامية ليقف مندهشاً مشدوهاً، كيف لأمة انبعثت من أعماق الصحراء، ولم يكن لها ذكر لا في العير ولا في النفير؛ أن يكون لها هذا الشأن بعد حين من الدهر، وأن يكتب لها الاستمرار والصمود عبر تاريخ الوقائع والأحداث التي ما نالت من حضارة أو أمة، إلا جعلتها نسيًا منسيًا، وما فتئت يد الزمان تمزقها إربًا إربًا حتى تدعها شذر مذر، وتكون أحاديث لمن يأتي بعدها؟ لكن هذا العجب سرعان ما ينمحي حين نستحضر عناية السماء، ورسالة الوحي الإلهي التي حملها خير البشرية محمد ﷺ.

ولا نريد هنا أن نستعرض تاريخ هذه الأمة بقدر ما نريد أن نقف على تلك الأسس التي بنيت عليها، والأركان التي قامت عليها ركائزها، وخصوصا في مراحل البناء الأولى، ونقصد بذلك الفترة النبوية بمراحلها المكية والمدنية، فنستقرئ النصوص، ونقف مع الأحداث لنستخلص منها العبر والدروس التي توقفنا على معالم المنهج الأمثل لتحقيق مفهوم الانتماء للوطن؛ إذ إن رسول الله ﷺ في المرحلة المكية قام ببناء دولة الأفراد في قلوب أتباعه من المؤمنين، ولما هاجر إلى المدينة انتقل إلى بناء دولة المؤسسات، وبعبارة الوحي الإلهي، تجسدت تلك العقائد والقيم والتعليم في مدينة رسول الله ﷺ بعد مهاجره إليها، فبدأت الملامح الكبرى للوطن تظهر من خلال مجموعة من التشريعات والأسس التي وجدت الأرضية جاهزة لترجمتها على أرض الواقع.

وهكذا يمكننا الحديث عن أربعة أسس شكلت دعائم لتمتين و الروابط بين أفراد هذا الوطن في الدولة الفتية الناشئة وتعزيزها، يمكن لمخها من خلال الآتي:

### المطلب الأول: الأساس العقدي الإيماني

إن المقصود من إثارة العقيدة والإيمان في هذا المقام استنباط ما يمكن استنطاقه من نصوص الكتاب والسنة لتعزيز روح الانتماء للوطن لدى الشباب والناشئة في زمننا هذا، مع استحضار فعل النبي ﷺ في سنة الإخاء بين المهاجرين والأنصار، إثر مهاجره عليه الصلاة والسلام إلى طابة الطيبة، بعدما كانت موطنًا للأوس والخزرج الذين آمنوا برسول الله ﷺ وصدقوه، ووعده بنصرته إن

خرج إليهم، واستقر بين أظهرهم، فكان هذا هو الوطن الجديد للمسلمين في تلك الفترة يشتركون فيه مع أصحاب الملل والنحل الأخرى الموجودة فيه.

وعليه فقد وجد النبي ﷺ بعد هجرته تنوعاً عقدياً وقبلياً، وسيكون من مهامه بعد ذلك مواجهة هذا الواقع بالبحث عن الركائز والأسس التي ستقوم عليها الدولة الناشئة، فكان لا بد من ترتيب للبيت الداخلي، وبحث عن مشترك يوحد المجتمع المسلم فيما بين أفراده أولاً، قبل التوجه إلى البحث عن المشترك مع باقي مكونات المجتمع الأخرى، لتكون سنة الإخاء في الله حلاً ربانياً ألهم الله إليه نبيه ﷺ باعتبارها ذلك الرباط الرباني المنبثق عن عقيدة الإيمان، فتزيد بزيادته وتنقص بنقصه، ولقد نص القرآن الكريم في العديد من آياته ورسول الله ﷺ في العديد من أحاديثه على ذلك صراحة قال تعال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(١)</sup>. وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يجب لنفسه"<sup>(٢)</sup>، فكان من شدة حرص النبي ﷺ عليها أن انتقل إليها مباشرة بعد بناء المسجد، ولما كان ﷺ يدركه من أهمية بالغة للزمان في سرعة إيجاد تلك اللحمة بين أولئك المسلمين الذين تركوا الأوطان والديار واغرتبوا مهاجرين إلى الله ورسوله، وستتحرك أفئدتهم حتماً لما يطوف بخيالاتهم تلك الربوع وتلك الأطلال التي تركوها خلفهم في مكة وقد شكلت جزءاً كبيراً من شخصياتهم، وبين مسلمين لم يجربوا الإحساس نفسه لكنهم صادقون في النصره وفي الإيواء، فكان الإيمان بالله وقوته هو الحافظ المانع من كل ما قد يجعل الوافدين الجدد لا ينسجمون مع الأجواء الطبيعية الجديدة، ولا يندمجون بسهولة في النسيج الاجتماعي الجديد، باعتباره حياً سرياً عقدياً يربط بين الوافد الجديد والمقيم القديم، وأطلق عليه بين أفراد الجماعة الجديدة حبل الأخوة في الله، وحبل العقيدة في الله، والتي لو لم تنشأ على عهد رسول الله ﷺ وكانت واقعاً يمشي ويتحرك، لكانت ضرباً من الخيال ولعدت من أحلام الحالمين.

وهكذا وجدت جماعة المسلمين الأولى وكونت لها وطناً جديداً، تسلل إلى قلبها حبه والاستعداد التام والصادق لبذل الغالي والنفيس للذود عنه وعن أهله، وقد ظهر هذا الحب في

١- سورة الحجرات الآية ١٠.

٢- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، (ج ١/١٢ ح ١٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نفي الإيمان عن لا يحب لأخيه وجاره ما يحب لنفسه. (ج ١/ص ٤٩/ح ٧٩).

العديد من الأحداث التي زحرت بها سيرة رسول الله ﷺ، وخصوصاً تلك التي تطلبت التضحية بالنفس والمال والجهد، كالدفاع عن الدين والعرض والأرض، وسنقتبس في هذا المقام مشهدين معبرين:

**المشهد الأول:** وهو ثبوت الخبر عن رسول الله ﷺ أنه كلما كان خارج المدينة في سفر تعجل الرجوع إليها وعندما يطلعه جبل أحد، يقول ﷺ: " هذا جبل يحبنا ونحبه"<sup>(١)</sup>. وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس، " أن رسول الله ﷺ كان إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَأَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ أَوْضَعَ نَاقَتَهُ، وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً حَرَكَهَا"<sup>(٢)</sup>. وعنه عن حميد قال: أي (من حبها)<sup>(٣)</sup>. قال ابن بطال: "يعني لأنها وطنه، وفيها أهله وولده الذين هم أحب الناس إليه، وقد جبل الله النفوس على حب الأوطان والحنين إليها، وفعل ذلك عليه السلام، وفيه أكرم الأسوة، وأمر أمته سرعة الرجوع إلى أهلهم عند انقضاء أسفارهم"<sup>(٤)</sup>.

**المشهد الثاني:** ما رواه الشيخان في صحيحهما من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم في شأن قسمة غنائم حنين، إذ برز جلياً ذلك الخطاب الإيماني الذي توجه به رسول الله ﷺ إلى الأنصار، ولم ينصرف إلا لسان حال القوم يردد: رضينا بالله ربا وبالنبي ﷺ رسولاً ونبياً، خاصة بعد شدة تأثرهم بالخطاب اللين والرقيق الذي خصهم به رسول الله ﷺ، ولنترك عبد الله بن زيد وهو من شهود الواقعة يرويها لنا كما نقلها حيث قال: "لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين، قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئاً، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: "يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي" كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله أمن، قال: "ما يمنعكم أن

١- فعن أبي حميد الساعدي قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه "والحديث متفق عليه، أخرجه البخاري في الصحيح واللفظ له: كتاب المغازي، باب من غزا بصبي الخدمة، ج ٦/ص ٨ (ح ٤٤٢٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه (ج ٢/ص ١٠١١/ح ١٣٩٢).

٢- أي زاد في سرعتها، "يقال أوضعت بعيري موضع، واسم السير الوضع، وهو سير حثيث دون الجهد." ينظر غريب الحديث لابن قتيبة ج ٢/ص ٣.

٣- صحيح البخاري، كتاب الحج، باب مَنْ أَسْرَعَ نَاقَتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَدِينَةَ، ج ٣/ص ٧/ح ١٨٠٢.

٤- شرح ابن بطال: ج ٨/ص ٣٥ (ح ١٣٥).

تجيبوا رسول الله ﷺ". قال: كلما قال شيئاً، قالوا: الله ورسوله أمن، قال: "لو شتتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرئاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض"<sup>(١)</sup>. وعليه، فإن الإيمان إذا قر في القلب أثمر المحبة والألفة بين أفراد الوطن؛ فحافظوا عليه لأن ذلك معناه الحفاظ على أحوالهم وتضامنهم، وداوموا بالتالي على أمنهم واستقرارهم. ومن هنا ندرك لماذا تردد واشتهر ذلك الحديث على ألسنة الناس "حب الوطن من الإيمان"<sup>(٢)</sup>، وعلى الرغم من عدم صحته، قال العجلوني في كشفه: "قال الصغاني: موضوع. وقال في المقاصد: "لم أفق عليه، ومعناه صحيح". وردَّ القاري: "قوله ومعناه صحيح" بأنه عجيب. قال: إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان. وردَّ أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾<sup>(٣)</sup> فإنها دلت على حبهم وطنهم، مع عدم تلبسهم بالإيمان؛ إذ ضمير "عليهم" للمنافقين، لكن انتصر له بعضهم بأنه ليس في كلامه أنه لا يجب الوطن إلا مؤمن، وإنما فيه أن حب الوطن لا ينافي الإيمان. "انتهى"<sup>(٤)</sup>.

**قلت:** وهذا الكلام الأخير هو الراجح بإذن الله تعالى لشواهد كثيرة، أما رده (أي القاري) صحة معنى الأثر فلا وجه معتبر له، ذلك أن هذه الصحة ليست على إطلاقها بدليل قوله بعد ذلك: "ومعناه صحيح نظرا إلى قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُقْتِلَ فِي

١- متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ج ٥/ص ١٥٧/ح ٤٣٣٠، صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. ج ٢/ص ٧٣٨/ح ١٠٦١.

٢- قال الألباني في الضعيفة: "موضوع. كما قال الصغاني وغيره. ومعناه غير مستقيم إذ إن حب الوطن كحب النفس والمال ونحوه، كل ذلك غريزي في الإنسان لا يمدح بحبه ولا هو من لوازم الإيمان، ألا ترى أن الناس كلهم مشتركون في هذا الحب لا فرق في ذلك بين مؤمنهم وكافرهم؟" ج ١/ص ١١٠/ح ٣٦.

٣- سورة النساء الآية ٦٦.

٤- العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج ١/ص ٣٩٩.

سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا ﴿١﴾ فَصَحَّتْ مُعَارَضَتُهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنْتُمْ عَلَيْنِهِمْ أَنِ اقْتُلُوا﴾ ﴿٢﴾، ثم لكون الرابطة التي تربط بين المؤمن ووطنه إن كانت تنبني على ما يقام فيه من شعائر التوحيد، فهو من الإيمان، وإن كانت محبة إخوانه من المؤمنين، فهو من الإيمان، وإن كانت صلة لرحمه فهي من الإيمان، وإن كانت من أجل إحسانه إلى أهل بلده من فقرائه وأيتامه فهو من محض الإيمان، وذلك مختص حتمًا بالمؤمن دون غيره، ولا يوجد في غيره لكي لا يصلح أن يكون علامة. ألا ترى بأن المسجد، وهو أحب الأماكن إلى الله تعالى، هو أحب البقاع إلى نفس المؤمن، فلا يبغضه إلا مشرك أو منافق، فصح بأن حب هذا الموطن وهذه البقعة من الإيمان.

### المطلب الثاني: الأساس التعبدي الشعائري

إن أبرز سمة ظاهرة في هذا الأساس ذلك الحرص الشديد من دين الإسلام على المواظبة في أداء الشعائر الدينية

جماعة بين أتباعه وأنصاره، وهو ما يسمى بجماعية الطاعة، وفي هذا المقام نلاحظ أن شريعة الإسلام وحدت أهلها بالشهادتين قولاً واعتقاداً، فالداخل فيها داخل في حصن الأمان، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عن كلمة التوحيد وما توجه لصاحبها: "هي الكلمة التي قامت عليها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل الجنة إلا به، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهي العمود الحامل للفرز والسنة، و"من كان آخر كلامه لا

١- سورة البقرة: الآية ٢٤٦.

٢- علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة: ص ١٨١.

إله إلا الله دخل الجنة<sup>(١)</sup><sup>(٢)</sup>، ثم كرس الشارع هذه الوحدة بالممارسات التعبدية السلوكية من خلال الفرائض الأخرى من صلاة وزكاة وصيام وحج، وتأمل بسيط من العبد لهذه العبادات وما فيها من مظاهر الوحدة والتوجه نحو مصدر واحد يجعله موقنا ومعتقدا بمقصد الشارع الحكيم في إنشاء الجماعة المؤمنة التي يشملها وطن واحد تنتفي فيه مظاهر التفرقة والتشردم والبغض والحزبية أو كل ما يؤدي إلى التنطع في دين الله تعالى. ولعلنا نختصر الكلام عن عبادة الصلاة فقط، مشيرين إلى مصادر تبسط الحديث عن باقي الشعائر لمن يريد التفصيل في ذلك<sup>(٣)</sup>.

تعد الصلاة أول هذه العبادات، وهي باختصار تلك الصورة اليومية للوطن الإسلامي الذي يدعونا رب العزة أن نجعله واقعًا حقيقيًا، وقد جسده النبي ﷺ بجرسه عند بنائه أول مسجد بعد مهاجره إلى المدينة، ليتسنى للمسلمين بعدها اجتماعهم في هذا المكان الذي ستناقش فيه كبريات قضايا الوطن سواء في حالتي السلم أو الحرب، فيفزعون إلى الصلاة كلما ناداهم المنادي لذلك، في إشارة إلى المكان الذي لن يضيق بهذه الاجتماعات وهو المسجد، فكان مكانًا للعبادة ومكانًا للتعليم والتربية، ومكانًا لاتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الكبرى، وقد استدل بالصلاة أصحاب رسول الله ﷺ - لما اختلفوا في أمر الخلافة - على أن أولى الناس بها بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مستدلين بأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام أبا بكر أن يصلي بالناس قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، وقالوا: "رضينا لدنيانا من رضي رسول الله ﷺ لدينا"<sup>(٤)</sup>. إن الصلاة في الإسلام تعلمنا أن الإمام ومن يصلي وراءه من المسلمين إنما يخضعون لمنهج واحد في قراءتهم وركوعهم وسجودهم، وكذلك الأمة ومن يتولى أمرها إنما يخضعون لمنهج واحد من

١- حديث معاذ بن جبل أعلاه هو حديث صحيح: أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الجنائز، باب في التلقين ج ٥/ص ٣٤/ح ٣١١٦. وينظر كلام الأرنؤوط في رجال السنن ومن رواه من الصحابة غير معاذ بن جبل، ثم من أخرجه من أصحاب الحديث في مصنفاتهم. ج ٥/ص ٣٤.

٢- ابن القيم، الداء والدواء: ص ١٩٦.

٣- ابن الجوزي في منهاج القاصدين ومفيد الصادقين ج ١/١٢٣، ومختصره للمقدسي ص ٣١.

٤- أخرجه الآجري في الشريعة: كتاب الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وأن نعيم الجنة لا ينقطع عن أهلها أبداً وأن عذاب النار لا ينقطع عن أهلها أبداً، باب بيان خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ. ج ٤/ص ١٧١٠.

عند الله تعالى يحكم الحاكم والمحكوم معاً؛ فالحاكم الإمام كما هو محكوم بهذا المنهج، فالمحكومون من شعبه أيضاً ملزمون باتباع هذا الحاكم فيما تولاه من أمور الحكم.

ومن أسرار الصلاة أيضاً ذلك النظام والانضباط الذي تربي عليه الجماعة عند هتاف المنادي لها، وعليه فهي تعلم المسلم وحدة الجماعة والحرص على تكامل الصف وعدم تمزيقه، وكذا تفقد أحوال الآخرين من أبناء الوطن المسلم والتضامن معهم عند غيابهم عن هذا الموعد الزماني المكاني الذي يجتمع فيه أبناء البقعة الواحدة من أبناء الوطن خمس مرات يومياً، فلا يتكون مجالاً أو هامشاً مهما ضاق نطاقه للعدو ليحدث التفرقة بينهم، وقد ورد العديد من الأحاديث التي تؤيد هذا المعنى وتشهد له، منها حديث المحاذاة بين المناكب وسد الخلل<sup>(١)</sup>، وأن يكون المسلم دائماً حريصاً على عدم تمزيق وحدة المسلمين، وألا يرى رأياً يخالف فيه إجماعهم لما في ذلك من الفساد العريض والشر المستطير، ولا يخفى أن هذه الوحدة من مقومات حماية الوطن، ومن ركائز ضمان أمنه واستقراره.

### المطلب الثالث: الأساس التشريعي والمعاملاتي

جاءت الشريعة الإسلامية لتحقيق مصالح العباد وحفظ حقوقهم، وفي ذلك يقول ابن القيم: "إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ...، وهي العصمة للناس وقوام العالم...، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة"<sup>(٢)</sup>. وأي مصلحة أكبر من حفظ الأمة وهويتها من أي اختراق يؤدي إلى التفرقة وضياع الوطن الذي تعيش فيه، وأي عدل أكبر من وقوف

١- ففي حديث عبد الله بن عمر، قوله ﷺ: " أقيموا الصُّفوفَ، وحاذُّوا بين المناكبِ، وشُدُّوا الخَلَلَ، وليُنُوا بأيدي إخوانكم... ولا تَدْرُوا فُرُجَاتِ لِلشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللهُ" صحيح الإسناد: سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف: ج ٢/ص ٨/ح ٦٦٦ (تحقيق الأرنؤوط).

٢- ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ج ٣/ص ٣.

الجماعة أمام شرع واحد، وأي رحمة أكبر من رحمة ونعمة الأمن والسلم النفسي والاجتماعي، وأي حكمة أكبر من هذا التنظيم البديع الذي يضبط مختلف العلاقات التي تربط بين المسلم وربه، ونفسه، وغيره من المسلمين وغير المسلمين، ثم بينه وبين هذا الكون وما فيه من المخلوقات.

وهذه أمة الإسلام لما كان أفرادها في علاقاتهم قد يعترفهم الاختلاف الذي يحكم التجمعات البشرية نظراً لتباين مقاصدهم، و تنوع مصالحهم، فقد جاءت الشريعة بمثابة القانون والميزان الذي يقيسون به سلوكاتهم، والمعيار الذي يحتكمون إليه في منازعاتهم؛ كل ذلك صوتاً للحقوق، وضماناً لاستقرارهم الاجتماعي الذي يحفظ على الناس الدماء والأعراض والأموال، وغيرها من الحقوق التي لا تكفل إلا وسط الجماعة. وهذا رسول ﷺ في حجة الوداع حذر من دواعي الافتراق والتنازع من خلال انتهاك تلك الحقوق، كما رواه الشيخان من حديث أبي بكر مرفوعاً وفيه "إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا"<sup>(١)</sup>. فشدد عليه الصلاة والسلام على حرمة سفك الدماء، وعلى حرمة غصب الأموال عامة كانت أم خاصة، وعلى انتهاك الأعراض بالزنا أو بالقذف أو بالغيبة أو بالنميمة أو غيرها، لتظهر مزايا هذه الشريعة على غيرها من القوانين الوضعية التي كانت حاکمة في ذلك الزمان حتى يومنا هذا؛ إذ لا مجال للمقارنة بين صنع الخالق وصنع المخلوق.

إن الاستقرار الاجتماعي الذي يتمتع به أي وطن من الأوطان منبثق يقيناً من ذلك الشعور بالعدالة النفسية والاجتماعية التي يحسها أفرادها وهي تعم مناخه وأجواءه، ولا تقيم تمييزاً بين أفرادها فلا تفرق بين القوي والضعيف، أو الشريف والوضيع أمام أحكامها، فيتحقق ما يسمى بقانونية معاملات الأفراد فيما بينهم وشرعيتها، وأهم هذه الحقوق التي يتم ضمانها في مثل هذه الأوطان، الحق في الحياة والسلم والاستقرار؛ فدون سلم لا حقوق، ودون حقوق لا سلم. وبذلك؛ فاحتكام الجماعة إلى شريعة منصفة لا تتحيز لأحد على آخر يشعرها بالطمأنينة النفسية التي تستجلب معها الأمن الفردي والاجتماعي، ولعل هذا هو الأساس الذي بنى عليه أصحاب نظرية العقد الاجتماعي نظريتهم، لما حاولوا تفسير ظهور القاعدة القانونية؛ فبعدما كانت الجماعة في حالتها

١- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى: ج ٢/١٧٦ (ح ١٧٣٩)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب القسامة والمحاربن والقسامة والديات، باب تغليب تحريم الدماء والأعراض والأموال. ج ٣/ص ١٣٠٦/ح ١٦٧٩.

الطبيعية تعيش الصراع والنزاع مع نوع من التربص والخوف؛ تنازلت الجماعة عن بعض حقوقها لفرد داخلها، من أجل أن يحمل بعد ذلك بقية أفراد هذه الجماعة بالقوة على قانون ملزم للجميع ومرتبطة بالجانب الزجري، حفاظا على ما تبقى من الحقوق، بما يطرح إشكال انحراف هذا الفرد عن مبدأ العدل والإنصاف، وذلك باب يدخل في باب المقارنة بين الشريعة والقانون، ولا مجال للتفصيل فيه في هذا المقام.

من ههنا يتبين فضل الشريعة الإسلامية في أحكامها، من خلال وضعها لتصنيف يناسب فئات المكلفين؛ إذ ربطت أهل النفوس المحسنة بالجانب العقدي الإيماني، ووكلتهم إلى إيمانهم، وتعقبت بالعقاب لكل من تجاوز الحدود، ليكون عبرة لغيره، وهكذا.

### المطلب الرابع: الأساس الحقوقي

دعا الإسلام إلى حفظ الحقوق الإنسانية والحرمة الآدمية، باعتبارها مقومًا من مقومات حفظ الوطن بين المسلمين فيما بينهم ومع غيرهم، وكانت تلك مبادئه منذ فجر رسالة النبي محمد ﷺ لما كان وحيداً طريداً مضطهداً، وأصحابه من حوله قليلون مستضعفون في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس إلى أن خطب فيهم يوم حجة الوداع، وهم يومئذ زهاء مائة ألف أو يزيدون<sup>(١)</sup>؛ كانت تلك نفس المبادئ التي أعلنها منذ بداية الدعوة الإسلامية، والحقوق نفسها التي دعا الناس إلى المحافظة عليها، لم تتغير في القلة والكثرة، ولم تتفاوت من الحرب إلى السلم بل هي مبادئ راسخة لم يزلها مرور الأيام إلا رسوخاً وشموخاً وعمقاً وأصالةً، بل في ذلك اليوم كان يوصي أصحابه بنقلها إلى من وراءهم من العالمين لتظل منارة للإنسان، ومرفاً ترسو إليه سفنه النائية، كلما ثارت العواصف وهاجت الأمواج ولقوتها وصدقها لم تدبل مع الأيام، ولم تمت مع تعاقب الأجيال، وإنما بقيت راسخة تتجدد في الأقوال والأعمال على مدى الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وينظفئ سراج الحياة.

١- قال علي بن برهان الدين الحلبي (ت ١٠٤٤هـ) في سيرته: " وعند خروجه ﷺ للحج أصاب الناس بالمدينة جدري بضم الجيم وفتح الدال وفتحهما أو حصبة منعت كثيرا من الناس من الحج معه ﷺ ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى قيل كانوا أربعين ألفا وقيل كانوا سبعين ألفا وقيل كانوا تسعين ألفا وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشرة ألفا وقيل وعشرين ألفا وقيل كانوا أكثر من ذلك" ينظر: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: المسمى بالسيرة الحلبية، ج ٣/ص ٣٠٨

ومن تلکم الحقوق حق الحياة، فقد عظم الإسلام أمر الدماء وغلظ العقوبة عند المساس بهذا الحق، وجعل حرمتها شريعة عامة مع بيان الاستثناءات، وأنكر أشد النكير، وشدد على ألا تستباح دماء المسلمين أو غير المسلمين بغير وجه حق، كما حمى حق التملك، وجعل التعرض له مستوجباً لأليم العقاب والعذاب؛ فنهى عن التعرض لأموال المسلمين وغيرهم بالفهم الفاسد والغلو المنكر، وأن على أهل الذمة من الأمان عهد الله و عهد رسوله وعهد المؤمنين إذا أودوا ما عليهم من الحقوق للوطن الذي يعيشون فيه.

وبهذا يترسخ الاستقرار في الوطن المسلم، ونفهم من خلاله قولة الشيخ عبد الله بن بيه<sup>(١)</sup>: "بدون سلام، لا حقوق، لأن فقدان السلم هو فقدان لكل الحقوق، بما فيها الحق في الوجود، فالسلام هو الحق الأول والمقصد الأعلى الذي يحكم على كل جزئيات الحقوق، ومن خلال الاستقرار الذي هو أوثق طريق لتأكيد المقصدية، يمكننا أن نؤكد أنه لا مقصد يعلو على مقصد السلم"<sup>(٢)</sup>.

فهذه القولة الوجهية تحتزن معاني نفيسة تتمحور حول أهمية السلم في توفير الأرضية المناسبة الخصبة، لتمكين الفرد من كافة حقوقه. بل إن مبدأ السلم يحفظ للفرد كينونته وإنسانيته، ليتطلع إلى الشعور بوجوده ودوره تجاه الحياة من خلال الاستفادة من كافة حقوقه.

وإن تمتيع الفرد بحقوقه هو السبيل لجعله عنصراً إيجابياً في شتى علاقاته في مجتمعه، وحريراً على استتباب مبدأ السلم في وطنه، باعتبار هذا الأخير الإطار الحافظ لهذه الحقوق؛ إذ بصيانته تصان، وبإهداره تهدر، ولا يخفى ما لحفظ الحقوق من أثر بالغ في تعزيز الانتماء للوطن، وتنمية الغيرة في النفوس للحرص على حماية أمنه واستقراره.

وباستقراءنا لنصوص الكتاب والسنة، نجد أن دعوات الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام كلها كانت صريحة ضد الاضطهاد والقهر الذي كان يسلب الناس حقوقهم، فيضطرون إلى الهجرة من أوطانهم، ولذلك أوصى رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين الأوائل بالتوجه إلى

١- رئيس منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة.

٢- جاء ذلك من خلال كلمة توجيهية ضمن الملتقى الأول لمنتدى السلم العالمي بدولة الإمارات العربية المتحدة. ينظر مجلة السلم العدد الأول ص ٢٩.

الحبشة وقد كان فيها النجاشي وهو على دين النصرانية يومئذ، لما كان وطنه ملاذا تصان فيه أبسط الحقوق الإنسانية، فأواهم إثر حلولهم بأرضه لتخليصهم مما كانوا يتعرضون له من بطش أهل مكة الذين كانوا من أبناء جلدتهم وطغيانهم؛ قال ابن إسحاق: "فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر أن يمنعم مما هم فيه من البلاء قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه"<sup>(١)</sup>، وفي هذا النص من الإشارات البليغة أن الرسول ﷺ وجه أصحابه إلى الهجرة إلى أرض الحبشة، لما كان يسودها من السلم الذي يضمن لهم سلامتهم البدنية وممارسة شعائرهم الدينية.

وتشهد الوقائع التاريخية على مدى حرص الإسلام على ضمان حقوق غير المسلمين داخل المجتمع الإسلامي في ظل أجواء يسودها السلم والاستقرار بين كافة مكوناته، ومن قبيل ذلك العهدة العمرية التي أعطى فيها عمر بن الخطاب الأمان لأهل بيت المقدس؛ حيث تضمنت صيانة حقوقهم، ومما جاء فيها: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم: سقيمها وبريئها وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم..."<sup>(٢)</sup>.

فاستتباب السلم حفظ لاستقرار الوطن، كونه الخطوة الأولى في اتجاه رعاية الحقوق؛ إذ لا يجد الإنسان قيمة لحقوقه ولا طعمًا لها في وطن مملوء بالفتن، وأجواء ينعدم فيها السلم والاستقرار، وبه نستوعب قيمة التصرفات التي قام بها رسول الله ﷺ في مجتمع المدينة لما أصبح للدولة الإسلامية كيانها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ولعل العنوان الآتي يعالج بعضًا من هذه الجوانب.

### المبحث الثاني: السنة النبوية ومقومات حفظ الوطن على المستويين الداخلي والخارجي

قصدنا بمقومات حفظ الوطن تلك الأمور التي تحافظ على تماسك بنائه سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي، والمتتبع لسيرة رسول الله ﷺ، يرى في أحداثها ووقائعها

١- ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي ص ١٧٤.

٢- محمد بن جرير الطبري (ت ٥٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ذكر فتح بيت المقدس ج ٣/ص ٦٠٩.

محطات بارزة تجعله حتما يخرج بتصوير واضح عن تلك المقومات التي يقوم على أساسها حفظ أمن الوطن واستقراره، وهي نفسها أركان الدولة بمفهومها المعاصر، ونعني بها المقومات الثلاث: الإقليم والسكان والسلطة الحاكمة، وفيما يلي بيان لها من منظور السنة النبوية:

١. على مستوى النطاق الجغرافي (الوطن): يقصد به الرقعة الجغرافية التي يستأثر بها سكان الوطن، وتمارس عليها الدولة سيادتها، ويقتضي الأمر أن يكون لهذا الوطن حيز مكاني من الأرض يقيم فيه رعاياه بصفة دائمة، وتتعلق به حقوقهم، ويمد هذا الوطن بما يحتاج إليه من موارد ضرورية لحياته والمحافظة على بقائه وكيانه. وباستحضار سيرة رسول الله ﷺ، نجد أن دعوة الإسلام انطلقت من مكة، وقد دعا رسول الله ﷺ أهلها إلى دين التوحيد، ومن منطلق عالمية دين الإسلام فإن دعوته لم تقتصر على قريش فقط، بل توجهت إلى جميع من كان يحضر إلى مكة ويقصدها، لكن مواطني مكة وأهلها لم يكونوا يقبلوا جميعهم دعوة رسول الله ﷺ فرفضوا أن يكون الإسلام لهم ديناً بديلاً عما تركهم عليه الآباء والأجداد، فكان أن انقسم أهلها إلى مسلمين آمنوا برسول الله ﷺ هم في العدد قلة مقارنة مع الغالبية التي اختارت الشرك على التوحيد، فكان النبي ﷺ خلال المرحلة المكية يبني الوطن في نفوس هؤلاء المؤمنين، ويعلمهم أن كل مسلم يحمل عقيدة التوحيد يحمل حتماً في نفسه وطناً تحكمه شريعة، وأنه وغيره من المسلمين أينما كانوا على ظهر الأرض، هم رعايا هذا الوطن. وبعد مهاجره ﷺ إلى المدينة التي باتت وطناً للإسلام والمسلمين، أقدم أهلها على مبايعته ﷺ ورضوا بأن يحكم فيهم بشرع الله، وأن يجمع بينهم بهذه الشريعة التي فيها من الرحمة بهم ما ليس في غيرها من دين الشرك وأعراف الجاهلية، فتشكل للمسلمين وطن بمفهوم الوطن ودولة بمفهوم المعاصر للدولة؛ فكانت المدينة موطناً لهم والمسلمون مع غيرهم رعايا لها، ورسول الله ﷺ هو الحاكم الفعلي لهذه الدولة والراعي لشؤونها والقائم بأمرها، فانتقلوا بعدها من دولة الأفراد إلى أفراد الدولة. ومن البدهي أن يكون للدولة الناشئة حدود طبيعية، وهي تلك الحدود الجغرافية والحرمات التي لا ينبغي انتهاكها أو التعرض لشيء منها، ويعاقب كل من سولت له نفسه فعل ذلك، فيتمتع مواطنوها بالأمان النفسي والاستقرار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري، على غرار باقي البقاع والحواضر التي تتمتع بهذه الحقوق، وخصوصاً مكة المكرمة، وهي أقربها إليهم عهداً ومكاناً، وهم حديثو عهد بالأمان الذي كانت توفره لمواطنيها،

فكان لا بد من عهد يوفر للمكان الجديد مثل ما لمكة من حرمت، ويبين ما لها من مزايا على غيرها من البقاع، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أنس بن مالك قال: "خرجت مع رسول الله ﷺ إلى خيبر أخدمه، فلما قدم النبي ﷺ راجعا وبدا له أخذ، قال: "هذا جبل يحبنا ونحبه" ثم أشار بيده إلى المدينة، قال: "اللهم إني أحرم ما بين لابتيها"<sup>(١)</sup>، كتحرير إبراهيم مكة، اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا"<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث إشارة إلى أن سبب وروده كان بعد واقعة خيبر؛ أي بعد لقاء عسكري بين المسلمين واليهود الذين نقضوا الصلح وتحالفوا مع أعداء الدولة، وفيه ما فيه من معاني الخيانة للوطن، وهي من أكبر الجرائم وأخطرها التي تمس أمن الدولة في الاصطلاح السياسي المعاصر. كما أن هذا الحديث جاء على لسان رسول الله ﷺ في السنة السابعة بعد الهجرة على الصحيح من وقائع السيرة وأحداثها من أن خيبر وقعت في ذلك التاريخ"<sup>(٣)</sup>، فتحدت بهذا الحديث الحدود الشرقية والغربية لمدينة رسول الله ﷺ علماً بأن العلاقات بين المسلمين وقريش آنذاك كانت في حالة تريبص وحرب بين الطرفين، ولم يتغير الوضع إلا بعد أن تم صلح الحديبية الذي مهد للفتح الكبير؛ فتح مكة.

أما حديث علي بن أبي طالب مرفوعاً: "المدينة حرم ما بين غير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً"<sup>(٤)</sup> فقد رسم به النبي ﷺ حدود الحرم الجغرافية من جهة الشمال إلى الجنوب، وفيه إشارة

١- مثنى لابة، قال القاضي عياض: "لابتي المدينة" أي جانبها لكثرة حرها، وما يصيب فيها من العطش سبب ذلك. وأصل اللابة. الحرة، وهي أرض ألبست حجارة سود. " ينظر في ذلك القاضي عياض في إكمال المعلم بفوائد مسلم ج٧/ص٢٦٧.

٢- متفق عليه: أخرجه البخاري في الصحيح واللفظ له، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الخدمة في الغزو. ج٤/ص٣٥/ح٢٨٨٩، وأخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمةها، ج٢/ص٩٩٣/ح١٣٦٥.

٣- قال ابن سعد في الطبقات ما نصه: " ثم غزوة رسول الله ﷺ خيبر في جمادى الأولى سنة سبع من مهاجره، وهي ثمانية برد من المدينة." ج٢/ص١٠٦.

٤- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الفرائض، باب إثم من تبرأ من مواليه، ج٨/ص١٥٤/ح٦٧٥٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمةها، ج٢/ص٩٩٤/ح١٣٧٠.

إلى وجوب تأمين الوطن من كل ما يتهدد أمنه واستقراره الفكري والعقدي سواء بإثارة الفتنة أو التكتّم على من قصّد العدوان عليه بأي شكل كان. و قد ورد في بعض الروايات بأن عليا ذكر هذا الحديث والمجتمع يومئذ يمجج في فتنة عظيمة<sup>(١)</sup>. وبالرجوع إلى الحدود الجغرافية يكون (ثور)<sup>(٢)</sup> جبلاً بالمدينة خلف أحدٍ من شماليه؛ كما رجع ذلك النووي لما ساق مجموع الروايات وأقوال أهل العلم فيها وسبب اختلافهم عليها، ثم لخص المسألة فقال: "وهذه الأحاديث كلها متفقة، ف (ما بين لابتيها) بيان لحد حرمة من جهتي المشرق والمغرب، و(ما بين جبليها) بيان لحد من جهة الجنوب والشمال، والله أعلم"<sup>(٣)</sup>.

٢. على مستوى العنصر البشري (المواطنون): يعتبر الوطن قبل كل شيء مجتمعا إنسانيا، ولا يمكن تصور وطن دون مواطنين، ويُقصد بهم مجموعة الأفراد الذين يستقرون بإقليم الدولة أو

١- أخرج البخاري في صحيحه: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع، والغلو في الدين والبدع، ج ٩/ص ٩٧/ح ٧٣٠٠، وأخرج مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل المدينة، ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حدود حرمة، ج ٢/٩٩٤/ح ١٣٧٠ عن علي أنه قام على المنبر خطيبا فقال: "من زعم أن عندنا شيئا نقرؤه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة - قال: وصحيفة معلقة في قراب سيفه - فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: "المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثا، أو آوى محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا، وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا، ولا عدلا" متفق عليه.

قلت: فبان بأنه لما سئل عن ما يوجد في الصحيفة التي تضمنته، أشار إلى أن فيها إضافة إلى الحديث النبوي المذكور أنفا نظام العقوبات الإسلامي في الدماء، وما يستوجب من الديات، ولا يخفى ما في ذلك من الارتباط بينهما، لما في التهديد بالعقوبة من سد لسبل الفتن والقلاقل داخل المجتمع.

٢- ذكر الحافظ في الفتح الخلاف الوارد بين من صحح الحديث ومن ذهب إلى تصحيحه، بإنكار لفظة ثور بدعوى عدم وجود بقعة جغرافية في المدينة بهذا الاسم، والمسألة فيها عرض ونقد لكثير من التوجيهات الحديثية والنكات الفقهية واللطائف اللغوية، التي ساقها الحافظ من كلام أهل العلم، فلتنظر في مظانها. فتح الباري: "كتاب الحج، باب حرم المدينة ج ٤/ص ٨٣.

٣- النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمة. ج ٧/ص ٢٠٣.

الوطن، ويخضعون لسلطانها ويخاطبون بأحكام دستورها وشريعتها، ويطلق على أفراد هذا الوطن اسم "الرعايا" بغض النظر عن أصلهم أو لغتهم أو ديانتهم أو تقاليدهم. وإذا كان الوضع الغالب في تشكل الدول؛ أن أفراد الدولة أو الوطن يرتبطون فيما بينهم برابطة الدين أو القومية التي تقوم على وحدة الأصل أو اللغة أو التاريخ المشترك، فيكونون أمة واحدة<sup>(١)</sup>؛ فإن ذلك ليس شرطاً ضرورياً ليطلق عليهم لفظ الأمة، بل لابد لهم من الرغبة المشتركة للعيش جنباً إلى جنب داخل الوطن، وعليه فقد يتكون أفراد الوطن من عناصر لا تنتمي إلى قومية واحدة، يشكلون ما يسمى حالياً في القانون الدولي المعاصر بالأقليات ووضعياتها داخل هذه الدول أو الأوطان. ثم إنه لا يشترط لقيام دولة أو وطن وجود عدد معين من السكان، فهذا مما تتباين فيه الدول والكيانات السياسية، وقدماً كانت الإمبراطوريات والدول والممالك والقبائل والعشائر، بقي منها ما بقي، واندرثر منها ما اندثر، ولكل من هذه الاصطلاحات معنى سياسي معين لا نريد التفصيل فيه، وإنما همنا في هذه الورقة فقط التنبيه على أهمية أعداد السكان في وضع الدولة وفرض هيبتها على المحيط الإقليمي والدولي.

**وبالرجوع إلى سيرة رسول الله ﷺ نجد أن عنصر السكان للدولة الإسلامية التي يجمع أفرادها عقيدة التوحيد قد بدأ برجل وامرأة و غلام عند بداية الإسلام، ثم بعد اثنتين وعشرين سنة كان تعداد أفرادها ورعاياها الذين شهدوا حجة الوداع قد زاد على أربعين ومائة ألف مواطن مسلم، يصفهم أنس رضي الله عنه بأنهم قد ملأوا بسيف الأرض بين يدي رسول الله ﷺ وخلفه وعن أيمانه وعن شمائله، يصدحون بالتلبية لرب العالمين، ورسول الله ﷺ يعلمهم مناسكهم<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن المتتبع لسيرة النبي ﷺ سيقف عند أحداث عظام؛ فبعد استبدال عصبية الجاهلية والولاء للقبيلة**

١- الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصر: ج ١/ص ١٢١.  
٢- قال ابن كثير رحمه الله تعالى: " وأهل بحجة و عمرة معاً. هذا الذي رواه بلفظه و معناه عنه ﷺ ستة عشر صحابياً، منهم خادمه أنس بن مالك رضي الله عنه، و قد رواه عنه ﷺ ستة عشر تابعياً، و هو صريح لا يحتمل التأويل، إلا أن يكون بعيداً، و ما عدا ذلك مما جاء من الأحاديث الموهمة التمتع أو ما يدل على الأفراد، فلها محل غير هذا تذكر فيه... و ساق ﷺ الهدى من ذي الحليفة، وأمر من كان معه هدي أن يهل كما أهل ﷺ، و سار ﷺ والناس بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله أمماً لا يحصون كثرة، كلهم قدم ليأتهم به ﷺ." الفصول في سيرة الرسول ص ١٤٥.

## تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي

برابطة أخرى تجمع بين المسلمين هي رابطة العقيدة؛ أصبح لأفراد الدولة الناشئة ولاء واحد هو الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين أينما كانوا وحيثما وجدوا، وأثبتت الهجرة وسنة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار هذا التوجه الجديد للدولة الفتية بين قوى تقليدية بنيت على أساس البقاء للأقوى على حساب العناصر الضعيفة، لنلفي بعده تلاحماً منقطع النظير جمع بين أفراد كانوا ينتمون إلى أشد القبائل المتناحرة في الجاهلية<sup>(١)</sup>، يتعاطفون، ويتراحمون، ويتآلفون، ويتآزرون، ويتعاونون فيما بينهم في البأساء والضراء، يكاد جوع أحدهم تتمزق من ألمه أمعاء الآخر، وفقر الواحد منهم يعرف من جدة الآخر، وجهل هذا يداوى بسؤال في حضرته عند آخر؛ فتكوّن بذلك المجتمع الذي شبهه النبي ﷺ بالجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى<sup>(٢)</sup>. وهكذا، فإن المتأمل في السيرة النبوية سيجد بأن مواطني الدولة الإسلامية هم رعايا هذه الدولة أينما وجدوا

١- وهو الحال الذي وصفه جعفر بن أبي طالب للنحاشي لما دعا أصحاب رسول الله ﷺ ليستوثق مما نسب إليهم وقد أرسلت قريش من يؤلّبه عليهم لكي يعيدهم إلى مكة، فحاء أسأفته: " فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك. حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، "فدعانا: إلى الله تعالى لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ". قال: فعدد عليه أمور الإسلام فصدقناه وأمانا به، واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمتنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واختزنك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.. الحديث. " أخرجه أحمد في المسند، مسند حديث جعفر بن أبي طالب وهو حديث أم سلمة زوج النبي. ج ٣٧/ص ١٧٣ / ح ٢٢٤٩٨، وصحح إسناده الأرنؤوط.

٢- حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: " مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج ٨/ص ١٠/ح ٦٠١١، وأخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له: كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج ٤/ص ١٩٩٩/ح ٢٥٨٦.

فهم مرتبطون بها برابطة الولاء، والاعتداء عليهم اعتداء على هذا الوطن بكل عناصره، ومن شواهد ذلك أن فتح مكة كان بسبب استنصار قبيلة خزاعة المسلمة برسول الله ﷺ، لما تعرضت لغدر قريش وبني بكر، وكان بينهما عهد الأمان في صلح الحديبية<sup>(١)</sup>، كما نجد بأن النصوص الحديثية الواردة عن حسن إسلام المرء منها "تركه ما لا يعنيه"<sup>(٢)</sup>، "وإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد"<sup>(٣)</sup>، وغيرها من النصوص التي تهدف إلى تمكين اللحمة بين أفراد الوطن، ليقف على معنى نفيس يشير إلى أن الإسلام يوجه نظر أتباعه إلى قاعدة عظيمة في تعميق الأخوة الإيمانية بين أفراد مجتمعه، ألا وهي إحسان الظن بالأخوة وسوء الظن بالنفس، باعتباره ركيزة في حسن التعامل مع باقي أفراد المجتمع بالستر على العباد وعدم فضحهم، وكذا الحيطة من إساءة الظن بهم، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً"<sup>(٤)</sup>. كما أن لهذه الرابطة الإيمانية العقديّة حقوق يضيق المقام عن التفصيل؛ فيها منها إقامة الحقوق لجميع أشكالها، وصدق التحمل لأذى الآخرين، والبذل لهم والعطاء والإحسان إليهم، والنصرة لهم والدفاع عنهم، وإيثارهم على النفس والأهل والولد، وقد ورد من النصوص الكثيرة ما يشهد لكل عنصر من هذه العناصر

١- حديث البراء بن عازب في صلح الحديبية متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، ج ٣/ص ١٨٤/ح ٢٦٩٨، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية ج ٣/ص ١٤٠٩/ح ١٧٨٣.

٢- حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" أخرجه الترمذي في سننه: أبواب الزهد، باب من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، ج ٤/ص ٥٥٨/ح ٢٣١٧. وصححه الألباني.

٣- متفق عليه من طريق علي بن حسين عن صفية بنت حبي م مرفوعا، وقد أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه، ج ٣/ص ٢٠/ح ٥٠٣٨، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرما له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به. ج ٤/ص ١٧١٢/ح ٢١٧٤.

٤- متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ج ٨/ص ١٩/ح ٦٠٦٤، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن، والتجسس، والتنافس، والتناجش ونحوها، ج ٤/ص ١٩٨٥/ح ٢٥٦٣.

التي كانت واقعا ملموسا على عهد رسول الله ﷺ، وحققت مجتمع الخيرية الذي جاء ذكره في القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. ولم يكن هذا فقط حال المسلمين بعضهم مع البعض بل كانت لهم علاقات حسن الجوار مع غيرهم من رعايا الدولة، بيّنت ذلك وثيقة المدينة التي عقدها النبي ﷺ مع يهودها لما هاجر إليها باعتبارهم أتباع كتاب سماوي، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، يجمعهم وطن واحد. ومن واجبات كل أطراف هذه المعاهدة، الدفاع عنه وحمائته من أي اعتداء؛ لأن المعتدي بفعله روع الآمنين، وحمل السلاح على المسالمين، واستهدف أموال هؤلاء المواطنين وأعراضهم كيفما كانت عقيدتهم، فتعين الدفاع جنبًا إلى جنب تحقيقًا لأمن واستقرار الوطن والمواطنين<sup>(٢)</sup>. وقد جمعت دولة المدينة بداخلها مواطنين آخرين من غير المسلمين، وفُرض على النبي ﷺ وعلى المسلمين أن يكون لهم منهج خاص يتبعونه في معاملتهم، مثل دعوتهم بالحسنى، والتركيز على مواطن الاشتراك معهم، كوثقهم أقرب للمسلمين من المشركين، وكذا التعامل التجاري والصناعي والفلاحي معهم، إلى غير ذلك من المواطن المشتركة التي تجمع أكثر مما تفرق، ما يلفت النظر إلى إمكانية التعدد في المنزح والمعتقد في إطار وحدة الوطن. أما على المستوى الخارجي، فقد سعى عليه الصلاة والسلام إلى مسالمة القبائل المجاورة، وعقد العديد من موثيق الصلح والأمن معها، وأمن بذلك الطرق الرئيسية بين مكة والمدينة والمناطق المجاورة، وبث العيون حرصًا على الدولة الناشئة من أي خطر خارجي أو تهديد عسكري مفاجئ من إمبراطورية فارس أو إمبراطورية الروم، أو من القبائل الحليفة التابعة لهما، خصوصًا بعد أن انتشر ذكر فتوحاتها وانتصاراتها شرقًا وغربًا وازداد عدد أتباعها، بما أصبح

١- فاطمة بنت يحيى القحطاني، عقيدة الإخاء وأثرها في حياة الأمة الإسلامية، ص ٧٥ وما بعدها.  
٢- وقد نقل ابن هشام عهد رسول الله ﷺ إلى يهود المدينة أو ما يسميه بعض المحدثين بدستور المدينة وفيه: " قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم: " بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس... وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أذنانهم وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم... " سيرة ابن هشام ج ٣/ص ٣١-٣٣.

يشكل مصدر قلق للقوى التقليدية القديمة فانصبت اهتمامات النبي ﷺ انطلاقاً من شمولية وعالمية دين الإسلام على العلاقات الخارجية، فكانت رسائله عليه الصلاة والسلام إلى ملوك عصره<sup>(١)</sup>.

**٣. على مستوى ممارسة الدولة لسلطاتها، وفرض سيادتها:** أو السلطة الحاكمة ذات السيادة؛ ذلك "أن وجود مجموعة بشرية فوق مجال جغرافي معين لا يكفي لقيام الدولة؛ بل لابد لهذه الأخيرة من وجود هيئة حاكمة تمارس سلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية على مجال الدولة وسكانها دون وصاية أو تدخل خارجي"<sup>(٢)</sup>. فلا يكفي إذاً لوجود الدولة توفرها على هيئة حاكمة، بل لابد من ارتباط حكمها بعنصر السيادة، وهو ما يظهر في وجهين: "أولهما سيادة الدولة، وثانيهما السيادة داخل الدولة. ولسيادة الدولة شقان: داخلي وخارجي. أما الداخلي فهو المعبر عنه بالنظام الداخلي الذي تحدده الدولة لنفسها، وتلك السيطرة التامة على مواردها وسكانها، وعدم وجود سلطة أسمى من سلطتها وغير ذلك، كامتلاكها لوسائل الإكراه والقوة المسلحة دون غيرها من التجمعات البشرية الأخرى الموجودة على إقليمها من هيئات سياسية أو اجتماعية. أما الخارجي فيقصد به عدم خضوع الدولة لسلطة خارجية تحد من استقلالها، باستعمار أو وصاية أو انتداب أو حماية، وقدرتها على إبرامها لمعاهدات متكافئة برضاها"<sup>(٣)</sup>. ولابد من الإشارة إلى أن التطبيق العملي لمبدأ السيادة من الصعوبة بمكان، لخضوع الدول الصغرى إلى ضغوط الكيانات الكبرى المملوكة للموارد الاقتصادية والعسكرية وغيرها من وسائل الضغط، فينجم عن ذلك معاهدات غير متكافئة يتم فيها التنازل عن هذا المبدأ كرها. ثم بالتطور الذي تشهده الإنسانية اليوم؛ يتم الحديث عن مبدأ السيادة لمن يمتلك هذه الوسائل، فالمتمكن اليوم من وسائل الإعلام والتكنولوجيا يفهم جيداً لماذا تهاوى المفهوم التقليدي للسيادة، الذي يعتمد على امتلاك الثروات

١- قال ابن كثير في فصوله: "وتواترت الوفود هذه السنة وما بعدها على رسول الله ﷺ مدعنة بالإسلام وداخلين في دين الله أفواجاً... وبعث ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، وبعث الرسل إلى ملوك الأقطار يدعوهم إلى الإسلام. وانتشرت الدعوة، وعلت الكلمة، وجاء الحق، وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً". الفصول في سيرة الرسول ص ٩٠.

٢- الدكتور محمد معتصم، مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ص ٣٤.

٣- الدكتور محمد معتصم، مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمؤسسات السياسية، ص ٣٤ وما بعدها

الاقتصادية الطبيعية، بل بامتلاك وسائل المعرفة وكيفية توظيفها.

وعن السيادة داخل الدولة فهي تعني الأشخاص الذين يمارسون السلطة داخل كيان الدولة سواء كانوا طبيعيين أو معنويين، ابتداء من رئيس الدولة أو الملك أو الحكومة أو النواب أو غيرهم. وباستحضار سيرة رسول الله ﷺ نجد التطبيقات العملية للسلطة السياسية حاضرة في دولة المدينة الناشئة، مع ما تميزت به من الخصوصية الإسلامية في التطبيق، فالحاكمة لله ولرسوله ﷺ من خلال نصوص القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ في شكل أوامر ونواهٍ تقتضي الخضوع التام والمطلق من المحكومين لأحكامهما؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) وقوله تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٦٥) .<sup>(١)</sup>

وهكذا تضمنت سنة رسول الله ﷺ أحكاماً تشريعية تهتم مختلف مجالات الحياة المتعلقة بالمؤمن المكلف، سواء في علاقته مع ربه أو مع نفسه أو مع الآخرين أو مع الكون أو ما يسمى بالبيئة و المحيط، كما حرص النبي ﷺ على تطبيق هذه الأحكام التشريعية بما يمثل السلطة التشريعية الوحيدة التي يخضع لها مواطنو ورعايا دولة الإسلام أينما كانوا، سواء ذلك في باب المعاملات، أو العقوبات<sup>(٢)</sup>. أما الحاكم والقاضي عند التنازع فهو رسول الله ﷺ حيث قضى عليه السلام في الكثير من القضايا التي رفعت إليه، وتناولت حقوقاً متنازعة فيها، نحو حديث العسيف<sup>(٤)</sup>، وحديث

١ - سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

٢- سورة النساء: الآية ٦٤.

٣- مثل حديث أبي هريرة: " من غش فليس مني." والذي أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: من غش فليس مني، ج ١/ص ٩٩/ح ١٠٢، فقد ذكره ﷺ بالسوق، أو حديث العسيف الآتي ذكره.

٤- ونصه كما في صحيح مسلم: عن أبي هريرة، وزيد بن خالد الجهني، أنهما قالوا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر: وهو أقره منه نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال رسول الله ﷺ: "قل"، قال: إن ابني كان عسيفا على هذا، فزني بامرأته، وإني أخبرت أن على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أنما على ابني جلد مائة، وتعريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ

الغامدية<sup>(١)</sup>، وحديث اقتطاع حق المسلم بسبب لحن الحجة<sup>(٢)</sup>، وغيرها من الأحاديث، فقد جمعها أصحاب الصحاح والسنن تحت باب الأفضية والخصومات.

وقد كان النبي ﷺ حريصاً على إنفاذ هذه الأحكام بنفسه، باعتباره ممثلاً للسلطة التنفيذية؛ فقد أمره الله تعالى وكلفه بذلك، وهكذا كل من كلفه عليه الصلاة والسلام وأقامه نيابة عنه لتنفيذ حكم من هذه الأحكام في شأن من شؤون المسلمين، وقد قرن تعالى طاعته بطاعته وطاعة أولي الأمر؛ فقال سبحانه أمرًا للمؤمنين ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَردُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾<sup>(٣)</sup>، أما عن عنصر السيادة الذي تمتعت به هذه الدولة الناشئة، فهي تكاد تنادي على نفسها بالبيان والظهور، وسنقتطف من هذا العنصر مشاهد من سيرة رسول الله ﷺ نعرضها كالآتي:

"والذي نفسي بيده، لأقضي بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد، وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام، واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها"، قال: فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت. "متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ج ٣/ص ١٨٤/ح ٢٦٩٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ج ٣/ص ١٣٢٤/ح ١٦٩٧.

١- حديث عبد الله بن بريدة، عن أبيه قال: "جاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زנית فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت معازا، فوالله إني لحبلى، قال: "إما لا فاذهبي حتى تلدي"، فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: "اذهبي فأرضعيه حتى تفتميه"، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها.. الحديث" أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى، ج ٣/ص ١٣٢٣/ح ١٦٩٥.

٢- ونصه كما في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة، أن رسول الله ﷺ قال: "من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة" فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: "وإن قضيا من أراك" صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، ج ١/ص ١٢٢/ح ١٣٧.

٣- سورة النساء: الآية ٥٩.

**المشهد الأول:** تطبيق أحكام الشريعة على المسلمين كلهم حاكمهم ومحكومهم، ومن ذلك حديث المرأة المخزومية<sup>(١)</sup> التي سرقت، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها تطبيقاً لحكم النص القرآني، فأرسل بعضهم أسامة بن زيد لمكانته من رسول الله ﷺ من أجل أن يشفع لها، فنهاه النبي ﷺ عن مثل هذا الفعل، وأن العدل يقتضي أن يطبق الحكم في الشريف والوضيع، بل لكي يبين له أن الأمر قد قضي، قال له: " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. "

**المشهد الثاني:** الدولة الناشئة لكي تمارس سيادتها الكاملة عليها أن تتجاوز وسائل النقص في مجال من المجالات، بما في ذلك المجال المعرفي أو العلمي. وبما أن الدولة الإسلامية غالبية رعاياها من المستضعفين الذين لا يقرؤون ولا يكتبون، وأن هذا مجال من مجالات النقص، الذي قد يقوض أركان الدولة حتماً في المستقبل، فإن هذا الأمر لم يكن يخاف على رسول الله ﷺ، وهكذا وعلى الرغم مما سيوفره فداء أسرى بدر للدولة الناشئة من موارد مالية، فقد جعل فداء كل واحد منهم لا يملك ما يفدي به نفسه بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وسنرى بأن هؤلاء كانوا يعلمون القرآن الكريم والسنة النبوية لآخرين في مراحل لاحقة، ولهذا الأمر شواهد كثيرة تغني عن التفصيل فيه في هذا المقام<sup>(٢)</sup>.

١- ونص الحديث كما هو في الصحيحين من حديث عائشة، أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: " أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ج ٤/ص ١٧٥/ح ٣٤٧٥، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج ٣/ص ١٣١٥/ح ١٦٨٨.

٢- ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب الإيمان فضائل الصحابة والعلم، باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ، ج ١/ص ١٢/ح ٢١ عن قرظة بن كعب، قال: بعثنا عمر بن الخطاب إلى الكوفة وشيعنا، فمشى معنا إلى موضع يقال له صرار، فقال: " أتدرون لم مشيت معكم؟ " قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ، ولحق الأنصار، قال " لكني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لممشاي معكم، إنكم تقدمون على قوم للقرآن في صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ.

**المشهد الثالث:** عقد المعاهدات مع اليهود في المدينة، ومع القبائل المجاورة، ومع قريش في صلح الحديبية، ولا يمكن أن نتحدث عن معاهدة إلا بوجود كيانين سياسيين يملك كل واحد منهما سيادة تحول له عقد هذه المعاهدة دون ضغط ولا إكراه من الخارج. ويستدعي ذلك استقلالاً تاماً ومطلقاً يخضع فقط لما يسمى بمشروعية التصرفات التي يقوم بها هذا الكيان السياسي المستقل، وسنلاحظ بأن جميع ما كانت تقوم به الدولة الناشئة بقيادة رسول الله ﷺ كله كان محكوماً بعدم مخالفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ<sup>(1)</sup>، وخضوع كل من الحاكم والمحكوم لأحكام الوحي الإلهي باعتباره النص الأعلى. وهكذا فإن دولة الإسلام قد اجتمعت لها من المقومات التي تحافظ على كيانها أكثر من أي كيان سياسي آخر، وهو ما برز واضحاً في سيرة رسول الله ﷺ، وإن فتور رابطة الانتماء للوطن لهي من أشد الأخطار التي تتهدد كيان المجتمعات اليوم، وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية، وذلك بفعل ما يريده مثيرو الفتن داخلياً وخارجياً من دعوات تستهدف عنصر الشباب الذي يعد القلب النابض لأي وطن، بما يطرح مسألة البحث عن الكيفية التي يمكن بها حماية هذه الشريحة الاجتماعية من أي استلاب فكري أو عقدي أو تربوي، يجعلها تنحرف عن مسار الاعتدال والتوازن الفكري والنفسي بما يشكل تهديداً للوطن وباقي المواطنين، ويؤدي بالتالي إلى فتور في المشاعر تجاه هذا الوطن.

ولعل هذه الورقة البحثية جاءت لإبراز تلك العلاجات التي قدمتها السنة النبوية في هذا الباب، وأبرزها عامل الإيمان والاعتقاد بأن الوطن هو جسم يتكون من نسيج اجتماعي، إذا تمزق بعضه تعرض للنزيف وعرض باقي الجسد للتلف والضياع؛ فوجب الحرص على ما يحفظ هذا النسيج من أية جروح داخلية أو خارجية، ونحن على يقين بأن السنة النبوية فيها من الحلول والعلاجات لمشاكلنا المعاصرة ما إن أحسنا استثماره واستغلاله، كان بمثابة الواقعي لسلامة الوطن والضامن لتماسكه ووحدته.

١- وأوضح مثال على ذلك أن النبي غفي صلح الحديبية ورغم المفاوضات العسيرة والبنود الظالمة في ظاهرها التي اشترطتها قريش للصلح، واعتراض بعض الصحابة على تلك البنود، فإن رسول الله ﷺ لم يزد على أن قال: " إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري." صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب. ج. ٣/ص ١٩٣/ح ٢٧٣١

**الخاتمة:** لما كان الوطن هو المجال الذي يمارس فيه المسلم شعائر دينه، والنطاق الذي يعيش فيه أيام حياته، كان لابد من تقوية ارتباطه به، وتعزيز انتمائه إليه ليكون حريصًا على حفظ أمنه واستقراره. ولقد كانت السنة النبوية أتمودجا رائدا في رسم معالم منهج تعزيز انتماء المسلم إلى وطنه، وذلك من خلال ما اشتملت عليه السنة والسيرة النبوية من مواقف وقيم تزيد المسلم اعتزازا وحرصا على خدمة وطنه والتعلق به. ولقد أبانت هذه الورقة البحثية عن جوانب مضيئة من ذلكم الهدي النبوي بالكشف عن الأسس والمقومات التي يتحقق بها تنمية مشاعر المسلم في تعلقه بوطنه وتعزيز انتمائه إليه، وسعيه إلى حماية كيانه.

## النتائج والتوصيات التي أفضت إليها هذه الورقة البحثية:

١. من مقومات حماية الوطن وحفظ أمنه واستقراره، تعزيز الانتماء إليه في نفوس أهله.
٢. تمثل القيم الإسلامية التي جسدها المهدي النبوي دعامة أساسية لتنمية مشاعر انتماء المسلم إلى وطنه، وحمايته من كل ما يهدد أمنه وسلامته واستقراره.
٣. أهمية الشعائر الدينية الجماعية في تعزيز الانتماء للوطن، وذلك من خلال الحرص على وحدة الجماعة وضمان تماسكها.
٤. أهمية توعية المسلم بارتباط أمنه وقيمة وجوده بحمايته لأمن وطنه واستقراره.
٥. وجوب التصدي لكل ما من شأنه أن يكون سببا في فتور مشاعر انتماء المسلم إلى وطنه.

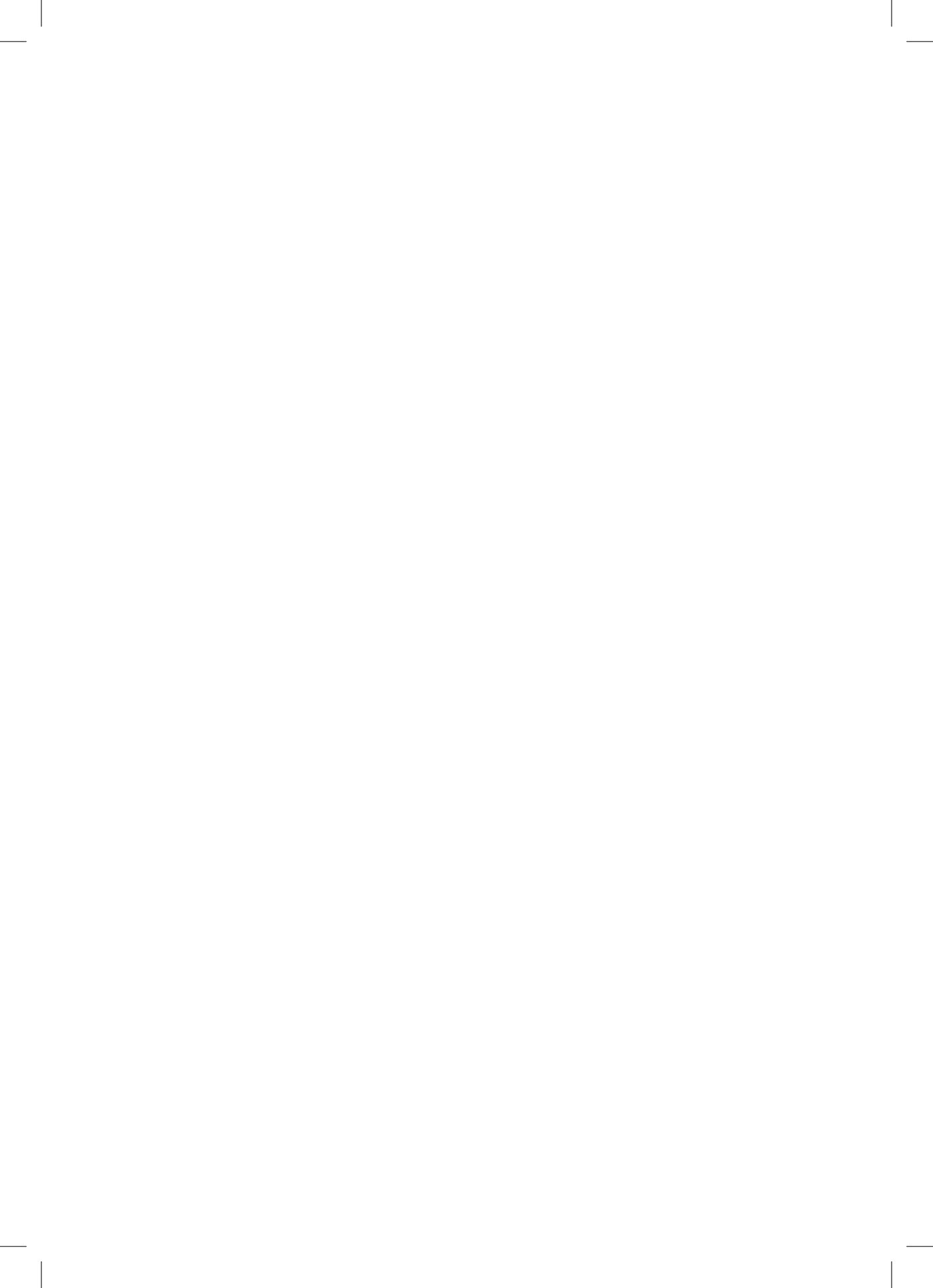
## المصادر والمراجع:

- أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك ابن بطلال (المتوفى: ٤٤٩هـ) شرح صحيح البخاري ابن بطلال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الرياض، مكتبة الرشد - السعودية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، ج ١٠
- أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي/ بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٥
- أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، (المتوفى: ١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هندواوي، لبنان، المكتبة العصرية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج ٢
- أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، منهاج القاصدين ومفيد الصادقين، تحقيق: كامل محمد الخراط، دمشق، دار التوفيق للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج ٣
- أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت ٨٥١هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، ١٣٧٩هـ، دارالمعرفة، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي/ قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج ١٣
- أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، (المتوفى: ٥٤٤هـ) إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: الدكتور يحيى إسماعيل، مص، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج ٨
- أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت، دارصادر، ١٤١٤هـ، ج ١٥
- أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الأجرئي البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، الشريعة، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميحي، الرياض، دار الوطن، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م/ج ٥
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك المعروف ب(تاريخ الطبري)، بيروت، دار التراث، ١٣٨٧هـ، ج ١١
- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد كامل قره بللي الرياض، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، ج ٧

- أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السَّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ج ٤
- أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٢هـ، ج ١٨ (في ٩ مجلدات)
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، مصر، دار ومكتبة الهلال، ج ٨
- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون /إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الرياض، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، ج ٥٢
- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي (المتوفى: ٧٥١هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ج ٤
- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي (المتوفى: ٧٥١هـ) الداء والدواء، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ١٤٢٩هـ.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن برزنية البخاري الجعفي، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، بيروت، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ، ج ٩
- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، غريب الحديث، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، بغداد، مطبعة العاني، ١٣٩٧هـ، ج ٣
- أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠١م، ج ٨.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م، ج ٤.
- فاطمة بنت يحيى عبد الله القحطاني، عقيدة الإخاء وأثرها في حياة الأمة الإسلامية، (رسالة دكتوراه بإشراف أ. د. سالم محمد القرني)، قسم الدراسات الإسلامية بكلية التربية للبنات - جامعة الملك خالد، بالمملكة العربية السعودية. الموسم الجامعي ١٤٣٠هـ-١٤٣١هـ

## تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدي النبوي

- عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ) السيرة النبوية المعروف ب(سيرة ابن هشام)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥ م، ج ٢
- علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: ١٠٤٤هـ) / إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون المعروف ب(السيرة الحلبية)، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٧هـ، ج ٣
- علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، تحقيق: محمد الصباغ، بيروت، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة ج ١
- محمد بن إسحاق بن يسار المطليبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ)، سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دارالفكر، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
- محمد معتصم (أستاذ العلوم السياسية بكلية الحقوق. جامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء) مختصر النظرية العامة للقانون الدستوري والمرسسات السياسية، الدار البيضاء، مؤسسة إيزيس، ١٩٩٢م
- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (السلسلة الصحيحة)، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥، ج ٧، وله: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- مجلة السلم مجلة فصلية محكمة تصدر عن منتدى تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة: العدد الأول: ربيع الأول ١٤٣٨هـ - ٢٠١٦م.



## الفهرس

٩	كلمة السيد جمعة الماجد
١١	قصيدة الشاعر د. عارف الشيخ - رئيس مجلس أمناء المدارس الأهلية
١٥	- "الوطن في عصر العولمة، من جدلية الانتماء إلى مقتضيات الحماية وال عمران، قراءة في ضوء الحديث النبوي". أ.د. إبراهيم أحمد محمد الكاروري (السودان).
٤٩	- "مقتضيات المواطنة في بلاد المهجر؛ نحو مقارنة تأسيسية لمداخل حماية الوطن من خلال السنة النبوية". أ.د. محمد علا (المغرب).
٨٣	- "مضامين المواطنة من المنظور الإسلامي، وأثرها في حماية الوطن: قراءة تحليلية في وثيقة المدينة المنورة". أ.شيخ أحمد جينغ (السنغال).
١٢١	- "الوطن والوطنية في السنة النبوية: حتمية الانتساب ومقصدية الحماية دلالات استقرائية في نصوص السنة وفقهها". د. عبدالله عبد المؤمن (المغرب).
١٦٧	- "أسس حماية الوطن، ومقوماتها في السنة النبوية". د. أيمن جبرين عطا الله جويلس (فلسطين).
٢٠٣	- "حماية الوطن في السنة النبوية ومقوماته السلوكية والاجتماعية والاستراتيجية". د. بيدر محمد محمد حسن (اليمن).
٢٣٣	- "مقومات حماية الوطن ووسائل تفعيلها دراسة في السنة النبوية". د. عطا الله مدب حمادي الزوبعي (العراق).
٢٦٩	- "مقومات حماية الوطن في خطبة حجة الوداع". د. بوعبيد الأزدهار (المغرب).

٣٠٥	- "التعايش الديني وأثره في إرساء قيم المواطنة وترقية حماية الوطن من خلال نصوص السنة النبوية". أ.د. نصر سلمان(الجزائر).
٣٤٧	- "حماية الوطن في السُّنَّة النَّبَوِيَّة - المبادئُ والمِنْطَلَقات". د. كريمة محمد سوداني(الجزائر).
٣٧٩	- "تعزيز الانتماء وأثره في حماية الوطن من خلال الهدى النبوي". د. شفيق عبد القادر لامة(المغرب).